ميكل بورش - جاكوبسون وسونو شمدزاني

في تاريخ نشأة التحليل النفسي

مَلفات فرويد الموثقة



ترجمة عبد القادر قنيني

أفريقيا الشرق

في تاريخ نشأة
التحليل النفسي

تأليف : ميكل بورش- جاكوبسين وسونو شمدزاني
ترجمة : عبد القادر قنيني
عنوان الكتاب : في تاريخ نشأة التحليل النفسي - ملفات فرويد الموثقة
رقم الإيداع القانوني : 2014 MO 3083
ردمك : 3-43-670-9954- 978
أفريقيا الشرق - المغرب
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
• المطبعة : الهاتف : 04 95 25 22 05 / 13 98 25 22 05
الفاكس : 20 25 29 0522
• النشر والتصفيف : 39، زنقة علي بن أبي طالب - الدار البيضاء
الهاتف : 53/54 67 29 22 05
الفاكس : 72 38 48 22 05
البريد الإلكتروني : E. mail : africorient@yahoo. fr
www.afrique-orient.com
facebook / afrique orient

ميكل بورش - جاكوبسون وسونو شمدزاني

في تاريخ نشأة التحليل النفسي

مَلفات فرويد الموثقة

ترجمة عبد القادر قنيني

أفريقيا الشرق

كلمة شكر وتقدير

لقد شرعت في تأليف هذا الكتاب، في سنة 1993 كبحث في روايات حالات فرويد والعمل عليها. وقد كنا شعرنا بالاضطرابات التي كانت أصابت دراسات فرويد منذ سنة 1970، وهي دراسات كانت قد تحولت تماما إلى التساؤل، كيف يمكن للإنسان أن يفهم التحليل النفسي وأصول نشأته ؟ ولما كانت الروايات الحديثة عن الحركة الفرويدية قد أثارت فضولنا، فقد قررنا أن نجمع ونحادث المساهمين، ونقابل اللاعبين الأساسيين حتى ندرج شهاداتهم في مؤلف جامع وقد دوننا هذه المقابلات، ووضعنا لها الهوامش والحواشي (وسنعطي عليها أمثلة في ما بعد)؛ إلا أن المؤلف نفسه ظل غير كامل، لأن بحثنا آنذاك كان قد تغير فاتضح لنا بسرعة أنه لم يكن بالإمكان أن نجعل موقعنا متصفا بالحياد والتجرد الساخر مما كنا قد اخترنا، في بادئ الرأي إذا كانت الرهانات بالغة الصعوبة؛ فما تبقى من البحث والتحري، والتحقيق ظل كثيراً، قبل أن نحاول اجتياز الحكم على الخلافات التي لا تكاد تنتهي حول التحليل النفسي، وبدل أن نصف هذه الخصومات من الخارج، قد اقتصرنا على الأهم منها، ونقدم هنا مساهماتنا الخاصة في تارخ الحركة الفرويدية.

وإذا كان هذا الكتاب نتيجة لهذا الالتزام؛ وأيضا محا ولة من خلال التأمل التاريخي لاستعادة ما أصابنا من تحفظ كان، منذ أول الأمر، باقيا إزاء موضوع دراستنا. ولقد كنا نريد أن ندرس رواية أو قضية تاريخ التحليل النفسي، وأن نفهم جيداً القضايا الأساس في هذا الحقل الذي يبهر ويشتد فيه الصراع - وإنما كان مبهراً لأنه يوجد فيه الخلاف والصراع، وكنا في نهاية الأمر، نريد أن نستخلص

نتائج من النقد التاريخي، حتى نتمكن من فهم هذه الحركة الغريبة. ذلك أن كل اعتبار لوضع السيكولوجيا، وطب الأمراض العقلية، والطب النفساني، في مجتمعاتنا المعاصرة، في أي حالة من حالات تطورها يتطلب أن نتوصل إلى فهم فرويد ومشروعيته.

ونود أن نشكر جميع أولئك المؤرخين الذين وافقوا على إجراء مقابلات معهم، ومعظمهم صاروا أصدقاء لنا (إن لم تكن صداقتهم قد حدثت قبل هذا اللقاء)، ومرشدين في هذه الحقول الملغومة لدراسات فرويد : ونذكر منهم أرنست فالزيدر، وديدي جيل، وهانس اسرائيل، ومارك ميكال، وكرين أويهولزر، وبول روزين، وفرانسوا روتسانغ، وإليزابيت رودينسكو، وريشار سكيوز، وأنتوني ستادلين، وإيزابيل مستنجر، وفرانك سولوي، وبيتر سويلز.

وكثير منهم يستحق عرفاننا لمساعدتهم وكرمهم ونصحهم ودعمهم، وانتقاداتهم لنا، وبالأخص نخص بالذكر : فنسيت باراس، بيل بينوم وهنري توهن وفريدريك كروس، وتود دوفرسن، وجاك جاستر وأنجلا جراف نولد، وهنري جريفوا وكذلك، مالكوم ماك مكميلان، وباتريك ماهوني وجورج ماكري ومايكل نيف وأنريك باردو وأوجين تابلور، ومارفين كرانز، وفيرناندو فيدال وجوليت فيلجوا وتوم فالاس.

كما نشكر العاملين في قسم التوثيق العام منه والخاص، على معاملتهم ومساعدتهم، ونَدين بالجميل لفليب بناري، الناشر والصديق لاهتمامه مباشرة بالمشروع، وتقديمه النصح الثمين طوال المراحل الأخيرة من تأليف هذا الكتاب، ونقدم خالص شكر، في جامعة كومبردج، في شقها الصحافي أندي بيرث لتبنيه هذا المشروع، وكذلك هنري ماركس لجميل صبره على التأجيل المتكرر الذي لا ينتهي، وقد ظهرت الطبعة الفرنسية لهذا العمل في مطابع Seuil منذ سنة 2006، وقد أعيدت هذه الطبعة كتابة ومراجعة، كما نود أن نقدم شكرنا إلى جون بيك، لملاحظاته الخاصة بالطبع، وأيضا كيلي وولش لتزويدنا بالنسخة المترجمة عن الفصل الثالث ومقاطع من الفصلين الثالث والرابع، وقد أصبح عمله على الفصل الثالث ممكناً بفصل فرع جامعة واشنجطون المشكورة شكراً جزيلاً.

والشواهد المأخوذة «عن آن فرويد» قد أعيد إنتاجها بإذن، من ورثة آن فرويد المطبوعة سنة 2000، بالتنسيق مع مارك باترسون وشركائه، وترجمات الشواهد من الفرنسة والألمانية هي من عملنا، وفي بعض المواضع من هذا الكتاب، وقع تعديل لبعض من ترجمات فرويد النموذجية من أعماله الكاملة، وكل الآراء المعبر عنها تقع على عاتقنا ومسؤوليتنا.

مدخل عام

ماضي وهم

لقد قلت في ما مضى «إن تاريخ العالم
كان هو السيرة الذاتية لعظماء الرجال»
يقول كارليل (1959 [1841]) 251.

فيينا سنة 1916، كان فرويد قد قرر أن ينصب نفسه، وذلك أمام حضور جاء ليستمع إلى المحاضرات الثمانية والعشرين؛ التي هي بمثابة مدخل تمهيدي إلى التحليل النفسي، أعطيت في جامعة فيينا، وقد شرع مؤسس التحليل النفسي يدل على مكانته من تاريخ الإنسانية وأهليته لهذا التنصيب.

سيجموند فرويد : إن تأكيد أهمية اللاشعور في الحياة النفسية على هذا النحو، قد جر على التحليل النفسي، كل ما تنطوي عليه نفوس البشر من نقد مغرض وشرير، ولكن ينبغي ألا تعجبوا لهذا؛ ولا تحسبوا أن هذه المعارضة ترجع فقط إلى الصعوبة الظاهرة في تصور اللاشعور أو عدم إمكان النفاذ إلى التجارب التي تقدمها البيئة عنه، وأعتقد أن أصله ضارب بجذوره في الأعماق وأثناء القرون المتطاولة قد تلقت الإنسانية على يد العلم، في ما سلف ثلاث طعنات خطيرة أصابتها في الصميم من أنانيتها الساذجة ؛ كانت الأولى عندما تبين للناس أن الأرض، هيهات أن تكون مركز الكون، فليست هي إلا جزءاً صغيراً في منظومة كونية، لا نستطيع أن نتصور ما هي عليه من ضخامة، وتقترن هذه الطعنة في أذهاننا باسم كوبر نكس؛ إذ كان في تعاليم مدرسة الإسكندرية شبيه بهذا كل الشبه، أما الطعنة الثانية فجاءت على يد عالم الأحياء أو البيولوجيا، يوم انتزع من الإنسان ما يدعيه من مكانة ممتازة في نظام الخلق، وقد وقعت البرهنة على أنه

ينحدر من سلالة حيوانية، وبين له ما تنطوي عليه نفسه من طبيعة بهيمية لا يمكن أن تستأصل، وقد قام بهذا الانقلاب وإعادة التقييم في عصرنا هذا تشالز داروين وولاس ومن سبقهما فاستهدفوا لا عنف ضروب المقاومة ممن كانوا يعاصرونهم من الناس، وثمت طعنة أخيرة يكابدها غرور الناس، وبوجه عام عموم الإنسانية في يومنا هذا؛ وهي أنكى وأمر من سابقتيها، فالبحوث السيكولوجية الحاضرة تجهد في أن تبرهن «لأنا» كل واحد منا أنه ليس رب البيت (الجسد) الذي يسكن فيه، ليس هذا فحسب بل عليه أن يقنع فوق ذلك بمعلومات طفيفة مزجاة أو تساق إليه عما يدور في النفس التي تحتويه من وراء الشعور، ولم يكن أصحاب التحليل النفسي أول من أهاب بالإنسان لينظر في نفسه، وأن يقوم بالاستبطان، كذلك لم يكونوا نسيجا وحدهم في هذا النداء، لكن يبدو أن كان من حظهم القيام بهذه الرسالة في دأب وإصرار، وأن يعززوها ببيانات مستمدة من التجارب الجارية، التي تتصل بحياة كل فرد اتصالا وثيقا، ومن ثم، قامت تلك الثورة العامة على عملنا الجديد؛ وهذا الإطراح التام لقواعد الأدب الأكاديمي في المساجلة، وتحرر المعارضة من كل قيد، لا يفرضه المنطق الذي لا ينحاز ولا يتسع لهذا التسيب.[1]

وإذاً، فإن هذه السلالة : كوبرنك وداروين وفرويد، تنتمي لإنسان غير متمركز في العصر الحاضر، ومن ثم فهي مألوفة لدينا، حتى أننا لم نعد نلاحظ عمق خاصيتها بكيفية اعتباطية، وليس هذا لأن البعض قد يشعر ضرورة بما تعرض له من أذى ومهانة، من جراء البذاءة الواضحة ؛ الموجودة في الصورة التاريخية التي قدمها لنا فرويد، وبالرغم من ذلك، لم يكن كانط متواضعا حينما تحدث عن أثر الثورة «الكوبرنيكية» في الفلسفة[2]، ولم يتردد داروين أن يتنبأ بأن نظريته سوف تحدث ثورة خطيرة[3] في التاريخ الطبعي، وكما بين كل من برنارد، وكذلك روي بورتر[4] فإن الحافز الرئيس للثورات كما أنجزها كوبرنيك وجاليلي ونيوتن هو موضوع مشترك في تاريخ العلم منذ فوتنيل، وأصحاب الموسوعة، وإذاً، لم يكن فرويد وحده الأول، ولن يكون الأخير، حتى يستطيع أن يوجهها لفائدته، ومن جهة أخرى، لقد كان الشخصية الوحيدة في علم النفس، أمكنها أن تقوم بهذا العمل الذي يجعل من روايته نوعا من النسبية لتطور العلوم، وفي نهاية القرن التاسع عشر، كانت هناك كثرة كبيرة من المترشحين يتنافسون على حيازه

لقب داروين أو جاليلي أو نيوتن في علم النفس. ولكن، كيف حصل أن اعتقد جمهور فرويد وغيرهم في استحقاقه لهذا اللقب أكثر من سائر خصومه؟

انتظار داروين : تقوم أصالة التحليل النفسي، تبعا لفرويد، في كونه حقق في علم النفس ثورة من نمط الثورات العلمية الأخرى، على غرار ما أنجزه كوبرنيك وداروين في الكون والبيولوجيا، غير أن هذا الطموح كان مشتركاً لعديد من علماء النفس في نهاية القرن التاسع عشر، انطلاقا من فونت إلى برينطانو، ومن ابنهاوس إلى وليام جيمس.

فرانز برينطانو : ينبغي أن نكافح حتى نحقق في هذا الموضوع مثل ما تحقق في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفسيولوجيا... وهذه نواة الحقيقة اعترف بها بوجه عام، من خلال انضمام مجهودات كثيرة لقوى متعددة؛ فالبلورات الجديدة تلتصق على سائر الجهات : لكن عوض وجود أصناف كثيرة من السيكولوجيا، يجب أن نخلق علمَ نفس واحدا.[5]

وأيا كان الأمر، فلقد تأكد بأن السيكولوجيا عليها أن تفصل نفسها عن اللاهوت والفلسفة والآداب، وسائر فروع المعرفة الأخرى ؛ حتى تحتل مكانها الحق في جوقة العلوم، وينبغي أن يترك التأمل النظري مكانه لقوة المختبر التجريبي. وحينما حصل ثيودور فلورني من سويسرا على كرسيه في علم النفس كان قد ألح بأن يكون مكانه في كلية العلوم.

ثيودور فلورني : وأن يوضع هذا الكرسي في كلية العلوم خير من أن يكون في كلية الآداب ؛ حيث إن سائر محاضرات الفلسفة أسست هنا، وبذلك تكون حكومة جينفا قد اعترفت ضمنيا (ولربما بدون أن تفطن إلى ذلك) بوجود علم السيكولوجيا كعلم خاص، مستقل عن سائر الأنظمة الفلسفية وله ادعاء الفيزياء، والنبات والفلك نفسه... أما أن نعرف إلى أي مدى أنصف علم النفس المعاصر هذا التصريح للأغلبية، ونجح على الحقيقة بأن شعر بنفسه منفصلاً عن الوصاية الميتافيزيقية من أي لون كانت، فهذه مسألة أخرى ؛ لأن الأمر هنا أكثر منه في أي مكان آخر ينبغي ألا تختلط الفكرة بالواقع.[6]

وإذا نظرنا إلى وجوب ما قال به برينطانو، وتحفظات فلورني، وجدناهما يصفان «إدارة العلم» كما قالت «إيزابيل سنجر»[7] التي ترأست فترة تاريخية من

قيام العلم الجديد ولم تظهر «علمية» السيكولوجيا كثمرة حظ الاكتشاف أو كصفة الابتكار أو علمية غير محددة بدقة للنمو الطبعي، بل كانت رغبة مختلف الممارسين والمتعهدين له، وقد وقع تصوره على مثال العلوم الطبعية، وقد كان هذا التصور قائما على أن السيكولوجيا ينبغي أن تكمل الثورة العلمية، من خلال تطبيق المنهاج العلمي على سائر وجوه الحياة الإنسانية، وإذاً، حتى كانت المعرفة بالإنسان مبعثرة بين حكايات أسطورية ودينية، وتأملات فلسفية وحكم أخلاقية وحدوس أهل الفنون والآداب، وعلى هذا، يجب أن تحل السيكولوجيا محل هذه المعارف الناقصة والمتحيزة الذاتية، ومن ثم، تكون علما حقا وصحيحا بالنسبة إلى الإنسان، بسبب قوانينها الكلية مثل الفيزياء، ومناهجها كمنهاج الكيمياء.

فرويد : إن الذكاء والذهن هما موضوعان للبحث العلمي تماما، على نحو ما هي عليه سائر الأمور غير الإنسانية، والتحليل النفسي يوجد له حق خاص في أن يتحدث عن تصور علمي كلي weltanschauung بصدد هذه النقطة... ويقوم إسهامه الخاص في العلم بالضبط، في كونه وسع البحث حتى شمل مجال الذهن ومن أجل ذلك، يبقى العلم، من دون السيكولوجيا ناقصا[8]

ومنذ البداية، قدمت السيكووجيا الجديدة نفسها كمحاكاة للعلوم الطبعية (وهي نوع من ترجمة عملية لمحاكاة القدماء)، وقد لاحظ الفيلسوف «السدير ميكينز» بأن «العلماء الفيزيائين السابقين على نيوتن له، كان لهم امتياز على علماء النفس التجريبيين المعاصرين؛ بأنهم لم يكونوا يعرفون بأنهم يتوقعون أن تظهر شخصية مثل نيوتن»، وخلافا لذلك، فإن الأساليب[9] الجديدة لعلماء النفس كانت لا محالة «تحاكي» العلم الذي سينشأ، وكان الأكثر ذكاء منهم يتساءل ما إذا كانت السيكولوجيا ينبغي لها أن تتخذ أعلى أشكال الأنموذجات العلم.

رسالة ويليام جيمس إلى جيمس سولي 8 يونيه 1890

يبدو لي أن السيكولوجيا هي أشبه ما تكون بالفيزياء قبل زمان ظهور جاليلي؛ إذ لم يدرك أي قانون أولى بنظرة خاطفة، ويكون الحظ الأعظم لأي عالم نفس في المستقبل حتى يرفع اسمه عاليا مثل ما رفعه نيوتن، ولكن، من ياترى يستطيع إذاً، أن يقرأ كتب هذا الجيل؟ إني لا أعتقد أن يكون عددهم كثيراً[10]

جيمس 1890 : وإذاً، فنحن حينما نتكلم عن «السيكولوجيا كعلم طبعي» يجب ألا نفترض الأدوات والوسائل كنوع السيكولوجيا التي قامت أخيراً على أساس متين... ومن الغريب أن نسمع الناس يتحدثون اليوم بانتصار عن السيكولوجيا الجديدة، ويكتبون ضروبا من التاريخ عن هذه السيكولوجيا في حين أنه توجد في العناصر الحقيقية والقوى التي لا يشملها اللفظ ما يشبه الاستبصار الواضح... ولا يصح أن نسمي هذا علما، إنما هو أمل في وجود العلم...ولكن في الوقت الحاضر، فإن السيكولوجيا توجد في نفسها الشروط التي كانت توجد فيها الفيزياء قبل جاليلي وقوانين الحركة، وفي الشروط التي كانت توجد فيها الكيمياء قبل لافوازيي، والمفهوم الذي يقول بأن الكتلة يحتفظ بها في سائر ردود الأفعال، وقد يوجد كذلك رجال مثل جاليلي ولافوازيي في ميدان السيكولوجيا، وسيكونون رجالا مشهورين، عندما يظهرون على الحقيقة وسيجيئون في يومهم على وجه مؤكد.[11]

وعلى هذا، يرى جيمس أن السيكولوجيا ليس «أملا» في العلم وعملا تمهيديا لمجيء جاليلي هذا ونيوتن اللذين يتعين ظهورهما في هذا الحقل، حقل علم السيكولوجيا، ومن برلين كان عالم النفس ويليام شترن يعتقد بهذه الوجهة من النظر، وفي سنة 1900 كتب مقالا يرحب فيه بالقرن الجديد، ورسم صفحة سلبية عن العلم الجديد، وكان بعيداً عن الوحدة التي كان يبحث عنها رجل مثل برنطانو أعني وحدة ممثلة في أشخاص، بل وكان بعيداً عن النزعة التجريبية واستعمال الطرائق التجريبية؛ إذ لم يكن يرى إلا قليلا من النور في الخواص المشتركة، مع أنه كانت هناك مختبرات كثيرة، وباحثون يشتغلون على مسائل خاصة، مع وجود كتب كثيرة مقررة، إلا أنها توصف كلها بنزعة خصوصية مؤثرة، وقد كتب شترن بأن الخارطة السيكولوجية في هذا اليوم كانت أصباغها المتنوعة أشبه شيء بمربعات تشبه كثيراً ما كانت عليه ألمانيا في عصر الولايات الصغيرة.

ويليام شترن : غالبا ما يتكلم السيكولوجيون لغات مختلفة، واللوحة التي رسموها للنفس ملونة بكثير من الأصباغ المختلفة، ومع لطخات كثيرة بارزة في بعض الجهات، حتى أصبح من الصعب أن نتعرف هويةَ الموضوع المطروح...

وباختصار، إنه توجد عدة سيكولوجيات جديدة، إلا أنه لا توجد سيكولوجيا واحدة جديدة.[12]

وفي نهاية القرن، لم يكن هناك إلا إجماع بسيط حول السيكولوجيا ؛ وذلك بالنسبة إلى علماء النفس، ولم تعد المهمة أن نميز فقط السيكولوجيا الجديدة كما كانت عليه من قبل، بل أن تعزز إدعاءاتنا الخاصة حتى نرسم ونصوغ سيكولوجيا جديدة مجاوزة لزملائنا في العمل، وقد أضفت المشابهات الخطابية وبسرعة، على هذا الوضع صفة، هي صفات الأبطال العلمية، وقد عرض كثير من الشخصيات ترشيحهم للقيام بدور جاليلي الجديد ونيوتن، إزاء السيكولوجيا، وقد كلل ثيودور فلورني تاج النصر فريدريك مايرز، وهو أحد المؤسسين للبحث النفسي.

فلورني : إنه لا شيء يسمح لإنسان بأن يتنبأ بنهاية ما يخبئه المستقبل للمذهب الروحي عند مايير، فإذا جاءت اكتشافات المستقبل لتثبت أطروحته عن التدخل تدخلا تجريبيا؛ في كل ما ليس بذي جسم مادي، في الإطار الجسمي والسيكولوجي لعالم الظواهر، إذاً، فإن اسمه سيكتب في الكتاب الذهبي لكبار الرواد، ويلتحق بأولئك الفاتحين الأوائل، مثل كوبرنيك وداروين، وسيكمل ثلاثي العباقرة الذين أحدثوا ثورات علمية عميقة في التفكير على مستوى النظام الكوني والبيولوجي والسيكولوجي.[13]

فبالنسبة إلى فلورني الذي أعاد قراءة ومراجعته كتاب فرويد عن تفسير الأحلام، فإن العبقرية المؤسسة للسيكولوجيا ليست هي فرويد، وإنما هو مايرز، وعلى المنوال نفسه، أثبت ستانلي هول سنة 1909، بأن الموقف الحاضر للسيكولوجيا يستدعي عقلية داروينية جديدة[14]، وقد صرح أرنولد جيزيل سنة 1912 بأن هول نفسه، كان مثل داروين بالنسبة إلى السيكولوجيا[15]، وقد ذكر هول في ما بعد بأن هذا التصريح : «قد أعطاه رضا داخليا، أكثر من أي إطراء آخر وفاه حقه من صديق شديد الحماس»[16] وقد رشح آخرون فرويد، فهذا يونغ يقول :

يونج : لا يرفض فرويد كشخص كرر استعمال طريقة التحليل النفسي، وبحث واقعيا كما يفعل فرويد. والذي لا يستطيع أن يقوم بمثل هذا الفعل لا ينبغي له أن ينطق بحكم على فرويد، وإلا كان يتصرف مثل أولئك الرجال

المشهورين بالعلم، وهم يحتقرون أن ينظروا من خلال المجهر المكبر لجاليلي.[17]

رسالة أوجس بلولر إلى فرويد 19 أكتوبر من سنة 1990 :

يمكن للإنسان أن يقارن عملك بعمل داروين وكوبرنيك وسيملويس، وأيضا فإني أعتقد أن اكتشافاتك في السيكولوجيا تعادل من جهة الأساس نظريات أولئك الذين ابتكروا في فروع أخرى من المعرفة والعلم، وسواء أقدر الإنسان التقدم الحاصل في السيكولوجيا أم لم يقدره، فقد يكون لهذا التقدم أعلى الأثر مثل سائر العلوم الأخرى.[18]

دافيد إيدر : يمكن أن يقارن الإنسان عمل فرويد في السيكولوجيا بما قدمه أحد تلامذته، بكونه شبيها بداروين في السيكولوجيا.[19]

وهذا التلميذ المذكور ليس إلا إرنست جونز، الذي كان يفتخر بكونه أول من أطلق لقب داروين على فرويد [يعني هذا فكر داروين] في مقالاته عن التحليل النفسي من سنة 1913 [20]، وفي سنة 1918 أثناء نقاش جرى مع علماء نفس مثل ويليام ويفرز وموريس نيكول، وكان هذا الأخير يمثل تيار يونغ، توسع جونز في هذه المماثلة.

إرنست جونز : إن التعارض بين رأي يونغ وفرويد هو بالضبط التعارض نفسه الحاصل بين المواقع التي تبناها كل من دروموند، وكذلك ولاس من ناحية، وداروين وهو كسلي من ناحية أخرى بالنظر إلى أصل الذهن والنفس وهذا موضوع كان قد تقرر في ميدان العلم منذ نصف قرن تقريبا.[21]

فرانك سولوي : كان جونز يرى نفسه في علاقة مع فرويد كعلاقة هوكسلي- المرافق لداروين- الذي ظل يقاوم نصف قرن، في ما سبق.[22]

وهكذا، فقد يرى معظم الناس أن مسألة كيف ينبغي أن تنظر الأجيال القادمة إلى وجود عبقري مؤسس للسيكولوجيا، كانت مسألة تنافس قائمة بحدة وفي الوقت عينه رشح فرويد نفسه لها، وهذا التنصيب الذاتي أخذ على أنه أمر واضح، مالبث أن فقد سلطته مباشرة، وظهر كما هو عليه : وهي المحاولة الحاسمة والمتعجرفة من جانب فرويد وأتباعه في كونهم تصرفوا، وكأن الأجيال اللاحقة قضت من جهة واحدة، وخلصت من النقاشات بين التحليل النفسي وسائر السيكولوجيات

الأخرى لصالح فرويد وأتباعه، بأن شجبت هذا المنصب عن المطالبين المدعين ولكن بعض الشخصيات كانت قد احتجت احتجاجا قويا ؛ فهذا :

ويليام ماكدونال : يرى بأن السلطة الوحيدة التي يمكن أن تقبل هذه (نظرية الرابطة الاجتماعية التي قدمها فرويد في جمعيته السيكولوجية) كضرورة وكخط فريد ووحيد، مسموح به في التأمل؛ باعتبار تفسيرنا للظواهر المجتمعية كونها محصورة ضمن حدود الطاقة الجنسية الليبيدية- أقول إن هذه السلطة هي سلطة الأستاذ فرويد وأتباعه المخلصين، أما أنا فسأستمر محاولا أن أتجنب نفوذ السلطة الأبوية للقطيع البدائي، وأستعمل ما يحصله ذكائي مما لا يقع في مكايد أو حبائل الحدود التعسفية الاعتباطية[23].

الفريد هوش : وحتى أختم كلامي فإن العجرفة الدوغماطيقية الفرويدية تقود هؤلاء الناس إلى أن يقارنوا دورفرويد بالمنزلة التاريخية، التي حازها كل من كيبلر وكوبرنك وسيدلويس، ومن ثم اضطروا حسب استدلال باعث على السخرية-أن يحدوا برهانا يدفعون به عناد معاصريهم.[24]

ويليام ويكانت : لقد شبه تعليم فرويد بنظرية حمى النفاس منذ عهد سيميلويس، وهي نظرية ابتذلت في أول أمرها، ثم اعترف بها اعترافا منقطع النظير، ولو ثار أحدنا على هذا التشبيه، لكان من القسوة والخشونة أن نقارن فرويد بالسيد هانيجان، مؤسس العلاج أو المعالجة المثلية، ولربما نقرب من الصواب لو فكرنا في فرانز جوزيف جال الذي سقطت نظرياته، بالرغم مما كان فيها من نقاط مثيرة ومن آراء واكتشافات، سقوطا مباشراً ناتجا عن مبالغتها غير الدقيقة، واستعمالها لعناصر جيدة ورديئة.[25]

فرويد : وقد قارنني الناس إما بكولمبوس وداروين وكيبلر، وإمارموني بالشلل العام.[26]

أدولف وهلجموث : يالها من مقارنة بين فرويد وداروين ! وأنت يمكنك أن تجمع وتقرن زوج اسم السيد بوت، صاحب جريدة ايتونويل باسم شكسبير أوجوت، وقد تلقى كوبرنيك وداروين هجوما عنيفا، ومن هنا، يمكن أن يوجد بعض التشابه مع فرويد؛ إلا أنه تشابه بعيد، بعد السماء عن الأرض، إذ من هم الذين هاجموا كوبرنيك وداروين؟ إنها الكنيسة التي تضررت مصالحها

المكتسبة، لكن علماء الفلك، بما يملكون من جرأة وتحد في تلك الأيام المظلمة، ولم يكن لهم أولياء في الكنيسة، أو أساتذة في الجامعات اللاهوتية، هم الذين استقبلوا عمل كوبرنيك وأتباعه بإعجاب وتقدير، وكذلك فعل علماء البيولوجيا والجيولوجيا بعمل داروين ؛ إذ تلقوه بحماس، لكن المعارضين الرئيسيين لفرويد ونظرياته، هم علماء سيكولوجيون من أصحاب المهنة، وهذا بالضبط ما حدث لكل من ساند فرويد في عمله بالمعاملة نفسها التي كان يعامل بها علماء الفلك كوبرنيك والبيولوجيون الجيولوجيون مع داروين، وكل هؤلاء حيوا عمله بفرح وإعجاب وتقدير.[27]

وإذاً، لماذا نضع ثقتنا في فرويد ولا نضعها في خصومه؟ فهل لأن فرويد «انتصر»، إلى درجة أصبحنا معها لا نكاد نتذكر أسماء مثل شترن وفلورنوى وهال وماير وماكدونال؟ أم لأن الثورة العلمية التي أنجزها الكوبرنيكي الجديد ألفت منافسيه، ورمت بهم في ميدان العلم المشبوه؟ إنه لربما كان هذا يستدعي بالضبط ماذا نحاول أن نفسره؟ وقد يؤدي بنا إلى أن نفترض جدلا مسألة التسليم «بالنصر»، في حين، أننا نود أن نعرف بالضبط كيف نجح؟ ولماذا نجح؟ وهل كان هذا لأن منافسي فرويد اضطروا في النهاية لأن يستسلموا ويقبلوا الهزيمة؟ أم هل ظهر إجماع حول نظرياته، بالرغم من الاعتراضات العنيفة، ومقاومة التحليل النفسي الذي يدعيه؟ أم أنه بكل بساطة دبر أمره ،حتى جعل كل شخص ينسى الخلاف نفسه، بالرغم من وجود كثير من خصومه المعارضين؟

فرويد : إنه لا الفلسفة التأملية ولا السيكولوجية الوصفية، ولا ما يسمى علمَ النفس التجريبي، كما تدرس هذه جميعا في كلياتنا، بقادرة أن تقول لكم شيئا ينفعكم، في إدراك العلاقة بين الجسم والنفس والخبرة الشعورية، ولا أن تمدكم بمفتاح لكي تفهموا اضطرابات الوظائف العقلية.[28]

فرويد : إن نظرية الحياة النفسية لا تستطيع أن تتصور إذا أوقفها سوء الفهم الأساس؛ إذ ما الذي يدرس في معاهدنا ويفهم؟ فباستثناء تلك الاكتشافات الثمينة في فسيولوجيا الإحساسات، قد أصبح عدد كبير من التصنيفات والتعريفات لعملياتنا الذهنية، بفضل اللغة المستعملة، خاصية مشتركة لكل شخص متعلم ومثقف، وهذا لا يكفي لإعطاء فكرة عن الحياة النفسية[29].

لقد كان الثوار الفرنسيون ينشدون : «لنجعل الماضي صفحة بيضاء» وإنه لمن طبيعة الثورات أن تقصي المعارضين، إما بضربة من المقصلة، وإما بإحداث تغيير إبيستمي معرفي؛ وكتابة التاريخ ابتداء من لحظة : (السنة 1) لعلم جديد أو نظام سياسي جديد، والتشبيه الذي يستعمله فرويد في «الطعنات الثلاثة» يمدنا بتوضيح بديع لهذا التطهير للتاريخ في أصل تدوينه على معناه الحقيقي، وفي الواقع ، فإن هذه الحكاية المثقفة والمشذبة لها سلسلة نسبها المهمة؛ وهي ما أغضى الطرف عنه فرويد بعدم ذكرها، وكما أشاربول- لورانا أسون في كتابه: «المدخل إلى إبستيمولوجيا فرويد»[30]. فإن المقارنة المذلة الناتجة عن ثورات كل من كوبرنيك وداروين، إنما صدرت عن مروج الإشاعة الداروينية، وهو السيد أرنست مايكل، قبل أن يتلقفها علماء النفس، فهذا الرجل هو الذي أشاع هذه المقارنة في الجمهور في معظم أعماله، يقول :

إرنست هايكل : لقد كان الخطآن الرئيسان قد تقررا في : «الافتراض المركب من خليط من العناصر وهو افتراض الخلق» أعني أولا الخطأ القائل بمركزية الأرض، وأنها ثابتة في نقطة مركزية من الكون بأكمله، ومن حولها تدور الشمس والقمر وتتحرك سائر النجوم، والخطأ الأخير، القائل إنَّ الإنسان مركز العالم، على معنى أن الإنسان هو الغرض المقصود بخلق الأرض، ولأن الأرض قد خلقت من أجل الإنسان، وأن سائر الطبيعة أو الكون كله خلق لخدمته، والخطأ الأول من هذين الخطأين هدمه النظام الكوبرنيكي، في بداية القرن السادس عشر، والخطأ الأخير، أسقطه مذهب لامارك؛ من أصل سلالة الإنسان ونشأته في بداية القرن التاسع عشر[31].

هايكل : وكما أن تصور مركزية الأرض في الكون- أعني الرأي الفاسد الذي يقول إن الأرض هي مركز الكون، وأن النظام الذي أثبته كوبرنيك وأتباعه وكذلك فإن تصور مركزية الإنسان في الكون- وهو الوهم التافه بأن الإنسان هو مركز الطبيعة الأرضية، وأن غايتها الكلية موجودة من أجل خدمته- كان أطاح به تطبيق نظرية أصل الإنسان ونشأته (مما كان لامارك قد حاول إثباته).[32]

هايكل : وعلى نحو ما قام به كوبرنيك سنة 1543، وهو أنه أعطى الضربة القاضية للاعتقاد في مركزية الأرض، التي يقول بها الكتاب المقدس، فلذلك

فعل داروين بالنسبة إلى الاعتقاد في مركزية الإنسان في الوجود، مما هو مرتبط ارتباطا وثيقا بالضربة الأولى.[33]

ويبدو أن ظهور هذه الخطاطة، الموصوفة بالسلالة، كانت تدور بحرية في الدوائر العلمية إلى أن أصبحت عادة، على أن لا تنسب إلى توماس هوكسلي وإلى العالم الفسيولوجي، إميل دي بوا- ريموند، في حديثه الذي أعطاه سنة 1883 تحت عنوان: «داروين وكوبرنيك»، وكان هذا الحديث[34] قد تسبب في إثارة نوع من الحساسية؛ إذ ما لبث أن جعل من دي بوا- ريموند أحد الأهداف المفضلة لمعترضي الداروينية.

إميل دي بوا- ريموند : إنه ما إن قد منى هاكيل على أنى خصم داروين حتى أصبحت في أعين الأعضاء الرجعيين والمتدينين، أكبر المدافعين البارزين في ألمانيا عن المذهب الدارويني، وكونوا حولي دائرة حتى يرموني بالأحاديث الصاخبة الجوفاء المليئة بالبغض[35]. ولم يقدر هاكيل هذا الوضع لأنه اغتصب منه على نحو ما.

هاكيل : إنه منذ ما يقرب من خمسَ عشْرة سنة، كنت قد قمت بمقارنة داروين وكوبرنيك، وبينت استحقاق كل واحد من البطلين اللذين هدما الاعتقاد في مركزية الأرض ومركزية الإنسان في العالم في محاضرتي : «في تطور شجرة أصل الإنسان وأسرته»[36].

هاكيل : لقد أصبح داروين بمثابة كوبرنيك للعالم العضوي، كما كنت قد عبرت عن هذا في سنة 1886، وكما فعل السيد دي بوا ريموند بعدي بخمسَ عشْرة سنة مكرراً عبارتي بنصها[37].

وحينما ننظر إلى قوة إدراك هاكيل، وحساسيته بمسألة الأسبقية الفكرية، فقد لا يصعب علينا أن نتخيل ماذا يمكن أن يكون رده على محاضرته عن فرويد، إذ لم تكن تقنعه هو نفسه كالحال مع هاكيل، وهو كسلي أودي بوا-ريموند، عند مقارنة داروين بكوبرنيك، فهو كان قد اقتبس الاستدلال هاكيل أن السيد فرويد نفسه قد انتزع هذا الاستدلال بألفاظه، وأضاف إليه شيئاً من عنده في مرحلة ثالثة مما كان فلورونوي قد سبقه إليه، وبعد نقد مركزية الأرض ومركزية الإنسان في العالم، جاء نقد مركزية «الأنا»- بدون الإشارة إلى هاكيل أو فلورونوي وكان

فرويد قد قرأهما معاً، وحتى ضمن التحليل النفسي، فقد استغرب البعض جرأة إدعاءات فرويد.

من كارل أبراهام إلى فرويد 18 مارس 1917 : والمقال الآخر الذي كنت قد أرسلته إلي كبرهان على ذلك : [«صعوبة الطريق في التحليل النفسي» الذي اختاره فرويد موضوعا للطعنات الثلاث]، أدخل علي سروراً كثيراً لا بسبب تسلسل أفكاره، بل بخصوصيته كوثيقة شخصية، ولو حكمنا من مقال حديث، لكان يمكنك أن تصل إلى أبعد ركن في الشمال الشرقي من ألمانيا، إذا قلت لك بأن زميلك كوبرنيك كان يسكن في ألنشتاين لعدة سنوات[38].

من فرويد إلى كارل أبراهام 25 مارس 1917 : إنك مصيب في إشارتك إلى أن الإحصاء الوارد في رسالتي الأخيرة، هو مرتبط بإحداث انطباع أدعي به مرتبة إلى جانب كوبرنيك وداروين، غير أني لا أريد أن أتخلى عن فكرة مهمة كمجرد أن التشابه قد وضع شوبنهارو في المقدمة على أي حال كان الأمر[39].

وهنا نرى موضعا مشتركا قدم «كفكرة مهمة» حصلت فقط لفرويد الذي كان قد طوى ذكر تاريخ هذه المقارنة : والطريقة التي تنوسيت بها هذه النقاشات تاركة فرويد كالمدعي والمرشح الوحيد لهذه الجائزة تمثل برمز آثار أسطورة فرويد.

لانسيت 11 يونيه 1938 : لقد أثار فرويد في وقته نزاعا شديد وتطاحنا مريراً، لم يسبق له نظير منذ أيام داروين، والآن في شيخوخته، توجد قلة من علماء النفس، في أي مدرسة من مدارسه، لا تقبل فضله ودينه عليها، وبعض التصورات التي صاغها بوضوح في الفترة الأولى من حياته كانت قد تسللت إلى الفلسفة المتداولة ضد التيار المتصلب الاعتقاد الذي كان هو نفسه قد اعترف به كردود أفعال الإنسان الطبيعية على حقيقة لا يمكن تحملها.[40]

ستفن جي جولد : وكما لاحظ فرويد، فإن علاقتنا بالعلم ينبغي أن تكون علاقة غريبة قريبة من المفارقة، لأننا مضطرون لأن ندفع ثمنا باهظا لا يطاق لكل ربح كبير في المعرفة والسلطة- والكلفة السيكولوجية عن خلعنا المتدرج عن عرشنا من مركز الأشياء، وازدياد تهميشنا في كون لا يبالي بنا، وهكذا طوحت الفيزياء وعلم الفلك بعالمنا إلى ركن من الكون، وحولت البيولوجيا وضعنا من كائن شبيه في صورته بالدلالة إلى قرد منتصب عار.[41]

سلطة فرويد الأسطورية التي لا يمكن استئصالها[42]

وتقدم لنا حكاية الطعنات الثلاث مثالا جيداً، عما أطلق عليه المؤرخان هنري ألنبرغر وفرانك سولي، «الأسطورة الفرويدية»، وقد يرى الإنسان هنا سائر العناصر الأساس للحكاية المطرزة التي نسجها فرويد وأتباعه : من تصريح حاسم بالثورية والطابع الزمني لحدث التحليل النفسي، ووصف وحشية الكراهية والمقاومة غير العقلية التي أثارها البعض والإلحاح «على الشجاعة الأخلاقية»[43] التي كانت مطلوبة في التفوق والتغلب على الخصوم، وطمس النظريات المناوئة. فكل هذه الأمور دفعت إلى ما قبل تاريخ علم السيكولوجيا، والافتقار إلى معرفة ما عليه من ديون، وما أخذه إعارة من غيره.

واللفظ اللاتيني legenda يقصد به قصة تكرر على نحو آلي، اجتراري بدون فهم ولا معرفة كالحال مع حياة القديسين الذين كان ذكرهم يلاك يوميا كل صباح، ويستظهرون في الأديرة في القرون الوسطى، وكما أن انتقال هذه القصص عبر التاريخ كان قد سهل انتشار التثقيف بها على نطاق واسع، فكذلك فإن نزع الجانب التاريخي، والروائي من قصة التحليل النفسي أتاح له أن يتكيف مع سائر أصناف السياقات؛ التي يلزم فيها أن يبدي على وجهه مسحة القسوة والجفاء، وإعادة مستمرة لابتكار ذاته في صورة زي جديد.

ذلك أن لكل واحد روايته وتأويله للأسطورة، فهنالك الوضعي والوجودي، وصاحب التأويل- والفرويدي- الماركسي، وصاحب السرد القصصي، والمهتم بالإبيستمولوجيا، والبنيوي، والتفكيكي، والآن دخل مع هؤلاء صاحب العصب العلمي- وأيا كانت هذه الروايات والتأويلات، فهي تشترك في أنها تقول بالخصوصية الاستثنائية للتحليل النفسي، منتزعة من السياق والتاريخ والتحقيق.

ولم يكن طول عمر التحليل النفسي متعلقا بالكيفية التي استمرت عليه أسطورة فرويد في الانتشار والاتساع، وتكييف نفسها مع تغيير الوسط الثقافي والفكري، وبهذا المعنى، لا يطرح السؤال عن رد أسطورة فرويد إلى حكاية ثابتة مما يجعلها تقتضي دحض بعض جزئياتها نقطة فنقطة كما حاول سولوي[44] أن يفعل إذ الأسطورة بنية مفتوحة مستعدة لأن تدمج عناصر جديدة وأن تطرح أخرى في

حين، تبقى صورتها متضمنة وقابلة لأن تعرف. وقد تتغير العناصر، كما يمكن أن تهجر النظريات الخاصة تصورات فرويد، أو تعاد صياغتها، إلى حد أن يصبح تَعَرُّفُها غير ممكن، إلا أن الأسطورة تبقى حية مستمرة.

جيمس ستراشي : ومع أنه قد يرضي كبرياءَنا أن نعلن بأن فرويد كان كائنا إنسانيا مثلنا؛ ويمكن أن يذهب هذا الرضا بعيداً، إلا نه يوجد شيء غير عادي في رجل كان أول من استطاع أن يتعرف مجالاً كليًّا من حقائق الذهن الإنساني، وهي حقائق كانت حتى الآن مقصاة، أو مبعدة من الشعور العادي، كما أنه كان أول رجل فسر الأحلام، وكان أول من قبل بوقائع الجنسية الطفلية، كما أنه كذلك كان أول من قام بالتمييز بين العملية الأولى للتفكير، والعملية الثانية له- إنه كان رجلا جعل من اللاشعور حقيقة بالنسبة إلينا[45].

ستراشي : والتحليل النفسي لفرويد، مثله مثل منظار جاليلي، فتح طريقا إلى فصل جديد من المعرفة الإنسانية[46].

جونز : وبالتأكيد، فإن الأجيال القادمة سوف تتمنى أن تعرف على أي طريقة كان عليها الإنسان الذي نجح، بعد أن قضى ألفي سنة من المساعي والمحاولات الباطلة في أن يحقق الأمر الذي كانت تلتزم به آلهة دلف «اعرف نفسك بنفسك»... وقليل من الناس، إن وجدوا يستطيعون أن يذهبوا بعيداً ما أرادوا في طريق معرفة النفس والتحكم فيها-وحتى بمعونة شعلة الرائد الأول، يلزمهم أن يتزودوا بمناهج وبالبحوث المستقصاه السابقة عليهم، وأيضا حتى بمساعدة غير ذات قيمة لسنوات من العمل اليومي الشخصي مع معلمين ذوي تجربة وحنكة وأي إنسان استطاع وحده أن يكنس كل هذه الأراضي الجديدة، ويتغلب على سائر الصعوبات بدون معونة، فينبغي أن يظل محط إعجاب وتقدير، لقد كان هذا أقرب إلى معجزة تستطيع الوسائل الإنسانية أن تدبرها، وبالتأكيد قد تتفوق إنجازات هذا الإنسان الأكثر ذكاء في الرياضيات والعلوم الحقة، ولقد تحدى كل من كوبرنيك وداروين بمواجهتهما حقائق غير مرغوب فيها في الواقع الخارجي بل واجها حقائق الواقع الداخلي، التي تكلف أشياء لا يستطيع إلا قلة من الناس الفانين أن يعطوها بدون مساعدة...ولا نبالغ إن لخصنا في جملة واحدة إسهام فرويد في المعرفة بقوله : إنه اكتشف اللاشعور[47].

جوزيف شوارتز : إن إنشاء ساعة تحليل، كما رسخها بروير وفرويد، تشبه تمام الشبه استعمال جاليلي للمنظار؛ ليبحث على نحو مسبق في البنيات غير المعروفة في السماء المظلمة، فقد كان بروير وفرويد هما أول من سمح للكائن الإنساني أن يعبر ويتكلم عن ذاته أو عن ذاتها؛ ولأول مرة، استحدث حيز يمكن أن نبحث فيه دلالات التجربة الذاتية على نحو قصدي إلى أن يعثر عليها[48].

إيلس جروبيتش سيتس : أستطع أن أثبت عن يقين بأن كتاب بروير [دراسات فرويد عن الهيستريا] طبع بعلامة بداية عصر التحليل النفسي إذا جاز هذا التعبير.[49]

جاك لاكان : لقد جئت هنا إلى فيينا – وليس هذا بدون مناسبة على ما أظن- لكي أشير إلى كون أن هذه المدينة المختارة ستبقى في هذا الوقت وإلى الأبد، مرتبطة بثورة في المعرفة من مستوى المعرفة الكوبرنيكية، وإنما أحلت إلى هذه الواقعة، وهي أن فيينا هي الموقع الخالد لاستكشافات فرويد، وأن هذا المركز الحقيقي للكائنات الإنسانية، بكونها مدينة لهذه الاكتشافات، لم يعد مكانا يوصف كما نعته تقليد النزعة الإنسانية بكاملها[50].

لاكان : وفي الحقيقة، يقارن فرويد نفسه اكتشافه بما يسمى الثورة الكوبرنيكية، مؤكداً أن ما كان موضع رهان كان كذلك مكانا عين فيه الإنسان وجوده كمركز للعالم، وهل هذا المكان الذي احتله، كذات دالة مركزيا، أو خارجة عن المركز في علاقتها بالمكان الذي أحتله أنا كذات لها دلالتها؟ إني أعتبر أن هذا هو الإشكال؟[51].

بول ريكور : في مقال كتبه فرويد سنة 1917، تحدث فيه عن التحليل النفسي كجرح وإهانة للنرجسية؛ إذ هو اكتشاف شبه باكتشافات كوبرنيك وداروين حينما أزاحا على طريقتهما الخاصة عن المركز، العالم والحياة بالنظر إلى إعادة الوعي، وكذلك أزاح التحليل النفسي بالطريق نفسه عن المركز، تكوين عالم التخييل بالنظر إلى الشعور.[52]

توماس كوهن : في القرن التاسع عشر، أثارت نظرية التطور عند داروين أسئلة مشابهة خارج العلوم، وفي عصرنا هذا، قدمت نظرية النسبية عند أنشتاين ونظريات التحليل النفسي، عند فرويد نزعات مركزية، ظهر من خلالها إعادة

توجيه جذري بعيد المدى في الفكر الغربي، وقد أكد فرويد وجود آثار موازية لاكتشاف كوبرنيك، وهي أن الأرض ليست إلا كوكبا، وأن اكتشاف فرويد يقوم في أن اللاشعور يتحكم تحكما كبيراً في لاسلوك الإنساني... ونحن الوارثون العقليون لرجال من نحو كوبرنيك وداروين، نرى أن أساس عمليات تفكيرنا أعيدت صياغتها بفضلهم، كما أن تفكير أبنائنا ستصاغ من جديد بأعمال أنشتاين وفرويد[53].

وحتى فيلسوف العلم من عيار كوهن، يقرر مقارنة كوبرنيك وفرويد، وذكر كوهن لهذه المقارنة يوضح الثقافة في كونها نجحت نجاحا خارقا للعادة بالنسبة إلى أسطورة فرويد- وبعبارة أخرى بالنسبة إلى التحليل النفسي نفسه، وقد حاول هذا التحليل أن يفرض ذاته في القرن العشرين على أنه النظرية السيكولوجية الوحيدة التي تستحق هذا الإسم، وكذلك نظرية الطب العلاجي عن طريق التحليل النفسي القادر على أن يقوم بتنظير الممارسة الخاصة، وفي كثير من الدوائر العلمية فإن وضع سؤال اللاشعور، وعقدة أديب والجنسية الطفلية قد يثير الإجابة عينها، كإجابة «الجمعية الابتكارية أو أعضاء جمعية فلات إرث Flat Earth» وفي مثل هذه المراكز، يصبح التحليل النفسي غير قابل للنقاش ولا للنزاع، وحتى نستعمل لغة علماء الاجتماع، فقد نسمي هذا الوضع للتحليل النفسي (العلبة السوداء) لأنه قد قبل كشيء وقع التسليم به، ويصبح من السخافة أن نطرح السؤال عنه[54] وأسطورة فرويد وقبولها هما التعبيران عن هذا النجاح للعلبة السوداء، وعن هذا الانتصار المفترض للتحليل النفسي، على سائر النظريات المنافسة له؛ والأفضل من هذا، فإن هذا الانتصار هو العلبة السوداء، ذاتها التي تحمي محتوياتها من كل بحث، وفي الحقيقة لماذا نريد أن نعيد فتحها؟ لماذا نريد مثلا أن نحرك الخصومات والنزعات القديمة التي رافقت إنشاء نظرية فرويد؛ حيث يعرف كل واحد من الناس أنها انتصرت كنظرية على جميع «المقاومين» للتحليل النفسي، كما انتصر كوبرنيك وفرويد على أنواع التعصب والهوى غير المعقول، الذي حرم الناس من أن يروا الحقيقة.

هارولد بلوم وبرنارد باسيلا : وفي هذا الوقت، كانت قضايا فرويد الأولية، بداية الاكتشافات والعلامات المقررة للحالات، لم تعد حيوية لتصحيح الصياغة

السيكولوجية، وفي الحقيقة، فإن فرويد جزء لا يتجزأ من ثقافتنا وطريقتنا في فهم نمو الشخصية واضطرابها، وسائر أنواع العلاج الطبي، إنما تأسس على مبادئ التحليل النفسي، ويقدم المحللون النفسانيون نمطا أساساً لفحص الفن والأدب والسيرة الذاتية والتاريخ وفهما...ومفاهيم من نحو الضغط، والنكوص والإنكار، والإسقاط «والاعتلال الفرويدي» قد أصبحت جزءاً من لغتنا.[55]

فتح العلبات السوداء

وإن نجاح نظرية، إنما يفسره حقيقتها وصدقها. وبدورها، فإن صدقها يعطيه نجاحها وشرعيتها. وما يوجد لدينا هنا هو مثل لما يدعوه بعض علماء الاجتماع من نحو دافيد بلوور[56] بالتفسير «غير التماثلي»؛ أعني أن بعض الناس قد يحتجون انطلاقا من الانتصار في النقاشات العلمية، إلى أن يهزموا بكل ما في هذه الكلمة من معنى الانهزام، فيرفضون أن يستمعوا إلى الحجج، ومن ذا الذي يعطي اهتماما مماثلا إلى سائر الأفكار التي تكون محكمة التاريخ قد أدانتها؟ وهذا بالضبط ما كان يحاوله المؤرخون النقاد، وعلماء النفس الأكفاء منذ عقود حتى الآن، إنهم رجعوا إلى فتح العلبة السوداء من جديد للتحليل النفسي، وحالوا أن يفهموا كيف انتصر هذا التحليل على معارضيه وخصومه، وكيف نجح حتى أثبت نفسه لكثير من الناس على أنه علم للنفس، بدون أن يمنح أي لقب مقدما، وبالرغم من عقود من الدراسات السياقية، والمقارنة النسبية، فقد أضحى تاريخ العلم في أيامنا هذه يتابع باستمرار خضوع بعض دراسات العلوم، ذات القيمة النادرة التي تعطي ضمانا لوضع مجتمعي قارنسيا، وتقدم نزاعات التحليل النفسي منقداً وحيداً يمكن أن ننظر من خلاله كيف أن بعض الأفكار، حول الذهن والعلاقات الإنسانية قد اعتبرت معرفة ثابتة، وتشكل معاني تستقبلها أجيال عديدة؟

وتتميز الممارسة التاريخية الجيدة، بانتباه القوى إلى السياقات، وتجنب تأخر الإدراك، وسائر أشكال سبق الحس الداخلي، ومن هذا المنظور، فإن المؤرخين المعاصرين هم بالضرورة خائضون في صراع مع «تاريخ الهويك» أعني التاريخ المكتوب من منظور المنتصر، وهذا انتقاد مخصوص بتاريخ العلم؛ حيث يوجد دائما إغواء قوي لأن نقرأ الماضي، من منظور الحالة الجارية أو المتداولة للبحث

العلمي الذي يتصور كانكشاف متدرج لحقيقة غير زمانية للطبيعة ؛ ولفترة محددة، كان تاريخ العلم يكتبه العلماء بموضوعية وحياد، مما يفترضه مثل هذا العمل، أو يكتبه فلاسفة محاولين أن ينصفوا، على وجه ارتجاعي، لقب العلمية للمنتصرين، وهكذا يكون من الأساس أن يقاوم المؤرخون هذه الإبستيمولوجية المتمركزة على الذات، حتى يتمكنوا أخيراً من أن يتحدثوا، على نحو تاريخي، عن العلوم، على وشك خطر الاصطدام مع ضروب يقين العلماء أنفسهم، أو بالأولى مع النزعة العلمية، ومن هذه الوجهة من النظر، فإن «مبدأ التماثل» الذي قال به بلوور ليس إلا تطبيقا على العلم حسب مبدإ منهاجي- مشترك في كل ممارسة صحيحة[57] ونجد المشكل والتطور نفسيهما في تاريخ التحليل النفسي، وهذا كان فرويد نفسه قد ابتدأ به سنة 1914 في حمأة الخلافات والصراعات، التي كانت تهدد بتحطيم الحركة، ومعٍ قصد إشكال جدلي واضح، ونتيجة لذلك، اتخذ أنصار فرويد موقفا فريداً، وتابعوه في رحلته، منهم فرتز ويتلز، ويسيجفريد برنفيلد وأرنست جونز، ومارث روبرت، وماكس شور، وأولا أندرسون، وقريبا منا هناك أشخاص من نحو بيتزجي، وإليزابيث رودينسكو، وجوزيف شوارتز.. وأيا كانت هذه الوجهات من النظر المستحقة، وأحيانا يوجد لأهلها تحصيل علمي متين في أعمالهم، لا يكون من غير الإنصاف أن نلاحظ أن تدوين تاريخهم يبقى في عمقه متصلا بفرويد، ولا يوضع موضع سؤال الخطاطة العامة للسرد الذي اقترحه المؤسس، حتى ولو اضطرتهم أبحاثهم أن يتركوا هذا العنصر أو ذاك، أو يراجعوا هذا العنصر من عناصر الأسطورة. ومع أن هذه المراجعات قد تراكمت عبر انصرام الأعوام، فهم غالبا ما يعاملونها على أنها مجرد تنقيحات لتفاصيل لا يمكن أن تغير شيئا من أساس الأسطورة، وليست دعوة إلى إعادة اعتبار النظرية الفرودية، وخلافا لذلك، فإن صحة النظرية تستمر كما هي، وكما وضعت فروضها حتى ولو كان التاريخ يناقضها؛ وذلك أن كل من كان ينتظر من المؤرخين الذين كانوا مستقلين عن مؤسسات التحليل النفسي للنظرية الفرودية، تعين عليهم أن يواجهوا لأول مرة التركيب الإشكالي، في حاجته إلى التفسير أكثر من حاجته إلى استنتاج قبلي غير محسوس.

وحتى لو سلمنا بكل هذا، فإن الأسطورة الفرويدية كانت قد انتقدت من قبل، وأحيانا انتقدت انتقاداً عنيفاً، ولم يعجز خصوم فرويد في ذلك الحين أن يؤكدوا على عدم الدقة والتحيز لتمثلاته التاريخية الذاتية[58]، وكانت هناك عدة بدائل تاريخية للسيكولوجيا، والطب النفسي؛ وبخاصة كتاب بيير جانيه الممتع في مجلداته الثلاثة : (التطبيب السيكولوجي)[59] إلا أن مثل هذه الروايات المتنافسة، مما سجله علماء النفس بدورهم، دفاعا عن مواقفهم النظرية الخاصة كانت في نهاية المطاف أقل انحيازاً وعدم تماثل في انحياز فرويد[60]. وإذاً، فإن المؤرخين غير المنحازين إلى مدرسة سيكولوجية مخصوصة، هم الذين يحاولون أن يعطوا تفسيرات موضوعية إلى الخلافات، وبدون الإخلال بالنتائج، وبالصحة المخولة لكل نظرية من النظريات المطروحة للنقاش.

وأول من شرع في تصحيح هذا الوضع، كان المؤرخ الحيوي الدينامي للطب العقلي هنري إلينبرغر.

هنري إلينبرغر : وفي سويتزلاند، كنت قد عرفت رواداً متقدمين في التحليل النفسي، أحدهما قسيس واسمه أوسكار فيشتر، كان صديقا قديما لفرويد لمدة طويلة، والآخر ألفونس مايدور، وكان هذا متصلا اتصالا وثيقا بتاريخ التحليل النفسي، وكلا هذين الرجلين، ذكرا لي عدة أحداث كانا قد روياها عن ثقات أو شاهداها، ثم بعد ذلك، عندما نشر أرنست جونز سيرة فرويد الرسمية استغربت للتباين الشديد بين سيرته وبين تفسيرات الرواد الأوائل... وفي المجلد الثالث من سيرته الذاتية، يوجد فصل مشهور يحصي فيه ما يدعى بالاضطهادات والمضايقات التي كانت تقع لبعض المحللين السيكولوجيين، ووضعت قائمة لبعض الحوادث، وقارنت كل واحدة منها بمصادرها الأصل ومن بين الحالات التي كنت قادراً فيها على أن أجمع معلومات جديرة بالثقة، وجدت أن 80% من الأحداث التي أوردها جونز إما أنها كاذبة إطلاقا، أو مبالغ فيها مبالغة شديدة.[61]

ولما اطلع إلينبرغر على هذا الحدث العابر، تأكد له أن السيرة الذاتية لجونز ليست واقعا معزولا، وأنها توضح على أنحاء شتى، الغياب الملفت للنظر لتاريخ بعض أطباء الأمراض العقلية المستوفين لحمل هذا الاسم.

ولما كان تاريخ الطب العقلي قد كتبه أبطال متعارضون في ما بينهم، فلاشك أنه كان في غالب الأحيان، توجد سلسلة من الحكايات والأقاويل الشائعة المتخرصة قصدها أن تعلي من شأن هذه المدرسة أو هذه النظرية (ويورد إلينبرغر مثالا عن أسطورة ركبت حول بينل، لفقها أتباعه ورفعت إلى مرتبة تأسيس السرد الخاص بطب الأمراض العقلية).[62]

وحتى يصحح إلينبرغر هذا الوضع، فقد اتبع عدة قواعد منهجية بسيطة أحصاها في بداية عمله الشامخ سنة 1970 : (اكتشاف اللاشعور.)، (تاريخ طب الأمراض العقلية الدينامية وتطورها) وهذا الرجل كان من ناحية أولى لا يقبل أي شيء على أنه معطى مسلم به، ويتحقق من كل شيء (متبعا المثال الآتي : إذا حلفت أختي المسماة رورشاش، بأن عينيها زرقاوان، فلابد أن تطلب إليها جواز سفرها)، وقد كان يستعمل دائما الوثائق الأصل، وإذا أمكن، فإنه لا يقبل إلا الشهود المعللين، ويقرأ النصوص في لغتها الأصلية، ويتحقق من هوية المرضى في هذه الملاحظة أو من تلك الحالة التاريخية أو من رواية الحالة، ويثبت الوقائع من خلال فصلها بدون شفقة ولا رحمة، عن التأويلات والشائعات والأساطير؛ ومن ناحية ثانية؛ فإنه كان يقاوم التنظير المتعسف والمعالجة التلقائية الطبية المتمركزة حول الذات بالنسبة إلى طب الأمراض العقلية عن طريق تحويل نظرياته إلى مضاعفة السيرة والمهنية والاقتصادية والسياقات المجتمعية والسياسية، مع الأخذ بعين الاعتبار الدور الذي تلعبه صياغتها عن طريقة المرضى أنفسهم.[63]

ومن هذه الوجهة من النظر، فإن عزل النقد عن الأسطورة الذي هو جانب غالبا ما يذكر به عمل إلينبرغر، لا يمكن أن ينفصل عن ترافق الإشارة التماثلية من التناص السياقي، مادام هو من طبيعة أساطير تطبيب الأمراض العقلية الخاصة بمحو السياقات الروائية وإزالتها، ولقد كان إلينبرغر، في ملاحظاته غير المنشورة حول مشكلة أساطير تطبيب الأمراض العقلية، يؤكد ويعيد التأكيد على الرابطة الموجودة ين هذين الجانبين أو المظهرين من عمله.

إلينبرغر : وقد تصيب الأسطورة خاصية لجماعة منغلقة على نفسها والمدرسة وأسرة (نيتشه) ومؤسسة مع أسرة (بينل)، ومن مثال المدرسة المنغلقة على نفسها (النزعة الأبيقورية)، وهكذا يتابع الاختيار أو الانتقاد المستمر للوثائق:

التفكيك، أو الاحتفاظ والانتشار، ولربما كان هذا هو دور الناشرين وأصحاب المطابع ، والقراء، وفي ما بعد تتم ضروب التحريف والتشويهات النسبية، من خلال تغيير المنظور، ومن خلال إخفاء السياق؛ مما يجعل أعمال الكاتب غير مفهومة ولا معقولة[64].

وقد لاحظ إلينبرغر بأن أسطورة فرويد، التي كانت الهدف الأكبر للكتاب: «اكتشاف اللاشعور» تدور أساسا حول موضوعين : أحدهما البطل «الفذ» المتغلب على العراقل، مما يوضع له في طريقه من لدن خصومه الخبثاء، وثانيهما «الأصالة المطلقة للمؤسس» وهاتان طريقتان لنفي الصداقات وشبكة العلاقات والتأثيرات، وما يمكن أن يترك إرثا، وثقافة فكرية وقراءة وباختصار كل ما يتصل بعصر فرويد التاريخي، وكتاب إلينبرغر، بعدد صفحاته 932 و2.611 هامشا أو حاشية من حواشي كتابه، هو نفسه برهان قاطع على عبثية هذا التقديم للتحليل النفسي، ويخرج هذا الرجل ما يقرب من قرن ونصفه من الأبحاث، أنجزها مئات من أصحاب التنويم المغناطيسي، ومن المنومين، والفلاسفة والقصاصين وعلماء النفس، وأطباء الأمراض العقلية، وبغير هؤلاء لم يكن بالإمكان أن يقع التفكير في التحليل النفسي. وكمحك للنقد، فقد أتحف الفصل الذي خصه لفرويد بثلاثة إهداءات تقديرية لألد خصومه (وعلى رأسهم) جانيه ويونغ وأدلر؛ وذلك لغاية أن يؤكد على أن تاريخ طب الأمراض العقلية الديناميي، لم يبتدئ ولم ينته مع التحليل النفسي، خلافا لما يميل إليه المعاصرون من أصحاب النزعة الغائية في التاريخ، مثل جر يجوري زيلبورغ ودايترويس، وإليزافيث.[65]

إلينبرغر : وتنسب الأسطورة المتداولة... إلى فرويد كثيراً مما ينتمي بوجه خاص إلى هربارت وفيشتر ونيتشه وميترت وبيندكت وجانيه، وتغفل أعمال الباحثين السابقين في موضوع اللاشعور، والأحلام والأمراض السيكولوجية الجنسية وكثير مما ينسب إلى فرويد ما هو إلى معرفة قديمة متداولة، شائعة وكان دوره هو أن يبلور هذه المعاني وأن يصيغها في قالب أصيل.[66]

ومن الواضح أنه من ملاحظات إلينبرغر المنشورة وتقييداته، والتي تركت بعد وفاته، أصبحت بعد مماته معرضة للنقد في نظر التحليل النفسي، أكثر ما يشتبه في ما كتبه ونشره.

إلينبرغر : وهل التحليل النفسي علم؟ إنه لم يلق حتى الآن معياراً موحداً: (علم موحد، محدد المجال والمنهاج) إنه علم توافق سمته طبائع فرقة فلسفية (تنظيمها مغلق، والتلقين فيها شخصي على أعلى مستوى، ومذهبها متغير، لكنه محدد بموقفه الرسمي، وعبادة مؤسسه الأسطوري.[67]

وقد نجد مثل هذه الخطة في تناص سياق التحليل النفسي؛ في عمل فرانك سولوي، وهو المؤرخ الثاني بعد إلنبرغر؛ الذي غير جذريا الطريقة التي كنا ندرك بها التحليل النفسي، ولقد زعم فرويد على أنه هو داروين جديد (وداروين الذهن) وقد اقترح سولوي أن يأخذ هذا الشعار من جهته الأدبية ما أمكنه ذلك وفي كتابه الذي ألفه مع ألبيرغر، ويحمل العنوان الفرعي (فرويد، عالم بيولوجيا الذهن)[68] وهكذا يبين «وراء أسطورة التحليل النفسي» على نحو مقنع ، كيف أن الكشوفات الإنسانية كانت متجذرة بعمق في الافتراضات البيولوجية الراهنة وتأملات مساحتها الداروينية؛ إذ وراء الليبدو، والجنسية الطفلية، والانحراف الجنسي المتعدد الأشكال، ومنطقة الشهوة الجنسية، والجنسية الثنائية، وأبعاد الخبرات الأولية غير السارة في اللاشعور (= الكبث في معناه الأول)، وقتل الأب الأول، والتخييلات الأصلية، وغريزة الموت، ووراء كل هذا، استخرج سولوي : «النظريات الجنسية» المنسية لكل من كرافت- إيبنج، وألبرت مول وهالفوك إليس (وهذا أشمل تصوير لتكوين الحياة البيوجينية) ويلهيام فليس وتأملات داروين من إيقاعات الحياة البيوريثمية، أو نظرية نقل الصفات المكتسبة كما شرحها لافارك، وبهذا العمل أعاد سولوى من الناحية الفكرية، رد الاعتبار إلى صديق فرويد ورجل سره ومعاونيه ويليام، فليس الذي قدمه فرويد في سيرته الذاتية على أنه مريض بجنون الهذاء الخطير والهوس، مع نظرياته المتسمة بالمبالغة الحمقاء، لا لأن نظريات فيلس كانت جديرة بالتصديق الكامل، في سياق التأملات البيوجينية المكونة للحياة الرائجة آنذاك فقط، بل لأنها استقبلت بحفاوة من لدن عدد لا يستهان به من معاصريه (ابتداء مع بروير)، وهكذا فإنه لا حاجة بنا، كما اقترح البعض، أن نتخيل التحول غير المعقول من جانب فرويد إلى صديقه، حتى يفسر كيف اختار كمخاطب مفضل لعدة سنوات : إنهما كانا يشتركان في تعيين الأصدقاء، كما في اتخاذ الأفكارنفسها والقراءات عينها.

سولوي : إنني لم أقل قط إن فليس كان عالما كبيراً، وإنما قلت إنه عمل أموراً كثيرة قابلة للتصديق على نحو معقول وجذري في الوقت نفسه؛ وإذاً، أثارت حساسية فرويد الخاصة، ومن الواضح أن فيلس وفرويد كانا من الناحية الفكرية، يثير أحدهما الآخر على نحو كبير، حتى يمكن الاكتشاف بأن هذه العلاقة يمكن أن توضع في محلها من القرن التاسع عشر، في ساق يكون فيه كل شيء مفهوماً، وكان الاحترام في هذا السياق أمراً مضحكاً، حتى يتم فيه البحث المطلوب.[69]

وكالحال مع إلينبرغر، يصطدم التناص السياقي التاريخي لسولوي مع أسطورة فرويد؛ وبخاصة مع فكرة أن التحليل النفسي، كان قد نشأ حينما ترك فرويد النظريات العصبية الفزيولوجية والبيولوجية في وقته لفائدة علم سيكولوجي خالص، يتأسس على الملاحظة العيادية والتحليل الذاتي.

سولوي : كيف يمكن في التحليل الذاتي الشخصي، ألا يكون الإنسان مشروطا بكل معرفة علمية، وبالقراءة ومختلف البيانات التي يمكن أن يجمعها من عشرات فروع المعرفة الأخرى؟ كيف يمكنك أن تمنع تلك المصادر المتصلة بالمعلومة حتى توجه تحليلك إلى جهة ما؟ فإذا شرعت تقرأ الأدب، تأكد لك أن الطفل أكثر جنسية تلقائية مما لم تكن تفكر فيه، فكيف يمكن أن يصح هذا الإشكال موجوداً في تحليلك الخاص؟ وإذاً، فينبغي ألا تستغرب إن اكتشفت ذكرى مؤداها أنك كنت رأيت أمك عارية في سنك الثانية من عمرك. وإذا قال لك كل كتاب قرأته أنك اكتشفت في محتواه، حياتك الخاصة؛ فهذا خبر سار، ولكنه من الواضح ألا يكون من ذلك العمق.

وتحليل الذات إنما يتم داخل فاعل سببي أو علي لأصالة فرويد في تقليد المحصلين الفرويديين، إلا أن تلك الأمور قد تكون هي ذاتها صادرة من مكان آخر، وإذاً، فالتحليل الذاتي الشخصي هو أحد القصص الخرافية الكبرى في تارخ العلم، ومع أن فرويد نفسه لم ينتج هذا الجانب من الأسطورة، فهو لم يعمل على أن يمنعها من الانتشار[70].

وبالنسبة إلى سولوي فإن «أسطورة البطل، وقد اتبع في ذلك جوزيف كامبيل[71] إنما صاغها فرويد وأتباعه، واستخدمت أساسا لغرضين : فمن ناحية أولى، من خلال تقديم صورة عن فرويد المنعزل، أتاحت للبعض أن يثبت الصفة

الجوهرية للعلم الجديد عن العقل، في حين أن استعادته على نحو سري، أبرزت إسهام كل من داروين وهاكيل وفيلس وكرافت- ايبنج وخبراء في الجنس وغيرهم ومن ناحية أخرى فقد حفظت بالفعل وعلى نحو عميق التحليل النفسي من تقلبات البحث العلمي، وما إن انتقل إلى كشوفات سيكولوجية، حتى أصبحت الافتراضات التطورية التي تستلزم التحليل النفسي مستمسكا بها بالرغم من كل شيء حتى وإن وقع رفضها في مجالها الأصلي، والتحليل النفسي؛ حينما اجتثت، أصبح معرفة تامة، وقع تنحيتها وحمايتها من رفض بعض المؤسسين المزعومين.

فرويد : ولا شك أن موقفي أصبح صعبا، بسبب الاتجاه الحالي لعلم البيولوجيا؛ الذي يرفض أن يستمع إلى ميراث الخواص المكتسبة حسب تتابع الأجيال، غير أنه يجب أن أعترف بكل تواضع ، أنني لا أستطيع على الأقل، أن أستغني عن هذا العامل في التطور البيولوجي[72].

ولو اتبعت الأسطورة الفرويدية رأي سولوي، فإنها لن تكون قصة دعائية ملحقة بنظرية التحليل النفسي (مما يبقى صحيحا إلى حد ما بالنسبة إلى إلينبرغر). وكانت خلافا لذلك هي النظرية ذاتها. ويؤدي التساؤل عن الأسطورة الفرويدية إلى التساؤل عن حال أو وضع التحليل النفسي نفسه، وحتى إلينبرغر مع حذره السويسري، قد ميز التحليل النفسي، باعتباره «نصف علم»[73]، أما سولوي، فهو من جهة أخرى لم يتردد أن يصف التحليل النفسي، بكونه شبه علم يتمتع بحصانة ضد النقد، الذي تروج له الإشاعات وآلياتها الفعالة، وتدليس المعلومات التاريخية.

سولوي : وبينما كنت أحرر هذا الكتاب عن فرويد، وصلت إلى القول بأن التحليل النفسي هو أشبه شيء بالمأساة التراجيدية، كلون من المعرفة تطورت من علم واعد إلى شبه علم مخيب للآمال... وحينما ابتدأت هذا الكتاب ، كنت أتبع في مقاربتي لفرويد، كما فعلت مقاربات غيري، على أنه من أعظم العقول في القرن العشرين، وهو رجل على مقاس كوبرنيك وداروين كما أشار هو إلى ذلك لكنني كنت كلما أمعنت النظر في نمو وتكوين التحليل النفسي كلما اكتشفت أنه تأسس على افتراضات القرن التاسع عشر التي عفا عليها الزمان، وأبطلتها

بوضوح اكتشافات قوانين مندل، في علم الوراثة كما رفضتها نظرية لامارك عن التطور البيولوجي؛ وحطت من قيمتها مختلف أنواع افتراضات هيلمهولتز الفسيولوجية، التي كانت حاسمة لتفكير فرويد حول الهستريا. وعندما وصلت إلى نهاية هذا الكتاب، وجدت نفسي إلى حد ما، غير راض أن أقبل بأن فرويد كان صاحب اكتشاف عظيم كما أرى الآن، وبعض الناس قد يتفقون معي، وهكذا أصبحت رغم أنفي منتقداً، لا لنظرية التحليل النفسي فقط، بل وأيضا كما كنت أراه كفعل بناء متزايد للأسطورة التاريخية، التي تمنع وجهة نظر فرويد من أن يكون مفهوما على أوسع مدى[74].

معارك فرويد : إن ظهور كتابي إلينبرغر وسولوي، أعقبتهما كتب أخرى تساقطت منهارة كانهيار كتلة ضخمة من الجليد، وكلها تدور حول «المراجعة»[75] وكان كل واحد منها أشد انتقاداً من سابقه لأسطورة فرويد، وفي الأساس، بينما كانت كتب إلينبرغر وسولوي تركز تركيزا بؤريا على التاريخ الفكري، افتتح بول روزن التاريخ المجتمعي لحركة التحليل النفسي، من خلال قيادته وتوجيه الروايات الشفوية، لا على نحو طريقة الأنثربولوجين في العلم، الذين يحاولون أن يدرسوا ويميزوا ما يفعله العلماء في الوقت الراهن في معارضة قضاياهم العامة، حول أعمالهم في رأي الجمهور من الناس، وفوق ذلك، قدمت مقابلات ولقاءات روزن ذكريات عن فرويد كانت مختلفة ومتناقضة جذريا، مع الصورة التي أعدها أتباعه ممن عرضوا سيرته الذاتية من نحو أرنست جونز، وكذلك وبالمثل، باشر بيتر سويلر بحثا توثيقا دقيقا وواسعا ونشر جزءاً منه؛ مما أعاد بناء العالم الفكري والاجتماعي لفرويد في نهاية القرن بفيينا، وقدم تفسيراً مفهوما لأصول التحليل النفسي، ظهر مغايراً بصفة كاملة عن أسطورة فرويد، وقد بين الفيلسوف فرانك سيوفي كيف أن الحدث المفتاح «النظرية الإغواء» المقترحة على الجمهور، والتي تركها فرويد في سرية تامة بين سنة 1896 و1897، لم ينشر تبعا لاعتبارات فرويد التالية، مما أساء إلى هدم الرواية الرسمية في اكتشاف عقدة أوديب، والتخييلات الجنسية الطفيلية اللاشعورية.[76]

وقد بينت هذه الدراسات إلى أي مدى كانت ملاحظات فرويد وروايات الحالات مختارة ومنتقاة ومتحيزة كاذبة في ذلك الوقت، ولم يكن فرويد، كما

يمكن أن نقرأ ذلك، يتردد في أن يعدل أو يخفي هذا العنصر أو ذاك من سيرته الذاتية حتى يتلاءم مع نظريته[77]، وحتى يأخذ حريته للتصرف في التسلسل الزماني[78] والترجمة[79]، وحتى يقدم اعتبارات التحليل النفسي الذاتي أو الشخصي، كحالات موضوعية، يفترض كونها مؤولة من خلال[80] عمل مبين على وجه صريح، وحتى يقدم نتائج علاجية طبية متخيلة، على الرغم من تصريحه بتفوق التحليل النفسي على سائر أشكال العلاجات الطبية، مثلا لا توجد بينة على أن حاله «أنة O» عالجها فقط بروير[81]، كذلك لا ندري ما إذا كانت هذه الحالات: «إيمي فون N»[82]، «وكاسيليM»[83] «وإليزابيت فون R»[84] أو «وولف مان»[85] قد عالجها فرويد، أما بعض المرضى الآخرين، فقد أهملوا، ولم يذكر عنهم شيء، أو أشير إليهم باسم مستعار، ولم يكن هؤلاء المرضى بأسعد حالا بعد إجراء التحليلات عليهم مثل إيما إيكشتاين[86] وإلير كومبيز[87]، وكذلك إلفريد هير شفيلد A [88]، وأنة فرويد[89]، وحالة[90](A.B) أو هوراس السيء الحظ[91]؛ وخلافا لذلك، فبعض العلماء المحصلين كانوا قد خمنوا أن «كاترينا»، «ودورا» لم تكونا كذلك مريضتين في المقام الأول[92] والأثر المباشر لهذا العالم المحصل الجديد، الذي هو فرويد، أدى إلى وجوب إعادة فتح النزاع حول التحليل النفسي، الذي كانت هيمنة الأسطورة الفرويدية في بعض الجماعات، قد تجمدت لما يقرب من نصف قرن، والمفاهيم من نحو اللاشعور والجنسية الطفلية وعقدة أوديب والكبت والتحويل، هي مفاهيم اتخذت كأمر مسلم به، وأصبحت موضوعات ساخنة وقع التنازع والجدل حولها، وهكذا حميت معركة فرويد وقد ذهبت بعض الصحف في صفحاتها الأولى إلى التساؤل تحت عنوان : «هل مات فرويد؟»[93] والأعمال المنشورة تحت عناوين : من نحو : لماذا كان فرويد خاطئا؟[94] «وحالة فرويد» وميلاد التحليل النفسي من كذبة»[95]، «إعدامات من معارك فرويد»[96]، «والكتاب الأسود للتحليل النفسي»[97]، وكذلك هناك مقالات عن فرويد في مجلات، تبعث بانتظام كتلا ضخمة من الرسائل القلقة، احتجاجا من معسكر الخصوم مرفوقة بإجابات[98].

وقد لجأ أتباع فرويد إلى نفض الغبار عن الحجج القديمة، التي كانت قد أتت أكلها في ما مضى (من كون خصوم فرويد مرضى باثولوجين، مدفوعين

إلى مقاومة التحليل النفسي، أو أنهم ضد السامية أو أنهم من أصحاب النزعة التطهيرية)، ثم من بعد ذلك، اكتشفوا حججا مقنعة تتكيف جيداً مع الموقف الجديد : وقد تسمى هذه الادعاءات باسم تقدم التحليل النفسي، منذ أن رد فرويد كل نقد له على نوع من التحدي، والمفروض أن يكون هذا الانتقاد «علميا»، مما أبان عن الوضعية الساذجة» لدى المؤرخين الفروديين وهذا من غير أن نتناسى الردود التي لم تقع الإجابة عنها على أن الاعتراضات غير المتناهية والمضطهدة لفرويد تثبت احتمالية نظرياته.[100]

جانيت مالكوم : لقد كان كتاب روزن عن المؤرخ «الأخ الحيوان» مبتذلا سطحيا، ذلك أن ثقافته، مثل ثقافة أعمال كثيرة غيره في قمة التاريخ، لم تكن لتحول دون أي نوع من البحث المعمق.[100]

كورت إيسلر : وعندما يكتب روزن... فإني أجد نفسي مضطرّا لأن أحيل القارئ إلى شروح فرويد عما باح به وأظهره دانيل بول سريبر.[101]

(ريني ماجور (في ما يخص مايكل بورش جاكسون) : ولو كان ميكل هذا قد تشبث بالتوثيق، وأعتقد أنه لا توجد أية صفة خارجية تتيح لنفسها أن تكون مقروءة، أو توقفها من أن تكون «غير موثقة بذاتها» فقد يكون هذا الرجل المذكور واقعا ضحية لاضطرابات تشنجية مستحقة، لأن توصف بالشر الأعظم، أعني الشر الأعظم للتوثيق، وهذا المرض هو أيضا ذو طبيعة حسية.[102]

جوزيف حاييم بيروشالمي : إن الهجوم على التحليل النفسي قد أصبح مختلطا بالدفاع عن نزاهة فرويد الشخصية، التي بلغت درجة التشهير بها مرتبة غير مسبوقة.[103]

وكالحال بالنسبة إلى المؤرخين الجدد، فإنهم يشجبون الهيمنة الفرويدية على وسائل الإعلام، والحملات الصحفية المأجورة ضد المارقين، وتقييد الوثائق الفرويدية ومنعها، فكيف حصل أن كانت كثرة من الوثائق الموضوعة أو المودعة في المؤسسات العمومية، كمكتبة الكونغرس في واشنطن لا يمكن رسميا أن ينفذ إليها الباحثون، وكذلك بعض الوثائق الأخرى إلى غاية هذا الوقت 2013 (والآن بدون نهاية)؟ ولماذا كان وضع مثل هذه القيود المطبقة بحزم على الدخول حينما يتعلق الأمر بالباحثين المستقلين، وترفع فجأة حينما يختص الأمر بالمطلعين عن

حركة التحليل النفسي؟ وفي سنة 1994، أعلن عرض دولي واسع، تحت رعاية وثائق فرويد ومكتبة الكونجرس بواشنطن، ولم يظهر عالم واحد من العلماء الجدد المحصلين الفرويديين في تنظيم اللجنة، وعندما وقع الاحتجاج، بعث اثنان وأربعون منهم (ومن ضمنهم مؤلفوا هذا الكتاب) رسالة مفتوحة إلى مكتبة الكونجرس، ليعبروا لها عن رغبتهم في أن يعكس هذا العرض: «الحالة الراهنة للبحث في فرويد» ويلتمسوا أن يضاف بعض من يمثل آراءهم للجنة المنظمة[104] ولم يعبأ أحد بهذا الملتمس، ثم إن مكتبة الكونجرس لأسباب مستقلة في الظاهر أعلنت أن العرض سيؤجل حتى يتمكن المنظمون من تحصيل الموارد المالية الضرورية، مما جعل النزاعات والخصومات تحتد، والرسالة التي كان ينبغي أن تقبر بطريقة أو أخرى من غير أن تترك أثراً، اعتبرت على أنها المسؤولة عن هذا التأجيل والتأخير، ونسب المنظمون قرار مكتبة الكونجرس إلى ملتمسين سياسيين، وإلى الضغط الإعلامي والاحتجاج، زاعمين أنهم يدافعون عن «حرية التعبير» ولم تلبث الأخبار أن تناقلتها الصحف أو الصحافة الدولية، ومرة أخرى أصبح هدفا للرقابة! وفي فرنسا نظم ملتمس مضاد تولى أمره إليزابيت رودينسكو وفليب جارني، وقد جمعا معا ما يزيد عن 180 توقيع، ومن بين هذه التوقيعات، أسماء أعلام مشهورة لتفضح: «الابتزاز بالتخويف» و«المظاهرات التطهيرية»، ومطاردة الساحرات «وديكتاتوريات الطغمة المثقفة التي انقلبت إلى محاكم التفتيش» وما يدعى محاكم تولى الرد عليه الصحافة الحرة، مما لم يطلع عليه أحد أو يقرأه، إذ كان الاحتجاج فيه ضد تلاعب وسائل الإعلام التي يحركها الخصوم[105]، وعند هذه النقطة، صرحت مكتبة الكونجرس بأن المنظمين وجدوا التمويل الضروري لإعداد العرض؛ وأن هذا العرض نفسه كما خطط له في بادئ الأمر... وفي غضون ذلك كانت معركة فرويد الأخيرة قد ابتدأت[106]، ومرة أخرى، كان تمثيل المؤرخين والنقاد كاذبا ومشوها لسمعتهم، وسعت وسائل الإعلام إلى التلاعب والتآمر، حتى تقدم صورة بطولية لإعداد معركة الثورة العلمية في التحليل النفسي.[107]

ويدور موضوع هذ الكتاب حول معارك فرويد القديم منها والحديث؛ إذ هو يعيد فتح النزاعات التي أحاطت ببداية التحليل النفسي، ويبين ما إذا كان يمكن أن نتعلم منها شيئا حول مصير علم، راغب في أن يصبح الزي المضيق على جميع

البشر، ومن المدهش أن نرى إلى أي حد يتكرر السجال والنزاع حول التحليل النفسي على نحو شبيه بتجوال النائم الحالم، كما حدث في مستهل ذلك القرن إذ من المعلوم أنه ابتداء من سنة 1906 كانت نظريات فرويد موضوعا لمساجلات دولية محتدمة، شارك أشخاص قادة معاصرون من طب الأمراض العقلية والسيكولوجيا؛ من أمثال بييرجاني وإميل كرابلين ووليام شترب، وواجين بولر وجوستاف أشافينبورغ وألفريد هوش ومورتن رانس، وغيرهم كثير. وما ليس معلوماً على نحو جيد هو أن هذه المساجلات، كانت على وشك هزيمة التحليل النفسي في مؤتمر جمعية طب الأمراض العقلية بألمانيا، المنعقد في بريسلو 1913 حيث تعاقب الخطباء، واحداً وراء الآخر لشجب التحليل النفسي، على نحو لا لبس فيه ولا غموض، وسبب هذا «الفقدان للذاكرة المخدرة» هو أن فرويد اعتبر هو وأتباعه كما لو أن السجال كان قد انتهى لصالحهم، ومغزى «الخرافة الطعنات» الثلاثة التي ابتدأنا بها، إنما توضح على نحو تام ما يلي : إن ما يعرف معرفة موثوقة عن خصوم فرويد هو أنهم كانوا مندفعين بردود أفعال، ومقاومات غير عقلانية كالكبت الجنسي؛ ومن ثم أبعدوا، وزج بهم في سقط متاع أو سلة مهملات ما قبل تاريخ العلم، كالحال تماما مع خصوم داروين وكوبرنيك، ونتيجة لذلك، فنحن لا نعلم إلا قليلا عن الاعتراضات التي وجهها المعارضون إلى التحليل النفسي، كما لا نعرف كيف ظهر عليهم فرويد، وكما سنرى، وهذا سبب وجيه، فقد يتساءل الإنسان ما إذا كانوا قد غلبوا على أمرهم، وأظهر عليهم خصومهم انتصاراً مؤيداً وحينما نرجع إلى تقييم «انتصار» فرويد على خصومه، في سياقه التاريخي، فقد نرى أن ذلك كان وهما وتخييلا، وأنه يعتمد على هلوسة سلبية، تختص بضروب النقد للتحليل النفسي.

وإذاً، فنحن نقترح أن نعيد فتح ملفات هذه الأنواع من النقد والمساجلات القديمة، المودعة منذ أمد بعيد في مكان خفي، من تحت سقف ما قبل التحليل النفسي، كما نقترح إعادة ترتيب النقاشات وتنظيمها، وحينما ينفض الغبار عن هذه الملفات، فإنها ستبرهن، على نحو مدهش، على تعارض مع الرأي المسلم به؛ مما يفسر لماذا وضعت الرقابة على بعض هذه الملفات بعناية فائقة، أو أنها صنفت تحت «الأسرار الخفية» من جانب حراس وثائق فرويد، وإذا وقع التسليم

كيف اكتشف هذا الكم الكثير من المواد، كانت الحرية في أن تختار طريقة إيراد المقتطفات والاقتباسات على سعتها، كما يكون الاختيار في أن يتكلم الفاعلون التاريخيون بأصواتهم، وينشئون نصوصا متعددة التلفظ أفضل من أن تنتقي العبارات.

وقد تبين لنا هذه الوثائق التاريخ الذي ليس له إلا صلة ضعيفة بما نجده في أعمال فرويد وفي سيرته الذاتية، وكما يؤخذ على وجهه وقيمته منذ أمد بعيد وسيوضح لنا هذا التاريخ، كما سنرى، الجهاز الخارق للعادة الذي به ركب نفسه علما يطمح أن يصبح ذلك التحليل النفسي في المجتمعات المعاصرة، ووراء هذا التحليل النفسي، قد انفتح تاريخ إنشاء علوم سيكولوجية معاصرة والطب النفسي، وكيف تزودنا هذه العلوم بأفكار قد تكون لنا عن أنفسنا؛ وكيف تصير هذه الأفكار جامدة، متصلة في «معطيات وحقائق» لا تقبل الجدال.

هوامش المدخل

1 - Some extracts were published in Meyer (2005), and two interviews were reproduced in Dusfresne (2007).

INTRODUCTION

1 - Freud (1916-17), 284-5. The same idea is more fully developed in Freud (1917a), 140.

2 - Kant (1787), 21 : 'Thus far it has been presumed that all our cognition must conform to objects... Let us, therefore try to find out by experiment whether we shall not make better progress in the problems of metaphysics if we assume that objects must conform to our cognition... The situation here is precisely the same as was that of Copermicus when he first thought of explaining the motions of celestial bodies. Having found it difficult to make progress there when he assumed that the entire host of stars revolved around the spectator, he tried to find out by experiment whether he might not be more successful if he had the spectator revolve and the stars remain at rest.'

3 - Cited by Porter (1986), 291.

4 - Cohen (1976); Porter (1986).

5 - Brentano (1874), 2.

6 - Flournoy (1896), I.

7 - Stengers (1992).

8 - Freud (1933), 159·

9 - McIntyre (1958), 2.

10 - James (1999), 53·

11 - James (1892), 468.

12 - Stern (1900), 415.

13 - Flournoy (1903b). Flournoy republished this in his 1911 book, *Esprits et médiums*, a copy of which is to be found, not insignificantly, in Freud's library. This passage is found on page 266.

14 - Hall (1909), cited in Shakow and Rappaport (1968), 67.

15 - Gesell (1912), 20.

16 - Hall (1923), 360. In 1923, Hall wrote to Freud, 'in fact history will show that you have done for us a service which you are not at all extravagant in comparing with that of Darwin for biology'. In John Burnham (1960), 313.

17 - Jung (1907), 3-4.

18 - Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; cited in Alexander and Selesnick (1965), 5.

19 - Eder (1913), I.

20 - Jones (1913), xii; (1957), 345.

21 - Jones (1918), 256.

22 - Sulloway (1992a), 484. See Jones to Freud, 15 January 1931, in which he revealed that Huxley was 'the chief hero of my youth. As you doubtless know, he was nicknamed "Darwin's bulldog," and you would perhaps agree that my identification with him has not been entirely fruitless' (Freud and Jones 1993, 682).

23 - McDougall (1936), 149·

24 - Hoche (1910), 1009.

25 - Weygandt (1907), 302.

26 - Freud (1914a), 43. Columbus was added by Freud in 1924 in the second edition of this text. For Ferenczi's likening of Freud to Columbus, see below, p. 80.

27 - Wohlgemuth (1923), 227-8.

28 - Freud (1916-17), 20.

29 - Freud (1926a), 190-i.

30 - Assoun (1981), 191ff.

31 - Haeckel (1876), vol. 1, 38-9. As pointed out by Assoun (1981), 198 and 205, Haeckel did not differentiate between Lamarck and Darwin.

32 - Haeckel (1876), vol. 2, 264.

33 - Haeckel (1920), 19.

34 - Huxley (1926), cited in Ellenberger (1970a), 252, n. 139.

35 - Du Bois-Raymond (1883), 500.

36 - Haeckel (1920), 66.

37 - Haeckel (1902), 288-9.

38 - Freud and Abraham (2002), 344-5.

39 - Freud and Abraham (2002), 346.

40 - *The Lancet*, 231 (1938), 1341.

41 - Gould (1989), 44.

42 - Ellenberger (1973), 54.

43 - Freud (1914a), 22.

44 - Sulloway (1992a), 489-95.

45 - Strachey (1976), 23-4.

46 - Strachey, in Freud (1953-74), vol. 1, 257.

47 - Jones (1956), 122-3.

48 - Schwartz (1999), 40. It seems that, for Schwartz, the history of humanity before Freud was one long aphasia.

49 - Grubrich-Simitis (1997), 25.

50 - Lacan (2005), 334.

51 - Ibid., 429-30.

52 - Ricœur (1974), 172.

53 - Kuhn (1970), 4.

54 - On the notion of the 'black box', see the introductory chapter of Latour (1987).

55 - Blum and Pacella (1995), 105.

56 - Bloor (1976).

57 - For a useful overview, see Golinski (1998).

58 - See for example the corrections of Jung (1925), 16, and Janet (1919), vol. 2, 215ff.

59 - Janet (1919).

60 - In the following, we propose to reopen the controversies which surrounded psychoanalysis from the beginning. We do not necessarily subscribe to the positions advanced by Freud on the one hand nor his critics on the other, which are at times as problematic as his. To find cogency in the criticisms of psychoanalysis by figures such as Gustav Aschaffenburg, Eugen Bleuler, Alfred Hoche, August Forel, Pierre Janet, C. G. Jung, Emil Kraepelin or William McDougall does not imply that one accepts their diverse positions on psychiatry, psychology and psychotherapy. Similarly, in the contemporary context, criticising psychoanalysis does not mean that one is in favour of psychotropic medication or against psychotherapy.

61 - Ellenberger (1973), 54. The notebooks of this research are at the Centre Henri Ellenberger, Hôpital Sainte-Anne, Paris; see also Ellenberger (1970a), xiv.

62 - Ellenberger (1970b), 27-8.

63 - Ellenberger (1961).

64 - 'Individual legends-elements', typed notes, Centre Henri Ellenberger, Hôpital Sainte-Anne, Paris.

65 - Zilboorg (1941); Wyss (1961); Veith (1965).

66 - Ellenberger (1970a), 548.

67 - 'The uncertainties of psychoanalysis', typed notes, Centre Henri Ellenberger, Hôpital Sainte-Anne, Paris. See also 'Chapitre VII Freud Conclusion', manuscript notes, ibid.: 'That which Freud introduced... return to the system of the antique "sect" ... the most intimate initiation, considerable sacrifices of money, communal doctrine, cult of the Founder.'

68 - Sulloway (1992a).

69 - Interview with Frank J. Sulloway, Cambridge, MA, 19 November 1994.

70 - Ibid.

70 - Campbell (1968).

72 - Freud (1939), 139.

73 - Ellenberger (1973), 56.

74 - Interview with Frank J. Sulloway, Cambridge, MA, 19 November 1994.

75 - This term seems to have been used for the first time in Freud studies by Sulloway (1992a), xvii. It is important not to confound it with 'revisionism' in the Marxist sense, or even less with the 'revisionism' of Holocaust deniers.

76 - Cioffi (1974); (1984). John Forrester (1980) also showed the gap of more than a decade between Freud's comments on the significance of the Oedipus tragedy and its elevation into the core complex of the neuroses, the Oedipus Complex (in the meantime borrowing the term 'complex' from Jung).

77 - Lothane (1989), 215; Spector (1972), 58.

78 - Mahony (1986), 69, 81, 215; (1996), 8-9, 55-6, 139-40; Anthony Stadlen cited by Macmillan (1997), 640.

79 - Israëls and Schatzman (1992) and Mahoney (1992b).

80 - Bernfeld (1946); Swales (1982b); Skues (2001).

81 - Ellenberger (1972); Hirschmüller (1989); Borch-Jacobsen (1996).

82 - Ellenberger (1977).

83 - Swales(1986).

84 - Swales (1995); see also the 'Memorandum for the Sigmund Freud Archives' drawn by this patient's daughter, Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

85 - Obholzer (1982).

86 - Masson (1992), 241-58.

87 - Vogel (1986).

88 - Falzeder (1994a).

89 - Mahony (1992a).

90 - Lynn (1993).

91 - Edmunds (1988).

92 - On 'Katharina', see Swales (1988); on 'Dora', Stadlen (1989).

93 - Time, 29 November 1993.

94 - Webster (1995).

95 - Israëls (1999).

96 - Forrester (1997a).

97 - Meyer (2005).

98 - The most striking example is the exchange which followed the publication of a series of articles by Frederick Crews on Freud in the *New York Review of Books*, collected in Crews (1995).

99 - Smith (1995).

100 - Malcolm (1984), 7.

101 - Eissler (1971), 91-2; allusion to Freud's diagnosis of Daniel Paul Schreber as paranoid, on the basis *of his Memoirs of my Nervous Illness* (Schreber 1955 (1903)).

102 - Major (1999), 76.

103 - Yerushalmi (1996), 144.

104 - Available online at http://users. rcn.com/brill/swales.html.

105 - Available online at www.zetetique.fr/index.php/dossiers/94-critique-psychanalyse.

106 - France has since witnessed no less than two other 'guerres des psys' on the occasion of the publication of The Black Book of Psychoanalysis (Meyer 2005), and of Michel Onfray's The Twilight of an Idol. The Freudian Fabrication (Onfray 2010).

107 - For more on this comic episode, see Mikkel Borch-Jacobsen and Sonu Shamdasani, 'Une visite aux Archives Freud,' in Borch-Jacobsen (2002), 271-6.

الفصل الأول

إنشاء علم خاص

أعتقد أن إحدى الروابط الكبرى بيننا هي إحساسنا المتعلق بالعلم، ولما يعنيه العلم، وأظن صادقا أن فرويد كان له دائما هذا الفهم الواضح لذلك.

من أرنست جون إلى ماري بونبارت، 2 يونيو 1954

ولماذا تدور هذه النزاعات والمساجلات الجارية حول تاريخ التحليل النفسي وحول الكيفية التي كتب بها؟ ولماذا هذا التناحر العنيف من كلا الجانبين، ولماذا هذه المعارك والحروب؟ وقبل كل شيء، فإن الانتقادات الفلسفية والإبستمولوجية والسياسية للتحليل النفسي، لم تثر قط مثل هذا الغضب الهائج، ولقد كان التحليل النفسي قد غاب على كارل ياسبرز كونه بقي عليه فهم التأويل الهيرمينوطيقي والعلوم الطبعية. كما غاب على جون بول سارتر كونه خلط بين الكبث «والنية السيئة» وعلى فيتجينشياين كونه لم يميز الأسباب والعلل، وعلى كارل بوبر لأنه حاول أن يتجنب فيه التزييف والتكذيب العلمي، وعلى أدولف كرنبوح، اقتراحه تصحيحا عياديا غير منسجم من الوجهة الإبستمولوجية، وعلى ميشيل فوكو لكونه أنتج ضربا من الجنسية تحت غطاء تحريفها وتحطيمها، وبالإجمال، إنه لا واحد من هؤلاء استطاع أن يؤثر في أصحاب التحليل النفسي، وحتى الاستفزازات وعنف الخطابة الرفيعة لكل من جيل دولوز وفيلكس جاتري (ضد أوديب)، ثم لم تؤد بهم إلى فقدان رباطة جأشهم، وخلافا لذلك، لم يتشوش بال المؤيدين للتحليل النفسي من أجل تلك المناقشات، لأنها وضعت الشرعية لعلمهم، تاركة الأنصار أن يخرجوا سالمين ويتحصنوا في دوائر خاصة في عيادات التحليل النفسي، وغالبا ما يقال إنه كلما احتد النقاش حول فرويد، كلما

تأكدت قوته ودلالته، فلماذا إذا، هذه المشاعر والأحاسيس المباغتة، في ما يخص التفاصيل التاريخية، وبعضها قد ظهر لأول النظر كما لو كان مبتذلا؟ ولماذا كان من الأهمية بمكان بالنسبة إلى التحليل النفسي، أن يتشبث برواية الأحداث كما سجلها فرويد، وكاتبو سيرته الذاتية فهل هو مجرد سؤال للمناقشة بين الخبراء، ونزاع بين المؤرخين، كما نرى نحن في غالب الأحيان؟ وقد يكون الأمر لا يخص هذه الحالة، لأن النقاش هنا ليس فقط نقاشا بين نزاعات المؤرخين أو طرائق تأويل الوثيقة التاريخية، بل الشأن أعمق بكثير من ذلك؛ إذ يغرى المؤرخين ضد الرواية المنزوع عنها صفة التاريخية على نحو جذري؛ إذ أنها ألبست متنكرة في زي التحليل النفسي، ومن هذه الوجهة من النظر، فإن ضروب التشابه بين «معارك فرويد» «والمعارك العلمية» التي حمي وطيسها في مواضع أخرى بين المؤرخين والسوسيولوجيين والأنتروبولوجيين من ناحية، وأصحاب إيديولوجية العلم من ناحية أخرى، وفي كلتا الحالتين، فما كان موضع رهان هو الوضعية التاريخية العلمية ومقابلها من النسبية عن الوقائع والأحداث والكشوفات والحقائق اليقينية، المقدمة أصلا خارج الزمان، وكونها كلية متمرسة ضد التقلبات والاحتمالات التاريخية (وليس بذات أهمية تحليله هنا، ما إذا، كان التحليل النفسي نفسه يسمى علما أو ليس به، كما يقدم نفسه كنظرية كلية وجودية عامة صحيحة إطلاقا، ولم تكن النقاشات خارجة عن العلم أو عن النظرية، لأنها كانت ترجع إلى تعريف وجود الحدود والتخوم نفسها.

وهل يستطيع أحد أن يفصل العلم والنظرية عن التاريخ؟ وحتى نتبنى التمييز المشهور عند ميرتون، نقول: هل يمكن لإنسان أن يفصل ما هو ظاهر عما هو باطن أو ما هو خارج عما هو داخل؟ [2] وكما كان يرى ريشنباخ، فهل يستطيع الإنسان أن يرسم حدّا فاصلا بين سياق الاكتشاف (وصف الرواية التقديرية لظهور المفاهيم) وسياق التبرير (المعنى الأخص للعمل العلمي البرهاني!). وعلى هذا، فإن وضع تخوم فاصلة هو الذي أنشأ مثل هذه الأكاذيب والمفتريات لدى مؤرخي العلم الجدد والتحليل النفسي؛ ذلك لأن وضع الحد الفاصل يطرح مسألة مطالب هذا النوع من المعرفة أو تلك بحقها في رتبة العلمية وهيمنتها النظرية.

على أن المقارنة بين «معارك فرويد» و«الصراعات العلمية» تقف هنا؛ إذ أنه حتى لو أحس بعض العلماء بهجوم على أهم قناعاتهم الذاتية، من جانب الوضعية التاريخية العلمية، فإن الذين كانوا مهددين يعتبرون قلة، وخلافا لذلك لم يكن كثير من العلماء لا يبالون أن يظهروا ملاحظاتهم ومختبراتهم للمؤرخين والأنتروبولوجيين، عندما يسألون عن ذلك؛ كما أنه لم يكن بعضهم يتردد في أن يعترف كيف أنهم كانوا يرسمون، حتى عندما يستنتجون نتائج مختلفة عن أولئك الذين كانوا ملاحظين لها[3]. وهذه علامة على أنهم كانوا يشعرون على أنهم أقوياء بما فيه الكفاية؛ حتى يتحملوا الاختبار التجريبي للتحقيقات والأبحاث التاريخية والأنتروبولوجية. ولم يكن الحال على هذا بالنسبة إلى التحليل النفسي عندما ينظر بوجه عام إلى التدخلات المتطفلة للمؤرخين في شؤون «المختبر الفرويدي»، كأنها انتهاك غير مقبول ينبغي إنهاؤه، ولما كان كل فرع للمعرفة يهتم بالماضي، كان التحليل النفسي شديد الحساسية بشكل غريب إلى تاريخه الخاص وذلك لسبب وجيه: لأنه هنا بالضبط يكون أكثر تعرضا للانتقاد.

إيزابيل ستنجر: لقد حاولت دوائر التحليل النفسي، وذلك بنجاح منقطع النظير حتى الآن، أن تحتل ميدان الحاضر بصفة نهائية، وأن توقف المؤرخين عن أن يصلوا إلى الوثائق، والدوائر المودعة فيها السجلات التاريخية، فكل شيء يحدث، يعتبر كلا ما وقع لفرويد منذ مائة سنة مضت، لا يزال سرا خاصا مما يبرر حجز هذه السجلات الوثائقية، مصادرة والرقابة على المراسلات وإعاقة متابعة المؤرخين أن يقوموا بعملهم، ويلزم أن نعتقد بأن أسرار التحليل النفسي هي أسمى من أسرار الديبلوماسية أو التاريخ الدولي، واليوم يمكن أن يعرف الإنسان بأن تشرشل كان قد قرر أن يترك كونفتري يقدف بالقنابل وكان هذا أسهل من أن يكشف للألمان بأن بريطانيا قد فكت رموز شفرتها لكن مع كل هذا، لا يزال الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى هذه الرسالة أو تلك من رسائل فرويد، التي يمكن أن تخبره بهذا التفصيل أو ذاك من حياته الخاصة نفسها، ويشبه أن يكون في هذا سر من الأسرار يكاد ينفجر؛ إن حلم أحد الناس أن يذيعه في الملإ من البشر، وهذا خلف في القول: أما في ما يخصني أنا فإنني أقول في هذا الموضع، بأني أرى هنا علاقة على أن التحليل النفسي فشل أن

يتخذ نظاما عاديا للإنتاج العلمي، وخلافا لسائر العلوم، يكون التحليل النفسي شديد الحساسية لماضيه[4].

«التحليل النفسي من ابتكاري»

والمعنى الحقيقي لهذه الحساسية يظل غير مفهوم هل هو مجرد سؤال عن أسرار «سائر الإنسانية» بصدد مؤسس السيرة الذاتية التي لا تمثل إلا عوامل خارج النظرية؟ وعلى هذا لم يكن فرويد، كما يلاحظ كاتبوا سيرته الذاتية إجماعا يحب هؤلاء الكتاب لسيرته، وكان يعمل كل ما في وسعه حتى يجعل مهنتهم صعبة بل متعذرة[5]؛ إلا أنه على الأقل في حالتين، سنة 1885، وسنة 1907، كان فرويد قد اتلف معظم ملاحظاته ومذكراته، ويومياته الحميمية وأوراقه الشخصية وهي محرقة حقيقية، هلكت معها على وجه الاحتمال رسائل ذات قيمة لا تقدر بثمن، لفهم أصول نشأة التحليل النفسي؛ كرسائله مع بروير وفليس وأوغست فوريل، وهافلوك أليس وليوبولد لونفلد... والأمر نفسه وقع سنة 1938[6] وكذلك 1939[7] ويعرف البعض أن فرويد كان قد أتلف رسائله إلى ويلهيلم فيلبس؛ إن لم يكن ذلك رفضا من جانب ماري بونبارت، التي حصلت على هذه المراسالة بشرط صريح ألا تعود ملكيتها إليه.

من فرويد إلى ماري بونابارت 31 يناير 1937 : وفي ما يخص مراسلتي مع فيلبس، فقد أثرت في بالغ التأثير، لأن مراسلتي أعز شيء علي، وألصق بذاتي وأعلق مما تتصورين، ويزداد انزعاجي أن لو وقعت المراسلة في يد أجنبية... ولا أريد أن تصير رسالة واحدة من رسائلي معروفة، لمن يطلقون عليهم الخلف أو الذرية أو الأجيال القادمة.[8]

يومية ماري بونابارت مقيدة في 24 نونبر 1937 : لكن في ما بعد، في نهاية فبراير أو بداية مارس في سنة 1937، عندما رأيت فرويد في فيينا، وأخبرني أنه يريد أن تحرق رسائله رفضت ذلك منه، ثم قال لي في يوم ما : «أتمنى أن أقنعك بأن تتلفيها».[9]

من فرويد إلى مارثا بيرني 28 أبريل 1985 : وفي الحقيقة، فإن أحد مقاصدي الذي كدت الآن أن أنهيه، كان الغرض منه بألا يستاء عدد من الناس

غير المحظوظين ولم يولدوا بعد، مما فعلته، ولما كنت كأي نوع من الناس أحيل إليهم، فسأقول لك في الحال : إنهم كاتبو سيرتي الذاتية، فلقد أتلفت جميع مذكراتي منذ أربع عشرة سنة خلت، وكذلك الرسائل، والشواهد والاقتباسات العلمية ومخطوطات مقالاتي وأما ما يخص أصحاب السيرة الذاتية فلنتركهم يقلقون، ولا توجد لدينا رغبة أن نجعل الأمر سهلا، ميسرًا عليهم؛ إذ كل واحد منهم يمكنه أن يكون صادقا في رأيه حول «نمو البطل» وأنا الآن متطلع إلى أن أراهم تائهين، ضالين.[10]

من فرويد إلى كاتب سيرته الذاتية[11] غير الملتمس منه ذلك ولا مرغوب فيه، فرتز ويتلر 8 دجنبر 1923 : لا حاجة إلى القول إني لم أرغب قط، أو توسلت بطرائق أخرى لمثل هذا الكتاب (ويتلز 1924).

ويبدو لي أن الناس لا يدعون شيئا من معرفة شخصي، كما لا يريدون أن يقرأوا عني شيئا، ما دامت حالتي (لأسباب عديدة ومتنوعة) لا يمكن أن تكون شفافة وواضحة على نحو كامل.[12]

ويمكن للإنسان أن يقول، إن في هذا ما يكفي وضوحا؛ إذ لا يجب على أحد الناس أن يفتش له عن حياته الخاصة من أي نوع كان، ومن ذا الذي يريد أن ينتقد فرويد لكونه أراد أن يقاوم الفضول غير المميز لدى كاتبي سيرته الذاتية ومؤرخيها؟ غير أن هذا التحفظ من جانب فرويد (وهذه الرقابة الذاتية) كان مشفوعا بكتابه السيرة الذاتية الشخصية النشطة، والعالي على مستوى الجمهور، وإن كان يدمجها في عرضه لنظرية التحليل النفسي نفسها، ومن هذه الوجهة من النظر لا يمكن أن نرد مداراة فرويد لمؤلفي سيرته الذاتية إلى مجرد شأن خاص، بدون نتيجة راجعة إلى التحليل النفسي؛ ذلك أن عرض النظرية كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بطريقة عرض المؤسس نفسه، وما يؤثر في الأول لا محالة يؤثر في الآخر.

فرويد : التاريخ : إن الطريق الأمثل لفهم التحليل النفسي، هو أن يقتص الإنسان أثر أصله ونموه[13] وفي وقت مبكر جدًا، ابتداء من عرضه المجمل أو الموجز في التحليل النفسي، كان فرويد قد قدم «خمس محاضرات في التحليل النفسي» في مؤتمر كلارك سنة 1909، وفيه ابتدأ هذا الرجل يعرض مذهبه في

صورة سيرة ذاتية سردية، وإذا، كانت العبارة الأولى منسوبة إلى أبوة أبي التحليل النفسي، جوزيف بروبر، فإن سائر النص المقدم يرسم تطور فرويد نفسه، انطلاقا من تركه للتطهير عن طريق التنويم المغناطيسي، إلى تطبيق التحليل على مشكل الإبداع الفني، مرورا بالكشوفات المتلاحقة؛ من الكبت ومعنى الأحلام والجنسية الطفلية، وهذا النمط من السيرة الذاتية المعروضة، إنما وقع التركيز عليها في مؤلفات من نحو : «تاريخ حركة التحليل النفسي»، وكذلك «الموجز في التحليل النفسي»، وتوجت «في دراسة السيرة الذاتية» له، مما يمكن طلبه عند كروت في الجزء الرابع من [الطب المعاصر في السيرة الذاتية]

فرويد : لقد كنت نشرت أكثر من مرة، مقالات حول الفكرة نفسها كما هو واقع الآن، وهي أبحاث تتعامل من خلال طبيعة الموضوع، باعتبارات شخصية بأكثر من المعتاد، أو مما يمكن أن يكون غير ذلك بالضرورة.

ولما كنت لا أناقض نفسي، وكذلك لما كنت لا أتمنى أن أكرر ذاتي تماما فلقد وجب علي أن أسعى إلى بناء نوع من السرد القصصي، تجتمع فيه الأبحاث الذاتية والموضوعية، والاهتمامات التاريخية والسيرة الذاتية، اجتماعا على ضرب من التناسب الجديد.[14]

ولكن، قد نتساءل : وهل تقتضي : «طبيعة الموضوع» هذا التأكيد على «الاعتبارات الشخصية»؟ إننا قد صرنا معتادين على هذا التقديم في السيرة الذاتية للتحليل النفسي التي لم تعد تلاحظ فيه غرابة هذه العبارة، وقبل كل شيء: لماذا ينبغي أن يكون هناك ارتباط داخلي بين التحليل النفسي وشخصية فرويد؟

إلا أنه ليست صورة السيرة الذاتية، من حيث هي ما يطرح المشكل، لأن فرويد لم يكن الرائد الأول للسيكولوجيا وطب الأمراض العقلية يتبناها؛ إذ يمكن للإنسان أن يفكر في مذكرات فونت وستانلي هول، وأوغست فوريل، وإميل كرائلين وألبرت مول وهالفوك إليس، ثم أخيرا يونغ[15] ولذلك كانت هناك، ابتداء من سنة 1930، مجموعة منتظمة من تفسيرات واعتبارات خاصة بالسير الذاتية لشخصيات أساسية في السيكولوجيا، مثل بير جانيه وويليام مكدونل وجيمس مارك بالدوين وواطسون وويليام شترن وإدوارد كلايريد وجان بياجي، وكذلك كورت جولد شتاين، ولا يحتاج الإنسان إلا أن يتمعن هذه الأجزاء الضخمة:

«تاريخ السيكولوجيا في السيرة الذاتية[16] التي ابتدأ نشرها تحت الناشر كارل مورتشرون، حتى يرى بأن عدد كاتبي السيرة الذاتية لمعاصري فرويد لم يكونوا بأقل «موضوعية» وأقل انحيازا منه واهما لا لغيره[17]، فهذا واطسون بوجه خاص، لم يترك شيئا لفرويد في ما يخص الطعن العدواني.

جون برودوس واطسون : إن «الحرب» أفسدت عملي... لقد رجعت إلى واشنطن، ونقلت إلى لجنة الطب في الطيران لأشتغل تحت إمرة الكولونيل كرابتري على حرمان الأوكسيجين : وقد يشتغل بعض الناس على غير رضاهم ويتورطون في المشاكل؛ لأن لجنتي الخاصة كانت قد سألتني أن أكتب لها مباشرة لا عن طريق القنوات العسكرية، كما أراه وأعتقده في «الاختيار الدوري المشهور»، ولقد كدت أحاكم عسكريا لأعمل هذا... ورجعت إلى الكولونيل كرابتري في الطيران بملاحظة : «ليس مسموحا له أن يخدم بلده في قدرته العلمية بل ينبغي أن يرسل إلى خط القتال...» وبعبارة أخرى، كان الأمر يستلزم أن أقتل بسرعة. إن التجربة العسكرية حكايتها كانت كابوسا وخبرة مروعة بالنسبة إلي، إنني لم أر قط مثل هذا النمط من عدم الكفاءة، وهذا الغلو، بل مثل هذه الجماعة المتغطرسة والدونية، وهل يتحدث الإنسان عن زنجي في بذلة عسكرية![18]

غير أنه لا واحد من معاصري فرويد قد ظهر أنه يتعين عليه أن يربط نظرياته بشخصيته الخاصة؛ وذلك لسبب وجيه، وهو أن هذا كان يعني أن يقع الشك في موضوعية النظرية بجعلها تعبيرا عن تنظيره الذاتي[19]، وخلافا لذلك، لم يكلف فرويد نفسه قط أن يؤكد على الجانب الموضوعي، والذاتي والكلي والجزئي، من خاصية نظرية التحليل النفسي.

فرويد : لا يستغربن أحد من الخاصية الذاتية للإسهام الذي أقترح أن أضعه هنا لتاريخ حركة التحليل النفسي، كما لا ينبغي أن يدهش في الجزء الذي اضطلع به فيه... لأن التحليل النفسي هو من ابتكاري... وأعتبر نفسي مبررا لأن أتمسك بالقول إنه حتى في هذا اليوم لا أجد أحدا يعرف أفضل ما أقوم به للتحليل النفسي، وهو أنه كيف يختلف عن سائر طرائق البحث في حياة الذهن؛ وبالضبط ما ينبغي أن يطلق عليه التحليل النفسي، وما يكون من الأفضل أن يصفه بعض الناس باسم آخر.[20]

فرويد، معتبرا يونج ومدرسة زوريج : إنهم كارهون أن يتخلوا عن ارتباطاتهم بالتحليل النفسي؛ كما أن تمثيليتهم أصبحت معروفة للجميع ويفضلون أن يخرجوا منه على أنه قد تغير، وفي مؤتمر مونيخ، وجدتني مضطرًا لأن أوضح هذا الخلط، وقد قمت كذلك بالتصريح بأنني لا أعترف بالتجديدات لرجل سويسرا، كمتابع مشروع له الاستمرار، والبقاء في التحليل النفسي الذي أصلته وطورته.[21]

وهنا يسجل فرويد التحليل النفسي ضمن الميراث الأبوي المباشر، مما ليس من سلالته، وما لم ينحدر مباشرة منه كأب للتحليل النفسي، لا يمكنه أن يحمل اسم التحليل النفسي، وإذا، كان التحليل منسوبا إلى فرويد، كان ينبغي أن نفهم منه على نحو ما نفهم الذي يتكلم عن فيزياء «نيوتن» و«طب باستور»، وأيا كان الدور التاريخي لنيوتن أوباستور في التنظريات التي تحمل اسميهما، فإن الذاتية والشخصية لا تلعبان أي دور في النظريات نفسها، أو في المناقشات والسجالات التي أثارتها؛ ذلك أنه سواء أكان السير اسحاق نيوتن أم غيره هو الذي صاغ مجموع القوانين الأربعة الموجودة في كتابه «المبادئ»، فلا يهم في شيء عالم الفيزياء الذي يقترح أن يختبر هذه القوانين أو أن يتسع فيها أو أن يرفضها لأن حركة العلوم الحديثة، كلما عبرت أو وضعت النظريات أو الأنطولوجيات العامة القادرة على إحداث اتفاق كلي، كلما كانت مرتبطة بما يسميه ميرتون : «الشيوعية» العلمية؛ أي رفض فكرة الخصوصية في موضوعات المعرفة، وانتقاد الحجة من جهة السلطة، سواء فهمت من منظور عقلاني ديكارتي أو من منظور اختباري تجريبي عند بويل، وهذا الرفض يؤدي إلى الشيء نفسه: إذ في كل حالة يتعلق الأمر بالاحتكام إلى «فكرة البداهة والوضوح» أو إلى الأمر الواقع مما هو بينة تلزم كل أحد، ويمكن أن يكررها كل أحد من الناس في استقلال عن شخصية العالم المحصل، وبالنسبة إلى الفكر المعاصر، تكون المعرفة مشروعة فقط حينما تكون غير شخصية بالنسبة إلى كل أحد حتى يوافق عليها، وبعبارة أوسع، حينما لا تنتمي المعرفة إلى أي أحد بوجه خاص، وقد لاحظ ستفن شابين، وهو يعرض أعمال نيكلاس لوهمان وأنطوني جيدنز[22] قائلا، إن أعظم انتقاد لسمات «الثورة العلمية» مما كان يجري في القرن السابع عشر، هو الإهمال

والترك المتدرج للتصديق والطعن، ونزع الثقة الموضوعية في الشهادة الفردية، لأشخاص كانوا يصدقون ويحكم عليهم بالنزاهة والفضيلة، خدمة لمؤسسات مجهولة، نكرة، قائمة في أساسها على آليات نقل التصديق الفردي والتنظيم الذاتي المشبوه.

ستيفن شابين : إن الحداثة تضمن المعرفة، لا بالرجوع والإحالة على الفضيلة بل على الخبرة، وعندما نصدق- لأنه يجب أن نؤمن- الأنظمة المعاصرة للتكنولوجيا والمعرفة، فلا يقال عن تصديقنا إنه يكتسي طابعا أخلاقيا للأفراد الذين يهمهم الأمر، بل إنما التصديق هو الإيمان بالخبرة الصحيحة المنسوبة إلى المؤسسات، وخبرة الأفراد هي نفسها معتبرة شهادة شاهدة على من يتكلم، وعلى الأصول القصوى لتلك الخبرة.[23]

وبالعكس من ذلك، يشبه أن فرويد كان يرجع إلى وضعية ما قبل الحداثة حينما يلح على الكيفيات أو الصفات الخلقية التي تمكنه من أن يكشف باطل مستورا إلى آخر الهالكين، وفي الحقيقة، إذا، كانت «طبيعة ذات» المحلل النفسي وفرويد لا ينفصلان، فإنما كان الأمر على ذلك الحال؛ لأنه لا يكفي أن يعثر صدفة على «اللاشعور» وينعت باكتشافه، بل لابد من الشجاعة والإخلاص، حتى يتمكن من أن يواجه التصديق المعتم لفكرة الجنسية، وضروب المقاومة العديدة التي أثارتها، ولا يمكن أن يواجه مثل هذه المهمة الرهيبة إلا رجل بدون فزع ولا عتب، وهو المدعو فرويد.

من فرويد إلى ماري بونابارت 16 دجنبر 1917 : لو أنك علمت من هوبروير، لعرفت بأنه كان أعظم عقل وفكر، يفوقني كثيرا، ولم أكن أتحلى إلا بشيء واحد، هو الشجاعة لأقف ضد الأغلبية واثقا مؤمنا بنفسي.[24]

فرويد : إني أعامل إسهاماتي وكشوفاتي على أنها قيم مضافة للعلم وأتمنى أن تتلقى بالروح نفسها؛ إلا أنني – قد فهمت من الآن فصاعدا- كنت من أولئك الذين : «عكروا صفو نوم البشر» كما قال هيبل، وأنه لا يمكنني أن أعتد بالموضوعية والتسامح؛ إلا أنه مادام اقتناعي بالدقة العامة لملاحظاتي واستنباطاتي يزداد قوة، وكانت تقتي في حكمي ليست بالضبط قليلة، ولو كانت شجاعتي الأخلاقية ليست ضعيفة، فلن تكون النتيجة في هذا الوضع مشبوهة.[25]

وليس هذا كل ما في الأمر، ذلك أنه كان على فرويد أن يتغلب على المقاومة الداخلية لتصديق الحقيقة، وإلا لم يكن بإمكانه قط أن يواجه العراقل الخارجية التي تصادفه طوال طريقه، وهذا عنصر مركزي في قصة فرويد، كما يرويها لنا وهي تفسر لماذا كان هو وحده «المكتشف» للاشعور؛ إذ لم يكن أحد من الناس قادرا على أن يواجهه صدق اللاشعور وحقيقته بدون معونة التحليل. ونتيجة لذلك فإن المحلل الرئيس الأول كان يتوجب عليه أن يكون محللا لنفسه وقد قلنا بأن فرويد كان أول واحد في تاريخ الإنسانية من استطاع أن يقوم بتحليل نفسيته، ولذلك أمكنه أن يسمو فوق ضروب الكبت، التي كانت تمنع سابقيه ومعاصريه من أن يروا- وفي الحقيقة، كل إنسان كان يمكن أن يرى الحقيقة صادقة ويقينية، ويدعي فرويد في كتابه : «تاريخ حركة التحليل النفسي» أنه بفضل تحليل أحلام المرضى ممن عالجهم، وتحليله لنفسيته، وجد الشجاعة في أن يواصل عمله وإن كان يبدو دالا على الخزي والشناعة مما يعاقب عليه، وتعرض له من يكرهه.

فرويد : لقد كان نجاحي في هذا الاتجاه هو الذي مكنني من المثابرة والمواظبة... وعلاوة على ذلك، رأيت ضرورة إنجاز التحليل الذاتي لنفسيتي في وقت مبكر، وهذا ساعدني أن أعمل على سلسلة الأحلام الخاصة بي، وهي التي قادتني إلى الوراء خلال أحداث طفولتي، ولازلت أرى حتى الآن، بأن هذا النمط من التحليل يمكن أن يفي بغرض كل أحد من الناس يحلم الأحلام الجميلة وليس شاذا.[26]

وتلتف النظرية حول نفسها على وجه لا يخطئ مفسرة اكتشافها الخاص والرابطة التي لا تفصح عراها، مما أقامه فرويد بين موضوعه وشخصه الخاص أصبحت الآن واضحة، إن فرويد كان هو نفسه «طريقا ملكيا» إلى اللاشعور ومن الآن فصاعدا، لن يكون هناك طريق آخر إلا طريق فرويد وبدل مثالية تكرير التجربة الموضوعية، في استقلال عن المجربين، استبدل بها التنافس المحاكي للسيد المحلل الرئيس، الذي يعرف ماذا يفعله الآخرون، وإذا، ينبغي أن يكون التحليل النفسي علما خاصا من ابتكار فرويد.

من ساندور، فرنزي إلى فرويد 17 مارس 1911 : وبالتأكيد، فإنه لا توجد قط حركة فكرية استطاعت أن تلعب فيها شخصية المكتشف دورا بالغ الأهمية، مثل ما فعلته شخصيتهم في التحليل النفسي.[27]

هاري، ك. ويلز : إن التحليل النفسي في خاصيته، هو بالأساس إنتاج تحليل فرويد لنفسيته.[28]

أرنست كريس : إن أول نتيجة، ولربما أهمها لتحليل فرويد لنفسيته، كانت الخطوة الأولى من نظرية مغرية إلى استبصار كامل؛ بدلالة الجنسية الطفلية وفي صيف وخريف سنة 1897، كشف تحليل فرويد لنفسيته عن السمات الجوهر لعقدة أوديب، ومكنته من أن يفهم طبيعة الكف عند هاملت، وكان هذا استبصارا بدور المناطق الشهوية في نمو الليبيدو الذي تلا ذلك.[29]

أرنست جونز : لقد شرع فرويد في صيف سنة 1897 في عمله البطولي- التحليل النفسي بلاشعوره الخاص... وظل هذا العمل الفذ باقيا، وما عمله مرة واحدة قد كتب له أن يعطى إلى الأبد، لأنه لا يمكن لأي أحد أن تكون له القدرة مرة أخرى على أن يستقصي البحث في تلك الأعماق- وأي شجاعة أخلاقية فكرية لا تقهر كنا نحتاج إليها[30]

إيسلر : ونرجع في هذا الموضع إلى شخصية فرويد- لقد كان اكتشافه يقتضي منه أن يصارع ويقهر ما لاقاه من مقاومات متطرفة- ويمكن أن نقارن تحليل فرويد لنفسيته، بما تتضمنه من مخاطر بطيران بنيامين فرانكلين في العاصفة الرعدية سنة 1752، ليبحث في قوانين الكهرباء، والشخصين الآخرين اللذين حاولا أن يكررا التجربة قتلا معا[31]، والتحليل النفسي الذاتي أحق أن يصفه دائما كاتبو سيرة فرويد الشخصية، بكونه بطلا غير مسبوق وجود مثله، والإنسان الأعلى كان نواة نشأة الأسطورة الفرويدية؛ إذ يكون مفيدا أن نرسم كيف ولماذا اكتسب هذه المركزية، إذ في مستهل هذا الأمر لم يكن يوجد شيء أصيل وفذ في ممارسة التحليل الذاتي للنفس، إذا، تصورناه كاستبطان للملاحظة الذاتية. فقد كان تحليل فرويد لنفسيته بطيئا، متدرجا في التشييد والارتفاع إلى مكان شبه خرافي في صميم حركة التحليل النفسي وقتئذ.

توماس هوبز : إن كل من ينظر في نفسه ويعتبر ما يفعله، حينما يفكر ويرتئي رأيا ما، ويستدل، ويتمنى ويخاف... فقد يظهر له على أي شيء يتأسس ذلك، وحينئذ سوف يقرأ ويعرف أي شيء هي الأفكار والمعاني والأهواء والميول الموجودة لجميع الناس في مثل تلك المناسبات[32]

إيمانويل كانط : وأمنية الجاسوس في أن يقامر على نفسه، هي أمنية تعكس النظام الطبعي للقوى المعرفية... ذلك أن رغبة البحث الذاتي إما أن تكون مرضا عقليا (المصاب بوسواس المرض) وإما أن تؤدي إلى مثل هذا المرض، وفي الغاية القصوى، إلى مستشفى المجانين.[33]

أوجست كونط : لا يمكن أن يقسم المفكر نفسه إلى قسمين : أحدهما يستدل، في حين يلاحظ القسم الآخر عملية استدلاله، فالعضو الملاحظ (بكسر الحاء) والعضو الملاحظ (بفتحها) لما كانا متطابقين في هذه الحالة، فكيف تقع حينئذ الملاحظة؟ وإذا، فإن هذا المنهاج السيكولوجي «الاستبطان» المزعوم باطل أساسا.[34]

ويليام جيمس : وهذا الملاحظ، مثله مثل معظم السيكولوجين...يجعل من شخصيته العجيبة الأطوار قاعدة.[35]

ولو رجعنا بتحليل فرويد لنفسيته في الإطار الواسع للسيكولوجيا، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لوجدنا تحليله لنفسه الخاصة فصلا واحدا في تاريخ الاستبطان، ومن الأهمية بمكان، أن نتذكر أنه أثناء القرن التاسع عشر، بالرغم من النقد القاسي ضد الاستبطان، مما عبر عنه بعض الأعلام من نحو كانط وكونط، فهو قد استثمر منهاجا رئيسا للسيكولوجية الفلسفية. وفي بادئ الأمر إيتغير هذا الاسم مجيء الفلسفة العلمية الجديدة وقد تمسك فرانز برينطانو بأن السيكولوجيا كأي علم طبعي، يجب أن تتمسك بالإدراك والخبرة ومن ضمنها على نحو واضح الإدراك الذاتي في هذا...

برينطانو : وفوق كل شيء، ينبغي أن يلتمس مصدره في الإدراك الداخلي للظواهر الذهنية الخاصة.[36]

وتظهر بالنسبة إلسيكولوجيا الجديدة، الخبرة الداخلية، كما لو كانت ميدانا للاستقصاء والبحث والاستكشاف، وقد كان من الطبعي أن يمارس السيكولوجيون الملاحظة الذاتية، والخبرة الذاتية (التي لا تزال تستعمل في

الطب حتى وقتنا هذا) والأعمال المسماة باسم فريد موري وجوزيف ديلبوف (النوم والأحلام)[37] هي أمثلة جيدة على هذا النوع من الاستبطان، وفي الوقت نفسه فإن ما يبدو لنا اليوم غريبا، هو أن ذوات المجربين الأولين في السيكولوجيا التجريبية الجديدة كانت هي ذواتهم أنفسهم- ونذكر أسماء كثيرة منها هي فيستر، وهيرنغ وهيلمهولتز وإينجهاوس[38]. وطرائق إجراء التجربة، حتى في مختبر فونتن حيث كان المجربون يختبرون أنفسهم لذوات الخبرة، كان يقصد بها أساسا جعل الاستبطان أكثر ثباتا وتكرارا في خبرته، لا حذف هذا الاستبطان إطلاقا، وإنما وقع الأمر في ما بعد، مع ظهور المناقشة المشهورة حول «الفكر بلا صور»، وكان من نتيجة هذا النقاش أن هجر على التدريج الاستبطان كمنهاج في السيكولوجيا وبخاصة لصالح التجريب على الشخص الثالث، مما عزرته النزعة السلوكية برفض منهجها لكل الأحوال الذهنية، ومن هذه الوجهة من النظر، فإن قرار فرويد، في نهاية صيف 1897، أن يتخذ نفسه موضوع بحث وخبرة، لم يكن قرارا استثنائيا في سياق هذه الفترة، وخلافا لذلك، كان هذا عملا روتينيا ومتوقعا.

من فرويد إلى ويلهيام فليس 14 غشت1897 : إن المريض الرئيس الذي أشتغل عليه هو ذاتي، وهستيريتي القليلة، وإن كانت قد اشتدت كثيرا مع عملي فهي قد أعطت الحل لنفسها نوعا ما...والتحليل هو أصعب شيء؛ لأن ما وقع في الحقيقة هو أن عطل قوتي النفسية وشلها أن تصف وتبلغ ما ربحته بمشقة لكني أعتقد أن هذا يجب أن يتم، إذ هو مرحلة ضرورية وسطى في عملي.[39]

وإذا، نظرنا إلى تحليل الذات، بالمعنى الضيق للتحليل الطبي العلاجي، المنظم والمتمركز على تجميع ذكريات الطفولة، ظهر هذا التحليل الذاتي للنفس خطيرا جدًّا، وفي رأي فرويد، مخيبا للآمال (وهذه فكرة قلما يشير إليها كاتبو سيرته الذاتية) وإذا، كان قد تابع تحليله بنشاط، انطلاقا من بداية أكتوبر 1897 (أسبوعين من بعد أن تخلى عن نظرية الإغواء)[40]، فهو قد انتهى منه بعد ستة أسابيع مع تقدير واع بنفسه؟.

من فرويد إلى فيلس 14 نوفمبر 1897 : إن تحليلي لنفسيتي يظل قليلا متقطعا ولقد تحققت لماذا لا يمكنني أن أحلل نفسي إلا مع معرفة محصل عليها

موضوعيا (كما لو كانت من الخارج).. وعلى هذا، فإن التحليل النفسي للذات يكون مستحيلا، وإلا ينبغي ألا يوجد مرض عصابي، ثم إني لما كنت لا أزال في عراك وجدال مع نوع من الحيرة في أمر مرضاي، فهذا يفيدني في أن أستمر في تحليل نفسي كما ينبغي.[41]

من فرويد إلى فيلس 9 فبراير 1898 : وفي ما يتعلق بالباقي، فكل شيء لا يزال في حال كمون وتحليلي لذاتي، هو الآن على الأقل متجه لكتاب في الحلم.[42]

على أننا إذا، أخذنا الملاحظة الذاتية في معناها الأوسع ، فإن التحليل الذاتي كان قد ابتدأ على نحو مبكر جدًّا مع تأويل فرويد لأحلامه، التي كان يسجل بعضها على نحو روتيني حينما يستيقظ[43]، واستمر هذا مع تحليل ذكرياته الطفولية (أو ما يسمى الذكرى الساترة أو الذكريات الساترة) وضروب النسيان والهفوات. . . وبهذا المعنى، يشير فرويد في كتابه (علم النفس المرضي للحياة اليومية) الذي ابتدأ فيه وعمره 43 سنة، يهتم (بما تبقى من ذاكرتي في طفولتي الخاصة)[44] وهذا الاقتران لتحليله لأحلامه وذكريات طفولته، لم يكن قط بدون سابقة، كما عثر على ذلك (في النوم[45] والأحلام) عند ديلبوف؛ حيث كان أحد الموضوعات الكبرى هو قدرة الأحلام على استرجاع الذكريات المنسية. وبهذا الاعتبار، فإن تحليل ديلبوف لما يسمى «حلم العظاءات» يشبه أن يكون قد استخدم أنموذج لتحليل : «حلم حقنة إرما في كتاب تفسير الأحلام)[46]، وكما لاحظ أندرياس ماير فضلا عن ذلك، فإن هذه الملاحظة[47] الذاتية، ينبغي أيضا أن تحدد موقعها : «من التنويم الاستبطاني» الذي كان يمارس في ذلك الوقت عن طريق شخصيات مثل أوجست فوريل وأوجين بلولر[48]، وأوسكار فوجت، وكل هؤلاء قدموا تفسيرات عن الشخص الأول من حالة التنويم[49]، وقد كانت فكرة الدراسة الاستبطانية لأحوال سيكولوجية لاشعورية أو تحت اللاشعور، منتشرة في الآفاق.

أوجست فوريل : إن موضوع علم النفس هو دراسة ما يسمى الوظائف النفسية لدماغنا، عن طريق التأمل الباطني المباشر، وهذه الوظائف الدماغية، التي لا تقع في المجال العادي لانتباه شعورنا في حال يقظة أو في ذكرياته، تدعى سيكولوجيا الاستبطان المباشر، لكن الدراسات المعاصرة جعلتنا نعي زيادة وعي بأن جزءا كبيرا من الوظائف الدماغية التي تسمى لاشعورية، يمتلك تأملا باطنيا

ضعيفا، قد نستغرب منه في بعض الظروف، وقد يحدد الإنسان هذه الواقعة باسم «ما تحت الشعور» وهو قد أخذ به لسبب وجيه، واعتماده متزايد.[50]

فرويد : وكنت قد لاحظت في عمل التحليل النفسي بأن الإطار العام لعقل الإنسان الذي يكون ملاحظا لعملياته النفسية، ويتأمل، لابد أن يكون مختلفا تمام الاختلاف عن عقل الإنسان الذي يلاحظ هذه العمليات النفسية الخاصة؛ إذ في كلتا الحالتين، يجب أن يركز الانتباه، لكن الإنسان الذي يتأمل هو أيضا ممارس لقدراته النقدية... والملاحظ لنفسه من جهة أخرى، قد يحتاج فقط أن يتعب نفسه حتى يريح قدرته النقدية ويعطلها، وإذا، أفلح في هذا العمل، فقد تتوارد عليه معاني لا تحصى عددا متجهة إلى شعوره؛ مما لا يستطيع قط أن يمسك به بطريقة أخرى، وإذا، فالمسألة هي بوضوح إثبات حالة سيكولوجية، تحتمل في توزيعها للطاقة النفسية، (أعني تحريك الانتباه) ضربا من التماثل مع حالة قبل حصول النوم، ولا شك أيضا مع حالة التنويم[51] ويشبه أن فرويد نفسه لم يمنح وضعا خاصا لتحليله لنفسه على الأقل، في بداية أمره، وفي الطبعة الأولى من كتابه تفسير الأحلام، كما لاحظ بيترجي، لم يكن يدل حد «التحليل الذاتي» تقريبا إلا على معنى الملاحظة الذاتية[52]، وكان فرويد يتحدث عن «تحليلات الذات» بصيغة الجمع، بالنظر إلى تأويل أحلامه، وكان يستعمل هذا الحد للدلالة على مجموعة عمله لتأملاته لنفسه، في تفسير الأحلام؛ مما يبين أنه لم يكن يفهمها بالمعنى القوي للعمل التحليلي لنفسيته.

فرويد : وذلك أنه كان يحصل لي أن أنقاد إلى أحلامي الخاصة، التي تقدم مادة وفيرة وملائمة... ولاشك أن سوف تعترضني شكوك في استحقاق وضع الثقة «في التحليلات الذاتية» من هذا النوع، وفي حكمي الحاضر، فإن الوضع هو في الواقع متاح، ومعتمد في الملاحظة الذاتية أكثر منه عند أناس آخرين وبوجه عام، فإنه، في سائر الأحداث، نصطنع لها الخبرة التجريبية، وننظر كيف يأخذنا التحليل الذاتي مع تأويل الأحلام.[53]

فرويد : وفي حلم متعلق بالمهمة الغريبة التي وضعها على العجوز بروك باصطناع تشريح جهازي البولي، ويعني التشريح، التحليل الذاتي الذي أنا منجزه كما ينبغي في نشر هذا الكتاب الحالي حول الأحلام.[54]

ولم يكتسب التحليل الذاتي لفرويد خطة تقنية إلا تدريجيا- أعني الخطة الفرويدية على وجه الضبط، إذا، صح هذا التعبير- مما يعني أن لها الآن في التحليل النفسي معجما قائما بنفسه، وفي الحقيقة، لم يتأكد ذلك إلا في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب تفسير الأحلام، الذي جعل فرويد يشير فيه إلى تحليله لنفسيته.

فرويد : وفضلا عن ذلك، لهذا الكتاب مغزى ذاتي بالنسبة إلى شخصيتي، وهو مغزى لم أدركه إلا بعد أن أكملت تصنيفه، فقد تبين لي أنه كان جزءا من تحليلي الذاتي، كان رد فعل أو استجابة لموت أبي- أمي إلى أخطر حادثة وإلى أفجع خسارة تصيب امرأ في حياته[55].

وفجأة، قرأ الجمهور أن الكتاب في الأحلام ما هو إلا جزء من أجزاء من تحليلي الذاتي لنفسيتي، وهو المحتوى الكامل الذي كان يحتفظ به في الوقت نفسه، وكان هذا قد أعطى بكل وضوح دلالة جديدة للكتاب، كما أعطاها لعلم النفس المرضي كما يجري في الحياة اليومية؛ ووراء هذا النشر، وأيضا وراء الجمهور العلمي، تبين أنه كان يوجد علم «سري» خاص بفرويد، وعليه، فإنه وراء المحتوى الظاهر لكتب تفسير الأحلام، وعلم النفس المرضي للحياة اليومية، كان يوجد كذلك محتوى «أوديبي» كامنا، وقد أصبح التحليل النفسي نفسه لغزا، يوجد له مفتاح في يد فرويد فقط. وعلاوة على ذلك، لا يمدنا التحليل الذاتي فقط بالدلالة الخفية للتحليل النفسي، بل وقد نشأ الآن كشيء مختلف عن ممارسات التأمل الذاتي، مادامت الملاحظة الذاتية كانت قد اندمجت مع العلاج الذاتي، ثم إن ملاحظة الذات لم تعد كافية، إذ يستطيع الإنسان أن يعالج نفسه من عمى النظر إلى اللاشعور كما قدمه فرويد، ونتيجة لهذا، فلا واحد من الناس يمكنه أن يمارس التحليل النفسي، على عكس حالة التنويم والإيحاء، وتقنيات علاجية أخرى طبية وسيكولوجية، فلكي يكون الإنسان محللا نفسيا، ينبغي أن يعالج نفسه أولا، وبعبارة أخرى، أن يقوم بتحليل نفسيته، وفي سنة 1909 كانت الإجابة عن السؤال : كيف يصبح الإنسان محللا نفسانيا؟، هي : «عن طريق دراسة الأحلام الخاصة الذاتية[56]، وفي السنة التالية، لاحظ فرويد أن المحللين النفسانيين المتعاطين للتحليل، عليهم أن يكرسوا أنفسهم لتحليل ذواتهم، حتى يظهروا على مقاومتهم.

فرويد : الآن وقد صار عدد كبير من الناس يمارسون التحليل النفسي ويتبادلون ملاحظاتهم بعضهم مع بعض، فقد لاحظنا أنه لا واحد من المحللين النفسانيين ذهب بعيدا أكثر من عقده الخاصة، وما سمحت له به مقاومته الباطنية وقد فرضنا أن المحلل النفساني يبتدئ نشاطه بتحليله لنفسه[57]، ويعمق ذلك باستمرار، حينما يصطنع ملاحظاته على مرضاه، وكل من يفشل في إعطاء نتائج عن تحليل الذات على هذا النمط، ينبغي أن يتوقف عن فكرة أنه يستطيع أن يعالج المرضى بالتحليل[58].

وفي الظاهر، لا شيء يمكن أن يكون أكثر ديمقراطية من هذا : إذ يحوز لكل واحد من الناس أن يكرر تحليل فرويد لنفسه، والإشكال هو أن هذا التوجيه لا تصححه أي تعليمات وإرشادات، ومن ثم، يبقى فرويد وحده هو الذي يعرف فيم يقوم التحليل الذاتي : «ويمكن أن نأخذ بعين الاعتبار أن رسائل فرويد إلى فيلس، لم تنشر إلا منذ عقود في ما بعد» ونتيجة لذلك، ما الذي يمكن أن يكون أكثر طبيعة من اللجوء إلى الخبير في التحليل الذاتي حتى نسأله النصيحة؟ وكثير من الشخصيات كانت تفعل ذلك، فهذا ساندور فرنزي مثلا، أرسل شروحا مفصلة عن تحليلاته الذاتية إلى فرويد، الذي أجاب عنها بتأويلات، وإلماعات وتوجيهات، وهذه «التحليلات الذاتية» المحاكية، يمكن أن ينظر إليها مع كثير من الإنصاف كمجرد تحليلات عن طريق المراسلة، وفضلا عن ذلك، قد كانت أمثلة مستعصية على البحث، القابل للتعديل، كأن ما كان ينبغي العثور عليه وجد معلوما مقدما ومعدّا بواسطة التحليل النفسي، غير أن ممارسة التحليل الذاتي، في حالات أخرى، قد يفوت مراقبة فرويد، ويغيب عنه على نحو خطير.

وعلى هذا، فكل محلل يمكنه أن يرجع إلى كشوفات تحليله الذاتي، مما ينتج عنه تباين ضروب التأويل المختلفة وعدم استجابتها، ففي الموضع الذي يمكن أن نجد فيه عقدة أوديب، قد يجد فيه محلل آخر عقدة إليكترا، وحيثما يلح فرويد على عقدة الأب، يلح آخرون على وجود عقدة الأم، وكلما اكتشف فرويد في موضع ما، أو حالة ما، الجنسية الطفيلية، كلما أكد آخرون في مثل ذلك الموضوع على أنهم اكتشفوا : «الدونية العضوية» وحيثما كان فريد يرى اشتغال «اللبيدو» كان غيره يرى وجود «الدافع العدواني» وليس صدفة أن الفترة التي وضع فيها

فرويد ثقته في ممارسة التحليل الذاتي، كانت أيضا فترة الخلافات البارزة بين فرويد وأدلر وشتيكل ويونغ.

وبما أن المعيار الأخير لصدق ضروب تأويل التحليل النفسي، كان هو التحليل الذاتي، فكل واحد يستطيع أن يستدعي ما قام به من تحليل لنفسه، حتى ينزع صحة تأويلات الآخرين ونظرياتهم، ويتهمهم بإسقاط عقدهم الخاصة غير المحللة على نظرياتهم، أو كونهم استسلموا لمقاومتهم العصابية، ولا يتمكن أحد منهم أن يسوي الصراعات المتشابهة لضروب التأويل التي مزقت شمل أسرة التحليل النفسي.

من فرويد إلى أرنست جونز 9 غشت 1911: وفي ما يخص النزاع الداخلي مع ألدر، فمن المحتمل أن يحدث ذلك، وعلي أن أدفع بالأزمة إلى نهايتها؛ لأن هذا تمرد أحمق غير عادي، مدفوع بطموح فردي، وتأثيره في الآخرين متعلق بقوته الإرهابية، وبنوع السادية الموجودة فيه.[59]

الفرد أدلر: لم ترق ملاحظتي الشفوية فرويد...وكان رفضي المهذب هو: «أن الوقوف في ظله ليس سخرية»؛ أعني المؤاخذة بجميع التعارضات وسوء الفهم للنزعة الفرويدية، بسبب مجرد التعاون في سيكولوجيا العصاب وبدون تأخير، فإنه قد فسر العصاب كاعتراف بكبريائي المتمرد، حتى يمكنه أن يسلمه إلى قراء غير مشبوهين.[60]

ويلهيلم شتيكل: في إحدى الدورات التي نظمت بعد أن انشق أدلر، ادعى فرويد أن أدلر هذا يشكو من جنون الهذاء (بارانوايا)؛ وكان أحد التشخيصات المفضلة عند فرويد، ويطبقها على واحد من أهم أصدقائه الذين انفصلوا عنه[61]، ومباشرة، في جوقته الوضيعة تعالت أصوات، تؤكد بحماس هذا التشخيص السخيف.[62]

وكان من الواجب تدارك تصحيح هذا الموقف، الذي يهدد بتشتيت حركة التحليل النفسي، وكان يونغ قد اقترح في سنة 1911 أن كل محلل راغب في هذه المهنة ، عليه أن يخضع إلى تحليل غيره من المحللين؛ أي يجب عليه أن يخضع إلى التدريب في التحليل، وما لبث فرويد أن عضد هذا الاقتراح في السنة نفسها.

يونج : هناك كثير من المحللين يعتقدون أنهم يستطيعون أن يتدربوا على تحليل ذواتهم، وهؤلاء هم علماء السيكولوجيا، وقد ظلوا متمسكين[63] بهذا الرأي ويتناسون أن الأهمية الكبرى لعوامل العلاج هي أن تخضع ذاتك إلى حكم موضوعي يصدره الآخر عليك، ونحن بالنظر إلى ذواتنا، نظل عميانا بالرغم من كل ذلك.[64]

فرويد : إنه لا يكفي أن يكون الطبيب شخصا عاديا تقريبا؛ إذ ينبغي الإلحاح على أن يجتاز ما يمكن أن يطلق عليه اسم تطهير التحليل النفسي له، وأن يصبح واعيا بعقده هو، حتى يصبح قادرًا على أن يتدخل بحنكته وإدراكه لما يخبره به مريضه ويرويه له.

وإني أعتد بهذا كأحد الاستحقاقات الكثيرة لمدرسة زوريخ، التي شدد أصحابها تشديدا قويا على هذا المطلب وأدرجوه في ملتمس؛ وهو أن كل واحد يتمنى أن يقوم بإنجاز تحليلات على إنسان آخر، يتعين عليه هو أولا وقبل كل شَيء أن يخضع لتحليل غيره من المحللين ذوي المعرفة والخبرة، وكل من استهان من أن يأخذ حذره بأن يحلل نفسه، فقد يقع في إغراء أن يسقط بعض غرائب وانحرافات شخصية على الآخرين، فيدخل ما أدركه وحصله معتما إلى ميدان العلم كنظرية لها الصحة الكلية، ومن ثم، يحمل منهاج التحليل النفسي على أن يصبح مشكوكا في صحته، ويتأدى به إلى تضليل الخبرة غير المتمرنة وغير المدربة.[65]

ومن الأهمية بمكان، أن نتحقق من أن التدريب على التحليل كان انطلاقة ملفتة للنظر، من خلال الممارسات الجارية في الطب، وطب الأمراض العقلية. وبينما كانت الخبرة الذاتية لا تزال عامة مشتركة، لم يكن بالإمكان أن يفكر الإنسان في أن الممارس المدعي للتنويم المغناطيسي يختبر في امتحان التنويم أو أن هذا الممارس المدعي للجراحة يجتاز اختبار الجراحة، وبعد أن حضر جيمس جاكسون بوتنام مؤتمر التحليل النفسي المنعقد في ڤيمار سنة 1911 أدلى بتعليق في حوار معه قال :

جيمس جاكسون بوتنام : ثم قرأت بدهشة واهتمام على أن جزءا كبيرا من هؤلاء الفاحصين، الباحثين، طبقوا على أنفسهم بأقل أو أكثر انتظام،

البحث نفسه ذا الطابع التحليلي الذي يجرونه على مرضاهم الموجودين بين أيديهم، وما يلبث الإنسان أن يشعر بأن التلقين على هذا النمط هو شرط ضروري للعمل الجيد.[66]

والتحليل المتمرن عليه، نظريا على الأقل، يفترض ضمان أن النظريات وضروب تأويل المحللين لم يشوشها العصابيون، وكما رأينا، فإن هذا كان أيضا هدفا للتحليل الذاتي، مما كان قد وقع الشروع فيه سابقا، وقد ضمنه في الممارسة أن كل واحد يؤول ويفسر على الطريقة المسموح بها، والتي سنها فرويد أو بعض أتباعه الذين قام بتحليلهم، ومن الآن فصاعدا، لم يعد المحللون أحرارا في أن يقروا دلالات أحلامهم بأنفسهم، بل والأفضل من هذا لم يعودوا أحرارا أن يقرروا ما إذا، كانوا عصابين أم غير عصابيين، أو ما إذا، كانوا قد تلقوا التحليل، وكل هذا إنما يعينه محللهم، ذهابا في الرجوع إلى الوراء حتى تصل إلى فرويد، وهكذا فإن التطهير بواسطة التحليل النفسي يتطابق مع التطهير المؤسسي ومعايرة التأويل أو توحيد معياره، ومنذ ذلك ضعفت فوضى عدم الضبط لتحليلات الذات، والدوران الجهنمي للتشخيصات والتشخيصات المضادة، فابتدأت حركة التحليل النفسي تسترجع نشاطها، ومن الآن فصاعدا أصبحت الكلمة لفرويد ورؤساء جنوده.

وغالبا ما كان يلاحظ قرار تمرين التحليل التدريبي في المؤسسة، وفي إشهار حركة التحليل النفسي، وفي العمل على نشرها، كما كانت تلاحظ صرامة التراتبية ومركزية علاقات السلطة بين المحللين المنطويين تحتها، وقلما كان يلاحظ أن تأسيسه كان استجابة لصعوبة لا مفر منها في ما يخص نظريته، وفي الحقيقة، من يستطيع أن يحكم على صدق تأويلات التحليل النفسي حينما لا يعطي اللاشعور، حسب التعريف أي إجابة عن هذا السؤال؟ (إذ كان لا يمكن النفاذ إليه إلا ما ترجم عنه أي ما وقع تأويله عنه)، ثم كيف يمكن أن يحصل الإجماع إذا، وقع الاختلاف؟ وإذا، رفض مريض تأويلات محلل، فإن هذا الأخير يمكنه أن يزعم دائما بأنه يعرف كثيرا عن فن التحليل؛ لأنه أخضع نفسه لتحليل شخص آخر، ولكن ما القول إذا، كان محلل ثان أو ثالث هو الذي رفض تأويله؟ وكذلك ما القول إذا، رفض المريض عقم تماثل الموقف

التحليلي، وصرح بأنه يريد أن يجري التحليل على المحلل؟ ومن أي جهة من الجهات نظرنا منها إلى المسألة، فقد نجد أنه لا شيء يخول إلى المحلل أن يصرح بأ ن تحليله هو بالضرورة أولى وأثبت من تحليل زميله أو مريضه؛ إلا أن تقع تسوية من جانب المؤسسة التي يؤمنها تأويله، ووسيلة نقل تمرين التحليل المدرب عليه، مما اقترحه يونج، كانت إجابة عن الإشكالية العويصة (aproria) التي لا يمكن حلها على المستوى النظري.

غير أن إعطاء «الحل» أثار مباشرة صعوبة أخرى، إذ ما القول في حال فرويد نفسه؟ فإذا، كان كل محلل يشتق جهة اختصاصه أو سلطته من تمرين التحليل المدرب عليه؛ فمن أي جهة اختصاص اشتق فرويد سلطته وإجازته أو إذا،ه؟ وما دام المحللون النفسانيون يدربون أنفسهم، من خلال تحليل الذات، فإن تحليل فرويد لنفسه لا يطرح أي إشكال (بل العكس ينبغي أن ينظر إليه باعتباره الأنموذج الأصل) لكن قواعد اللعبة الآن تغيرت، وثم عرض وضع فرويد لتحليله لنفسه كوضع نهائي. وإذا، من الذي يضمن لنا أن تحليل فرويد لنفسيته كان تاما؟ ومن ناحية أولى، يمكننا اقتراح يونج من إغلاق باب الخلاف مع أدلر وشتيكل، ومن ناحية ثانية، يطرح هذا الاقتراح خلافا جديدا في هذا الوقت بين فرويد ونفسه، لأنه كيف يفرض فرويد تأويله على يونج إذا، لم يجر عليه هو التحليل نفسه حسب عباراته الخاصة؟

من يونج إلى جونز 15 نوفمبر 1912 : لقد اقتنع فرويد بأنني أفكر، وأنا واقع تحت هيمنة عقدة الأب، إزاء هذا التلميح أو التعريض من جانبه وإذا، فإن سائر العقد تكون لا معنى لها، وعلى هذا، فإني أقف إزاء التلميح بدون حيلة ولا مساعدة على الإطلاق... وإذا، كان فرويد يفهم على أن كل محاولة للتفكير بطريقة جديدة، حول مسائل التحليل النفسي، على أنها مقاومة شخصية له، فقد يصير الأمر محالا.[69]

من يونج إلى فرويد 3 دجنبر 1912 : هل لي أن ألفت سيادتكم إلى واقع أن كل تأسيس «تأويل الأحلام» بقبوله المحزن لعصابكم الخاص- ولاسيما مع حلم حقنة إرما- المتوحد مع العصابية يحتاج إلى معالجة، ولهذا دلالته الخاصة إن تحليلنا لأنفسنا- وأنت تذكر هذا- قد توقف مع ملاحظة أنك لا تستطيع أن

تخضع للتحليل «من غير أن تفقد سلطتك»، وهذه العبارات منقوشة في ذاكرتي كرمز لكل ما هو آت.[70]

من جونز إلى فرويد 5 دجنر 1912 : لقد طويت الآن رسالة غريبة أتتنى من يونغ... فهل قال لك بريل بأن يونغ متمسك بأن لك عصابا شديدا؟ وإن هذا إسقاط جميل؟[71]

من يونج إلى فرويد 11-14 من دجنبر 1912 : وحتى صداقة أدلر الحميمة لا تعتبرني واحدا منكم (أو منهم).[72]

من فرويد إلى يونج 16 دجنبر 1912 : لكن هل أنت على قدر من الموضوعية حتى تعتبر زلة تالية بدون قلق؟ وهل صداقة أدلر الحميمة لا تعتبر واحدا منكم.[73]

من يونج إلى فرويد 18 دجنبر 1912 : إنك تحوم الآن حول احتقار جميع الأفعال الدالة على الأعراض في جوارك، وهذا يرد كل واحد إلى مستوى الأخوان والأخوات الذين يقبلون، حياء منهم أخطاء وقعت لهم، ومن جهة أخرى، فإنك تظل في القمة كأب في مركزك المريح، إذ أنه لا أحد يجرؤ أن ينتف لحية نبي، لمجرد كونه أذله قومه، ويبحث مرة أخرى عما ينبغي أن يقال لمريض يميل إلى أن يجري الفحص التحليلي على المحلل بدل نفسه، وبالتأكيد كان يجب أن نسأله : «من هو المصاب بالعصاب؟» وصراحة، فأنا لست إطلاقا من المصابين بالعصاب، وقاني الله شره ! لكنني خبير بالصناعة ما هو فيها lege artis؛ واسمح لي بكل تواضع، أن يجري على التحليل مما يكون خيرا لي، وبالطبع أنك تعرف كيف يصعب على المريض أن يقوم بالتحليل الذاتي : لا خارجا عن عصابه، نافيا له - كالحال معك.[74]

من فرويد إلى فرنزي 23 دجنبر 1912 : إن الإحساس المزعج في هذه اللحظة، هو إغلاق الرسالة الواردة من عند يونغ، والتي يعرف عنها أيضا السيدان رانك وساش، الشيء الكثير... ويجب أن أقول عن هذا الرجل إنه وقح... ومع احترامي لهذا العصابي، أتمنى فوق ذلك، أن أتمكن من إخضاعه جيدا، لكنه سلك سلوك الأحمق المقنع والصديق المتوحش؛ والخبير الذي يجري

عليه التحليل يمكن أن يكون هو فرولين مولتزر لأنه من الحمق لدرجة أنه يفخر بهذا العمل على آمرأة يكون له معها شأن ما.[75]

من فرويد إلى جونز 26 دجنبر 1912 : أما في ما يخص يونج، فيشبه أن يكون قد فقد صوابه؛ إذ هو يسلك كالأحمق، ولقد كنت وجهت انتباهه إلى بعض هفوات، أو زلات قلمه في رسالته، وبعد هذا ذهب مغاضبا، مدعيا أن ليس له عصاب ما، وقد مر عن علاج (نفسي في مرحلة أولى)، مع مولتزر، وأفترض أنك تتخيل أي نوع من العلاج حصل معه، وهو يعتبر أنني كنت عصابيا، وأفسدت أدلر وشتيكل... وهذه نفس الألية وردود الأفعال المتشابهة كالحال مع أدلر.[76]

من فرنزي إلى فرويد 26 دجنبر 1912 : لقد كان سلوك يونج فظا غليظا وغير متعارف؛ ولقد نسي أنه هو الذي طلب «تحليل جماعة» الطلاب وتدبيرهم كالمرضى؛ ذلك أن التحليل المتبادل قد يكون بدون معنى، وأيضا فهذا أمر محال[77].

وكل أحد يجب أن يكون قادرا على التسامح والتساهل مع السلطة المفروضة عليه، من جانب أولئك الذين يقبل منهم تصحيح تحليله، ولربما أنت هو الشخص الوحيد الذي يسمح لنفسه أن يستغني عن المحلل... بالرغم من نواقص التحليل الذاتي، «الذي يكون أطول وأصعب من التحليل...)، ونحن نتوقع منك القدرة على أن تصون أغراضك منزهة عن الرقابة..وإذا، كانت لك القدرة على أن تظهر على نفسك بدون قائد (وهذا يحدث للنوع الإنساني لأول مرة) وتتغلب على المقاومات التي تجبر الإنسانية على أن تتحمل نتائج التحليل، كان لنا إذا، أن نتوقع منك قوة الإعفاء من أقل الأعراض والاستغناء عنها- وتشهد الأحداث قطعا لصالح هذا.

إلا أن ما يصدق عليك لا يصح على سائرنا، ويونج لم يضبط نفسه مثلك.. إذ قد حصل على نتائج مبتذلة؛ وقبلها كرأسمال تافه بدون أن يجربها على نفسه (ولا أعتبر تحليل فرولين مولتزر كاملا ولا مطابقا).[78]

وقد كان فرنزي يرى، وهو في هذا أكثر حصافة من فرويد، بأن مؤاخذة يونج بالطريقة التي وبخه عليها فرويد، لا تفيد في شيء؛ إذ أنه لما كان التحليل

المتبادل لا يحل إشكال تضارب التأويلات، كان من الأفضل أن يقترح فرنزي إثبات اللاتماثل أو اللاتناظر (بمعنى مبدإ السيطرة السيادية)، من خلال تأكيد الميزة الخاصة بالتحليل الذاتي لفرويد وبدل أن يترك فرويد نفسه يقوده يونغ إلى صراع متعادل، لا يفلت منه أحدهما بدون ضرر، كان من اللازم أن يرفض شرط النقاش ويربح مستوى مجاوز له (ما وراء المستوى)، وأي طريق هو أفضل للعمل من أن يستبدل نظرية الرجل العظيم، المتفرد العبقرية، ولا يمكن مجاراته في ماقشة علمية عادية.

وما إن تأسس تمرين التحليل التدريبي، حتى أصبح وسيلة من الوجهة المؤسسة لحل الصراعات التأويلية المرتبطة بالتحليل النفسي؛ زد على ذلك أن رفع التحليل الذاتي لفرويد إلى وضع استثنائي، مكنه من أن يفلت من مشكلة التناظر التي أدخلها التحليل التدريبي- وكذلك جنبه هذا الوضع الاستثنائي أن يخضع إلى التحليل، وإلى سلطة شخص آخر ؛ ولكي يعمل تمرين التحليل التدريبي كان يجب أن تكون هناك سلطة واحدة نهائية، لا يمكن بدورها أن يجري عليها التحليل؛ إذ بدون هذه السلطة الأخيرة النهائية القصوى، كان يمكن أن يتهاوى التحليل النفسي، ويسقط في فوضى العماء للتأويلات المتنافسة، مع انعدام وسيلة للفصل بينها.

لاكان : إنه يكاد يكون من المتيقن الآن كما يعرف كل أحد، أن التحليل النفسي له أن يزعم بأنه يقدم على أي وجه كان، المعرفة المطلقة، وبمعنى ما، فإن هذا هو السبب الذي يمكن معه أن يقال : إذ وجد أحد يطبقه فلا يمكن أن يكون إلا شخص واحد، وكان هذا الشخص هو فرويد حينما كان على قيد الحياة، ومن واقع أن فرويد حينما كان على قيد الحياة، كان يتعلق الأمر بموضوع اللاشعور كان يمارسه على وجه مشروع ، ذاتيا؛ إذ كانت هذه الذات يظن بها أنها تعرف وتعد لأي شيء يتصل بعلاقة التحليل، حينما يكون التدريب قد ابتدأ على يديه بواسطة مرضاه.[79]

ويبدو أن فرويد قد اتخذ ضمنيا حل فرنزي، حتى ولو كانت درجة من التواضع قد أوقفته عن أن يقدم نفسه بوقاحة كما يفعل التابع ، وملاحظته عن «تاريخ حركة التحليل النفسي» تلحق على نحو واضح باسم يونغ.

فرويد : لا أزال على رأيي حتى اليوم، بأن هذا النمط من التحليل يكفي كل أحد يحلم الحلم الجيد، وليس شاذّا.[80]

ويدل بلفظ «كل احد» المذكور هنا على فرويد نفسه، وبعد انقطاع المعارك أصبح التدريب على التحليل قاعدة ضمن حركة التحليل النفسي، وفي سنة 1915، نشر كارل ابراهام مقالا يصنف فيه التحليل النفسي الذاتي كشكل من مقاومة التحليل النفسي.

أبراهام : وهناك عنصر في مثل هذا التحليل الذاتي، هو المتعة النرجيسية الخاصة بالنفس، والعنصر الآخر هو الثورة ضد الأب؛ والانشغال الجامح بالأنا الخاص، والشعور بالتفوق الذي سبق وصفه، يقدمان للشخص النرجيسي ذخيرة غنية من اللذة، وضرورة التفرد بالوحدة مدة إجراء العملية قد تؤدي، بشكل غريب إلى حالة قريبة من الاستنماء، ومعادلها عصاب حلم اليقظة، وكلاهما يكون حاضرا إلى درجة مشاهدة في جميع المرضى قيد البحث والنظر.[81]

وقد طور أبراهام، في جمعية التحليل النفسي في برلين، المؤسسة سنة 1920 طريقة معيارية لتخريج محللين من خلال التدريبات على التحليل النفسي، مع الإشراف والمراقبة، وعقد ندوات، مما أدى، بعد ذلك إلى أن تنافست هذه الجمعية مع سائر جمعيات التحليل النفسي الأخرى، وأيضا مع مدارس منافسة في الطب النفسي، وفي سنة 1925، أثناء انعقاد مؤتمر التحليل النفسي في بادها مبورنح اتخذ قرار يقضي بوجوب صياغة ضرورية للتدريب على التحليل لجميع الطلبة المترشحين للتحليل النفسي، ومن الآن فصاعدا، صار تذكر العهد السابق للتحليل الذاتي مر الطعم، وقد كتب فرويد إلى بول شيلدر (الذي لم يجر عليه أي تحليل) قائلا : لم يكن عليهم أن يفخروا به قط وبالنسبة إلى فرويد نفسه، نجده يقول : «إنه لربما يجب أن أجزم بحقي في هذا الوضع الاستثنائي».[82]

وهكذا نرى أن ما كان في بداية الأمر فترة قصيرة لملاحظة الذات وتأملها مما كان يمكن أن يكون من جهة المبدأ إعادة إنتاج وتكرارا لكل أحد على حدة أصبح من خلال سلسلة من الخصومات والأزمات حدثا شديد الغرابة، وبالمعنى الحرفي، حدثا غير مسبوق اختص به فرويد نفسه ولوحده.

وابتداء من هذه اللحظة إلى ما حصل بعد وحتى الآن، لا يمكن للإنسان أن ينسب أي شيء إلى هذا الحدث الاستثنائي، بافتراض أن التحليل النفسي نفسه قد نشأ عنه، وليس هذا نوعا من التخلي عن إغراء النظرية، أو اكتشاف عقدة أوديب والجنسية الطفلية التي ينتسب إليها؛ فلقد كان ديدي أنزيو، في نهاية مؤلفه الضخم عن فرويد، قد أحصى ما لا يقل عن 116 معنى أو مفهوم كان فرويد قد أعده أثناء إخضاع نفسه للتحليل الذي يؤرخ له بين سنة 1895 و1901 [83]، والمتضمن هنا هو التصور الذي ينبغي أن تكون اكتشافات فرويد قد توصل إليها، من خلال ابتكار منهاج ثوري جديد للتحليل؛ منهاج يكون فرويد هو أول من استعمله، وإذا، فإن التحليل الذاتي لفرويد هو أول من استعمله، وإذًا، فإن التحليل الذاتي لفرويد أصبح الأصل الأسطوري، لميلاد التحليل النفسي؛ أي الحدث التاريخي الذي جعله خارج التاريخ، ولم يتردد آخرون مثل مثل شور[84] أن يحددوا نشأة التحليل النفسي مع التحليل الذاتي لفرويد الذي لا يمكن أن ينتهي (1899-1939)، ونتج عن ذلك أنه لا يجوز أن يكون هناك تقدم في التحليل النفسي إلا بعد موت مؤسس التحليل الذاتي (1895-1939). وكل تقدم جديد في التحليل النفسي، يجب أن يؤرخ بحكم رجعي إلى الحدث التأسيسي نفسه، فالنشأة الأسطورية ونزع التاريخية عن التحليل النفسي لم يكتملا حتى الآن.

أساليب إعادة محاكاة الخبرة

إن التحليل الذاتي البطولي لم يحدث- أو ربما لم يقع قط على الطريقة التي روي بها. وما حدث إن هو إلا بناء استرجاعي، مقصود به تحصين التحليل النفسي من دخول الصراعات معه، إنها في الحقيقة أسطورة، إلا أنها محددة بوظيفة دقيقة لإسكات الخصوم، وإنهاء التشخيصات المتبادلة، وإعادة إقرار لاتناظر التأويلات لصالح فرويد؛ وكل من يعترض على تعسف تأويلات فرويد، ينبغي أن يعارض امتيازه وتفرده، وخبرته باللاشعور التي لا يمكن مقارنتها بخبرة أخرى، وفي نهاية الأمر، فإن أسطورة التحليل الذاتي للنفس، كانت وسيلة لتبرير الحجة من خلال السلطة السيادية.

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذه الأسطورة إذا، حيكت بالضبط، حينما ترك التحليل ميدان النقاش الأكاديمي ليصبح المدرسة الفرويدية للطب النفسي وانحلت الخلافات فقط بطريق إقصاء الخصوم المارقين (بعد أدلر وشتيكل ويونغ جاء دور رانك، وفرنزي، وغيرهم كثير...) وعلى هذا، فإن أسطورة التحليل الذاتي تقابل تخصيص علم التحليل النفسي الذي أصبح من الآن فصاعدا شأن فرويد وقصته.

وغالبا ما كان فرويد يصف إنشاء وتأسيسها جمعية التحليل النفسي الدولية (I.P.A) كملجإ ضروري؛ باعتبار الرفض المجمع عليه لنظرياته في طب الأمراض العقلية، وفي سيكولوجيا الجامعات، غير أن تاريخ علاقات فرويد بأقرانه وأنداده كان في ذلك الوقت أكثر تعقيدا، وبدلا من أن يقصى التحليل النفسي من المؤسسات ومن التبادل الأكاديمي، فهو قد انسحب منها قصدا، عوضا عن أن يحاول خلق إجماع حول نظرياته بطريقة مفتوحة، ومن هذه الوجهة من النظر، لم يكن تغريب التحليل النفسي بأقل أسطورية من التحليل الذاتي لفرويد، وفي الواقع، كما سنرى، فإن التخصيص المتدرج للتحليل النفسي وحصره، كان علامة على فشله في أن يتخذ نظاما عاديا للمناقشة العلمية مع العلماء المحصلين.

وفي بادئ، الأمر كان فرويد يسعى إلى أن يجعل نظرياته معترفا بها من لدن أقرانه، وفي نهاية القرن، كان قد فاز بنوع من الشهرة؛ إلا أن نظرياته كانت أبعد ما تكون عن بؤرة النقاشات بين علماء طب الأمراض العقلية المكتملين باللغة الألمانية (وهذا أحد الأسباب التي جعلتهم ينظرون إليه كعالم مختص بالأعصاب من دون خبرة نفسية)، وكمحاضر خصوصي، كان مخولا له أن يعطي محاضرات في جامعة فيينا، إلا أن مستمعيه كانوا من القلة، حتى أنه كان في غالب الأحيان ينزع من هذه الندرة لأقل من ثلاثة متابعين له[85] ولقد كان المهتمون بالتحليل النفسي بوجه عام، إما زملاء أصبحوا من المعالجين للمرضى مثل ويليام شتيكل وإما مرضى صاروا زملاء (مثل إيما إنكشتاين)، ومن البين أن فرويد لم يفلح في الترويج والارتقاء بنظرياته، إلا أن الموقف كان قد تغير إلى حد ما سنة 1902 وبإيعاز من شتيكل، جمع طائفة من الدكاترة لعقد اجتماعات أسبوعيا، وكانت

المبادرة الأخرى من أعضائهم الفرويد أدلر وماكس كاهان، وردولف رايتلر؛ وما لبث أن لحق بهم آخرون إلا أن هذه الإجراءات لم تكن منسجمة.

فرويد : وكانت مناسبتان غير سارتين، جعلتاني أخيرا أستوحش داخليا من هذه الجماعة، إذ أنا لا أستطيع أن أنجح في أن ننشئ داخل هؤلاء الأعضاء علاقات صداقة، ينبغي أن تحصل بين رجال يلتزمون كلهم بالعمل الصعب نفسه، ولا أنا قادر على أن أخمد الصراعات حول الأولوية التي توجد فيها فرص عديدة تحت شروط العمل المشترك.[86]

وإطار هذه المناقشات لا تترتب عنه بنية الصلات السيكولوجية والذهنية كما يذكرنا فريتز ويلتز.

فريتز ويلتز : إن تدبير فرويد للارتقاء بهذه المشاركات، ينبغي أن تكون له عنها أفكاره الخاصة، التي تمر عبر مصفاة عقول أخرى متمرنة؛ أعني أن تكون له عنها أفكار مجربة، ولا يهم الأمر أن تكون هذه العقول عادية أو متوسطة، وفي الحقيقة، كانت رغبته ضعيفة في أن تكون هذه المشاركات توجد فيها شخصيات قوية في فردانيتها، كما يوجد فيها معاونون مختصون بالنقد والطموح، لقد كان مجال التحليل النفسي فكرته، وكان يريد أن تقبل منه آراؤه، باعتبار أن التحليل النفسي هو إرادته، بل ما كان يتمناه هو أن ينظر من خلال منظار التشاكل اللوني الموصول بمزايا تضاعف تكبير الصور التي يدخلها فيه.[87]

وكل هذا قد تغير سنة 1904، يوم اقتنع أوجين بلولر بآراء فرويد، وبلولر هذا كان مدير مستشفى طب الأمراض العقلية، وهو مستشفى بروغولزلي المشهور في زوريخ، وفي هذه السنة، راجع بلولر الظواهر النفسية القهرية عند لونفيلد وقد احتوت على نظريات في فصل مخصوص بفرويد وجاني؛ لكنه أبرز فرويد وخصه بالثناء والتقريظ.

بلولر : لقد بين فرويد في دراسته عن الهستريا والأحلام جزءا من عالم جديد، وليس هذا كل ما في الأمر؛ ذلك أن شعورنا لا يرى إلا لعب الأشباح على مسرحه؛ وفي عالم فرويد، فإن كثيرا من الخيوط التي تحرك تلك الأشخاص الغريبة قد اتضحت.[90]

من فرويد إلى فيلس : لقد حدث اعتراف صاعق على الإطلاق بوجهة نظري. . .آعترف بها طبيب الأمراض العقلية الرسمي بلولر في زوريخ، ويجب أن تتصور الأستاذ العظيم في مرض الطب العقلي، ودراساتي للهستريا والأحلام مما كان ينعت بالاشمئزاز والاستقذار.[91]

وليست هذه هي المرة الأولى التي يلفت فيها بلولر انتباه زملائه إلى فرويد ففي سنة 1892، راجع بلولر طبعة فرويد «الدراسة برنهايم الجديدة عن التنويم والإيحاء والطب النفسي» ومدح ترجمة فرويد لها[92]؛ وذلك في سنة 1895 كتب تقريرا إيجابيا «دراسات عن الهستيريا» اشترك فيها هو وفرويد، وتساءل ما إذا، كانت نتائجها راجعة إلى الإيحاء، وقد كان اهتمام بلولر بعمل فرويد مرتبطا بكل وضوح بانشغاله[93] بالتنويم والإيحاء في العلاج النفسي، ولم يكن هذا صدفة ولا حدثا عارضا؛ إذ كان بلولر تلميذا لأجوست فوريد[94]، وهو من الشخصيات المرموقة في علم الأعصاب وطب الأمراض العقلية في أوروبا، والمحرك لطب العلاج النفسي من إلهام برنهايم.

وأيضا كان فوريل، وهو شخصية مهمة في هذه القصة، مهتما بعمل فرويد. وقد ابتدأ فرويد مراسلته سنة 1889، وكتب مقالا إيجابيا عن كتابه في التنويم[95]، ثم إن فوريل قد أوصى برنهايم بفرويد، حينما ذهب هذا إلى نانسي، واستدعاه إلى لجنة النشر من مجلة : «التنويم. . .» التي كانت قد أسست سنة 1892، ليقوما بتوحيد حركة برنهايم[96]، وقد ذكر فرويد، في الطبعة الثانية من كتابة عن التنويم، من بين الأطباء الذين باشروا العمل بالعلاج النفسي عن طريق الإيحاء، متبعين عمل مدرسة نانسي[97] ثم تابع بعد حين عمل برولر وفرويد باهتمام شديد تأدى به الحال إلى أن يقدمهما إلى زملائه الأمريكيين، في محاضرته التي ألقاها سنة 1899 بمناسبة الاحتفال بالسنة العاشرة لتأسيس جامعة كلارك[98]، وفي سنة 1903، ذكر فوريل أيضا فرويد منوها بطريقته في العلاج، ولم يكن متحققا على ما يظهر بأن فرويد كان قد نفض يديه من التنويم التطهيري مؤقتا في ما بين ذلك.[99]

فوريل : إنه مع الأشخاص الهستيريين بوجه خاص، تثار الاضطرابات العقلية المنتظمة خلال الإيحاء والإيحاء الذاتي؛ ولا تعالج إلا بالطريقة نفسها وقد أنشأ الطبيب فرويد مذهبا خاصا، وطريقة في العلاج، تقوم على واقع

مثل الإيحاءات الذاتية، والكيفية التي تنبه بها، الانفعالات، ويستدعي فرويد، من جهة ما قبل شعورية، العاطفة الانفعالية... والانفعال المنخق، ومع المرضى الذين يظهر فيهم، يحاول عن طريق الإيحاء التنويمي أن يعيد إلى الذاكرة الموقف الأصلي، الذي نشأ عنه الاضطراب في المحل الأول؛ لأن المرضى أنفسهم غالبا ما ينسونه. وعن طريق التسكين والايحاءات، يزول الاضطراب ولا شك أن هذا المنهاج قد ينجح في بعض الحالات، إلا أن هذه الآلية ليست دائما سهلة؛ إذ كل حالة مختلفة عن أختها، ومن ثم، يجب أن نفردها على نحو غريب ومدهش، إن كنا نريد أن نحصل على شيء وراء سائر الشروط السيكولوجية المتضمنة في مثل هذه الاضطرابات، إلا أنه من المؤكد أننا إن حصلنا تدريجيا على الثقة الكاملة، في أمثال هؤلاء المرضى، فقد نضع يدنا على العلة الحقيقية لاضطراباتهم، وتكتشف بأن القلق إنما كان يعتمد في الواقع على آثار إيجابية لانفعالات قوية ماضية، وبخاصة تلك الانفعالات المؤلمة، التي ترسخت بنفسها على نحو مزمن في الدماغ، واستمرت تقلق سائر نشاطاتهم القليل منها أو الكثير.[100]

وفي سنة 1858، خلف بلولر فوريل مديرا في مستشفى بورغولزلي، وقد برهن هذا المستوصف العلاجي كونه مكانا مثاليا للتحليل النفسي وفي الحقيقة من الأهمية بمكان، أن نلاحظ أن أولوية إدخال التحليل النفسي فيه، كانا قد أثبتا معا الفحص المعمق لتاريخ المرضى، وإدخال موضوع الجنسية، وإذا، كان فوريل قد أدخل هنا استعمال التنويم والإيحاء، واستعملهما كتقنية تجريبية وعلاجية ومراقبة مجتمعية، غير أنه تمشيا مع ممارسين آخرين لطريقة التنويم، مثل برنهايم، فهؤلاء كان قد انتهى بهم الأمر إلى رأي، مؤداه أنه بينما توجد مساعدات عند استعمال التنويم والإيحاء، في حال المرض العقلي أو الذهان، فإن هاتين الطريقتين تكون قيمتهما العلاجية محدودة في هذا المجال، ولربما كان من المحتمل أن هذا هو أحد الأسباب التي من أجلها أدخل بلولر التحليل النفسي في بروغولزلي، وجربه كقوة علاجية لهذا المرض العقلي أو الذهان، وبهذا المعنى، فإن ممارسة التحليل النفسي يمكن أن ينظر إليها كإضافة تغييرات طفيفة على الحصيلة الموجودة من تقنيات الإيحاء والتنويم، وكانت الهيأة المؤسسة لهذا المستشفى تتيح مثل هذا الاستعمال التجريبي : وفي سنة 1905، شرع فرويد وبلولر يتراسلان، ودام

تراسلهما إلى سنة 1914، ورسائل بلولر إلى فرويد باب يمكن الدخول منه إلى مكتبه الكونجرس إلا أنه، باستثناء بعض الاقتباسات التي ذكرناها واستشهدنا بها، فإن رسائل فرويد لا يمكن الوصول إليها[101]. وفي 9 أكتوبر من سنة 1905 كتب بلولر إلى فرويد بأنه أصبح مقتنعا بصحة ما ورد في كتابه تفسير الأحلام كما قرأه، غير أنه يجد صعوبة في تحليل أحلامه، ولذلك فهو يرغب أن يبعث ببعض أحلامه إلى المعلم المقتدر، ولكن، هل يرغب فرويد في أن يساعده؟ إن خبرة التحليل الذاتي لدى بلولر نلزم مباشرة من فحصه لنفسه بطريقة التنويم تحت توجيه فوريل، وملازمته، بوجه عام، استعمال الاستبطان في علم النفس، كما تترتب عنها أيضا الممارسات المناظرة والثنائية عما كان سائدا في بروغولزلي، وقد كان فرويد، في كتابه تفسير الأحلام قد أكد بأن الطريق الذي به يصبح الإنسان محللا نفسانيا، يمر من تأويل الإنسان لأحلامه وتفسيرها، ويستلزم التماس بلولر منطقيا هذه التزكية؛ لأنه لضبط التحليل النفسي والمهارة فيه، كان لابد له من اللجوء إلى فرويد؛ حتى يمكنه تعلم تحليل أحلامه، وعلى هذا فقد حاول بلولر أن يحاكي فقط خبرة التحليل الذي كان يمارسه فرويد.

ولقد غمر فرويد الفرح، لأن هذا مكنه من أن يعتبر صديقه الممتاز، كمريض مدخلا ودليلا على عدم التناظر في علاقتهما؛ التي كانت غائبة في الدورات التناظرية بين العليل والمجرب الذي استعمله بلولر في بوروغولزلي، وحينما كانت أحكام بلولر الاستبطانية لا تنسجم مع نظرية فرويد، فإنها كانت تنعت بكونها غير أهل، ولا مستحقة لضروب المقاومة، وقد احتج بلولر بقوة على هذا التوصيف بشكل مدهش.

من بلولر إلى فرويد : إني لست واعيا بالصراع بالمعنى الذي تفهمه ضد النظرية، وقد لا أجد أيضا أساسا لمثل هذا الصراع في داخلي.[102]

وقد قص بلولر، من يوم 28 نوفمبر 1905 على فرويد، كيف كان ينتابه الإسهال بالليل من وقت لآخر، منذ كان طفلا؛ وقد كان إحساس مسبق بأن هذا مرتبط بالجنسية، ولكنه لم يكن يعرف سببا لذلك، وكان توقع فرويد هو هذا النوع من الإغواء المكلف للعذاب، ومن خلال اهتمام بلولر، وجد التحليل النفسي، على وجه حاسم، رأس جسر منه انطلق بنفسه في عالم طب الأمراض

النفسية في اللغة الألمانية، وكل ما كان فرويد يجب عليه أن يعمله، هو أن يوافق بلولر على تفسير (وهذه أمنية لتسكين حركات أحشائه).

من فرويد إلى بلولر 30 يناير 1906 : إني متيقن بأننا سننتصر بعد حين لإثبات طب الأمراض النفسية[103] إلا أنه لسوء الحظ، فقد ظلت أحشاء بلولر تقاوم تفسيرات فرويد.

آرنست فالزيدر : إن أحد العوامل الكبرى التي صدت بلولر عن اتخاذ قرار المصادقة على نظرية التحليل النفسي، كان هو أن هذه التجربة الحاسمة كما يقال قد فشلت، وجعلته يترك حركة التحليل النفسي... وكان فرويد يعزز هذا النمط من رد الفعل السلبي نفسه (مما سينظر إليه فرويد نفسه بعد حين كنتيجة للمقاومة) عن طريق اختلاق ادعاءات مبالغ فيها، كبساطة طريقة البحث العلاجية وبداهتها.[104]

وفي غضون ذلك، حل في يورغولزلي مجربون آخرون في مجال الأمراض النفسية التجريبية، القائمة على التداعي الترابطي، ويمكن أن يوصف هذا الاتجاه باستعمال مناهج سيكولوجية علمية جديدة في طب الأمراض العقلية، وطبيب الأمراض العقلية جوستاف أشافنبورغ، وهو من تلاميذ فونت، كان قد طبق في ما بعد أحدث عمل على التداعي الترابطي الشفوي، في بحث طب المرضى النفسي، مما لفت الانتباه إلى علماء الأمراض العقلية الموجودين في يورغولزلي، وبخاصة يونغ وفرانزركلين، وانعقد الأمل على أن يقدم التجريب القائم على التداعي وسائل سريعة وثابتة للتشخيص الفارقي، وبالرغم من الادعاءات الواعدة الكثيرة المطبوعة بطابع بلولر، فقد فشل هذا المشروع فشلا ذريعا، إذ فشل المجربون أن يميزوا ضروب الجنسية؛ إذا، تجاوزنا ما ارتكب من تمايزات تشخيصية دقيقة ولقد أنقذ يونغ وركلين العملية بربط العيوب بتحميل البعض مسئولية ما وقع ويافشال ردود أفعال تفسير فرويد للكبث في تلك الأحوال السائدة آنذاك والكلمات المنبهة التي ادعياها يمكن أن ينظر إليها كمؤشرات دالة على العقد الضاغطة عاطفيا.

وقد كانت هذه الصلة منذرة بشؤم، فقد ادعى يونغ بأن التحليل النفسي هو فن صعب، وما ينقصه هو إيجاد إطار صحيح، وهذا النقص يمكن أن يسده

التجريب القائم على التداعي الترابطي، مما عساه[105] يسهل مأمورية التحليل النفسي ويقصرها، غير أن ما وصف، كتحليل نفسي في مجرى تفكير فرويد، كان بالضبط يتضمن التنويم، وجمع ذكريات الأصدمة أو الصدمات الجنسية؛ انطلاقا من فترة (دراسات عن الهستريا)، وموت نظرية الإغواء، وفي الظاهر، كانت التغييرات الجديدة الطارئة على نظرية فرويد، تتقدم ببطء، لتصل إلى مستشفى بروغولزلي، ولم يتحقق يونج هو ولافوريل وكثير من معاصريه، بأن خطة فرويد كانت قد تغيرت تغييرا جدريا- ولسبب وجيه، وهو أن فرويد لم يشر بشكل صريح لقطيعته مع بلولر وتخليه عن نظرية الإغواء.[106]

يونج : وأخيرا، في إحدى الجلسات أو الحلقات الدراسية الأخيرة، جرى سرد حدث كان من جميع وجوهه دالا على صدمة فرويد وهو شاب.[107]

والأبحاث التي أجريت في يورغولزلي، في مقالات متابعة، إنما كانت تحاكي نظريات فرويد التي كان قد تخلى عنها؛ ذلك أن الخبرات الترابطية المتبوعة بواسطة التصريف أو التفريغ الإنفعالي تمخضت عنها سلسلة من الأصدمة الجنسية الطفولية، وبعبارة أخرى، كان أطباء الأمراض العقلية في يورغولزلي يحاكون، ويقدمون البرهان عن نظريات كان فرويد قد هجرها منذ أمد غير قريب وعلى هذا، كان الموقف غريبا ومفارقا؛ فقد وجد فرويد صدى في الاتجاه العام لطب الأمراض العقلية، إلا أنه كان قد تخلى عن نظرياته، ثم إن إعادة محاكاة الخبرة العلمية، التي يفترض فيها أن تكون مصدرا للإجماع الثابت، والذي تسكن إليه النفس، إلى انتشار غير مضبوط لصور مكررة زائفة، وكما يمكن للإنسان أن يرى في مراسلات يونج وأبراهام، فإن فرويد قد تسبب بنفسه في حدوث تمرين دقيق محدود الضرر.

وعلى أي حال، فإن تأييد بلولر ويونج لفرويد (كان قبلهما فوريل)، اجتذب للتحليل لنفسي وضوحا مستنيرا في لغة الأمراض العقلية بألمانيا، وهكذا غدا يورغولزلي مستنبتا للتحليل النفسي وللزوار الأجانب، مثل آرنست جونز وساندو فرنزي وأبراهام بريل، وكلهم يتوافدون عليه كما لو كان هو المؤسسة الوحيدة التي يمكن أن يتعلموا فيها كيف يمارس التحليل النفسي، ولم يعد هذا التحليل يتناول، كمادة أو كمعرفة منفصلة، تتطلب تدريبا خاصا أو تصريحا بالممارسة، بل أصبح تقنية وخطة مساعدة في الطب، وبخاصة طب

الأمراض العقلية، وتمكن زوار يورغولزلي من أن يستمعوا إلى المحاضرات في هذا الموضوع، وأن يحضروا هيأة المساعدين والأساتذة؛ حيث يخضع المرضى لتلقي أسئلة التحليل، وأن يشاركوا في سلسلة الحلقات التحليلية، مع شخصيات مثل يونغ وريكلين ومايدر. وقد استعمل يورغولزلي أنموذجا مفتوحا للإرشادات والتوجيهات، مشابها لما كان أقره برنهايم في نانسي لتعليم طريقة التنويم.

وعلاوة على ذلك، كان اعتبار إعادة صياغة يونغ وريكلين لخبرة التداعي المترابط، كأداة للتجريب العلاجي، قد أبرز التحليل النفسي الحاضر في صورة تجريبية معاصرة، وقد وقع البرهان صراحة، تدعمه الإحصاءات الكاملة والقياسات التي قد تصل إلى جزء من ألف من الثانية، في معدات المختبر الأوفى تقنية وتعقيد مثل مخطاط حركات التنفس، وهكذا، فإن خبرة التداعي المترابط توجد لها أدواتها ومعداتها؛ مما يجعلها في تزايد لبيان سمتها المميزة، كعلم في السيكولوجيا، ويظهر الجهاز التنفسي السريري عند فرويد إذا، قورن بهذه المعدات وكأنه بقية من عهد التنويم. إذا، أراد أحد أن يكتشف شيئا عن التحليل النفسي فإن اتجاه اختبار الأول وقصده، لا يكون إذا، نحو فيينا وإنما زوريخ، وقد أدى كل هذا إلى خلق عدة مشاكل في التحليل النفسي، على الأقل من جهة فرويد. وفي الحقيقة قد عزز الموقف الذي ابتدأ فيه عدد كبير من أطباء الأمراض العقلية المتزايدين ممن يهتمون بالتحليل النفسي بدون أن يكونوا في اتصال مباشر معه وإضافة إلى ذلك، وعلى نحو مقلق، فإذا، أمكن أن يمارس التحليل النفسي بسهولة ويجري اختياره، فقد يمكن كذلك أن يدحض بسهولة.

وعندما تتضح رؤية نظرية ما، وتتجلى، فلا محالة أن تجذب الانتباه إليها وتتعرض للنقاش والمعارضة. وانطلاقا من سنة 1906 إلى مايلي ذلك، حدثت سلسلة من المناظرات حول التحليل النفسي، في مؤتمرات الأمراض العقلية دامت إلى غاية 1913، ومن المدهش حقا ألا يشارك فيها فرويد؛ بالرغم من الدعوات التي وجهت إليه، وكان هذا التحفظ والتحرز والتمثيل التفويضي أسلوب فرويد المفضل، وقد عوض مهمة الدفاع عن نظرياته إلى أتباعه، منسجما وراء صمت متغطرس؛ رأى فيه معاصروه رفضه للنقاش.

يونج 29 غشت 1953 : إنه لم يخاطر قط بنفسه في مؤتمر، ولم يدافع عن قضية على ملإ من الناس؛ إذ كان هذا يخيفه دائما، وكانت أمريكا هي أول زمان ظهوره ...إنه كان شديد الغضب[108]

مايو 1906 بادن- بادن : مؤتمر لعلماء الأعصاب والأمراض العقلية من كولونيا، والتلميذ السابق لويلهام فونت، واسمه جوستاف أشافنبورغ، قد قدم عرضا عن «علاقات الحياة الجنسية في نمو العصاب والمرض العقلي» وبعد أن بحث عمل ليوبولد لونفيلد وويلي هيلباخ، حول جوستاف أشافنبورغ نظره إلى فرويد، وهنا يلاحظ لونفيلد بأنه في الوقت الراهن، مادام أن فرويد هو صاحب منهاج أو طريقة التحليل النفسي؛ فلا يوجد لنا طريق لاختبار نتائجه، وبالعكس من هذا، تمسك أشافنبورغ بأن مثل هذا العمل يمكن أن يقدم من خلال خبرة التداعي المترابط، وعند رجوعه إلى عمل يونج الحديث، وجد أنه قد برهن على أن التحليل النفسي ليس مختلفا في الأساس عن خبرة المستدعيات المترابطة، وأن اعتبارها يبين أن فرويد كان يقحم دلالة جنسية في عملية غير مرضية ولا مؤذية واعترف أشافنبورغ مناهضا لهذا التفسير، بأن على الإنسان أن يعتبر الاعتراض الذي مؤداه أن المرضى يؤكدون، ويثبتون تأويلات فرويد، وتظهر التجربة اليومية أن المرضى غالبا ما يعبرون عن تفسيرات أحداثهم البلهاء؛ ويقبلونها من الآخرين، ولقد كانت قوة التأثير كافية لتفسير السبب؛ الذي من أجله كان يقع كل ذلك، وبخاصة عندما اقتنع فرويد بصحة مفاهيمه، وأن مرضاه كانوا مصابين بالأمراض الهستيرية.

جوستاف أشافنبورغ : يسمح فرويد للشخص الذي يفحصه أن يترك العنان لمستدعياته بكامل الحرية، ويستمر في هذه الطريقة من وقت لآخر، إلى أن يعتقد أنه اكتشف مشيرا دقيقا، وحينئذ، يلفت انتباه مريضه إلى هذا المشير فيهيئه ويهيب به إلى أن يستدعي أمورا كثيرة؛ ابتداء من نقطة الانطلاق الجديدة. إلا أن معظم المرضى الذين كانوا يقصدون فرويد، صاروا يعرفون مسبقا إلى أين يريد أن يتجه بهم، وتثير فيهم هذه الفكرة مباشرة عقد التمثلات المتصلة بالحياة الجنسية... لكن الصدمة الجنسية تظهر معه دائما، كنتيجة أخيرة لتحليلاته النفسية، وهذا في رأيي هو التفسير الوحيد الممكن، إن فرويد مثله مثل مرضاه واقع ضحية للإيحاء الذاتي[109].

وهكذا، فإن التقييم الموضوعي للعمليات التحليلية كان تقييما محتملا، وكان تقييم أشافنبورغ سالبا ومدويا.

أشافنبورغ : إن طريقة فرويد غير صحيحة في كثير من الحالات، ومشكوك في معظمها، وغير ضرورية إطلاقا.[110]

ولم يرد فرويد على نقد أشافنبورغ؛ وبدلا من ذلك، تولى الإجابة عنه يونغ كتابة، وهكذا ابتدأ كتابته بأنه يرد على «النقد المعتدل والحذر» مما أبداه أشافنبورغ لئلا يرمى، كما يقال، الوليد مع غسيله، وكان خط دفاعه بسيطا جدا، أولا إن هذا الرجل قد حرف مبادئ فرويد، مع فهم لعباراته على غير وجهها كأن يقول : «إن عددا كبيرا من الحالات الهستيرية تنشأ عن أصول أو جذور جنسية»[111]، وثانيا فهو قد احتج بأن المنهاج الوحيد لدحض طريقة فرويد هذه، هو استعمال المنهاج نفسه، وإذا، أراد أن يقيم الحجة على تفسيره التعسفي، وإيحائه الذاتي، فما كان على السيد أشافنبورغ إلا أن يفعل ذلك.

يونغ : وبينما يستوفي أشافنبورغ هذه المتطلبات، أعني أنه ينشر التحليلات مع نتائج مختلفة تمام الاختلاف، فقد يجوز أن نثق في نقده؛ وحينئذ ينفتح نقاش نظرية فرويد.[112]

وقد ظهر رد يونغ في مجلة، من شهر أكتوبر : «Mancher mediziniche Wochenschrif» وفي الشهر التالي، كان اجتماع أطباء الأمراض العقلية بجنوب غرب ألمانيا في توبنجن، وتكلم طبيبانٌ سويسريان في الأمراض العقلية، كانا طالبين سابقين لفوريل، واسمهما لودفينج فرانك ودومينج بيزولا، وكان حديثهما يتعلق بتحليل أعراض الصدمات النفسية، وانصب اهتمامهما على طريقة التطهير عند بروير، وفرويد، وهذه الطريقة كان فوريل[113] يشجعهما هو ومعاونه المقرب منه أوسكار فوجت، واستمر فرانك ينميها ويمارسها، ولما تأكد تشجيعهما من لدن فوريل وفوجت، اشتركا معا في الاهتمام بطريقة التطهير عند برير وفرويد؛ مما كان فرانك، كما ذكرت، قد استمر يطوره تحت اسم التحليل النفسي، ولقد أقنع تقديم فرانك ما قام به أشافنبورغ من نقد في مؤتمر بادن، واستماله إلى أن يعترض كما فعل يونغ، على أن أولئك الذين يمارسون التحليل النفسي هم المخولون أن يحكموا عليه، وهكذا قدم فرانك، اعتمادا على خبرته، سلسلة من الحالات التي برهنت كما يدعي على فعالية الطريقة الأصلية لكل من بروير وفرويد.

ولقد كان الدعم الذي أمده كل من بيزولا وفرانك إلى فرويد وفريق برغولزلي دعما كبيرا؛ إذ تمكنا معا من أن يدعما فوريل، وصار لهما منافسون في مدرسته (منهم كارل جرايتر، ولوي وشارد دي مونتي وفيليب شتين ووواردا)[114] وكان هنا أطباء الأمراض العقلية من أوربا كلها، ممن كانوا يحاكون إعادة خبرة التحليل النفسي، ويقيمون عنها إثباتات قاطعة، وهذا كان يحتاج إليه بالضبط ومن جهة المبدإ، حتى يتكون الإجماع حول نظرية فرويد، غير أن المشكل يكمن في التحليل النفسي الذي يتحدث عنه فرانك ليس أقل اختلافا عن طريقة فرويد منه عن خبرات التداعي الأولى التي كان يمارسها يونغ وركلين. وعلاوة على ذلك كان هذا النمط من التحليل النفسي (يختلف في كتابة اللفظ بالفرنسية بحذف الحرف o من التركيب psych(o) analysis) قد نشره[115] فرويد في بادئ أمره في مجلة علم الأعصاب باللغة الفرنسية، وهذا المصطلح الجديد الفرنسي المنحوت يبدو أنه قد تعدل، ليطلق عليه طب الأمراض النفسية.

فرويد : إني مدين بنتائجي إلى طريقة جديدة في التحليل، كما في اصطلاح اللغة الفرنسية إلى اكتشاف العملية الإجرائية، من لدن جوزيف بروير- وبواسطة هذه العملية- ولا يمكن أن أصفها هنا- أمكن أن ترد الأعراض الهستيرية إلى أصولها التي نجدها دائما متأصلة في بعض أحداث الحياة الجنسية للفرد، وهي أحداث خاصة بإثارة انفعال مؤلم[116].

والغريب في الأمر، أن فرويد لم يكلف نفسه عناء إعطاء تعريف لهذا الحد في اللغة الفرنسية، كما لم يعطه تبريرا، ولا توسع في وصفه، إلا أنه اكتفى فقط بأن طبقه بأثر رجعي، على ما أصبح يصفه في ما بعد على أنه منهاج الطب أو العلاج النفسي، ولهذا السبب، اشتكى بييرجاني في ما بعد على أن فرويد استولى فقط على عمله، وأن التحليل النفسي الذي يدعيه فرويد لنفسه ليس إلا نسخة منقولة طبق الأصل من التحليل النفسي كما يمارسه جاني.

بيير جاني : يتحدث بروير وفرويد عن التحليل النفسي، وهو ما كنت أتحدث عنه أنا كذلك بالاسم والصفة (علم النفس التحليلي) وهما يتحدثان باسم مركب مزجي.

ومن ثم، فهما قد اختلقا اسما معقدا، في حين كنت أستعمل مصطلح النظام أو الجهاز السيكولوجي، ثم إنهما كانا يتحدثان عن التطهير، وأنا أتحدث عن تفكيك المعاني والأفكار التثبيتية، أو عن التطهير المعنوي، فهذه الأسماء تختلف، ولكن الأفكار الجوهرية التي طرحتها.. قُبِلَت بدون تغيير ولا تعديل[117].

وهذا، فبالنسبة إلى بييرجاني، فإن التحليل النفسي ليس شيئا آخر غير نسخ اسم طبق الأصل للتحليل السيكولوجي، ومن جهة أخرى، فقد لاحظ فوريل وطلبته أن مصطلح فرويد ذو نزعة حوشية بربرية، تدل على جهل بالصياغة الصحيحة لاشتقاق الألفاظ ذوات الجذور الإغريقية.[118]

من دومينيج بيزولا إلى يونج 1 مايو 1907 : قد يتحدث الإنسان عن هذا الاسم المنحوت الغريب الاشتقاق (التحليل النفسي)، كما لو كان ينادي به على مسمى غير معين؛ إذ من الذي ينطق بمثل هذه الألفاظ الحوشية مثل سيكوباتي وسيكوستانيا وغيرها.[119]

فوريل : إني أكتب هذا اللفظ (التحليل النفسي)؟ كما يفعل بيزولا وفرانك وبروير، وذلك بإسقاط الحرف o من المركب psychiatry لا الكتابة psychoiatry[120]

لا كما يفعل فرويد تبعا لاشتقاق الجذر الدال على أصل اللفظ، وقد لاحظ بيزولا في هذا الموضوع أن كتابتي هي الصواب.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن إسقاط الحرف o من التسمية الحوشية كان يفضلها بروير، ويأخذ فرانك وبيزولا على فرويد، كونه تخلى عن العنصر الجوهري في منهاج التطهير-التنويم – بدون أن يعطي تفسيرا مقنعا، ومن هنا يوصي فرانك بنوع من التحليل المعتمد على التنويم، يضم إليه التأويل، واستقراء حالة منومة (وهكذا، فإنه قبل أن يرجع لاكان إلى فرويد، كان قد عاد إلى بروير في تاريخ التحليل النفسي).

لودفينج فرانك : إن أصل منهاج بروير وفرويد، الذي تخلى عنه هذا الأخير في ما بعد، كان يعرف بالتحليل النفسي القائم على التنويم وإني أستعمل هذه الطريقة في غالب الأحيان، وقد درستها خلال أعوام، وظهرت لي صالحة.[121]

وعلى المنوال نفسه، إقترح بيزولا تعديلا لطريقة فرويد، وسماها التركيب النفسي؛ وفحواها أنه كان يجلس المريض في وضع مريح على حال من الاسترخاء مع إغلاق عينيه، بدلا من التداعي الحر الذي كان يمارسه فرويد، ويجمع من خلاله الانطباعات الحسية، وبهذا الاعتبار، وجد بيزولا طريقة يونج ذات قيمة استكشافية فريدة؛ إذ تقوم على المستدعيات المعقدة، وعلى هذا، لم يكن من الضروري إدخال فكرة التنويم المغناطيسي لطريقة التفسير، مادام أن الملاحظة الذاتية للإحساسات العصبية تحدث بنفسها خبرة تقابل حالة التنويم.

من بيزولا إلى يونج 1 مايو 1907 : وكالحال مع التحليل النفسي، هناك تعديل آخر في طريقه بروير، ويبقى مبدأ العلاج (الذي اكتشفه بروير) على حال واحدة.[122]

وفي نهاية الأمر، رفض فرانك وبيزولا، كما فعل بروير، متابعة فرويد بسبب إلحاحه على الجانب الجنسي وإن كان قد اتسع.

فرانك : لقد تخلى فرويد عن منهاجه، أعني طريقة التطهير منذ سنوات كثيرة، وقد يأسف الإنسان على كونه لم يقدم أي أساس لهذا الترك، ثم إن منهاجه الجديد في العلاج، من خلال التأويل والتوسع غير المحدد لمفهوم الجنس قد أثار نقاشا عنيفا ومعارضة قوية لكل ما كان فرويد أنجزه وارتقى به؛ حتى أضحى من الخطر أن يتعرض منهاج بروير في العلاج، والتقدم الذي سلكه به فرويد على نحو صحيح، (والإشارة هنا إلى ضغط المنهاج الذي وصفه فرويد في دراسته عن الهستيريا)، يتعرض إلى النسيان، وأن يصبح متجاوزا...ويبدو لي أن فرويد لم يعد يأخذ بعين الاعتبار في طريقة تأويله على الأقل في عديد من الحالات، لما كان لدور وأهمية حالة التنويم في نشأته، وفرويد نفسه كان قد لفت الانتباه إليه.[123]

وأيضا، قد لاحظ فرانك بأنه قد وجد في وضع لا يستطيع فيه أن يرد جميع الحالات إلى سبب جنسي، وأعتقد أنه ليس من الضروري أن يبحث الإنسان ما إذا، كان العلاج ناجحا، وبصريح العبارة، فإن التحليل النفسي والتركيب النفسي، مما قال به فرانك وبيزولا خلافا لأشافنبورغ، كان المقصود بهما،

كتسميات، منافسة لاسم التحليل النفسي عند فرويد، وهؤلاء الحلفاء الجدد، كانوا بالفعل مزاحمين.

وفي حوار دار بين فرانك وبيزولا الممثلين لهذا الاتجاه، عبر عالم طب الأمراض العقلية هوس عن شكه العميق، في ما يخص منهاج فرويد الجديد.

هوس : وبالتأكيد، إنه يوجد ما هو جديد وصحيح في تعليم فرويد عن التحليل النفسي في ما يخص الهستيريا، إلا أن الصحيح ليس جيدا، والجيد ليس صحيحا؛ إذ يمكن أن يأتي الصحيح من أثر العلاج الطبي، المتعلق بالتحليل العميق للظواهر النفسية، ومن الدخول المكثف في داخل الفردية الخاصة لحالة مخصوصة، لأنه بالنسبة إلى المريض، فقد أصبح واضحا لديه ما يتعلق بالأمور الضاغطة الكامنة والقهرية؛ وهكذا ينتهي إلى التعبير الذي يكون الفهم فيه متاحا، ويجوز أن يكون ظاهرا، وبالأولى أن يصبح حلا، إلا أن كل هذا ليس جديدا؛ فالتواتر الذي ينبغي أن يلعب فيه العامل الجنسي بوجه خاص دورا رئيسيا تبعا لفرويد وغيره قد لا يكون رئيسا، وإذًا، ماذا نسمع في أيامنا هذه؟ إننا نسمع أن الأطباء الذين يطبقون الطب العلاجي، النفسي باهتمام وحرارة، قد نجحوا بطريق الإيحاء في إزالة سلسلة من الشروط المؤلمة ذاتيا. ولربما كان هذا ممكنا، ونحن نعرفه منذ أمد طويل؛ إلا أنه لا يحتاج إلى أن يعطى له لقب (المنهاج الخاص) مما يصاحبه من ادعاء يشار به إلى شيء جديد إطلاقا، وكل من يقرأ «مقطعا من تحليل فرويد للهستيريا» بدون حكم مسبق، قد يضعه جانبا وهو حائر. أما بالنسبة إلي، فإني أعترف بأنه لا يفهم تماما كيف يمكن لبعض الناس أن يتخذ تسلسل هذه الأفكار، ويحملها على محمل الجد. وحتى لو لم أكن أفهمها على نحو ما، فقد يعاب علينا- وهذا واقع - بأننا لسنا في موقع، أو في مرتبة على الإطلاق، حتى نتحدث عنها؛ مادمنا لا نستعمل هذا المنهاج كما يستعملونه هم ومثل هذه المؤاخذة مخيبة للآمال، مادمنا نعتبر أن هذا الافتراض فاسد بكامله وإذا، فكل هذا يقربنا من سخرية بادية للعيان، عندما تكون معارضة أفكار فرويد موازية لمقاومة معاصري آراء كوبرنيك، كما يحدث في المناقشات الخاصة.[124]

وكان يونغ، في إجابته، حاضرا أيضا، فكرر وجهة نظر فرانك التي لا يمكن لأحد أن يثبت فيها بأن فرويد كان مخطئا بدون أن يكون قد استعمل التحليل

النفسي ومارسه، وإلى هذه الإجابة تطوع عالم نفس الأمراض العقلية، السيد ماكس ايسرلن، بالرد قائلا إنه يحاول أن يكرر محاكاة خبرات يونج؛ وبينما أكد أطروحته القائلة : إن العقد القهرية من الوجهة الانفعالية تؤدي إلى ردود أفعال طويلة مرات عديدة، فإنه لم يجد أية معلومات، أو معطيات تثبت له معيارية هذه العقد، بالمعنى الذي تقول به نظرية فرويد؛ أي أن آراء هوس كانت بالغة الخشونة. وبينما هو يعارض مبالغات التعليم الفرويدي، فإن بلولر ومدرسته يكون لهما الحق في تحقيق موضوعي لاحوالهما الثابتة تجريبيا.

وحينما نشر بيزولا ترجمة أو صيغة منقحة لمقالته، أضاف إليها ملحقا يحتج فيه على أفكار هوس، المطابقة تمام التطابق لآرائه مع نظرية فرويد عن العصاب ولم يؤكد على الاختلاف في مقاله الذي كتبه خارجا عن الدفاع المحفز الذي تلقاه من بروير، ومن دراسات فرويد عن الهستيريا.

بيزولا : يحلل فرويد الرمزية ويؤولها تبعا لخبرة علية، إنه يؤسس كل هذا ويوحي به، ولقد كنت أسمح أن يضع المريض نفسه في حال الإحساسات الأولية والدوافع الحركية، وإذا، كنت أتركه يجرب خبرته مباشرة، أنا مع فرويد فإن الطبيب يشتغل تحت مراقبة مريضه، لكن معي أنا فإن المريض يشتغل تحت مراقبة الطبيب، وعليه، في ما يخصني، يكون خطر التأويل الخاطئ مستعدّا، لأني أتجنب أي إيحاء إلا ما كان من حديث الاسترخاء.[125]

ولا يمكن أن يكون بيزولا أكثر وضوحا من هذا : فالتحليل النفسي عند فرويد- بتأويلاته الخاصة، وبإيحائه- كان قد تخلى، بل تجاوز التركيب النفسي إلا أنه يجب أن نلاحظ هنا بأن فرويد لم يكن في هذا الوقت مدعيا بأنه يفرض شيئا على مرضاه، ويستعمل بيزولا الحجة نفسها ضد فرويد؛ بأنه كان معتادا أن يميز منهاجه عن تقنيات الطب النفسي العلاجي، وفي الحقيقة، كان موقف فرويد مختلفا؛ إذ لم يكن في هذه المرحلة محتاجا إلى أن يميز التحليل النفسي عن التركيب النفسي.

من فرويد إلى يونج 7 أبريل 1907 : لم يترك علي عمل بيزولا أي انطباع بالنزاهة. والملاحظات الملحقة تنبع من شخصية حياته، وإنكار أن التحليل النفسي هو نفسه التركيب النفسي يشبه أن يكون مجرد خداع.[126]

ولقد ساءت علاقات يونغ، ببيزولا، وفي 24 مايو وصف يونغ، إلى فرويد شخصية بيزولا «بكون نفسه حقيرة وعامة[127]؛ إلا أن فرويد أجابه : «بأنه لا سبب يدعو إلى أن أعتبر أن بيزولا وفرانك ينتميان إلى مذهبي». [128]

ولقد كان مشروع فرانك وبيزولا لا يحتاج إلى الدعم الكامل من جانب فوريل، حتى ينفصلا بأنفسهما عن فرويد، ويقترحا تحليلا نفسيا، أو تركيبا نفسيا مخالفا لفرويد، ومن الوقت الذي تحقق فيه فوريل كيف أن فرويد فارق منهاجه الأصلي، أصبح شديد الانتقاد له، وكما فعل أشافنبورغ، وهوس، انزعج فوريل من تعسف تأويل فرويد، ومن تزايد مؤسسة فوريل السابقة، مستشفى بورغولزلي، وكما تبين مراسلته سنة 1907 و1910، استنهض تلامذته ليتخذوا موقفا حازما إزاء انحراف فرويد، حتى يتمكن من فصل «الحب عن التبن»[129].

من فوريل إلى فرانك 15 نوفمبر 1907 : لقد أصبحت عبادة فرويد مقرفة بالنسبة إلي، كما هي مقرفة بالنسبة إلى بيزولا، ولقد تركت السؤال مفتوحا وما هو إذا، كان الاكتشاف المشهور لفرويد هو على الحقيقة من نصيبه، أم أنه اكتشاف ينتمي إلى بروير، إلا أنه من المؤكد أن فرويد موجود في فيينا التي أهلها مفرطو الحياء، لقد كانت سمعته قد ساءت، إلا أنها إساءة غير مبنية على أساس متين.

ويبدو لي أن بلولر لم يعد قط مديرا لبروغولزلي، بل المدير هو يونغ، وهذا أمر مؤسف.[130]

من فوريل إلى بيزولا 22 نونبر1907 : ولهذا السبب، فإنك لا تحتاج أن تلحق بأي ناد من نوادي فرويد على أي وجه كان، أما بالنسبة إلي، فإن فرويد نفسه قد بدا غير متعاطف إطلاقا، وأعتقد أنك يمكنك أن تنجز أمورا كثيرة في موقعك هذا، إذا، واجهت فرانك بهدوء وصراحة، وإذا، دخلت في معركة مع هؤلاء المفتونين بفرويد وتخلصت منهم...[131]

من فوريل إلى بيزولا 21 سبتمبر 1908 : توجد لي الآن حالة تعالج (عن طريق التنويم) وهي حالة ممزقة تماما؛ لما أصابها من التحليل النفسي على طريقة فرويد ومدرسته، إذ لشخص في هذه الحالة أصبح نصف مخبولا بما لاقى من كثرة الحديث عند ضروب التفسيرات الجنسية، وما مسته منها من أمور ضارة

به وأعتقد أن هناك نوعا من التحليل النفسي، يتسبب في حدوث أشد العقد النفسية أكثر مما يزيلها.[132]

من بيزولا إلى فوريل 22 غشت 1909 : إني أتمنى أن أضع آخر اللمسات على أهم نشرة في هذا الشهر المقبل من يناير، والغرض الأساس، هو الدفاع عن سيادة النفس، واستقلالها ضد هذه التفسيرات الغريبة لوسائل التعبير عنها، وهو استباق اعتراضات المدرسة الفرويدية؛ التي لا أريد أن أسقط في قعر «عقدها النفسية».[133]

من فوريل إلى بيزولا 17 مايو 1910 : إن ما يقلقني هو أنك اكتب كتابك حول خبراتك، وهذه ضرورة مستعجلة وقد فسد السؤال العام، فسادا كاملا وقد ساءا سبعة فرويد وعصابته، وقد حان الوقت، لأن يتدخل علماء التحليل النفسي العقلاء بحديثهم وأعمالهم.[134]

ولما لم يكن فوريل مكتفيا بالحركة المضادة لفرويد التي تمارس في الخفاء فقد كتب إلى بروير الذي كان معروفا لديه، حينما كان طالبا عنده أيام دراسته في فيينا يسأله ليدله بالضبط : «عن أي جزء من التحليل النفسي يرجع إليه، وما هو الدور الذي لعبه في التحليل النفسي»،[135] فأفحم بروير اضطرارا للإجابة؛ إذ كان مسئولا عن كل ما ترتب مباشرة عن حالة أنا O–، واضطرارا لأن يفصح عن نظرية حالات التنويم والتصورات العاطفية غير التصريفية، ومفهوم الوعي بالهستيريا، والعلاج التحليلي (وكان بروير هو أول من اقترح وكتب التحليل النفسي) أما فرويد فقد كان مسئولا عن وضع مفاهيم التحويل والأعصبة الدفاعية والاعتماد على الدفاع عن ضرر حالات التنويم، وأضاف بروير : «من الصعب الاستفادة من نظريته»، وإليهما جميعا، يرجع التأكيد على المكانة البارزة التي تزعمها الجنسية[136]، وهكذا فإن بروير لم يتردد في ادعاء نصيبه من اكتشاف دور الجنسية في الهستيريا وفي الوقت نفسه، أسهم في «دراسات الهستيريا» وكان يلح على الخاصية غير الجنسية لأنا O.

من بروير إلى فوريل 21 نوفمبر 1907 : إن حالة أنا O التي كانت الجرثومة الأولى لميلاد التحليل النفسي بكاملة، تبرهن على أن الحالة العسيرة تام العسر للهستيريا، يمكن أن تنمو وتتضخم، وتنحل بدون أساس جنسي.[137]

وبعث فوريل مباشرة برسالته إلى بيزولا، يوصيه فيها بأن «يقرأ ما بين السطور»[138]؛ إذ قد أثبت بروير أن التحليل العلاجي يشتق مباشرة من أنا O ويمكن للإنسان أن يستخلص نتيجة؛ فحواها أن هذا الحالة لما كان ينقصها «الأساس الجنسي» فإن التحليل النفسي الصحيح، لا يمكن أن يكون متعلقا بالحياة الجنسية كما يراها فرويد، ولا باختلاق العقد النفسية.[139]

فوريل : ومن جهة أخرى، فإن منهاج التحليل النفسي الذي اكتشفه فرويد وبروير كان مهما جدا، ونحن نشكر من استطاع أن يزيل أثر نشأة مرض الأعصبية الانفعالية، وإمكانية استمرار ممارسة تجريبها للآثار الإضافية في الحياة الدماغية لما تحت الشعور؛ من خلال تمكينها من أن تبقى حية، غير أنه في هذه النقطة، وضع فرويد أيضا بناء من جانب واحد وترك أساس الإيحاء والتنويم، في أن جميع هذه الظواهر ينبغي أن تدرس على الحقيقة، وأن تفهم في تداخلها المنسق وعندما سلك الإنسان على نحو مختلف حينما يتصرف في بحث ما يسمى العقد النفسية فقد يخاطر في كثير من الحالات، حيث تظهر هذه الأخيرة باستمرار على السطح مؤدية إلى توجيه الأذى إلى الدماغ، وهو اصطناع عقد نفسية، قد تكون آفة تجريبية على وجه خاص في حالة العقد الجنسية.[140]

وقد استمرت المناقشات المتعلقة بالتحليل النفسي على مستوى المؤتمر الدولي لطب الأمراض العقلية وعلم الأعصاب، وعلم النفس في أمستردام في سبتمبر إلى التدويل. وقد استدعى فرويد مبدئيا مع جاني.

من فرويد إلى يونج 14 أبريل 1907 : وحينما استدعيت لم يكن أشافنبورغ المتكلم الوحيد بل كان جاني، وأحد من أهل البلد وفي الظاهر كان قد خطط لمبارزة بيني وبين جاني، إلا أنني أكره مصارعة المنحازين أمام الرعاع . ولا يمكنني أن أحمل نفسي على أن أضع اكتشافاتي ليقترع عليها حشد غير مبال . . .[141]

وإذ، لم تقع مبارزة فرويد-جاني، ولم يحصل لفرويد أي ظهور أو تألق، فقد كانت هناك مبارزة أخرى معروضة.

المجلة الشهرية لطب الأمراض العقلية والعصبية : إن مبارزة يونج-أشافنبورغ كان يتطلع إليها، بنوع من الاشتياق، كثير من المتكلمين الألمان المشاركين. . . .[142]

وكانت الدورة الخامسة مخصصة للنظر في الهستيريا والتصورات التي رسم سماتها جاني. وقد افتتح الدورة جاني نفسه، بتقديم ملخص عن عمله عن الهستيريا، وتبعه أشافنبورغ مقتصرا على مناقشة طريقة فرويد في التداعي الحر والخبرات الترابطية عند يونج : لماذا وجد فرويد وأتباعه العقد الجنسية على هذا النحو من التكرار والتواتر؟ وللإجابة عن هذا السؤال، حكى أشافنبورغ حالة عن العصاب الوسواسي، الذي كان قد عالجه ليختبر المنهاج الفرويدي، ومن الواضح أن هذه إجابة عن عرض يونج السابق، وقد ادعى أشافنبورغ أن هذه الحالة تبرهن كيف أن الأفكار قد تقود إلى اتجاه معين.

أشافنبورغ : إن طريقة فرويد ويونج تنتج عن التصورات الجنسية، لأنها ترقى بظهور هذه التطورات خلال توجيه الانتباه، وأحيانا إقحام هذا الانتباه، وحصره داخل دائرة الجنس.[143]

وهكذا، قد كان فرويد ويونج يشيران إلى المستدعيات التي لا يتطلبانها إلا لكي تلاحظ فقط، أما أشافنبورغ، فلقد أقنعه إيحاؤه بأن مثل هذا الفحص كان مقلقا، وعلى وجه الاحتمال مضرّا بالمريض، وأن نجاح العلاج لا يجاوز نجاح المناهج الأخرى الأقل ضررا.

وهكذا تعقب أشافنبورغ يونج، الذي افتتح حديثه بأن شدد على أنه لو قصر نفسه على فرويد لم يعد يستخف بالعمل الرائع لكل من شاركو، ومويبوس وشترامبل وجاني، وسولي، وفوجت وبنسونجر، ودي بوا (وكانت هذه العبارات كافية لتقطع الشك، حينما نشر يونج مقالته الأخيرة في السنة نفسها) إذ يزعم يونج بأن السبيل الأمثل لفهم عمل فرويد يكون من خلال إلقاء نظرة شاملة تاريخية عليه.

يونج : تقوم الافتراضات النظرية للعمل الذهني لبحث فرويد قبل كل شيء في معرفة تجارب جاني. وقد ابتدأ الصياغة الأولى فرويد، وتزيد لمشكلة الهستيريا من واقع التفكك النفسي والآلية اللاشعورية النفسية، وهناك افتراض آخر ركز عليه بنسونجر تركيزا شديدا من بين آخرين، ويقوم هذا الافتراض على دلالة سبب الأمراض الوجدانية. وكلا هذين الافتراضين، مع الخبرات المنتزعة من نظرية الإيحاء، يستحقان من وجهة نظر معترف بها حاليا عن الهستيريا كعصاب

نفسي المنشأ. وقد كان بحث فرويد متجها نحو أن يعرف بأية وسائل، أو بأي طريقة تعمل آلية حدوث الأعراض الهستيرية.[144]

وقد عمل يونج على أن يعطي تفسيرا للتطور النظري عند فرويد، ومن ثم رجع إلى التحليل النفسي في مبدئه الأول، ولاحظ أن منهاج التحليل النفسي الحاضر كان أكثر تعقيدا من طريق التطهير الأصلية، واستغرقته ممارسة مكثفة ما يقرب من سنتين، حتى يستطيع أن يستفيد من أي تدبير، إلا أنه[145] أضاف أيضا بأن هذا كله تأدى به إلى الاقتراب من مناهج معاصر أخرى :

يونج : وبهذا الاعتبار، فإن الطريقة الفرويدية الجديدة لها شبه كبير بمنهاج السيد دي بوا في التربية والتعليم... ومن جهة أخرى، فإن طريقة بيزولا في التحليل التركيبي هي طريقة مباشرة، ولها أهميتها في تطوير طريقة التطهير عند بروير وفرويد، في ما يخص خطة التصريف، والأساس النظري لطريقة التحليل النفسي الفرويدي، التي نشأت من خلال النزعة الاختبارية الأمبيريقية بكاملها، لا يزال يغطيه (هذا الأساس) ظلام كثيف، ومن خلال بحثي القائم على الترابط فإني على الأقل أعتقد بأنني وضعت قليلا من الأفكار القابلة للفحص، مع أن معظم الصعوبات النظرية لم يقع التغلب عليها بعد كل هذا[146].

ولا يمكن لإنسان إلا أن يفترض، عندما يقرأ هذا المقطع، بأن فرويد كانت له أفكار أخرى، جعلته يقرر ألا يحضر مثل هذا المؤتمر، وفي تاريخ يونج، فإن الافتراضات الأساس لبحثه الخاص، كان قد مهد أساسا لعمل جاني في ما يخص التفكيك والنزعة الآلية، مقرونة بعمل أتو بنسونجر، ونظرية الإيحاء (أي برنهايم وفوريل)؛ وبوجه عام اعترف بمفهوم الهستيريا كعصاب ذي منشإ نفسي، وزيادة على ذلك، ارتبط منهاج فرويد بطريقة دي بوا، ووضع بجانب بيزولا، ومن الواضح أن يونج كان يحاول أن يجمع إلى جانبه أحلافا، ونشر شبكة بأوسع ما يمكن؛ إلا أن هذا العمل كان له أثر في «تحريف» أو تحوير كامل لخصوصية التحليل النفسي، كما يفهمه فريد، والأسوأ من كل ذلك، أن يونج أشار إلى أن الظلام الكثيف الذي يؤخر الأساس النظري لطريقة فرويد، كان قد استنار بما ألقى عليه يونج من ضوء خبراته الترابطية الخاصة، ولم يفت فرويد أن يلاحظ ضروب التشابه مع فرانك وبيزولا، وعلى هذا قد أصبح فرويد معرضا لخطر

التهميش في تاريخ حركة التحليل النفسي، وكانت مقالة يونغ مجاوزة لوقت الإلقاء، فقطعت ولم تكمل.

أرنست جونز : ولسوء الحظ، قد ارتكب يونغ خطأ؛ لكونه لم يحدد وقتا دقيقا لبحثه، وأيضا رفض أن يطيع رئيس اللجنة الذي كرر إشارته بإنهاء بحثه، واضطر أخيرا إلى القبول، وقد احمر وجهه قلقا، وخرج من القاعة مغاضبا، وأتذكر الانطباع السيئ على سلوكه الذي أثر في نفاذ صبر الحضور، ولم يكن هناك أدنى شك حول نتيجة النقاش.[147]

وفي هذا النقاش، تبين أن قضية إمكانية إعادة الخبرة لنتائج فرويد كانت قد أثيرت مرة أخرى، وقد لاحظ أتوجروس، أن النقاش بكامله تركز حول مسألة ما إذا، كان المنهاج الفرويدي يمكن أن يتحقق منه بدون معرفة واطلاع على تقنية فرويدية الخاصة، وكرر فرانك هو ويونغ ادعاءهما، وهو زعم يونغ الذي يرى أن أولئك الذين لا يمارسون المنهاج بأنفسهم لا يمكنهم أن يحكموا على تقنية فرويد وأجاب عن هذا الادعاء السيد هيلبرونر، بأنه في عيادته الكلنيكية في أولتريخت قام مساعده شنتزلر بتجارب تتعلق بوجود عِقد ضاغطة انفعاليا، وكانت النتائج سلبية، واختتم النقاش بيرجاني الذي كانت أَوَلِيّة مصادره راجعة إلى فرويد وأعماله التي حظيت بالاحترام، ولم يكن هذا السلوك متبعا في مثل هذا الوقت.

جاني : إن أول عمل لبروير وفرويد عن الهستيريا كان في رأيي إسهاما مهما بالنسبة إلى عمل الأطباء الفرنسيين، الذين قضوا خمسة عشر عاما حتى يحللوا الحالات الذهنية للمصابين بالهستيريا بواسطة التنويم أو الكتابة الآلية، ولقد بين الكتاب الفرنسيون بعض الحالات المهمة، التي لعبت فيها أفكار ما تحت الشعور التثبيتية دورا كبيرا، ولقد كشف بروير وفرويد عن حالات مماثلة، إلا أنهما عمماها مباشرة وعلى عجل. وقد صرحا بأن سائر حالات الهستيريا من هذا القبيل تتكون من أفكار ثابتة تحت اللاشعور. وفي دراسة ثانية لهما، كانا قد لاحظا مسائل من معنى تناسلي في بعض حالات الهستيريا، وهذا صحيح تمام الصحة: إذ قد يلاحظ الإنسان أفكارا ثابتة من نوع شبقي مع شيء من الهستيريا، لعدم كفاية الإحساس الجنسي، أو الانحرافات القليلة أو الكثيرة للغرائز التناسلية، وهذه

ملاحظة لا خلاف حولها. وقد وصفت عدة مرات مع تحليل باثولوجي مرضي على نحو مبالغ فيه تماما، ولماذا وقع التصريح بأن سائر حالات الهستيريا تقوم في هذا الاضطراب التناسلي لكثير من المرضى.[148]

وبعبارة أخرى، فإن ما هو جيد في التحليل النفسي ليس جديدا، وإنما أصله موجود في أعمال جاني الخاصة، وما كان جديدا فهو ليس جيدا ويمكن أن نتركه إلى فرويد.

المخزون الفرويدي[149] : لم يصب التحليل النفسي نجاحا في النقاش المفتوح في مؤتمرات طب الأمراض العقلية،وإذا، كان تأييد بلولر ويونغ قد وضع التحليل النفسي في وسط الخريطة، فقد كان هناك خطر حقيقي في أن يختبره جميع الناس، فيكذب وينبذه الجمهور الفقير منهم، ويطعن فيه أطباء الأمراض العقلية النابهون، وهكذا وقع تصور تخطيط للعمل، وفي 30 نوفمبر 1907 أخبر يونغ فرويد بأن الدكتور جونز القادم من لندن، مع أصدقاء يونغ من بودابست[150] قد أشاروا إلى عقد مؤتمر لأتباع فرويد، وفي يوم 30 يناير 1908، أخبر يونغ كارل أبراهام أنه لن يستدعي بيزولا، وطلب من أبراهام أن يبحث عن مشاركين كثيرين (بشرط أن يكونوا أشخاصا مناصرين لفرويد مهتمين به، وقال : أرجو أن تؤكد على كل حالة بالطبيعة الخصوصية لهذا المشروع[151].ثم إن المؤتمر الأول لسيكولوجيا فرويد الذي أقيم في نهاية أبريل، بسلزبورغ كان قد تعمد أن يكون القبول فيه سريا؛ بواسطة دعوة عارضة مع عدم السماح بالانتقاد. على أن هذا الاجتماع الخاص الذي عزف على إقامة مؤتمرات التحليل النفسي في المستقبل عبر العالم، كان يمثل دعوة إلى الاجتماعات الأسبوعية، التي كان يعقدها فرويد مع أتباعه في فيينا، ومرة أخرى، كان فرويد يريد أن يرى أفكاره تعاد محاكاتها، وتكرر خبراتها عن طريق أداة كليد وسكوب (مشكال) كان يرجع إليها ويتلز. غير أن ما كان يسميه بلولر، في ما بعد، فن إدارة إغلاق الباب، لم يستطع إطلاقا أن يحل الموقف، وباتفاق مع الأنموذج الذي كرره باستمرار على نحو ثابت، فإن الخلافات التي حاول أصحاب فرويد أن يتجنبوها خارجيا عادت إلى الظهور داخليا، وفي نهاية الأمر، حدث اختلاف بسيط بين الانشقاقات الداخلية والمناقشات الخارجية.

ثم إن الصراع في أول اجتماع سلنربورغ ثار بين يونج وأبرهام، الذي كان يشتغل تحت توجيه يونج وبلولر في بورغولزلي، وكلاهما تقدم بأبحاث حول الحبل المبكر (الذي وضع له بلولر اصطلاح الفصام)، في حين، حاول أبرهام أن يطبق نظرية الليبدو الفرودية لتوضيح هذا النوع من المرض؛ كما قد عرض يونج وجهة نظره القائلة بأن الإحساس بفقدان الواقع في الحبل المبكر، أو الخرف المبكر لا يمكن أن يفسر على أساس نظرية الليبدو، وفي الحقيقة، فإن هذا الوضع لا يمكن أن يفسر تفسيرا سيكولوجيا محضا؛ إذ يثير مسألة التسمم غير المعروف كعامل ممكن مسبب للمرض، وبينما لم يشر أبراهام إلى رؤسائه السابقين في بورغولزلي، باستثناء بعض الإشارات القليلة التقديرية إليهم، كان بحث يونج مستقلا استقلالا أساسيا عن عمل فرويد، وقد أول فرويد هذا النزاع المذهبي بينه وبين يونج كصراع على الأولية بين أبراهام ويونج.

أرنست فالدزر: إن الخلاف بين أبرهام ويونج أشبه ما يكون «بحرب بالنيابة» فكلاهما لا يتحدثان عن نَفْسَيْهِمَا، بل أيضا عن فرويد وبروير، وهذا يجعلنا نكرر بأن أبرهام كان هو نفسه عضوا في فريق يورغولزلي... وفرويد قد شجع أبراهام تشجيعا نشطا حتى يقدم بحثه، وأكد له أنه لا ينبغي أن يدخل في صراع مع يونج... وهكذا يبدو أن فرويد تسبب في صراع حقيقي، تأسف له في ما بعد، وحينئذ حاول أن يجعل هذه الواقعة غامضة، وألقى اللوم على أبراهام ويونج. وبعد المؤتمر فسر الصراع على أنه نقاش الأولية بين أبراهام ويونج، وهذا صراع على أولية من كان بالتقدم أولى في حل سر لغز الفصام بمساعدة التحليل النفسي، غير أنه في الوقت نفسه، قد أوضح فرويد تمام الوضوح أن الأولية تعود إليه هو نفسه لا غيره[152].

ويستخلص من كل ذلك، أنه يجب ضبط النغمة لنرى كيف سيحاول فرويد أن يسوي الخلافات داخل هذه الحركة، من خلال ترتيب أتباعه على نحو تراتبي ويؤكد سلطته، وعند إعادة تأطير الصراع أفقيا مع يونج، ضمن واحد من أتباعه ادعى فرويد لنفسه حق التدخل في النقاش على نحو عمودي من موقع سلطته التي لا جدال فيها وعُدَّتْ هذه الاستراتيجية أنموذجا اتبعه فرويد في صراعاته الداخلية التالية.

إذ لما صار كل واحد من معاونيه، في كل وقت وحين، يحاول أن يفتح النقاش معه، كما يفتحه مع أقرانه كزملاء في الأمراض العقلية، محاولة منهم أن يعملوا من الخارج، تعرض لهم فرويد، ورد كل واحد إلى وضعه كطالب، ولم يترك أي خيار : فإما أن ينقادوا ويترسم الخظ أو يترك الحركة، ويلتحق بالجمهور الحاشد الصاخب في انتقاداته، وهنا فإن الحدود الفاصلة بين جبهة الحركة الداخلية والحركة الخارجية أصبحت مانعة، وتحتاج باستمرار إلى إعادة رسمها كنتيجة للطرد، وقد ابتدأ الباب المغلق أشبه ما يكون بالباب الدائر. وفي مثل هذه الأزمة الحرجة، توجد تحركات ذات دلالة في الخارج، وفي سنة 1900 نشر فوريل مقالا يقترح فيه إنشاء جمعية عامة للطب النفسي[153]، ولما عين الوضع الراهن لهذا العلم، لاحظ الحضور غير المرغوب فيه لكل من هب ودب من أشباه المعالجين: «الدجالين بالتنويم المغناطيسي، وأصحاب المعهد العلمي بنيويورك، والعمال أصحاب المعجزات، وأصحاب العلاج الطبيعي وغيرهم كثير...»[154]. وللمفارقة كانت هناك علاجات مضادة قائمة على الإيحاء، تزعمها كل من ليفي، ودي بوا وهما يؤيدان اقتناعا وإرادة قائمة على خلط سيكولوجيا ثنائية، ثم كان هناك منهاج تحليل نفسي لكل من فرويد وبروير، اللذين قدما أهم تطوير له، ولسوء الحظ، قام فرويد بتطوير دراساته من جانب واحد، مطرحا على نحو اعتباطي التنويم والإيحاء، بدلا من دراسة الظواهر في ترابطها المتشابك، وحينما واجه كوريل هذا الموقف المأسوف عليه، اقترح أن يخلق جمعية علمية دولية حقيقية للطب النفسي، وأضاف أن عرض مثل هذه الجمعية بالأساس هو تنظيم مؤتمرات سنوية، يمكنها أن تضم أطباء الأمراض النفسية خاصة من جميع الجهات بدون إقصاء ولا تهميش، وفي شهر غشت من سنة 1905 أرسل فوريل منشورا ورسالة موجهة إلى الممثلين الرسميين للطب النفسي من أوروبا، ومن ضمنهم فرويد ويونج ،يدعوهم للالتحاق بالجمعية الدولية لعلم النفس الطبي، والطب النفسي مقترحا أن تؤسس بمعونة أوسكار فوجت ولول فبيج فرانك، وقد شعر فوريل بأن غياب التنسيق بين مختلف الاتجاهات للطب النفسي، يعتبر مشكلة خطيرة، ومن ثم، كان يريد أن يحدث نظاما في برج بابل.[155] عن طريق تسهيل المبادلات العلمية ومن خلال إنشاء مصطلح دولي واضح، يمكن أن يقبله جميع الناس.[156]

منشور أرسل في غشت 1909 : إن الطب النفسي من ناحية أولى، كادت تهمله كليات الطب إهمالا تاما، ومن ناحية ثانية، إنه قد أصبح يقوم في محاولات فردية مشتتة لا رابط يجمع بينها. وفي المؤتمرات، لا يكاد المرء يجد الوقت لمناقشة المسائل المهمة، التي تدخل في التنويم والإيحاء والتحليل النفسي من قبل أن هذه الجماعات صارت تهتم بموضوعات أخرى.[157]

فوريل : المؤتمر الأول للجمعية الدولية لعلم النفس العلاجي والطب النفسي 7و8 غشت 1910 [158] : إن التنويم والإيحاء والاختلاف بسيط، سواء استعمل في حال اليقظة (أو النوم) والتحليل النفسي، هذه كلها هي عوامل العلاج النفسي من الطراز الأول، وقد برهنت على ثبات صدقها. وقد يكون الإنسان غير واع بها وعيا كاملا في كليات الطب كما يجهل بعض الناس السكولوجيا العلمية الحقيقية.[159]

فوريل، الإعلانات الرسمية لإنشاء الجمعية الدولية لعلم النفس الطبي، والطب النفسي : وهكذا يتضمن الطب النفسي، قبل كل شيء الإيحاء العلاجي الطبي، والتحليل النفسي، والمناهج المقارنة القائمة مباشرة على دقة فهم السلوك... إلا أن السيكولوجيا، وطب الأمراض العقلية، كما استهين بهما، وأهملتهما بوجه عام كليات الطب، صار يدرسهما قبل كل شيء العصاميون، المكونون لأنفسهم بأنفسهم؛ مما نشأ عن هذا التيار مدارس خاصة أو محلية، كالحال في باريس ونانسي وفيينا...وهي مدارس نمت وتطورت تبعا لأفكارها الخاصة، بدون اتصال مع سائر المدارس الأخرى، وبدون مناقشات علمية عميقة، وبدون اتفاق على المصطلح؛ وكنتيجة لهذا الموقف، يبدو لي أن كثيرا من الأمور أصبحت ضرورية جدًّا:

1 - الحصول على اتفاق دولي لمساعدة النقاشات العلمية في هذا الميدان الذي يهمنا، وهو الاتفاق على الوقائع والمصطلح.

2 - توحيد علم الأعصاب، وجعله معروفا في جميع فروعه عن طريق كليات الطب.[160]

وقد كان فرويد ويونج قد سافرا، ولم ينتظرا مؤتمر كلارك، وحاولا غزو أمريكا والانتصار فيها، وحينما رجعا وجدا منشور فوريل في بداية أكتوبر،

وفي هذا الوقت كانت الجمعية قد تأسست[161]، وتشكيل هذه الجمعية وضعهما في موقف حرج، لم يكن متوقعا، فاقترح فوريل إنشاء أنماط مختلفة من الطب النفسي، بدون أن يولي عناية خاصة، وإعطاء منزلة تليق بالتحليل النفسي، فأمسك فوريل بزمام الأمور وعضده فرانك، تحت راية علم السيكولوجيا الحق، وعرضا على فرويد ويونغ مقعدا في مؤخرة المنظمة الجديدة. إلا أن هذين الأخيرين، بعد تردد طويل قررا قبول الدعوة في وسط نونبر، حتى لا يتركا المجال مفتوحا لخصومهما[162]. وفي الشهر نفسه، وفي اجتماع مهني لأطباء الأمراض العقلية السويسريين، عقد كل من فوريل ويونغ تحالفا لعزل قوستنطين فون مونكو، المساعد الأيمن مع دي بوا لإنشاء جمعية ثالثة لعلماء الطب النفسي، وهي جمعية علماء الأعصاب[163] وفي دجنبر أرسل فوريل إلى فرويد نسخة إهداء للطبعة الحادية عشر من كتابه (الدماغ والنفس)[164] والأغرب ما في الأمر، أن فرويد حاول على عجل أن يندس في الهيأة الدولية للأخلاق والثقافة من إحداث باستور نيب، وهي منظمة شارك فيها بنشاط فوريل قبل أن يتخلى عن الفكرة كنصيحة من يونغ.[165]

من يونج إلى فرويد 11 فبراير 1910 : تجعلني جمعية التحليل النفسي فخورا وساخطا : ذلك أني لا أريد أن يرتبط بها فوريل ذو الشعر الخروبي لكنني أريد أن يلتحق بها كل من هو حيوي وديناميي وسأخضع هذه المسألة الحاسمة للجمعية الدولية للتحليل لنفسي التي ستعقد في مؤتمر نوزمبرغ.[166]

وفي الوقت نفسه، كانت فكرة إنشاء الجمعية الدولة للتحليل النفسي قد نبتت، جامعة، من الناحية الشكلية للمنخرطين في مذهب فرويد، ومن الواضح أن هذا التوقيت لم يكن صدفة.

من فرويد إلى فرنزي، 1 يناير 1910 : وبالمناسبة ماذا ترى في منظمة ضيقة بقواعد شكلية وبرسم زهيد؟ وهل تعتبر هذا امتيازا! وأيضا لقد راسلت يونغ في هذا الموضوع.[167]

من فرنزي إلى فرويد 2 يناير 1910 : إني أجد إشارتك (منظمة ضيقة أو مقصرة) بالغة الفائدة؛ ذلك أن قبول أعضاء تدبيرهم كما هو عليه الحال في جمعية فيينا، ويصح أن يكون هذا طريقا لتجنب العناصر غير المرغوب فيها.[168]

وفي غضون ذلك، ظلت المناقشات مستعرة في ما يخص التحليل النفسي وفي 27 مارس، حدثت منافسة حامية حول التحليل النفسي، في الجمعية الطبية، في هامبورغ، تلتها مداخلة تكلف بها، بانفان إميدن، المتخصص في علم نفس الأعصاب، فقد هاجم هذا الرجل إميدن التحليل النفسي هجوما عنيفا، محتجا بأن الدور المفهوم الذي يعزوه فرويد إلى الجنس لم تتم البرهنة عليه، وأن نجاح نظرية فرويد، مثلها مثل نظرية دي بوا، يعتمد أساسا على الإيحاء والتعليم وحذر من إمكانية رجوع المرضى إلى الملاجئ التي يمارس فيهل التحليل النفسي (وكان هدفه الأساس هو الطعن في بورغولزلي وما شابهه)، وفي المناقشة احتج تومنر بأن العناصر الأساس لنظرية فرويد عن الهستريا، كانت دقيقة وبارعة(أي التحويل إلى حالات وجدانية غير تصيرفية) لكن فرويد أسس نظريات مريعة ومرعبة انطلاقا من نقطة البداية الصحيحة لبروير، وكالحال بالنسبة إلى التفسير فرويد للأحلام، فإنه كان قد لاحظ بأن تأويله يكاد يكون مماثلا للتفسيرات التي كان قد اقترحها. ومنذ زمن طويل، شرنر ؛ كما أن ماكس نون يلاحظ متبعا في ذلك إميل كرابلين، وثيدور زيهن بأن أطباء الأمراض النفسية من الألمان، قد انتقدو التحليل النفسي واستدل على أن الصدمات الجنسية كانت شائعة وعامة في الطفولة واقعيا؛ إلا أنها لم تكن هي أسباب الصدمات بالمعنى الذي يقصده فرويد، وأثبت كما فعل إميدن أنه لا يمكن أن نترك المرضى في المصحات حتى يعالجوا على طريقة فرويد.[169]

وبعد مناقشة هامبورغ بوقت قصير اتحد أصحاب فرويد، وأنشئت الجمعية الدولية للتحليل النفسي، وأعلن عنها شكليا في مؤتمر نوهمبورغ بين 31-30 من شهر مارس من سنة 1910، وقدم فرنزي في نوزمبورغ حجة منطقية لتعليل المنظمة الجديدة، وحينما قدم هذا الأخير تفسيرا شجاعا لصراع فرويد ضد معارضيه، تمسك بأن المحللين النفسانيين منذ البداية، كانوا قد لاقوا التنديد والتشنيع الفارغ، وأننا هنا (ضد إرادتنا، تورطنا في حرب).[170]

فرنزي : لقد توارد العمال الجدد على ميدان علمي جديد اكتشفه فرويد كما كانوا تقاطروا إثر أميريكو Amerigo على قارة جديدة اكتشفها كولومبوس وفعلوا مثل ما فعل، ولازالوا يفعلون في قيادة حرب العصابات، كما كان يفعل الرواد الأوائل في العالم الجديد.[171]

وإذا، كان فرويد هو كولومبوس، فقد يترتب عن ذلك أن علماء السيكولوجيا الآخرين، وأطباء الأمراض العقلية عليهم أن يمثلوا دور الهنود الحمر الأمريكيين. وهكذا قد لاحظ فرنزي، وقد صقل استراتيجية بأن هذه الحرب إنما شنها المحللون النفسانيون وهي لا تذهب بعيدا، ولا تنجح، لأن ما ينقصها هو الاتجاه المركزي، والقيادة العاملة لبعض المحللين النفسانيين وقد حان الوقت لتصحيح كل ذلك بتكوين منظمة مركزية، وقد يكون هذا امتيازا لفصل آخرين يستفيدون مصالح مستقلة في التحليل النفسي، وزعم أن مثل هؤلاء الأصدقاء هم أشد خطرا من الأعداء. والمثال الذي يورد يتمثل في أصحاب نزعة التركيب النفسي، ولم يشر إلى بيزولا باسمه، وهكذا تكون الجمعية الدولية، بالنسبة لفرنزي، إنما تبرر ضرورة الدفاع ضد الأحلاف غير المرغوب فيهم، كما تقتضي الحاجة بحشد تحالف ضد الأعداء، وقد ردد فرويد في ما بعد استدلال فرنزي، في السنة نفسها.

فرويد : إنه ليس مقبولا بالنسبة إلي، ولا بالنسبة إلى أصدقائي والمساعدين العاملين في هذا الميدان، أن ندعى احتكارا في استعمال التقنية الطبية، إلا أنه أمام الخطر الداهم بالنسبة للمرضى ولقضية التحليل النفسي، مما هو متصل بالممارسة التي تستلزم التبصر في عواقب تحليل نفسي طائش ومتهور، حيث لا يكون اختيار آخر وفي فصل الربيع من سنة 1910، أنشأنا الجمعية الدولية للتحليل النفسي التي أعلن المنخرطون فيها نشر أسمائهم أنهم قادرون على التبرؤ من مسئولية ما فعله أولئك الذين لا ينتمون إلينا، ويدعون أن طريقتهم الطبية هي تحليل نفسي. وفي واقع الأمر، فإن المحللين الطائشين من هذا القبيل، أشد ضررا على قضية التحليل النفسي من المرضى.[172]

ويتصور فرويد في ذهنه ما يقصده بالمحللين الطائشين أشخاصا مثل بيزولا وفرانك.

وفي كتابه : «تاريخ حركة التحليل النفسي» يبرز فرويد سبب خلق الجمعية الدولية للتحليل النفسي، بضرورة ترتيب صفوفها : «مادام العلم الرسمي صرح بالخطر المحدق بالتحليل النفسي، غير أنه من الواضح أن[173] هذه الجمعية كانت الوسيلة الأولى أولا وقبل كل شيء لمقاومة التحليل الذي تجرع الإهانة

من المناقشة التي يمثلها فوريل وأصدقاؤه وكما شرح فرويد إلى بلولر في أكتوبر من السنة نفسها، فإن أحد هذه الأسباب التي كانت من وراء تنظيم الجمعية هو الحاجة إلى تقديم تحليل نفسي صحيح وشعبي وحمايته من ضروب المحاكاة (والتزييف) التي ما لبثت أن أطلت برأسها[174]، ولقد اعتدنا أن نعتبر التحليل النفسي متمثلا في فرويد، ولا نعتبر أنه يمكن أن يوجد تحليل نفسي غير فرويد. إلاّ أن هذا وهم ينطبق على الماضي، مما يضمن الانتصار للجمعية الدولية للتحليل النفسي على المنظمات المنافسة وفي الوقت عينه، فإن حصر الانتماء للتحليل النفسي على فرويد كان بَدَهيًا بأي حال من الأحوال، وكما رأينا، فقد كانت هناك مناقشات ذائعة تختص بالتساؤل إلى من يدعي بحق امتلاك ميراث بروير، وبهذا الاعتبار فإن إنشاء الجمعية الدولية للتحليل النفسي كان محاولة لوضع اليد على المنافسة المتناظرة الدائرة بين أصحاب فرويد وأنصار فوريل، وهي منافسة قائمة على المحاكاة، وكان السؤال المطروح هو، من يا ترى سيستولي على قارة الطب النفسي: هل هو التحليل النفسي، حسب بروير وفوربل وفرانك، أم التحليل النفسي حسب فرويد وأتباعه؟ وبدون مبالغة، يمكن أن يقال إنه قبل انشقاق المدارس المنافسة كانت الجمعية الدولية للتحليل النفسي كتمثل نتيجة الفرقة التي حدثت ضمن حركة التحليل النفسي، وفي هذه الأثناء، نشر فرانك كتابا سماه التحليل النفسي[175] مؤيدا فيه صراحة الرجوع إلى طريقة بروير في التحليل النفسي، ومنتقداً الانحراف الفرويدي، وليس غريبا ألا يقبل فرويد هذا التقييم.

من فرويد إلى يونج 22 أبريل 1910 : ومن ناحية أخرى، لقد اطلعت بنوع من النفور، على كتاب فرانك الحقير والجبان حول التحليل النفسي الذي يتهمني فيه، بطبيعة الأمور، على مبالغتي في إعطاء الأهمية للجنس، وإذا، يعاملني على أن الأولى بي أن أذهب.[176]

على أن العلاقات، مبدئيا، بين أصحاب فوريل وأنصار فرويد لم تكن بالكامل كراهية مفتوحة، وقد كنا رأينا علامات هذه الأحداث.

لقد كان فرانك ينتظر مؤتمر التحليل النفسي في نورمبورغ (ويمكن للإنسان أن يتخيل ماذا يمكنه أن يصنع مع فصاحة فرنزي الجوفاء). وذهب آرنست جونز

إلى المؤتمر الأول لجمعية فوريل في بروكسيل في غشت سنة 1910 [178] (وكالمعتاد رفض فرويد دعوة فوجت التي وجهت له[179])، والظاهر أن أنصار فرويد استمروا يلعبون لعبة التبادل العلمي، إلا أن حدثا عارضا في هذا الوقت، إبان إنشاء الجمعية الدولية للتحليل النفسي، قد كشفت على أن هذه الجمعية لم تكن مثل سائر الجمعيات الأخرى من الناحية العلمية : ذلك أن عالم الطب النفسي، مالكس ايسرلن، الذي كان قد انتقد وجهة نظر يونج : «في سيكولوجيا الحبل المبكر»[180]، قد التمس الإذا، ليحضر مؤتمر نورمبورغ.

من يونج إلى فرويد 2 مارس 1910 : أطلب إليك أن تطلعني كتابة ما إذا، كان ينبغي أن تسمح لهذا الوغد أن يحضر في نورمبورغ، أما أنا، فإني أفضل أن يكون ابن الزنى هذا حاضرا؛ لأنه سوف يفسد علينا شهوتنا؛ إذ ينبغي أن تنتهي عزلتنا المريحة في يوم ما.[181]

من فرويد إلى يونج 6 مارس 1910 : وأنا أيضا أعتقد أن عزلتنا ينبغي أن تنتهي في يوم ما، وحينئذ فلن نتمسك بعقد مؤتمرات منفصلة؛ بل أظن أن ذلك اليوم لا يزال بعيدا، وأننا نستطيع أن نعمل مع ضيوف آخرين أفضل من شخص ايسرلن.[182]

وقد كان ايسرلن قد منع من الحضور، وقد أزعج هذا الحدث الكثيرين باعتبار أن هذه الممارسات المقصية والمهمشة لم تكن معروفة في الطب والطب النفسي في ذلك الوقت، فاشتاط إميل كرايبلس غضبا، وفي هذا السياق قدم هوس بشهرين في ما بعد، بحثا إلى مؤتمر علماء الأعصاب، وأطباء الأمراض النفسية في جون غرب ألمانيا، في بادن، عنونه كما يلي : «الوباء النفسي بين الأطباء»، وكان اتهامه واضحا : وهو أن أصحاب فرويد يسلكون سبيل العبادة.

هوس 28 مايه 1910 : إن عددا كبيرا من الأتباع بشكل غريب، ومنهم متعصبون على نحو ظاهر، يقدمون أنفسهم إلى فرويد ويتبعونه إلى حيث يقودهم، ولكي نتحدث عن هذه كمدرسة فرويدية، فلربما انحرفنا تماما عن الموضوع، إذ أن السؤال ليس عن الأحداث التي يمكن الاستدلال أو البرهنة عليها علميا بل السؤال عن مسألة اعتقاد، وفي الحقيقة إذا، تركت جانبا بعض النزاعات المعتبرة فلا نجد إلا جماعة من المعتقدين، تمثل طائفة أو فرقة بسائر

الخصائص التي تعرف عن الفرق الاعتقادية... وأن يصبح الإنسان عضوا في هذه الفرقة ليس سهلا على الإطلاق؛ إذ يتطلب هذا الدخول والانتماء في حال التربية على الرهبنة مدة طويلة، مما ينتهي بالحالة المثالية بمباركة زعيم الفرقة نفسها، وفي الوقت نفسه، إنه لا واحد من الناس يمكنه أن يصبح تلميذا تابعا، إلا لأولئك الذين لهم ذلك الإيمان المعروف عند الفرق ذلك أن الذي لا يعتقد، لا يمكنه أن ينجح، ولا يمكن له أن يتكلم إلا في حالات استثنائية، وما يكون مشتركا بين جميع أعضاء الفرقة هو الدرجة العليا لتقديس رئيس الفرقة الذي ربما نجد له شبيها في عبادة الشخصية من دائرة بيروت (أي حول فاجنر) وفي الحقيقة، فإن الحركة الفرويدية هي عودة في الصورة الجديدة إلى «الطب السحري»[184] وهو مذهب سري لا يمكن أن يمارسه إلا المفسرون العارفون بالرموز والعلامات.

أما في ما يخص بلولر، فإنه أخذ على حين غفلة بسبب الحادث العارض لأيسرلن الذي أبى إلا أن يعارض الالتحاق بالجمعية الجديدة، وهكذا، فإن أنصار فرويد لما لم يرضهم منع إيسرلن من الحضور إلى المؤتمرر قرروا أن يضيقوا عضوية الجمعية الدولية للتحليل النفسي وأن يقصروها فقط على المؤمنين بها، وقد اعتبر بلولر أن مثل هذا الإقصاء التكتيكي، لا يوجد له مكان في المجتمع العلمي، وكتب رسالة طويلة إلى فرويد من 13 أكتوبر 1990؛ يحاول فيها أن يقنعه أن يرجع عن هذا القرار، وانطلقت المبادرات الديبلوماسية[185] ليلتحق بلولر بالركب، وحتى تحليل الحلم كان قد تجند للدفاع عن هذه القضية، وكتب يونغ لفرويد يخبره بالسبب الذي من أجله لم يلتحق بلولر.

من يونغ إلى فرويد 13 نونبر 1910 : يقول لنا الحلم ما هو السبب لمقاومة بلولر، وليس الأمر كما يقال بأن شتيكل موجود في الجمعية، لأنني أنا الذي كنت تمسكت برجوعه، ولذلك، فقد رمى شتيكل بوجهي إيسرلين، ويشبه أن يكون من الواضح أن هذا ستار لمقاومة الجنسية المثلية لديه.[186]

وفي بداية 1911، كان بلولر، في نهاية الأمر قد رق، ولان، إلا أن هذا لم يدم طويلا كما سنرى؛ إذ جعل الباب الدائر يتحرك.

وفي الحقيقة، بينما استمرت الخلافات الخارجية، كانت النزاعات الداخلية قد تضاعفت في مركز الحركة عينها بين فرويد وأدلر؛ الذي كان من أشهر

الموهوبين من أتباعه في فيينا، وفي السنوات التالية لمؤتمر سلسبورغ، اشتد التنافس والصراع بين الأتباع الموجودين في فيينا وفي سويسرا، لما حاول فرويد أن يحول كرسي العضوية، أو المقر إلى زوريخ، حتى ينشئ حركة دولية، وفي سنة 1910، أصبح أدلر وويلهيام شتيكل ناشرين لمجلة تكونت حديثا اسمها (zentrablatt الورقة المركز للتحليل النفسي) وكان تشكيلها في جزء منه يقصد به منافسة المجلة الدورية السنوية السويسرية التي كانت مسيطرة آنذاك، وحينما شرعت جمعية التحليل النفسي في فيينا تنظم نفسها، كان أدلر قد عين فيها أول رئيس سنة 1910؛ فازداد اختلاف وجهة نظره عن فرويد اختلافا كبيرا، ولم يكن اختلافهما في جوهره إلا كاختلاف بسيط؛ مصدره أن فرويد كان يستوحي أفكاره مما صاغه يونج من أفكار عن الخوف المبكر، أو من طريق التركيب النفسي عند بيزولا، وجاءت إجابة فرويد قاطعة : «إنه التشخيص».

من فرويد إلى يونج 25 نونبر 1910 : لقد ثبط عزمي الغضب على أدلر وشتيكل الذي يصعب أن تنسجم معه، إنك تعرف شتيكل : لقد عاش فترة عصبية أما أدلر فهو رجل نزيه وذكي إلا أن به جنون الهذيان وفي «الورقة المركزية للتحليل النفسي» قد ركز كثيرا على نظرياته التي لا تكاد تفهم، حتى أن القارئ يختلط عليه الأمر، عند قراءتها، وهو يدعي دائما أنه له الأولوية، ويضع أسماء جديدة على كل شيء، ويشتكي أنه مختف تحت ظلي، ويرغمني على القيام بدور غير مرغوب فيه كأني مستبد وطاغية، يحرم الشبان من أن يتقدموا وينجحوا.[187]

من فرويد إلى يونج في دجنبر 1910 : لقد تعكر الصحو كثيرا مع أدلر وأنت يمكنك أن ترى هنا شبها بما كان مع بلولر، وبالنسبة إلي، فإنه ينبه ذاكرة فليس إلا أنه على درجة الأوكتاف الأخفض، وعلى حال نفسه جنونه الهذياني.[188]

ومع هذه الخطوة البسيطة، يمكن أن يقع الانصراف عن نظرياته؛ وبالنسبة إلى الفرويد، فإن التصوير الحالي لأدلر، هو أنه : «يعاني من غموض جنون الهذيان»[189]

من فرويد إلى فرنزي 16 دجنبر 1910 : لقد تغلبت الآن على فليس الذي كنت تستغرب منه كثيرا، ولا شك أن أدلر يشبه قليلا فليس الذي يريد أن يبعث من جديد كشخصية مريضة بجنون الهذيان، أما شتيكل فليس هوالاذيلا تابعا له على الأقل في ما يدعي ويلهيام[190]

من فرويد إلى جونز 26 فبراير سنة 1911 : لكن أدلر يتميز بحساسية مريضة،.... مع أن آراءه دالة على ذكاء، إلا أنها خطيرة، وخاصة في ما يخص انتشار التحليل النفسي؛ ذلك أن دوافعه وسلوكه إنما يقعان ضمن طبيعة الأعصاب.[191]

من فرنزي إلى فرويد 17 مارس 1911 : إنك لم تكن مكتشفا فقط تلك الوقائع السيكولوجية الجديدة؛ بل مكتشفا كذلك للطب الذي يعالج به الأطباء وإذا، كان الحال هكذا فلا بد من تحمل عبء التحويل والمقاومة، وبطبيعة الأمر، قد يكون الأمر مزعجا حينما يتعامل مع أطباء لا يعالجون، وليس من السهل إقناعهم بأن يعالجوا أنفسهم «كمثال لذلك الانحراف الجنسي الصبياني عند شتيكل وجنون الهذيان عند أدلر...»[192]

وهذا المرض الباثولوجي الانفعالي للانشقاق، لا يمكن فقط من نزع الشرعية عن ضروب التحديد النظرية عند أدلر، بل يخفف كذلك من الجواب المتوقع من انتقاد فرويد، وحتى تحليلك الخاص بك لا يتفق معك ! وفي الحقيقة، إذا، كان أدلر قد ظل محللا نفسانيا — وأحد المهيمنين في الموقع المؤسسيٍّ وفي موقع السلطة بالنظر إلى أدب التحليل النفسي — فإن دفاعات فرويد ضد نقده لم تزد النار إلا اشتعالا والرد البسيط الذي أبطل الآراء الانتقادية - إذ لم يكن يمارسها المحللون النفسانيون - وضع الآن مشكلة خطيرة، وبخاصة، حينما يقدم شخص في وزن أدلر، وهو أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية فرويد السيكولوجية الأسبوعية (يوم الأربعاء)، انطلاقا من سنة 1902، آراء مطابقة من الوجهة النقدية لآراء فرويد النقذية نفسها.

من فرويد إلى يونج 3 دجنبر 1910 : إن المشكل المحير في الأمر — وهذا ما ينذرني بالخطر وبالشؤم — هو أن أدلر يقلل من قيمة الدافع الجنسي، وسيكون خصومنا آنذاك قادرين على أن يتكلموا عن تجريب المحلل النفسي، الذي يجوز أن تكون نتائجه مخالفة على نحو جذري لنتائجنا.

وقد فتحت تجديدات أدلر إمكانية تكاثر التحليلات المتنافسة، مما أدى بالضبط إلى تأسيس الجمعية الدولية للتحليل النفسي على أمل أن نوقف هذا التكاثر. وهكذا فإن مجرد الاختلاف النظري كان غير كاف؛ إذ كان من الضروري أن يفقد أدلر مصداقيته على وجه كامل.

وفي شهر يناير، وفبراير، من سنة 1911، عقدت عدة اجتماعات في فيينا لمناقشة الاختلافات النظرية بين فرويد وأدلر.

شتيكل : وقد ترادف أنصار فرويد، فكان كل واحد منه يقوم في إثر الآخر ليعلن شجبه، في كلام مهيّأ ومبيت من قبل، للمفاهيم الجديدة التي وضعها أدلر وحتى فرويد نفسه قرأ بحثا ضد أحد تلامذته.[194]

محاضر جمعية التحليل النفسي بفيينا أول فبراير من سنة 1911

: وقد كان فرويد شخصا يمتعض من كون أن الكاتب يتحدث عن الأمور نفسها التي يقولها فرويد، إلا أنه كان يكني عنه ولا يسميه بالعبارات التي يستخدمها وبدون أن يبذل أي مجهود يذكر لإقامة أي علاقات بين ألفاظه وحدوده، وبين الحدود القديمة...

إن كتابات أدلر لم تكن استمرارا متجها إلى أعلى، كما هي ليست تأسيسا على عمق ضارب في الأسفل، إنها شيء آخر مختلف تمام الاختلاف، مع أن كل ذلك ليس في شيء من التحليل النفسي... وفي إنكار أدلر لواقع اللبيدو، فهو صار يسلك كما يفعل العصابي.[195]

شتيكل : وفي الجلسة التالية، دافع فرويد عن سلوكه إزاء أدلر وقال : «إن هذا الرجل ليس عاديا فجسده وطموحه مرضيان.»[196]

ولأن هذا المرض الباثولوجي الانفعالي للخصوم ابتلي به الآن تلاميذ فرويد المقربون جهارا، وبعد هذه الاجتماعات، استقل أدلر وشركاء آخرون، فأسسوا جمعية البحث الحرة، في التحليل النفسي كرد موجه ضد التكتيك السلطوي الخاص بفرويد. وبسرعة تولى فرويد الأمر بنفسه كرئيس لجمعية فيينا، واتهم انسحاب أدلر على أنه بدعة وانشقاق[197]، وفي أكتوبر من السنة عينها، منعت جمعية التحليل النفسي بفيينا عضوية كلتا الجمعيتين.

أدلر 1912 : إن الدافع لإنشاء : «جمعية البحث الحرة في التحليل النفسي»، كان في يونيه 1911، بإرادة أعضاء كثيرين من «جمعية التحليل النفسي بفيينا» التي كانت تحت توجيه البروفسور سيموند فرويد، وكانت الفرصة سانحة لهؤلاء الأعضاء لأن يشيروا إلى أنه قد وقع الشروع في أن يلتزم الأعضاء بالجمعية

الأم من الوجهة العلمية، بخط الاتجاه الكامل لافتراضات فرويد ونظرياته، إلا أن هذا التطور بالنسبة إلى هؤلاء الأعضاء لم يظهر لهم فقط صعبا للتوفيق بين المبادئ الأساس للبحث العلمي، بل بوجه خاص خطيرا، على علم ناشئ كالتحليل النفسي في هذه المرحلة من شبابه، وفي رأيهم لا يزال هناك متسع ومجال للتساؤل عن قيمة النتائج التي أنجزت؛ إذ ارتبط أعضاء الجمعية على نحو من التبادل، ببعض الصياغات، ومن ثم اضطروا لأن يتخلوا عن إمكانية مباشرة البحث المتجه نحو حلول جديدة.[198]

إلا أنه لا يكفي أن نطرد أطارقين وأصحاب البدع المنشقين، أو منع آخرين من الدخول، وبعد سنة من حكاية إيسلين، كان هانس ماير الذي تولى مكانة يونغ في يورغولزلي، وخلفه في هذا المنصب، قد أقصي أيضا من حضور جمعية التحليل النفسي بزوريخ، وقد سبق أن سأل فرويد بلولر أن يقطع علاقته ببعض أطباء الأمراض العقلية، وخص بالذكر ألفريد هوس وثيودورزيهين؛ بحجة أنهما انتقدا التحليل النفسي، وبعد حادثة مايير، قرر بلولر اعتزال الجمعية الدولية للتحليل النفسي، لأنه ضاق ذرعا بهذه التصرفات.[199]

من هانس مايير إلى الفونس مايدر 25 أكتوبر 1911 : إن ما آخذه على الجمعية منذ البداية هو تنظيمها وتكوينها، إذ كنت قد خمنت أنها ستؤدي إلى تشكيل عصبة مما أكرهه إطلاقا في مجال علمي، ويجب أن أقول إن الأحداث التي مرت في السنوات الأخيرة، ومنذ ذلك الحين، كانت تجاوز تخوفاتي بكثير ولم أفكر قط في أن تغيير الشخصيات الفردية واتجاهاتها العلمية على وجه كلي ومواد تخصصاتها المهنية يمكن أن يظهر في وقت قصير على هذا النحو وبهذا المدى كما وقع.[200]

من بلولر إلى فرويد 27 نونبر 1911 : إنه مع كامل الأسف، يجب علي مرة أخرى أن أترك جمعية التحليل النفسي، وبطريقة مؤدبة ولكن حازمة؛ فالطبيب المساعد لي، الذي كنت أستدعيه في بعض المناسبات إلى هذه الجمعيات العلمية طلب إلي ألا يحضر أبدا، وحتى أضعك في الصورة الحقيقية : فإنه قال لي، إما أن يلتحق أو يترك بصفة نهائية هذه المظاهر، بعد أن فسر أنه لا يستطيع أن يلتحق نتيجة لأسباب مقررة بصفة نهائية.[201]

من فرويد إلى يونج 30 نوفمبر 1911 : إن مايير ينبغي أن ينصرف على أي وجه كان.[202]

من بلولر إلى فرويد 4 دجنبر 1911 : إن العبارتين المشهورتين «من ليس معنا فهو ضدنا» «إما الكل أو لا شيء» هما في رأيي بالضرورة مخصوصتان بالجمعيات الدينية، ومفيدتان في الأحزاب السياسية، ولهذا السبب، فإني أفهم المبدأ المقول على هذا النحو، إلا أنني أعتبره مبدأ ضارا بالعلم... وفي العلم لا أعترف بالباب المنغلق أو المنفتح، بل لا يوجد باب ولا درجات أمام الباب على الإطلاق، وبالنسبة إلي، فإن وضع مايير قد يكون صحيحا، أو غير صحيح مثله مثل سائر الناس.

وقد قلت إنما يريد فقط امتيازات لأن يحصل على العضوية؛ ولكن عليه أن يقدم تضحيات، ولكني لا أفهم أي نوع من التضحية التي يمكن أن يقدمها إلا أن يضحي بجزء من آرائه؛ ولا يمكنك أن تطلب من أحد مثل هذا، ولا أعتقد أن مصلحة الجمعية أن تفرض سلوكا إقصائيا على أي وجه كان، وإني أعتقد خلاف هذا المطلب، وأعارضه تمام المعارضة لأنه ليس تصورا كليا. «weltanschaung»[203]

من بلولر إلى فرويد 1 يناير 1911 : وإذا، وجدت جمعية كسائر الجمعيات الأخرى بالمعنى نفسه، فلا واحد من الناس يمكنه أن يعترض؛ وقد يكون هذا مفيدا لكن نمط الجمعية هو الذي يكون مضرا، وبدلا من أن يناضل الإنسان لكي يحصل على نمط الاتصال مع النشاط المحدد للعلم والعلماء، فقد عزلت الجمعية نفسها بخيوط معدنية عن العالم الخارجي؛ مما صدم الأعداء والأصدقاء... والمحللون النفسانيون أنفسهم قد صدقوا الألفاظ الخبيثة لهوس حول النزعة الطائفية التي كانت في ذلك الوقت غير مبررة.[204]

وهكذا جاء دور فوريل ليدخل في المناقشة بحجة قوية؛ إذ مع الطبعة السادسة لكناية : «في التنويم» أضاف فصلا طويلا، عريضا، عن التحليل النفسي، وفي الفقرة الأولى منه صحح المصطلح الجديد عند فرويد، وفي الفقرة الثانية نسب الاكتشاف إلى بروير، وبعد أن ذكر بأن أصول التحليل النفسي ينبغي أن تطلب في نظرية «الببولت» عن الإيحاء، وهو يحصي الكتاب الذين طوروا منهاج التحليل النفسي، منهم فرويد وفوجت، وجرايتر، وفرانك وبيزولا ودي، يتصور رد فعل فرويد حينما

يرى نفسه وقد ذكر وكأنه ليس إلا استمرارا للأعمال الأخرى التي أنجزها بروير، وباقي الفصل ليس إلا انتقادا مفصلا لنظريات فرويد ويونغ، متهما إياهما بالإلحاح على جانب واحد من الجنسية، وكونهما تخليا عن المصادر القيمة لطريقة التطهير والتنويم والإيحاء الذاتي في سبيل أو من أجل نظام متعسف دوغماتيكي للتفسير.

فوريل : إن مكتشف منهاج التحليل النفسي، من وجهة نظر سيكولوجية كما هو الحال من وجهة نظر الدلالة العلاجية، هو جوزيف بروير من فيينا.. وإني أختتم هذا الفصل بأن أشكر قبل كل شيء، السيد بروير وأيضا فرويد وجراير وفرانك، كما أشكر كتابا آخرين ممن ذكرتهم من أجل أفكارهم الخصبة ولا يمتد شكري إلى الافتراضات الخطيرة والدوغماتيكية لمدرسة فرويد بالمعنى القوي لهذا الكلام.[205]

من فرويد إلى فرنزي 21 مايو 1911 : لقد قدمني فوريل في طبعته السادسة عن «التنويم» ولكن باقي هذا التقديم لا يدور إلا حول الحرف الإغريقي بسببي، والمؤسف في هذا الغباء أن يقدمك شخص على نحو من التحايل والانحياز لفرانك وفوجت، وهما من الضحالة والتفاهة مما لايزيد عليه. وحججه مثلا ضد النزعة الجنسية تجعل الإنسان كئيبا كآبة رجل كتب كتابا ضخما حول مسألة الجنس[206] وفي الحقيقة لقد وضعني مرة أخرى خارجا عن هذا التيار.[207]

وحوالي ثمانية أشهر في ما بعد، انفجر النقاش بين الفريقين من تياري التحليل النفسي في سلسلة من تبادل السجال في مجلة زوريخ الجديدة، وقد كان هذا الخلاف المهم الذي أعاد بناءه أولا إلينبرغر[208] أعطى عن الناحية التاريخية من حياة فرويد، ما شكل أول مثال لمعارك فرويد السجالية العديدة التي أرهقته في الصحافة والدوريات، ويجب أن نقول إن الشرارة التي أوقدت هذا السجال كان ذلك الحديث النقدي الذي قدمه الدكتور ماكس كيسرلنج عن التحليل النفسي، وهو عالم مختص في الاضطرابات العصبية، في كيلبر- بوند بزوريخ وكان هذا مناقضا لمنظمة معروفة باسم «هاكيل»، والمكرسة لفضح استعمال العلم في الدعاية الإلحادية. ويشبه أن هذه المنظمة قررت مناقشة التحليل النفسي بعد مراجعة فرانك في صحيفة زوريخ، التي استخلصت منها درسا من النزعة المادية، وقد نشرت هذه الصحيفة في 2 يناير مراجعة نقدية لاتهام حديث لكسيرلنج وكيلبر-

بوند، وهذا كله أدى إلى تهاوي وسقوط جبل جليدي من الرسائل الصادرة من قبل من الخبراء في التحليل النفسي وأعدائه، وقد جاءت الهجومات الفظة ضد التحليل النفسي من فرانز مارتي الذي سخر كثيرا من الوسواس الجنسي لدى المحللين النفسانيين بضرب أمثلة ساخرة.

وتدخل يونغ للدفاع عن شرف التحليل النفسي، فانتقد كسيرلنج؛ لكونه أدرج النقاش في مواد البحث الطبية في مواجهة عامة الجمهور، كما أنه اتهم مارتي؛ لكونه يفتقد الصفة الطبية، ويسلك السلوك المخالف للطابع العلمي، من خلال رفع[209] النزاع إلى الصحف. وهكذا ادعى أن مفهوم التحليل النفسي عن الجنس أوسع في معناه من مفهوم (العامة) التي تتمسك بنقده. وقد رد مارتي قائلا بأن التحليل النفسي من الوجهة العلمية والممارسة يرجع تفسيراته دائما إلى دلالة عامية قدحية.[210]

من يونج إلى فرويد 23 يناير 1912 : لقد وقعنا ضحية ابتزاز الصحف وانهال علينا[211] السب والشتم من أسماء غير معروفة، ولقد استشرت محاميا مشهورا لآخذ رأيا ممكنا، حتى أرفع به دعوى القذف والتشهير؛ إلا أن هذا منظور قليل النجاح؛ لأن الهجوم غير مباشر، وإذا، فقد اقتصرت على احتجاج عام عن طريق الجمعية الدولية للتحليل النفسي، فرع زوريخ، وسيظهر قريبا في الصحافة.[212]

وفي 25 يناير، دخل المعركة فوريل مدافعا عن التحليل، واتهم كسيرلنج وماتي لكونهما يخلطان التحليل النفسي الحق عند بروير وفرانك، بالتحليل النفسي المنحرف عند فرويد ويونج.

فوريل : من المؤسف حقا أن ترى نظرية صحيحة ومثمرة كنظرية التطهير عند بروير أسيء بها الظن؛ من خلال الخروج عن الموضوع، واستطرادات جنسية لا تنتهي من جانب المدرسة الفرويدية؛ لأنه من جانب هذه المدرسة نتجت شروح وتفسيرات للأحلام ودراسات أدبية وأسلوبية للأدب القديم، وكل هذا كان على حساب ترك المنهاج العلمي، وإذا، قد أصبح هذا الأمر نوعا من التنطع بيد الهواه.[213]

وقد رد كيسرلنج ومارتي على نحو ضمني، مشبهين فوريل بكونه على شاكلة أنصار فرويد، وفي أول يوم من فبراير، أجاب بأنه توجد لهما من

الأسباب ما يجعلهما ينتقدان فرويد ومدرسته، ولا يلزم عن هذا أن تحكم على التحليل النفسي من حيث هو، ومن حيث كونه ليس من صنع فرويد، وإنما هو من ابتكار بروير.

فوريل : ومن الواضح نتيجة لذلك، أنه يجب أن تثبت بأن الباحثين الجادين يشتركون تماما في الحكم مع فرانز ومارتي، على الخاصية الفريدة لمدرسة فرويد: ذلك أن كنيسته الجنسية التي لا يوجد خارجها أي خلاص، وكذلك الطفلية الجنسية لديه وتأويلاته التلمودية اللاهوتية، لا يمكن الانفصال عنها، وقس على ذلك... أما ما لم يفعله فرانز وماتي، فهو أنه إلى جانب الطائفية والجنسية والانحراف البعيد عن حركة التحليل النفسي الدولية، يوجد تحليل نفسي قد نسميه غيرَ هذا الاسم؛ لأنه يطبق على نحو نزيه، ويكون موازيا بالنظرية الإيحاء والتنويم والطب النفسي، ودراستها جميعا، وهو تحليل يمكن أن يفصل النواة العلمية الحقيقية عن أبحاث بروير وفرويد، وأن يعمق شكرنا لهما لدراستهما الجادة والرزينة، وأن نجعلهما مفيدين في علاج الاضطرابات العصبية.[214]

وقد تبعت هذه الرسالة إجابة قصيرة من مارتي يشكر فيها فوريل على توضيحاته معلنا أن هذا النقاش قد أغلق برضا كل واحد، وبمباركة اقتراح فوريل، وقع تهميش يونغ الذي هو نفسه تمسك بتحليل نفسي مطهر من المبالغات الفرودية.

من لودفينج بنسوانجر إلى فرويد 5 مارس 1912 : وفي الحملة الصحفية في زوريخ، فإن فوريل هو الذي يقلقني كثيرا بسلوكه المخادع.[215]

وهكذا، أدى التبايز بين فرويد وزملائه (الداخليين والخارجيين) إلى أن يصبح موقف يونغ غير محتمل ولا يطاق، وكما رأينا، فقد استمر الخصام في السنة نفسها، بين فرويد ويونغ، واتسع بابه، وكان هذا حدثا كارثيّا[216]، ولم يكن فقط فرويد على وشك أن يفقد أعز حليف له، قاد المعارك التي تحدث فيها فرنزي (وقد تلقى ضربات مكانه). بل وأيضا، فقد مدرسة زوريخ بكاملها، ومعها فقد الأمل في جعل حركة التحليل النفسي دولية، وعلى هذا، صار التحليل النفسي معرضا لخطر أن يصبح محليا من شأن فيينا، وأكثر من ذلك، فإن يونج من بعد أدلر، كان هو ثاني محلل نفساني يترشح لأوضاع تشبه شبها كبيرا أوضاع فرويد النقدية.

من فرويد إلى جيمس جاكسون بونتام 20 غشت 1912 : أجدني الآن بعد الارتداد المخزي لأدلر، حائرا إزاء صديقنا يونج، وهو مفكر موهوب، لكنه مخادع، بل أكثر من ذلك، إنه لم يتخلص من عصابه.[217]

من فرويد إلى بونتام 1 يناير 1913 : فبالنسبة إلي، فإن ما أراه الآن يشبه أن يكون من التجارب التي سبقت رؤيتها كما يقال بالفرنسية، إذ كل ما صادفته في هذه الاعتراضات لأنصاف المحللين النفسانيين، كنت قد لاقيته في اعتراضات الجاهلين بالتحليل النفسي.[218]

ثم تفاقمت الأمور، وبلغت ذروتها في مؤتمر طب المرض العقلي في برسلو عام 1913، وهو مؤتمر يمكن أن يعد آخر معركة من حروب فرويد[219]؛ إذ رتب المنظمون دورة لبيان أهمية التحليل النفسي مع بلولر وهوس، الذي تحدث في الموضوع، وقد كان واضحا منذ البداية، أن خصوم فرويد كانوا عازمين على شن الهجوم الأخير على تحليله النفسي، وقبل انعقاد المؤتمر، أرسل هوس مذكرة إلى زملائه يطلب منهم معلومات ومعطيات، تثبت فشل علاج التحليل النفسي وفي محاولة وقائية لتقليل الخسارة، نشر أصحاب فرويد مذكرة هوس في المجلة الدولية للتحليل النفسي.

من فرويد إلى يونج 3 مارس 1913 : توجد الآن بين يدي مذكرة هوس وسيرسلها إليك مايدر لتنشر في المجلة الدولية.[220]

المجلة الدولية لفن التحليل النفسي 1913 : ومحتوى المذكرة هو : خصم التحليل النفسي ونعتقد أننا أدينا واجبنا إذا، نحن علقنا في هذا الوضع مذكرة هوس في فريبورغ.

فريبورغ 1 فبراير سنة 1913 : صديقنا المبجل! لقد قبلت مع بلولر تقريرا عن (قيمة التحليل النفسي) للاجتماع السنوي للجمعية الألمانية للمرض العقلي (في مايو بيرسلو).

ولقد كان تقريرا ذا قيمة بالنسبة إلي وإلى الآخرين أن تربح حكما ملائما عن طريقه، وعن اتساع الخسائر التي تسببت فيه إجراءات التحليل النفسي، في ما يخص المرضى وإني أسألك نظرا للمودة، ما إذا، كنت تملك تحت تصرفك مادة حقيقية ترسلها إلي في شكل يوافقك (ولا يخطر ببالي أي شكل من أشكال الحالات

التاريخية المروية والمفصلة عن الأفراد). والاستعمال الذي أقصده سيكون استعمالا بدون الإشارة إلى الأسماء، وسيحدث على نحو لا يستبق بحال من الأحوال التعاليق أو مناقشة من جانبك، وإني أعرف من خلال تجربتي، كم يكون هذا الاحصاء مشعرا بعدم الاتفاق، إلا أنه لسوء الحظ، لا أرى طريقا آخر أستطيع أن أحصل به على مواد مهمة وكل هذا مع عبارة الشكر والتقدير الخالص. هوس.[221]

هوس تقديم في برسلو 1913 : إن الناشرين لهذه الصحيفة قد صاروا في الظاهر غرباء عن الطريقة الطبية التي لا يعرفون أنها تبحث عن مقياس لخطورة التدخل العلاجي الخاص، مثلا في حالة التخدير وغيرها من خلال مناهج الإحصاء.[222]

ويبدو ظاهريا أن بروير كان ينوي الدفاع عن التحليل النفسي، في التقليد المقرر في صراعات المؤتمر، غير أنه إذا، حكمنا برسالة أرسلها سويزي بورز إكي سمين إلى جليف، كتب مباشرة بعد المؤتمر، وجدنا أن الحقيقة مختلفة فما كان مختبئا وراء المشاهد إلا السيد إميل كرايبلن، كما وقع التعبير عن هذا؛ إذ كان موضوع المؤتمر هو إعطاء فرصة لبلولر حتى يتهم فرويد ويشجبه.

من سويزي باورز إلى سميت إليي جيليف 25 مايو 1913 : لقد سألني كرابلين ما إذا، كنت لست متأكدا من أن جميع أعضاء أو بالأولى سائر أطباء الأمراض العقلية المرموقين في ألمانيا هم ضد الموضوع، وحينئذ قلت بأني آمل أن أسمع بعض الحقائق العلمية التي تقف ضد ذلك، ثم قال لي بأنه ليس الغرض تقديم اقتراح للمناقشة، بل الغرض هو إعطاء فرصة لبلولر حتى يتخلى أمام الملإ عن مدرسة فرويد، باعتبار أن لاسمه تأثيرا كبيرا على إبقاء نظريات فرويد نشطة، وأيضا، فإن الغرض هو أن يسجل أطباء الأمراض العقلية الألمان، وكأنهم ضد نظريات فرويد.[224]

وقد ابتدأ بلولر «نقده لنظرية فرويد» بالتركيز على وجهة نظره الذاتية».

بلولر : إن انتقادي هو باعتبار النزعة الذاتية، فإني أحكم على نظريات فرويد من موقعها الأول من تجربتي.

ولا يمكن أن يكون بلولر واضحا : فإن نقده، وإن كان مستبعدا أن يكون خارجيا، فقد تأسس على نتائج تحليله الخاص، بل وأيضا على مَسِير التحليل مما

استقاه من مراسلة مع فرويد، وقد لاحظ بلولر أن بحثه[225] في سنة 1911 عن التحليل النفسي كان قد أكد فيه على الجانب الإيجابي، وأن هذا الحكم الأخير قد يمثل الناحية السلبية بإضافة ميزة التجربة المكتسبة. وهكذا، كان تكتيك بلولر يتمثل في أن يطابق وأن يفرد في الوقت نفسه كل جانب من جوانب النظريات الفرويدية، وكذلك من بعض نظريات أتباعه، ومن ثم، يمكنه أن يشير إلى ما قبله وما رفضه على درجة من الدقة والتفصيل وشدة التحري، لدرجة الوسوسة، وهذه الوجهة من النظر التفصيلية، هي ما كان فرويد يناضل ضدها بالضبط، وقد قدم بحث بلولر أكبر فحص مفصل من مفاهيم التحليل النفسي التي لم تكن قد شرع فيها بعد.

وقد ابتدأ هوس بحثه بإثبات أنه قد درس آداب التحليل النفسي، وأنه هو أيضا قد قام بتحليل أحلامه حسب التفسيرات الفرويدية (وتبعا لعبارة فرويد التي نطق بها في محاضرة كلارك سنة سنة 1905، فإن هذا يكفي لأن تجعله محللا نفسيا)، ومن الناحية النظرية، كانت نظرية فرويد تمثل إحدى الفلسفات الكثيرة الممكنة عن اللاشعور، ومن ثم، فإنها تضع أحكاما تقريرية تجاوز كل تجربة ممكنة).

هوس : وفي مرحلة غموض اللاشعور، يمكن أن تسمح النظرية لما تريده هي أن يقع.[226] لما كانت ضروب تأويلات التحليل النفسي غير قابلة للتحقيق، فإنها من ثم تكون اعتباطية كلية، وبهذا الاعتبار فإن دراسة مُنْتَجات الآداب لطائفة ما تمكن من منهاجية مخصوصة، من شأنها أن تكون متحدة.

هوس : وإحدى الوسائل الأكثر أهمية، والتي يمكن بلوغ نتائجها والاعتماد عليها، هي خلط إمكانية التفكير في ربط البرهان بأحدها؛ وهو خلط نتيجة التماثل بين عملية برهان توحيدها، وخلط معرفة مقررة.[226]

وكما لاحظ هوس، فإن هذا النوع من الخلط قد تقدم خلال أحكام ضرورية ودوغماتيكية، وهي أحكام ضرورية ومتخيلة بوجه عام عن الاستدلالات المقنعة وباعتبار الصفة الطائفية للحركة، فقد أثر كل هذا في المعتقدين.[227]

هوس : إن ما يحصل لشخص اليوم، قد يصير في اليوم التالي حقيقة مبرهنا عليها، ومن ثم، تستعمل كأساس لاستدلالات بعيدة.[228]

والسسيكولوجية المجتمعية الغريبة لهذه الحركة قد ازدادت من إجراء تجنب فرويد المتكلف للمؤتمرات العامة، وعقده مؤتمرات خصوصية، وعند الرجوع إلى ترحيب ويلهيام شتيكل بعقد مؤتمر التحليل النفسي في ويمار، نجد أن هوس يلاحظ بسخرية أن وصفه لهذه الحركة بالطائفية في الثلاث سنوات الماضية، قد قبله بمعنى ما أصحاب فرويد أنفسهم.

شتيكل 1911 : إننا نحتاج إلى أن نشعر أننا لسنا واقفين وحدنا، وأننا ننتمي إلى مدرسة كبيرة، أتباعها منتشرون في العالم كله، وكل واحد منا ينبغي أن يقف ضد عالم المعارضين، كما ينبغي أن يثبت نفسه ساخرا من الخصوم واحتقارهم، ونحن نعرف أن المستقبل إلى جانبنا، وأن الإنسان لا يمكنه أن يعمل ويبتكر وحده بدون اعتراف صريح من إخوانه من بين البشر. وفوق كل ذلك، يجب أن يبني كل واحد إيمانه على ثقة الآخرين به، وهذه هي الدلالة العميقة لعقد مؤتمرات التحليل النفسي التي أصبحت مشكلة تحز في قلوبنا...وفي هذا اليوم من الاحتفال، فإننا نشعر بأننا إخوان للهيأة التي تتطلب تضحية كل فرد في المهنة بوجه عام.[229]

وقد انعكست هذه الصفة الطائفية للحركة في الانشقاقات العنصرية واعتبرها هوس علامة عارضة وطارئة؛ إذ سيغادر هذه الحركة خيرة المفكرين ومع أن هوس كان يأخذ على التحليل النفسي كونه رجع إلى نمط خاص من المعرفة، فهو لم يكن يعرف كيف يمكن أن يصلحه، وفي سنة 1912، كان أرنست جونز قد اقترح فترة تكوين جمعية سرية خاصة بفرويد؛ تكلف بالدفاع عن نقاوة الجمعية والمذهب الفرويدي ضد أصحاب البدع المنحرفين.

من جونز إلى فرويد 30 يونيو 1912 : ويمكن أن تكون جماعة صغيرة من الناس قادرة على التحليل حسب طريقتك، ومن ثم، يمكنها أن تمثل نظرية خالصة «لا تدنسها» العقد الشخصية، ومن ثم، تبني دائرة داخلية غير رسمية في فيينا وتستخدمها كمراكز يقبل عليها المبتدئون، ويتعلمون الحرفة والعمل.[230]

من فرويد إلى جونز 1 غشت 1912 : إن ما يشغل بالي على نحو مباشر هو فكرتك بأن تكون مجلسا سريا من رجال موثوق بهم، ومستحقين لكل تقدير، حتى يهتموا بتطوير التحليل النفسي.[231]

من جونز إلى فرويد 7 غشت 1912 : إن فكرة توحيد جماعتنا الصغيرة وتعيين أفرادها، هي أشبه ما تكون بما يسمى بلادين شارلمان لحماية مملكته وسياسية سيادته، وهي فكرة من نسج خيال رومانسي.[232]

جونز 1955 : إنه ينبغي أن يوجد واجب واحد محدد نلتزم به جميعا، أعني أنه إذا، أراد أن ينطلق كل واحد منا من المبادئ الأساس لنظرية التحليل النفسي أعني مفهوم الكبت، واللاشعور والجنسية الطفلية فإنه ينبغي ألا يعمل جهازا قبل أن يناقش آراءه مع سائر أصحاب المهنة.[233]

وقد أعطى كل واحد من مقولة بلادين Paledines التي قدمها فرويد في صورة خاتم من ذهب.

أما انتباه هوس الأساس، فقد اتجه إلى طب التحليل النفسي، وقد رأى فيه جوهر التقنية الإيحائية القديمة؛ باعتبارها مظهرا جديدا زائفا، ولم يكن غريبا أن استقبلته الهستيريا كحالة لجميع المناهج الجديدة التي تحيط بها هي نفسها الأسرار وكانت انتقادت الأطباء والمرضى قد وقعت تحت التأثير الإيجابي لنفس دائرة الأفكار، وهناك صنف آخر من المرضى كانوا تحت شروط، شملهم فيها العفو أو الصلح التلقائي لما أصابهم من الوهن العصبي والاكتئاب. إلا أن هوس كان فوق ذلك، كان قد عارض علاج طب التحليل النفسي؛ وظن أنه لا يخلو من خطر وكان قد قدم، معتمدا على نتيجة إحصائه سلسلة من الحالات ظهر فيها قصدا بأن التحليل النفسي ضره أكثر من نفعه، وقد استنتج بأن أصحاب فرويد ينفخون في مزمار لنتائجه، ويتجاوزون عن فشلهم بالصمت.

هوس : إن علاج الطب النفسي في كثير من حالاته هو ضرر مباشر للمريض.[234] وتكمن الأهمية الباقية للتحليل النفسي في تزويده الميدان الثقافي والتاريخي وفي المناقشة كانت الشخصيات المؤثرة من قسم طب الأمراض العقلية الألماني- من مثل كرايبلن ومسترانسكي، وكذلك ويجنت وليبمان، وفوركستر وكونشتام- ومن قسم السيكولوجيا في شخص ويلهيام شترن- يتلو بعضها بعضا في المداخلات، وتشجب تباعا فرويد وادعاءه الأصالة.

كرايبلن : إن مونيخ ترفض التحليل النفسي كما يتزعمه فرويد، والجيد فيه ليس جديدا، وجوهره مستمد من جاني، وقد أكد كرايبلن كيف أن أضرارا كثرة كانت قد تسببت فيها هذه المناهج، وأنذرت باستعمالها.[235]

ويلهيام ويجينت : وكان ينبغي من أجل إصلاح تاريخي، أن نلاحظ بأن بلولر، قبل غيره- وقد اتبعه مفكرون فرنسيون مثل جاني- قد فرض أساسه معظم العناصر المتينة للتحليل النفسي، بينما يجني الآن فرويد ثماره.[236]

ويلهيام شترن : إن المحللين النفسانيين، الذين يلومون بانتظام خصومهم على جهلهم بالمهنة، هم أيضا يعملون في هذا الميدان؛ أعني ميدان سيكولوجيا الطفولة كهواية تامة، والبحث العلمي حول الطفولة إما أنه لا يوجد بالنسبة إليهم وإما أنهم يخضعونه إلى سائر ضروب التأويلات المنحرفة، حتى يمكنها أن ترتبط بنظام مفاهيمهم.[237]

كونستام : تقتضي النزاهة من الإنسان أن يلاحظ بأن هذا المنهاج للتحليل النفسي كان جاني قد مارسه، وإذا، فقد سار على دربه كل من بروير وفرويد وأسكار فوجت في الوقت نفسه، وكذلك أخيرا وليس بالآخر السيد فرانك.[238]

أرفيس سترانسكي : إن الجهل المتبع في أعمال هؤلاء الباحثين، والرفض المنظم للانفتاح على النقد، هو أحد السمات البارزة للانقياد والخضوع للتحليل النفسي، وأكبر حظإ قاتل لنظرية فرويد يكمن في هوس التأويل بدون زجر ولا رادع ، كما يكمن في الخلط بين التأويلات والبرهان.[239]

وقد كان ستيجمان هو وحده الذي قام مدافعا عن قضية فرويد، وكنتيجة لذلك، أشار بلولر بأنه توجد أشياء كثيرة يمكن تصحيحها في ما قاله هوس، وكان هذا قد وصفها، وقد تمسك بأنه توجد أيضا أمور كثيرة جيدة في التحليل النفسي، إلى جانب أشياء أخرى فاسدة. والفارق بينهما، هو أن هوس يريد أن يحتفظ بما هو جيد ونقي، إلا أن هوس مع ذلك، دعم مباشرة بلولر، واصفا إياه كشخصية رائدة في فريق التحليل النفسي مع شهرته العلمية، المسؤولة عن انتشار التحليل النفسي، وعبر عن عطفه على بلولر؛ لكونه أقصي من الحركة، وحسب ما رواه إيتنجتون، فقد طلب هوس أن يتخلى بلولر عن حمايته ووصايته على حركة التحليل النفسي، وكان فشل مؤتمر بريسلو قاضيا على الحركة، وتبخر حلم

فرويد في أن يزوده انتصار الطب النفسي، وجاء رفض التحليل النفسي من كافة أصحاب المهنة.

من فرويد إلى أبراهام 23 مايو 1913 : لقد أظهرت برسنو فشلا ذريعا وتبعا لا يتنجئون الذي وجد هناك، فإن بلولر، كان أكثر فجاجة، وقد مثل ستيجمان وحده موقفنا... واتخذ هوش موقف المتفرج إلى جانب جاني[240]، وحسب هذا المؤتمر فإن فرانزي كان قد انتقد بحث بلولر، وحاول أن يجعله مريضا. إنه لم يبق شيء يعول عليه إلا أن نفترض أن مؤسس الازدواجية هو نفسه ازدواجي بالنظر إلى التحليل النفسي.[241]

إلا أن كل هذا لا يمكن أن يخفى علينا خطورة الموقف؛ فالجمهور المنهزم في مؤتمر برسلو لم يعمل إلا على أن قوى الصراع مع زوريخ، وقد كانت حركة التحليل النفسي، بكاملها قد تعرضت للخطر بمحاولة إنقاذها من فرويد ومن توجيهه لها وتحكمه فيها، لما كان يونج على رأس الجمعية الدولية للتحليل النفسي وبعد أن رفض فرويد في الخارج، فهو الآن قد صار معرضا لخطر الطرد داخليا. وتبين المراسلات بين فرويد وجونز وأبراهام وفرنزي، وكانت قد نشرت بكاملها بعد سنوات قليلة، بان فرويد كان واعيا بالخطر، وحاول أن يتخذ إجراء مراوغا فهل يجب عليه أن يحل المنظمة الدولية للتحليل النفسي، ويشكل منظمة أخرى؟ أم ينبغي أن يستقيل قبل أن يقصيه يونج؟ إنه لا واحد من هذين الحلين قد ظهر له ملائما. إذ لم يكن هناك عدد كاف لفرض حل الجمعية الدولية للتحليل النفسي وهو حل محتمل في زوريخ، ويمكن للإنسان أن يتصور السرور الذي شعر به كل من فوريل وبلولر، وكرايبس وهوس وفرانك وبيزولا، في أن يغادر فرويد منظمة الجمعية الدولية للتحليل النفسي.

من جونز إلى فرويد 25 أبريل 1913 : إني متأثر عميق التأثير بالنجاح الذي حققته حملة يونج، لأنه استنجد بالتعصب الغريب، وفي رأيي، إن أكبر مرحلة خطيرة تعرض لها التحليل النفسي، كانت هذه المرحلة، ونحن شكلنا هيأة سرية على نحو متأخر.[242]

من فرويد إلى فرنزي 8 مايو 1913 : وحسب تقارير وردت عن جونز فنحن نتوقع أمورا من تصرفما ؛ وينبغي أن نعد أنفسنا لانهيار منظمتنا في المؤتمر

وبطبيعة الحال، فإن كل من يحاول أن يدافع عن حقيقتنا، يجب أن يبرهن برهانا عاما لصالحنا. ومن الممكن أن نقبر في هذا الوقت بعد أن يغنوا في حفلة مرثيتنا بدون طائل.[243]

من جونز إلى فرويد 4 نوفمبر 1913 : إني متفق على حل هذه المنظمة كما ترون جميعا. إلا أنني لا أفهم الاستعجال بالقيام بهذا الفعل في هذا الوقت وكان من الممكن أن يراسل بعضنا بعضا في الموضوع إلى حين، ويقول فرنزي إن حل الجمعية هو أفضل من أن يضطر إلى التنحي.[244]

من فرنزي إلى فرويد 8 نونبر 1913 : وبعد شرح جونز وأبراهام، لا أظن أنه يمكن الإقدام على حل الجمعية الدولية؛ إذ لا شيء يبقى بعد هذا لكن الاستقالة الجماعية لأعضاء جميع الفرق التي معنا تكون مطلوبة، وجمعية من هذا القبيل بها أنت وأبراهام، وجونز وسائر الأعضاء من مثل أعضاء فيينا وبوادبست وبرييل (ولربما بونتام)، إذا، استقلت وعلى رأسها يونغ، قد لاتعد في شيء، ولكن ينبغي من الآن أن نتحرك، وعلى نحو مباشر، لتأسيس جمعية أخرى جديدة.[245]

من فرويد إلى جونر 22 نوفمبر 1913 : إننا نعرف أن موقف جونر وهو من القوة بحيث نأمل أن يخربها وحده.[246]

وكرد عن هذا الموقف، فقد أخطر فرويد الجميع، وتوجه أبراهام وجونز وفرنزي وإيتنجتون إلى نشر هجوم ضد يونغ، في حملة منظمة بفائق العناية ورجع فرويد إلى كتابه «القنبلة» المشهور بعنوانه «تاريخ حركة التحليل النفسي» ومنذ بداية السطور الأولى، كان من الواضح أنه لن يتعامل قط حتى مع اصطناع مناقشة علمية مفتوحة، وكما رأينا، فإن فرويد قد صرح على نحو جازم بأنه هو الذي له السلطة على أن يقرر أي شيء هو التحليل النفساني وابتكاره، وهذه الحجة الصادرة عن السلطة كانت إجابة عن انتشار الانحرافات الخاصة بكل من بلولر وفوريل وأدلر ويونغ، والحدة التي اتهم بها فرويد كلا من بلولر ويونغ وأدلر والعلم الرسمي تشير إلى فشله في حل المسألة على المستوى النظري، وعلى إقناع زملائه بتعريفه للتحليل النفسي، والبهجة الجدالية الخارقة للعادة لتاريخ فرويد تعكس هزيمته، وحينما تخلى فرويد عن كل زعم لائق بالموضوعية، اتجه

إلى اتهام خصومه بالدوافع المخجلة، وعدم الكفاءة، والخداع والمرض العقلي، وخص يونج بكونه عنصريا.

من فرويد إلى فرنزي 24 أبريل 1913 : إن الاستقالة المفاجئة ليونج جعلت مهمتنا سهلة...، ولربما وقع تحت طلقات المدافع في مجلة زيت شرفت Zeischrift، وأتته القنابل من يربوخ : jahrbuch، بعد حين في ما يلي.[247]

من فرويد إلى أبراهام 26 يونيه 1914 : الآن وقد انفجرت القنبلة، فإننا سنكتشف بعد حين بأي أثر كان انفجارها، وأعتقد أنه ينبغي أن تسمح بوقوع ضحايا من 2 إلى 3 في الأسبوع، حتى يستردوا أنفاسهم...ويردوا....[248]

وعندما واجه فريق زوريخ هذا الوضع، قرروا أن ينفضوا عن فرويد، ويتركوه مع تحليله النفسي واستقلوا جماعات... وهذا ما كان فرويد يتمنى، بالضبط أن يراه حتى يتم له الأمر، وكما فعل أدلر قبلهم، فلقد برروا قرارهم بالرجوع إلى ادعاء عدم الانسجام بين اتجاه فرويد وبين حرية البحث العلمي.

المحضر الرسمي لجمعية التحليل النفسي بزوريخ 10 يونيه 1914: لقد كانت برهنة فرويد التي نشرها في كتابه السنوي عن التحليل النفسي (تاريخ حركة التحليل النفسي)، متسمة بالغموض، ومقيدة بسلطة نظرية شخص واحد..واعتبر فرع زوريخ هذه الوجهة من النظر غير منسجمة مع مبدإ حرية البحث العلمي.[249]

وفي نظر الأجيال القادمة، قد كانت الخطة الاستراتيجية التي اتبعها فرويد ضربة محترف ماهر، وفي غياب اعتبارات بديلة ظاهرة للعيان.

من جانب أدلر ويونج، أصبح ما يسمى «تاريخ»، فرويد وثيقة تأسيسية لحركة التحليل النفسي، وقاعدة تاريخه الرسمي الذي أعد كذلك في عدة مقالات وكتب وسير ذاتية. وهكذا سعى فرويد إلى أن انتزع نصرا مبينا من الهزيمة مهملا الحوادث المزعجة (لما وقع في مؤتمر بريسلو، ومع فوريل...) ومحولا عدم الاتفاق حول التحليل النفسي إلى ضروب المقاومة غير العقلانية، وليس مبالغة في القول إنه لولا إعادة كتابة متحرية للتاريخ، لم يكن يمكن أن يصبح التحليل النفسي قادرا على أن ينتشر بنفسه، وأن يبلغ هذا الظهور الذي حصل عليه في القرن العشرين.

ومن الأهمية بمكان، أن نلاحظ أن هذا الانتصار كان قد قلب فشله ليحظى بقبول واسع، وموافقة من خلال مناقشة حيرة وصراع، وقد تم على حساب الخصوصية التامة لعلم التحليل النفسي، تحت الملك المتفرد به فرويد، وانفصاله عن المعايير السائدة في العالم الأكاديمي، ثم إنه لابد وأن نراعي أن فرويد بين سنة 1905 و 1914 حاول أن يجعل من قضية حركة التحليل النفسي شأنا دوليا، من خلال سعيه عقد تحالفات مع بلولر ويونج، ومن ثم، حدث أن انتشر مفهوم التحليل النفسي من الداخل بإحداث أكثر ما يمكن من المحللين النفسانيين في صورة مرضى تحولوا إلى أتباع، وبهذا الاعتبار، فإن النجاح الذي أحرزه التحليل النفسي لم يكن نتيجة لقدرته على إقناع خصومه (الذين ظلوا على شكلهم) بل نتيجة لشكله الفريد في القدرة على نقل الرسالة التي تأسس عليها.

وليس من دون سبب أن قارن هوس هذا النمط من نقل الرسالة إلى أتباع دعوة متحيزة، غير أنه إذا، اقترنت بالنزعة العصرية التي تكيفت باقتصاد السوق في المساحة المزدهرة من ممارسة الطب النفسي الخاص. وينبغي أن يدفع الإنسان مبلغا كبيرا حتى يتوصل إلى فن فرويد (على خلاف الصورة المفتوحة لنقل ممارسة برنهايم في العلاج الطبي القائم على التنويم والإيحاء).

إلا أنه من الممكن أن ينال تعويض ما أنفقه كلما أدت الممارسة إلى كسب أسباب العيش على نحو مستقل، وحينما انفصل فرويد من الجامعة والمدرسة الطبية (كان فرويد قد أوقف تدريسه شكليا)، أصبح التحليل النفسي مشروعا خاصا، يجند زبناءه (وإذا، أتباعه المحللين) من سوق غير خاضع لنظام ما في استقلال عن الجامعة وسلطة الحكومة، وبالفعل أصبح التحليل النفسي شركة فرويد، منظمة مثل سائر الشركات المؤسسة على الإعفاء الضريبي، وسائر أنواع الشركات التابعة يمكن لها أن تتشكل عبر العالم، بشرط أن يعيد بصدق وأمانة نوعا آخر من المالكين لتكوين محللين نفسانيين.

توماس شاس : وبالنسبة إلى فرويد، فإن التحليل النفسي أشبه بابتكار يخول لمبدعه أن يحصل على براءة اختراع. وهذا يقيد حقوق الاستعمال من لدن الآخرين له، وهكذا، فإن فرويد يلح على أن التحليل النفسي ينبغي أن يوزع فقط طبقا للمختصين المتعلقين به، بل قد يذهب بعيدا حتى يصرح بأنه هو وحده

الذي يحق له أن يغير وأن يعدل صياغته الأصلية... وهذا تفسير بألفاظه، على معارضته لأدلر : «إني أرغب فقط أن أبين أن هذه النظريات تتعارض معها، وأنه لهذا السبب يجب ألا يعترف بها باسم التحليل»[250]. وهكذا، فإن القضية ليست هي ما إذا، كان أدلر مصيبا أو مخطئا، لكن، ماذا ينبغي أن يسميه التحليل النفسي ويشبه أن فرويد كان قد سجل اختراعا، ونال براءة كوكاكولا أو تاج كولا، أو رويال كولا، (إذ كلها جيدة)، إنه يريد فقط أن يتأكد بأن منتجه يحمل الطابع الأصلي والعنوان الأول.[251]

ومن هذه الوجهة من النظر، لم يعد المحتوى النظري هو الأهم، بل ما يكرسه فرويد، ويقره ممثلوه الرسميون، وعليه فإن وحدة حركة التحليل النفسي لم تتماسك في الواقع عن طريق الإخلاص إلى هيأة المذهب (وكنا رأينا أنه لم يكن أبدا مذهبا واحدا متسقا) : وعن طريق منهاجية البحث، بل بالإحالة فقط على تسمية فرويد وعنوانه محافظة على البيئة الإقطاعية للسلطة، ولم يعد فرويد يتردد بعد المعارك والحروب الأولى في أن يسطو في صمت على ملكية عديد من ضروب التحديدات النظرية التي كان يشجعها بعنف، حينما كانت تقترح أولا وبعد انسحاب أدلر، أدمج فرويد جوانب كثيرة من نظرياته تحت شعار التحليل النفسي والأمر نفسه، حصل مع نظريات أخرى. وكما يلاحظ إلينبرغر، فإن فرويد كان يقتبس مفاهيم أدلر من نحو الدافع العدواني المستقل ذاتيا، ونقل الدوافع أو إبدالها وتلافيها، واستدماج المطالب الخارجية.

إلينبرغر : وتغيير التحليل النفسي إلى سيكولوجيا الأنا كان تكييفا، ولمدى بعيد المفاهيم أدلر السابقة.[252]

شتيكل : لقد اتخذ فرويد أخيرا بعض اكتشافاتي بدون أن يذكر اسمي وحتى كون أنني في الطبعة الأولى، كنت قد عرفت القلق الشديد أو الحصر، كرد فعل لغريزة الحياة ضد الارتفاع المفاجئ لغريزة الموت، لم يكلف نفسه أن يشير إلى هذا التعريف في كتبه الأخيرة، ويعتقد كثير من الناس أن غريزة الموت هي اكتشاف من ابتكار فرويد.[253]

شتيكل : إن كل ما اكتشفته قد اعتبر ملكية مشتركة أو نسب إلى فرويد وأستطيع أن أسوق ما لا يحصى عددا من الأمثلة على ذلك.[254]

يونج : لقد جعل فرويد أخيرا يعمل على مفاهيم لم تعد منتمية إليه في معناها الأصلي... فلقد وجد نفسه مضطرا لأن يقتبس من اتجاهي، إلا أن هذا الفعل لا يقبله هو نفسه.[255]

من فرويد إلى فرنزي 8 فبراير 1910 : لقد وجدتني، على نحو حازم مضطرّا اضطرارا فكريا لأن أميل نحو الانتحال.[256]

إن هذا الاقتباس لنظريات المنشقين أو لانتقاداتهم الخارجية، أصبح سمة من السمات الملفتة للانتباه في حركة التحليل النفسي، ويتبين أن ما هو موضع الرهان في المناقشات الغريبة بين فرويد وخصومه، ليس هو القيمة الداخلية للأفكار الخاصة، بل هو كيف يمكن أن يدعيها لنفسه، ومن ثم، فإن كل مفهوم لا يكون مصطلحا منتميا إلى التحليل النفسي، حينما يضعه أدلر وشتيكل أو يونج، لا يعتد به، لكن هذا المصطلح يصبح منتميا إلى التحليل النفسي، إذا، قدمه به فرويد وأشر عليه، وكما لاحظ شاس، لقد أصبح التحليل النفسي علامة تجارية مسجلة.

الحبل بلادنس : إن التخصيص الخاص لنظرية التحليل موسوم بوجه ما في كتاب (تاريخ حركة التحليل النفسي) ولقد علل فرويد الطابع الذاتي لحكايته من خلال ضرورة التأكيد على احتكاره للتحليل النفسي- علمه- ضد ادعاءات خصومه.

فرويد : إنه لا يكون لأحد أن يستغرب من الخاصية الذاتية التي كنت قد شاركت بها وأسهمت كثيرا في تاريخ حركة التحليل النفسي... وأقدر الآن أنه مسموح إلي أن أمثل وجهة النظر، حتى في يومنا هذا، القائلة إنه وإن كنت لست المحلل النفسي الوحيد، فإنه لا يوجد شخص له معرفة تضاهي معرفتي بالتحليل النفسي، وما به يتميز عن أنماط أخرى من ضروب الاستقصاء والبحث في حياة النفس، وما ينبغي أن يدل عليه هذا الاسم، وما يجب أن يتسمى به، وكما أنني من أجل هذا سأطرد ما يظهر لي اغتصابا وقحا، فإني سأزود قرائي بأخبار ومعلومات عن الأحداث والوقائع التي تأدت إلى تغيير رئيس التحرير، وشكل هذه المجلة نفسها.[257]

ونتيجة لذلك فإن الجزء الأول من العمل يثني على آدعاء فرويد لابتكاره على نحو يكاد يكون ضربا من الهوس، وحينما يرجع فرويد إلى ما قيل منذ خمس سنوات خلت في مؤتمر كلارك، فإنه يجحد الآن كل دور قام به بروير في بناء مفهوم التحليل النفسي، بالمعنى القوي لهذا اللفظ، وقد حكى علانية، ولأول مرة كيف رد فعل بروير، حينما واجهته الجنسية لمريضته (آ ن O). وهو حدث كان بالنسبة إليه مزعجا.

فرويد : ولربما ينبغي أن نتذكر بأن بلولر كان قد صرح بصدد حالة مريضته المشهورة، بأن العنصر الجنسي عندما كان متطورا على نحو مدهش؛ إلا أنه لم يفلح قط في أن يسهم بشيء في إغناء هذه اللوحة السريرية... والآن، أجد من الأسباب الكثيرة ما يجعلني أفترض أن بروير بعد أن نحى سائر الأعراض، كان قد اكتشف بالضرورة وجود علامات جديدة، الدافع الجنسي لهذا التحويل؛ إلا أن الصيغة العامة لهذه الظاهرة غير المتوقعة غابت عنه؛ حتى أنه لما واجهته هذه الحالة المزعجة توقف عن بحثه؛ وهو لم يخبر بهذا مباشرة، وإن كان قد قال في مرات عديدة ما يكفي لأبرر هذا التخمين الذي حدث ولم يعطني علامة عليه.[258]

تفسير : لقد نكص بروبر على عقبيه لجبنه حيث تقدم فرويد لشجاعته وبنفس الروح، روى فرويد كيف أن بروير وشاركو ورادولف كروباك، تقدموا بملاحظات موجزة وملغزة عابرة، في ما يخص دور الجنسية في الأمراض العصابية.

فرويد : لقد أرسل إلي هؤلاء الأشخاص الثلاثة مزقا من معرفة، هم أنفسهم لا يملكونها بصريح العبارة وآثنان منهما، أنكر أن يكونا قد أعطياني منها شيئا حينما ذكرتهم بالوقائع، أما الثالث وهو شاركو العظيم، فقد يقول بكلامهما نفسه ولو قدر لي أن ألتقي به مرة أخرى.[259]

تفسير : إنه لا أحد قبل فرويد استطاع أن يثبت صلة صريحة بين النزعة الجنسية والأمراض العصابية، بل أكثر من ذلك، فهو عندما قدم وجهة نظره حول العلة الجنسية المحدثة للعصاب، فإن زملاءه (وبخاصة كرافت إيبنج وأيضا بروير) رفضوه بالإجماع.

فرويد : والصمت المطبق وحده الذي أعقب عرضي، والفراغ الذي أحيط بشخصي، والتنابز والإشارات التي نقلت إلي، كل هذا جعلني أفهم شيئا فشيئا بأنه ينبغي ألا أعتد بأن الأحكام التي سقتها على بيان دور النزعة الجنسية في إحداث علة الأعصبة، عوملت كما عوملت سائر العروض الأخرى...وفي ما بين ذلك، استوطنت على نحو مريح، ما أمكنني ذلك، كما استقر روبنسون في جزيرته. وعندما أنظر إلى الوراء، إلى تلك الأعوام الماضية من العزلة بعيدا عن الضغط والخلط، وهموم الحاضر، أشعر في قرارة نفسي، وكأنها عصر جميل بطولي، ولم تكن عزلتي الرائعة خالية من المزايا والجمال، ولم يكن علي أن أقرأ آدابا في هذا الموضوع، ولا أن أستمع إلى خصوم خاليي الوفاض من المعرفة كما لم أكن خاضعا لأي تأثير، ولا واقعا تحت أي ضغط... وأثناء هذه الفترة لم يعد بعض الكتاب يعطي لكتاباتي في المجلات الطبية المختصة أي اهتمام وإذا، حدث هذا، في حالات استثنائية، فإنها تطرح بعبارات الاستعلاء والسخرية والشفقة.[260]

فرويد : ولأكثر من عشر سنوات بعد انفصالي عن بروير، لم يعد يتبعني كثير من الناس، وتم اعتزالي على نحو كامل، وكذلك الحال في فيينا، صار الناس يتجنبونني، وفي الخارج لا تكاد تقع الإشارة إلي. وحتى كتابي (تفسير الأحلام) الذي نشر سنة 1900، لا يكاد يراجع في النشرات الدورية المختصة.[261]

وفرويد في عزلته، وسوء فهمه، ليس مدينا لأحد، وفوق كل ذلك، إنه لا يقرأ ما يكتبه الآخرون.

فرويد : وتكاد نظرية الكبت تكون على وجه اليقين قد أتتني في استقلال عن أي مصدر من المصادر المعروفة، ولا أعرف أي تأثير خارجي يمكنه أن يوحي إلي بشيء ما. ومنذ زمن طويل، كنت تخيلتها بأصلها كاملة إلى أن أشار إلى أوتورانك، أنه يوجد عند شوبنهاور في كتابه (العالم كإرادة وتصور). وما يقوله هناك...يتفق مع تصوري للكبت، مما مكنني مرة أخرى أن أكتشف أنني لا أقرأ كثيرا... وفي السنوات الأخيرة، حرمت نفسي من متعة قراءة أعمال نتشه بهدف مقصود؛ وهو أنني لا أريد أن أزعج نفسي بأي نوع من الأفكار المسبقة وأنا أعمل على إعداد انطباعاتي عن التحليل النفسي.[262]

فرويد : لقد قرأت شوبنهاور على نحو متأخر من حياتي. وهناك فيلسوف آخر، وهو نتشه الذي يخمن بحدوسه في الأعم الأغلب ما يتفق، على نحو مدهش، مع الكشوفات المضيئة للتحليل النفسي، وقد كنت أتجنبه منذ أمد بعيد للسبب نفسه؛ إذ لست مهتما بمسألة الأولية حتى أصون فكري مرتاحا.[263]

فرويد : إني لا أعرف أي تأثير من الخارج جذب انتباهي واهتمامي، أو أوحى إلي بتوقعات مساعدة... وكنت متشبثا بعادة أن أدرس دائما الأشياء نفسها قبل أن أبحث عن معلومات عنها في الكتب، وإذا، فقد استطعت أن أثبت فكرة الرمزية في الأحلام الخاصة بي قبل أن أطلع على ما كتبه شرنر في هذا الموضوع... ثم عثرت، في ما بعد، على خاصية جوهرية، وعلى جزء مهم لنظريتي عن الحلم وهو نوع من اشتقاق تشويه الحلم من صراع داخلي؛ أعني نوعا من الخداع الداخلي عند مهندس مشهور، واسمه بوبر؛ الذي كان قد نشر تخييلات واقعية باسم مستعار هو لينكوس.[266]

وإن إحصاء الادعاءات لعذرية نظرية قد يبدو مجرد زعم وبهتان؛ إلا أنه في الوقت الراهن، يخدم غرضا دقيقا. وهو التأكيد على الحقوق القاصرة على فرويد في ما يتعلق بابتكاره. وإذا، كان فرويد قد ابتدأ من الصفر ولم يخضع لأي تأثير خارجي، وإذا، كان قد ابتكر كشوفاته في عزلة تامة وبالرغم من زملائه فقد يجوز أن يكون التحليل النفسي منتميا إليه وحده كابتكار مسجل ببراءته. وهكذا يمكنه أن يفعل به ما يشاء، ويقرر من يمكنه أن يستعمله، ويشجب النسخ غير المسموح بها، ويتهم قرصنتها؛ وإذا، الغرض من تاريخ فرويد هو فرض سيطرة سياسية أو توقراطية من خلال التأكيد على الأصالة المطلقة لنظريته.

إلا أن المشكلة هي أن تاريخه هو حكاية أو قصة من قصص العلم الجنية وكما بين كثير من العلماء المحصلين الفرويديين، إنه لا يكاد يوجد عنصر مفرد في هذه القصة التي عرضت على الفحص الدقيق «ومصطلح العزلة الرائعة» أليس هو من صنع الخيال مثلا؟ إن فرويد لم يكن في عزلة إطلاقا كما يدعي عن السنوات التالية لنشر «دراسات عن الهستيريا». وخلافا لذلك كان هذا العمل قد خول له شهرة محلية وعالمية. وكان منهاج بروير وفرويد يناقش، ويطبق من لدن سائر أطباء التحليل النفسي العلاجي كما رأينا.

جاني 1894 : نحن مسرورون جدًا بأن فرويد وبروير قد تحققا من تأويلنا القديم للأفكار التثبيتية عن الهستيريا.[267]

ويليام جيمس : وفي اكتشاف عجيب مستقصى، قام كل من بيني وجاني وفرويد وبروير وميزون وبرانس وغيرهم؛ وينص هذا الاكتشاف على عتبة ما تحت الشعور عند المرضى بالهستيريا، ونحن قد اكتشفنا عن الأنظمة الكاملة لأساس الحياة في صورة ذكريات لنوع الألم، الذي يؤدي إلى تجربة طفيلية دخيلة مقبورة خارج المجالات الأولى للشعور.[266]

هافلوك إليس 1898 : إني متفق مع بروير وفرويد، الباحثين المتمايزين في فيينا وعملها حول الهستيريا. ويظهران أنهما ألقيا ضوءا ساطعا على الخواص النفسية أكثر من أي باحثين آخرين، وأن الحاجات الجنسية الهستيرية هي فردية ومتغيرة لحاجات النساء العاديات. إلا أنهن يعانين أكثر ما يعانين من الصراع مع غرائزهن الخاصة، ومن محاولتهن إرجاعها إلى اللاشعور.[269]

إليس 1898 : لقد أثبت شاركو الخاصية النفسية للهستيريا... وطبيعة وميكانيزمات هذه العملية النفسية كان تركها كاملة بدون تفسير وبقيت هذه الخطوة للآخرين في جزء منها لأتباع شاركو وجاني.

وإلى حد ما فإني أميل إلى الاعتقاد، كما هو حال الباحثين في فيينا بروير وفرويد، إن أخذناهما معا، بأنهما لم يقوما فقط، إذا، جاز التعبير، بأهم إسهام في تعريفنا بالهستيريا بعد أبحاث شاركو، بل إنهما فتحا الطريق إلى المجال الوحيد الذي يمكن أن تصبح فيه دراسة الهستيريا متميزة... وقد قدمت أبحاث فرويد وبروير خدمة عظيمة إذ بانت على أن الهستيريا يمكن أن ننظر إليها بصفة نهائية على الأقل في معظم حالاتها، كتجل أو مظهر للانفعالات الجنسية وآفاتها كتحويل للشبقية الذاتية.[270]

بلولر 1896 (في ما يخص دراسات عن الهستيريا) : إن هذا الكتاب، كأي حدث من الأحداث يعطي نظرة جديدة لمعالجة الكيفية التي بها تكون الوظائف النفسية من أهم الإضافات في هذه السنوات الأخيرة في ميداني كل من علم النفس العادي أو المرضي.[271]

وفضلا عن ذلك، فلقد كانت شخصيات مرموقة تقدر فرويد، وتدعمه من الناحية المهنية مثل كرافت- إيبنج وهيرمان نوثنجيل، وهم ساندوا ترشيحه إلى منصب (الأستاذ الممتاز فوق العادة)، حينما نشر في الجمهور ادعاءاته الخاصة بالعلة الجنسية للأمراض العصابية، كما أن فرويد ارتبط بعلاقة فكرية متينة مع ويلهيام فيلس، إلى درجة أنه اقترح أن يوقع معه كتاب[272] (ثلاث محاولات في نظرية الجنسية)، وأيضا تراسل مع شخصيات مشهورة، من نحوها فلوك إليس[273] وليوبولد لونفليد، ونتيجة لكل هذا، ما لبث أن اكتسب أتباعا (حتى وإن يبق بعضهم منه كثيرا)، نذكر منهم فليكس جاتل، وأشخاصا آخرين، سوف يحصل بعضهم على جائزة نوبل في الطب، مثل روبر باراني 1897-8، وهومان سوويدا 1900 وشتيكل 1901، وأدلروكهان[274] وراينلر 1902. ومراجعات كتبه الأصلية لم تكن قليلة ولا سلبية كما ادعى في ما بعد.[275]

ثم إن فرويد، لم يكن بأي حال من الأحوال هو أول من اهتم بالجنسية وعلاقتها بالأمراض العصابية؛ فالترابط بين الضعف العصبي أو الوهن (النوراستينيا) والاستنماء الذي شكل الجزء الجوهري من نظريته عن الأعصبة الراهنة، يرجع مباشرة إلى فكرة جورج بيرد (عن الضعف العصبي الجنسي).[276] وقد يمكن أن نجد له صدى لدى شخصيات كثيرة في الطب في هذا الوقت، مثل كرافت- أبينج ولونفليد وكذلك (إرب ERB) وشتروميل وبايروبر وبروير[277]، وعلاوة على ذلك بينما رفض شاركوا، متبعا في ذلك بريكت نظرية الرحم القديمة عن الهستريا[278]، فقد استمرت الهستريا مقترنة بالجنسية النسوية لدى كثيرين من الأطباء الممارسين ومن ضمنهم بروير.[279]

دونكين : ومن بين الأنشطة المكبوتة لدى الفتيات كبتا اصطناعيا، ينبغي أن نعترف بأن الجنس يقوم بدور مهم. وفي الحقيقة، فإن البيئة المتواترة باعتبار ضبط الانفعالات الجنسية أدت بكثير من الناس أن ينظرو إلى الرغبة الجنسية غير المشبعة كأسباب رئيسَة في حدوث الهستيريا...وإن الامتناع القهري عن إشباع أي رغبة من الرغبات الأولية والفطرية تكون له نتائج مشؤومة[280]

ف.أ. كينج : إن الهستيريا غالبا ما تحدث للنساء العازبات، بل تحدث كذلك للواتي كن متزوجات أو غير متزوجات، إذا، ظلت رغباتهن الجنسية غير راضية:

«لأن هؤلاء غالبا ما يتعافين بالزواج» [الأعمال التطبيقية لواطسن]، وقد لاحظ كارتر عن الهستيريا : «بأن الرغبة الجنسية هي أشد الرغبات انفعالا ولربما من سائرها في إحداث أقسى الأمراض الهستيرية.»[281]

متشيل (في ما يخص دراسات عن الهستيريا) : ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ رجوع النظرية القديمة عن الأصل الهستيري في الاضطرابات الجنسية على الأقل، وبخاصية كما حصل الاتجاه في هذه السنوات الأخيرة إلى الارتباط كثيرا بها.[282]

الفريد بني وثيودور سيمون : لقد تأدى فرويد وبلولر مرة أخرى إلى تبني الفكرة القديمة، القائلة أن الهستيريا يستحق اسمها عندما نعتبر أن الرحم كانت نقطة بدايتها، وهي أعظم الحركات رجوعا إلى الخلف عرفت حتى الآن.[283]

كونراد آلت : يعاني كثير من المصابين بالهستيريا معاناة أليمة، من جراء الضرر الذي يلحقهم من ذويهم؛ وهو أن الهستيريا تنشأ فقط من أساس جنسي- وهذا الضرر المنتشر على اتساعه أحدث لنا، عن علماء الأعصاب الألمانيين قلاقل لا تنتهي ويصعب كسرها، وإذا، كان رأي فرويد في ما يخص تكوين الهستيريا قد صار الآن يكتسح أراضي كثيرة، فإن القراء المصابين بالهستيريا سيقضى عليهم كما قضي عليهم من قبل، وهذه الخطوة إلى الوراء ستضربهم ضررا بالغا.[284]

بروير : لا أعتقد أني أكون مبالغا عندما أؤكد أن الأغلبية العظمى من الأعصبة المؤلمة في النساء لها أصل في فراش الزواج... وقد يستحق الاهتمام كثيرا مرات عديدة، على أن العامل الجنسي هو أبلغ وأشد تسببا في النتائج المرضية والملاحظات غير الدقيقة لمن سبقونا، والبقية الباقية من حد أو لفظ الهستيريا المحتفظ به تقترب اقترابا كثيرا من وجهة النظر الحديثة، التي تضع الجنسية في المحل الأخير حتى تنقذ المرضى من المآخذ الأخلاقية.[285]

من بروير إلى فيلس 11 أكتوبر 1995 : وبالنظر إلى المنشإ الجنسي للمرض فإن فحصي للسيدة سلمى (ب) كان فحصا كاملا وجادا، ولقد قالت بأنها كانت تمارس عملية الاستنماء كطفلة حوالي 10 أو 12 سنة من عمرها، ولربما بعد هذه الفترة أيضا. ولكنها لم يمكنها أن تقول شيئا عن المدة أو الشدة، إلا أنها منذ بلوغها 16 أو 17 عانت من الضعف أو الوهن العصبي الشديد؛ مما يفترض أنها قد جربت

حالة الوهن الشديد. ومع ذلك كانت من أولئك الأشخاص الذين لم يضر بهم المرض ضررا بليغا، ولكنه أحدث نتائج خطيرة.[286]

بروير: ويختص الاعتراض الثالث على نظريات فرويد بالإفراط في تقدير الميل الجنسي، وقد يجوز القول، إنه ليس كل عرض من أعراض الهستيريا هو ذا ميل جنسي للتأكد من ذلك: إلا أن المنشأ الأصلي قد يكون محتملا؛ لأن الضعف العصبي هو بالتأكيد مرض له أصل في الميل الجنسي.[287]

وخلافا لما يدعيه فرويد، فإن اختلاف بروير مع زميله الشاب، بعد نشر (دراسات في الهستيريا)، لا علاقة له بدور الميل الجنسي في الأعصبة، بل بما كان يشبه عليه كادعاء مقتصر على دور الميل الجنسي في الهستريا والضعف العصبي[288]. وهكذا، فإن معاني اللبيدو والجنسية الطفلية، والمناطق الشهوية والجنسية المزدوجة التي انقلب عليها فرويد بعد تركه لنظرية الإغواء كانت معاني الميراث الداروني التي اشترك فيها القائلون بمبحث دراسة الجنس؛ وبخاصة فليس الذي تعمد فرويد ألّا يعتد به في تفسيراته التاريخية.[289]

سانفورديبل: إن انفعال: (الحب- الجنس) لا يظهر المرة الأولى في مرحلة المراهقة كما يعتقد البعض، ذلك أن الفكر السليم، عندما يلاحظ هذه المظاهر في مئات الأزواج من حالات الأطفال لا يمكنه أن يحيلها إلى أصل جنسي.[290]

وباختصار إذا، تمكن أحد الناس أن يضع نظريات فرويد في محلها من النزعة الجنسية داخل سياقها، فقد يرى أنها ليست ثورية، كما أنها ليست عملا فاضحا مخزيا، كما يدعي البعض.

وكذلك بالمثل فإنه يصعب أن يتخيل الإنسان بأن اهتمام فرويد بالأحلام لايدين بشيء إلى الآداب السيكولوجية الضخمة، حول الموضوع الذي أشاعته شخصيات مثل شرنر، وهو في دي سانت دنيز، (الذي ذكره فرويد، اختيارا منه في الفصل الأول من تفسير الأحلام) أو شاركو وجاني، وكرافت- أبينج (الذي ضرب عنهم صفحا بشكل غريب)[291]؛ والادعاء كما فعل فرويد في دراسة سيرته الذاتية، بأن العلم في وقته كان قد حكم (بالطرد والفصل)[292]، في ما يخص موضوع الأحلام هو ادعاء باطل، وبهذا الاعتبار يمكن أن نتساءل لماذا كان يلح كثيرا أنه على أنه وصل إلى نظرية الرمزية في الأحلام[293] (التي كانت غائبة

في الطبعة الأولى من تفسير الأحلام)، في استقلال عن شرنر، الذي كان قد استبقه في أجزاء كثيرة من نظريته من مثل قوله- الأحلام، ماهي إلا اشباع مقنع للرغبات الجنسية، وكما لاحظ كل من إرفينج مانسي واستفن كمرن، فإن فرويد في مراجعته التاريخية لآداب الأحلام، كان قد تجنب بانتظام مقاطع وشواهد من أعمال السابقين عليه، والذين اقتربوا كثيرا من نظرياته الخاصة.

كارل البيرت شرنر : إن الدوافع الجنسية التي تثور أثناء النوم، وتمثلاتها في الأحلام لا تهتم إطلاقا بالناحية الخلقية؛ ذلك أن التخييل قد يكون مجرد دافع للحيوية الجنسية التي يعطاها في العضوية الجنسية، ويتمثل على نحو رمزي ! فالعذرية الطاهرة، والمرأة الكهلة المحترمة، والكاهن الذي يكون في زهد في الحياة الدنيا، وكذلك الفيلسوف الذي يضمن للحافز الجنسي فقط تدبيرا وغرضا محكوما، بالأخلاق أقول كل هذه الفئات من البشر متساوية في الأحلام التي يثيرها الجنس.[294]

وايلد برانت : يزودنا الحلم بخلاصة دقيقة لمعرفتنا بأنفسنا كالإشارات الدالة على ضعفنا، والإلهامات الموضحة لاستعداداتنا اللاشعورية الخاصة بعواطفنا وقوتنا، ولو كنا في يقظتنا لاندهشنا منها، وكأنها شيطان مريد بعيون صقر، ينظر في ورق اللعب. وإذا، كان الأمر على هذا الحال، فإن ما يمكن أن تحفظه علينا الأسس العقلية من أسئلة فردية بصدد بحثنا الذاتي، وبخاصة من السؤال الرئيسي يكون هو : من يا ترى يكون رب البيت الواقعي في منزلنا[295]، إن تلميحات حياة الحلم كفيلة بأن تلفت انتباهنا إليه على وجه اليقين.[296]

وكذلك وبالمثل، وسواء أكان فرويد قد قرأ حاليا شونهاور- وتوجد أسباب كثيرة للقول بأنه «كان»[297]، قد قرأه - فإنه كان واعيا وعيانا بأن حد الكبت ومفهومه يلعب دورا مهما في عمل أستاذه مينرث[298] الذي أخذه عن هربارت، وفي صياغاته الأولية كعملية سيكولوجية تدل عليه، وكان قريبا جدًا من تفكيكية شاركو وبيني وجاني، أما ادعاءات فرويد بأن كان بتجنب قراءة نتشه، فقد أثبت ويليام مكرات بانه يستحيل تقريبا ألا يكون قد قرأه حينما كان شابا طالبا وعضوا في جمعية الطلبة الأكاديميين التي هي عبارة عن فريق ألمانيا العظمى للقراءة المختصة بالتعمق في دراسة أعمال شوينهاور، وفاجنر ونتشه[299] وإلى جانب كل ذلك يمكن للباحث

أن يطلع من خلال رسالة إلى فيلس تحكي بأن فرويد كان قد حصل على أعمال نيتشه الكاملة وعلى وجه الاحتمال (من طبعة تومان، وقد كانت أعماله مطبوعة آنذاك).[300]

من فرويد إلى فيلس 1 فبراير سنة 1900 : لقد حصلت على نيتشه الذي أتمنى أن أجد ألفاظا لما ظل مغلقا علي كثيرا، وكأنه أخرص، إلا أني لم أفتحه بعد لقراءته، والإنسان يكون كسولا في بعض الأوقات.[301]

ثم إنه كان من المستبعد أن يكون التحليل النفسي وليد صدفة آلتقاء غير مفترض لفرويد واللاشعور، فهو كان نتيجة تقاطع عدة قراءات ومناقشات وخلافات، وحتى ثبت المراجع الموجود في أعمال فرويد المبكرة تكشف عن قارئ منهوم، متعدد اللغات : قراءة العلوم والآداب والفلسفة في ذلك الوقت وبانتباه مستمر لما يستجد في المجالات المختلفة كالتطور في البيولوجيا (داروين وهاكيل)، ومبحث دراسة الجنس (كرافت- ابينج، ومول وإليس وإيفان بلوخ ومانيوس هيرسفيلد) وكذلك علم الأعصاب مع الألمان وتشريح الدماغ (موازلي وبين)، وسيكولوجيا الشواذ الفرنسية (تين وريبو، وبيني وجاني)، وكذلك التنويم العلاجي والتجريبي (شاركو وبرنهام وديليوف، وفوريل، وفلسفة اللاشعور «فون هارتمان) وعلم الجمال (ليبز وفيشر).

ويتابع فرويد بحماس، ككثير من الباحثين الطلائعين، ما يقع من تطور في الميادين المجاورة، ومتمعنا في أولويات زملائه وخصومه، باحثا عن إثبات السيكولوجية العلمية الحقة وبهذا الاعتبار يكون من الخطأ الواضح زعم جونز بأن فرويد لم يهتم قط بمسائل الأولويات؛ مما يجعله مملا[302] ثم إن روبرت مرتون وهو عالم اجتماع مشهور في المعرفة العلمية قد أحصى ما لا يقل عن 150 خلافا من الخلافات ذوات الأولوية في أعمال فرويد، مما يفوق معدل ثلاثة خلافات في السنة، وكان هذا قبل أن تنشر المبادلات الكبرى من تراسله.[303]

من فرويد إلى فيلس 29 نوفمبر 1895 : لقد أنتج طالبان لويرنيك وهما ساش وفروند مقالا خاليا من المعني عن الهستيريا (في ما يخص الشلشل النفسي)[304] وهو في جزء كبير منه منتحل ومأخوذ من (اعتباراتي...) في توثيق علم الأعصاب[305]. ومسلمة شاني عن ثبات الطاقة النفسية مؤلمة جدًا.[306]

من فرويد إلى فيلس 14 نوفمبر 1827 : ومرة أخرى، أستطيع أن أقول لك: إنه يدور الحديث عن التخلي عن المناطق الجنسية الأولى، ويمكن أن أضيف بأني مسرور جدًّا؛ لأني عثرت صدفة على فكرة مشابهة عند مول (ولا أتنازل عن هذه الفكرة لأي أحد خصوصي.[307]

محضر رسمي لجمعية التحليل النفسي بفيينا من 11 نوفمبر 1908: إن الجنسية الطفلية، مهما ظهرت غريبة، فقد اكتشفها فرويد، وقبل هذا لم تدل أي إشارة على وجودها في الآداب- وقد اقتبس مول فكرة الجنسية الطفلية من كتاب فرويد : (ثلاث محاولات)، ثم انطلق يكتب مؤلفه بهذا السبب، فإن مؤلف الكتاب، مول، تحذوه رغبة متغلغلة في أن يجحد تأثير فرويد عليه.[308]

من فرويد إلى فيلس 10 مارس (1898) : لقد اطلعت حديثا على كتاب نشر جاني عن الهستريا، وتثبيت الأفكار[309] بقلب مفنوح؛ إلا أني وضعته مرة أخرى جانبا وقد هدأ روعي؛ إذ لا توجد لديه أية فكرة عن المفتاح.[310]

من فرويد إلى فيلس 31 غشت 1898 : لقد وجدت مادة استبصاري قائمة على نحو واضح عند ليز، ولربما بأكثر مما كنت أتمنى؛ وغالبا ما يعثر الباحث على أكثر مما يتمنى أن يجده... إن تطابق أفكارنا قريب من جهة التفصيل قربا كبيرا ولربما فإن المفترق الذي تتفرع عنه أفكاري الجديدة سيحصل في ما بعد.[311]

من فيلس إلى فرويد 20 يونيه 1904 : ولقد عثرت صدفة على كتاب لصاحبه وينجز، في جزئه الأول البيولوجي، ولصدمتي، وجدت وصفا لأفكاري عن الجنسية الازدواجية، وطبيعة نتيجة التجاذب الجنسي عنها- تجاذب الرجولة الأنثوية نحو الأنوثة الذكورية، والعكس بالعكس، ورأيت اقتباسا منه يحيل إلى أن وينجر كان يعرف سووبودا، أحد تلاميذتك، (قبل نشر كتابه) وعلمت أن الرجلين كانا في علاقة حميمية، ولا شك أن وينجر حصل على معرفة أفكاري من خلالك ومن سوء استعمال آخرين غيرك.[312]

من فرويد إلى فيلس 27 يونيه 1904 : أما بالنسبة إلي أنا شخصيا، فإنك كنت دائما منذ سنة (1901) صاحب فكرة الجنسية الازدواجية، وأخشى أنك لو نظرت في الإنتاج الأدبي، فستجد أن كثيرا من الناس قريبون إليك على الأقل، والأسماء التي ذكرت لك توجد في مخطوط (ثلاث محاولات عن نظرية

الجنسية)[313]، ولما كنت لا أحمل معي الكتب، فلا أستطيع أن أمدك بوثائق دقيقة. وبالتأكيد، فإنك واجد بغيتك عند كرافت، إيبيج في الجنسية السيكوباتية، ويمكن أن أقبل، وبدون عاطفية باردة، بأن أقرأ هذا الرأي أو ذاك من كتاب آخرين، إلا أنني لا أجرؤ على أن أتملك شيئا في حوزة الآخرين، وكأنه ملك لي، وعلى هذا فبالنظر إلى الجنسية الازدواجية، فإني لا أريد أن أكون في وضع مثل وضعك ومن جهة أخرى، فإنه يوجد قليل من الجنسية الازدواجية استعرته منك في ما قلته وإني منصفك، ومشارك لك في بعض الملاحظات، ولقد خصص مربيوس كراسة عن (الجنس والأخلاق) يمس كتاب وينجز...ويدعي فيه أن مختلف آراء هذا الأخير هي له، وقد يكون من المفيد بالنسبة إليك أن تبحث عن أيهما أخذ منك.[314]

وعليه، فإن إثبات نشأة مضمون عمل فرويد، ضمن الشبكات الفكرية المتعددة والخلافات في عصره، هو التأكيد على وجه الإطلاق بأنه كان منتحلا أو أنه لم يكن لديه شيء جديد في عمله، وإن كان يستبعد هذا. ولا يمكن لأحد أن يجحد كون أن فرويد أعد تركيبا أصيلا عن النظريات التي تصور تخطيطها، وهذا ما جعل عمله مهما، وما يطعن فيه المؤرخون على فرويد هو أن التحليل النفسي على خلاف أية نظرية سيكولوجية أخرى كان قد ولد داخل عملية «الحبل غير المدنس» كما يقول بيتر سويلز» ومن المستبعد جداًظهور ما يسميه فرويد مرحلة ما قبل التحليل النفسي، لأنه متضمن داخل سياقات تاريخية ونظرية، بدونها لم يكن بالإمكان أن يكون ظهوره قابلا للتفسير أو كونه مجرد معجزة.

هوامش الفصل الأول

1 - Marie Bonaparte Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

2 - On the differences between the old sociology of science of Robert K. Merton and the new science studies, see Callon and Latour (1990), 13-14; Latour (1987), 387-92; Golinski (1998), 48-55.

3 - See the preface of Jonas Salk (the developer of the polio vaccine) to Latour's inquiry in his laboratory (Salk 1979, 11-14). For an example of a scientist integrating science studies in his work, see Rose (1993).

4 - Interview with Isabelle Stengers and Didier Gille, Linkebeek, 25 August I993.

5 - Mijolla (1993).

6 - Gay (1988), xv: 'In later years, Freud repeated this destructive gesture more than once, and in the spring of 1938, preparing to leave Austria for England, he threw away materials that an alert Anna Freud, abetted by Princess Marie Bonaparte, rescued from the wastebasket.'

7 - Wilkinson (1985), 27: 'Freud had wished his papers to be destroyed, but his widow, Martha, could not comply with his request. Before her own death she left the task to Anna [Freud], and the daughter was similarly unable to effect the loss of such valuable materials.'

8 - Cited by Jeffrey Masson in Freud (1985), 9.

9 - Ibid.

10 - Freud (1960), 140-I.

11 - Freud (1900), 214, n. I.

12 - Freud (1960), 346.

13 - Freud (1923), 235.

14 - Freud (1925a), 7.

15 - Wundt (1921); Hall (1923); Forel (1935); Moll (1936); Ellis (1939); Jung and Jaffé (1962); on the unreliability of Jung's 'memories' recorded and edited by Aniela Jaffé, see Elms (1994), ch. 3; Shamdasani (1995) and (2005a).

16 - Murchison (1930-).

17 - See the dismantling of Piaget's autobiographical essay by Vidal (1994a).

18 - Murchison (I930-), vol. 3, 277-8.

19 - On this question see Shamdasani (2003a), section I.

20 - Freud (1914a), 7.

21 - Ibid., 60.

22 - Luhmann (1979); Giddens (1990), particularly 26-36.

23 - Shapin (1994), 412. Shapin himself complicates this in showing how the verification procedures of the English experimentalists of the seventeenth century were rooted in the gentlemanly culture of time and also how, in the present day, personal status continues to play a role within the specialised networks and core-sets of scientists working within a given domain.

24 - Manuscript note of Marie Bonaparte, c. 1927-8 (on this document, see Borch-Jacobsen 1996, 100).

25 - Freud (1914a), 21.

26 - Ibid., 19.

27 - Freud and Ferenczi (1993), 261-2; Ferenczi's emphasis.

28 - Wells (1960), 189.

29 - Freud (1954), 33-4·

30 - Jones 1953), 351-2.

31 - Eissler (1971), 306-7.

32 - Hobbes (1968 [1651]), 82.

33 - Kant (1985 [1786]), 8.

34 - Comte (1830-42), vol. i, 34-5.

35 - James (1890), vol. 2, 64.

36 - Brentano (1874), 29.

37 - Maury (1861); Delboeuf (1993b [1885]).

38 - On this question, see Danziger (1991). Self-experimentation was still widely used in medicine. For example, in 1872, George Beard and Alphonso Rockwell wrote concerning electrotherapeutics: 'To all who for the first time enter upon the study of this branch of science, we cannot too strongly recommend the practice of self-experimentation. Better than any experiments on animals, better even, in many features, than extended investigations in the treatment of disease, is the precise and peculiar knowledge of the modus operandi of the applications, and the sensations which they produce, which is obtained through personal experience' (1880 [1872], x-xi). Another example would be Freud's experiments with cocaine, cf. Freud (1885a).

39 - Freud (1985), 261.

40 - See the letter to Fliess of 14 November 1897: 'Before the vacation trip I told you that the most important patient for me was myself; and then, after I came back from vacation [Freud returned to Vienna on 27 September), my self-analysis, of which there was at the time no sign, suddenly started' (Freud 1985, 279). See also Sulloway's judicious comments (1992a, 208-9), noting that Freud's selfanalysis could not have been the reason for his abandonment of the seduction theory, as the legend has it.

41 - Freud (1985), 281.

42 - Ibid., 299.

43 - Jones mentions that Freud had noted his dreams since his youth- none of the note books containing these survived Freud's periodic destruction of his papers (Jones 1953, 351-3).

44 - Freud (1901), 49.

45 - Delboeuf (1993b), 109-18.

46 - See the judicious remarks of Duykaerts (1993), 241.

47 - Mayer (2001).

48 - The self-observations of Bleuler and Forel were reproduced in Forel (1889), under the title 'Two hypnotisers hypnotised'. In subsequent editions, Forel omitted the section concerning himself (in which he had recounted auditory hallucinations and sensory confusion under hypnosis). Freud wrote a laudatory review of Forel's work when it appeared (Freud, 1889).

49 - Another slightly later example can be found in Marcinowski (1900).

50 - Forel (1910b), 308.

51 - Freud (1900), 101-2.

52 - Gay (1988), 97.

53 - Freud (1900), 105.

54 - Ibid., 477.

55 - Ibid., xxvi. Jakob Freud died on 23 October 1896, one year before the beginning of the self-analysis proper.

56 - Freud (1910a), 32.

57 - Clearly taken aback by this passage, the psychoanalysts Jean Laplanche and Jean-Bertrand Pontalis affirm in their *The Language of Psycho-Analysis* that 'It is not possible, however, to be sure from the term Freud used on this occasion - "*Selbstanalyse*"- whether he meant a true self-analysis or an analysis conducted by another person' (Laplanche and Pontalis, 1973, 454).

58 - Freud (1910b), 145.

59 - Freud and Jones (1993), 112.

60 - Adler (1972), 56.

61 - An allusion to Wilhelm Fliess.

62 - Stekel (1925), 563.

63 - Baron von Münchhausen pulled himself by his hair to get out of a swamp into which he and his horse had fallen.

64 - Jung (1912b), CW 4 § 449. Jones immediately interpreted this as an attack on Freud (see Freud and Jones 1993, 212). Andrew Paskauskas notes: 'The comment may also have been taken personally by Jones. It certainly hit a nerve, for Jones had spent a great deal of energy in undertaking his own self-analysis between 1909 and 1913 and would have resented the implication that he was practicing pseudopsychology' (*ibid.*, 213-14).

65 - Freud (1912), 116-17. Freud's article appeared at the beginning of June 1912, before Jung recommended training analysis in his September lectures at Fordham University in New York (Jung 1912b). It is nevertheless clear that it was adopted under the influence of Jung and the Zurich school.

66 - Putnam (1911).

67 - See amongst others Roustang (1986); Falzeder (1994b; 1998); Shamdasani (2002).

68 - Freud (1915a), 166: 'How are we to arrive at a knowledge of the unconscious? It is of course only as something conscious that we know it, after it has undergone transformation or translation into something conscious. Psycho-analytic work shows us every day that translation of this kind is possible.'

69 - Sigmund Freud Copyrights, Wivenhoe.

70 - Freud and Jung (1974), 526.

71 - Freud and Jones (1993), 180.

72 - Freud and Jung (1974), 533.

73 - Ibid., 534; Freud's emphasis.

74 - Ibid., 535.

75 - Freud and Ferenczi (1993), 446. On Maria Moltzer and her relations with Jung, see Shamdasani (1998).

76 - Freud and Jones (1993), 186.

77 - Towards the end of his life, Ferenczi changed his view on this. See Ferenczi (1988).

78 - Freud and Ferenczi (1993), 470-1; Ferenczi's emphasis.

79 - Lacan (1981), 232; Lacan's emphasis.

80 - Freud (1914a), 20.

81 - Abraham (1954 [1919]), 308.

82 - Freud to Paul Schilder, 26 November 1935, Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; cited in Gay (1988), 97. Ernst Falzeder notes that Freud, irritated by Rank's *The Trauma of Birth*, insinuated that he wouldn't have written it if he had been analysed.

Rank replied: 'I have felt curiously touched by the fact that you, of all persons, suggest that I would not have adopted this concept had I been analyzed. This might well be so. But the question is whether this is a cause for regret. I, for one, can only consider myself lucky, after all the results I have seen with analyzed analysts' (Rank to the former secret committee members, 20 December 1924, cited by Falzeder 1998, 147).

83 - Anzieu (1986), 564-5. Anzieu also presented a contemporary psychoanalytic interpretation of Freud's self-analysis: 'Throughout the systematic self-analysis ... Freud used theory as a defense against depression. Freudian psychoanalytic theory was the product of a working over of the depressive position, whereas Kleinian psychoanalytic theory was the product of a working over of the schizoparanoid position' (577).

84 - Schur (1972).

85 - Noted by Falzeder (2000), 44.

86 - Freud (1914a), 23-4.

87 - Wittels (1924), 118.

88 - The mythologisation of the relation between Freud and Jung has quite eclipsed that between Bleuler and Freud on the one hand and Bleuler and Jung on the other, with deleterious effects. In many crucial respects, the relationship and subsequent separation between Bleuler and Freud was more consequential for the subsequent history of psychoanalysis, and its separations from psychiatry, than that between Freud and Jung; second, the relationship and subsequent separation between Bleuler and Jung was more important for Jung than his relation with Freud; third, no account of the relation between Freud and Jung is complete without grasping the complex triangulations between them and Bleuler.

89 - Lowenfeld (1904).

90 - Bleuler (1904), 718.

91 - Freud (1985), 461.

92 - Bernheim (1892); Bleuler (1892), 431.

93 - Bleuler (1896).

94 - Forel was French Swiss, and wrote in French and German. His research was many-faceted, and he was well known for playing a key role in the formulation of the concept of the neurone, for his research on ants and on the sexual question, and for his militant anti-alcoholism. On Forel, see Shamdasani (2006). On his relations with Freud, see Tanner (2003), 83-95.

95 - Freud (1889).

96 - As Tanner notes, the editorial committee was a veritable Who's Who of figures associated with the Nancy school: aside from Freud, one finds Hippolyte Bernheim, Ambroise Liébeault, Joseph Delbœuf, Max Dessoir, Albert Moll,

Stekel (1925), 563.

Baron von Münchhausen pulled himself by his hair to get out of a swan[...] which he and his horse had fallen.

Jung (1912b), CW 4 § 449. Jones immediately interpreted this as an a[...] on Freud (see Freud and Jones 1993, 212). Andrew Paskauskas notes: [...] comment may also have been taken personally by Jones. It certainly h[...] nerve, for Jones had spent a great deal of energy in undertaking his own s[...] analysis between 1909 and 1913 and would have resented the implication th[...] he was practicing pseudopsychology' (*ibid.*, 213-14).

Freud (1912), 116-17. Freud's article appeared at the beginning of June 1912, before Jung recommended training analysis in his September lectures at Fordham University in New York (Jung 1912b). It is nevertheless clear that it was adopted under the influence of Jung and the Zurich school.

Putnam (1911).

See amongst others Roustang (1986); Falzeder (1994b; 1998); Shamdasani (2002).

Freud (1915a), 166: 'How are we to arrive at a knowledge of the unconscious? It is of course only as something conscious that we know it, after it has undergone transformation or translation into something conscious. Psycho-analytic work shows us every day that translation of this kind is possible.'

Sigmund Freud Copyrights, Wivenhoe.

Freud and Jung (1974), 526.

Freud and Jones (1993), 180.

Freud and Jung (1974), 533.

Ibid., 534; Freud's emphasis.

Ibid., 535.

Freud and Ferenczi (1993), 446. On Maria Moltzer and her relations with Jung, see Shamdasani (1998).

Freud and Jones (1993), 186.

Towards the end of his life, Ferenczi changed his view on this. See Ferenczi (1988).

Freud and Ferenczi (1993), 470-1; Ferenczi's emphasis.

Lacan (1981), 232; Lacan's emphasis.

Freud (1914a), 20.

Abraham (1954 [1919]), 308.

Freud to Paul Schilder, 26 November 1935, Sigmund Fr[...] Manuscript Division, Library of Congress, Washington[...] (1988), 97. Ernst Falzeder notes that Freud, irritated b[...] of Birth, insinuated that he wouldn't have written it[...]

Paul Mobius, Albert Freiherr von Schrenck-Notzing and Otto Wetterstrand (2003, 80). It was in the *Zeitschrift für Hypnotismus* that Freud published his first case history, 'A case of successful treatment by hypnotism' (Freud 1892-3).

97 - Forel (1891), 26-7.

98 - Forel (1899), 412-13.

99 - There is nothing surprising in this- as Tanner noted, it was not till the following year that Freud (1904) made public his abandonment of the hypnotic method (2003, n. 124).

100 - Forel (1907), 221-2.

101 - '[Manfred] Bleuler when I interviewed him told me that he hesitates to give copies to the Archives since he fears for Freud's reputation in view of what Freud wrote to his father about Jung' (Kurt Eissler, manuscript notes in the margin of the translation of a letter from Freud to Bleuler of 17 November 1912, Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC).

102 - Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

103 - Cited in Bleuler (1979), 21.

104 - Ernst Falzeder, English manuscript of Falzeder (2004).

10S - Jung (1906-9).

106 - In 1905 Freud had written: 'I cannot admit that in my paper on "The aetiology of hysteria" (1896) I exaggerated the frequency or importance of that influence' (Freud 1905a, 190). It was only in the following year that he admitted that he had made an error ten years earlier: 'I thus over-estimated the frequency of such events (though in other respects they were not open to doubt)' (Freud 1906, 274; our emphasis). To Jung, he seems to have continued privately to affirm that these seductions had been real : '[jung:] For example, I read his article on the thirteen cases of so-called traumatic hysteria and I asked him, tell me, Professor, are you sure that these people really told you the truth? How do you know that these traumas took place? He said to me [laughs]: But these were good people! And I : Excuse me, but they are hysterics! ... I was a psychiatrist ... and I know what hysterics were capable of in this regard! But he denied this ... He admitted nothing, nothing! Corrected nothing.' Interview typescript of 29 August 1953 with Kurt Eissler, Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC, 17.

107 - Jung (1905), CW 2, § 717·

108 - Interview with Kurt Eissler (see note 214 above), 33.

109 - Aschaffenburg (1906), 1797; Aschaffenburg's emphasis.

110 - Ibid., 1798.

111 - On 5 October 1906 Jung wrote to Freud about Aschaffenburg and noted: ' it seems tome that though the genesis of hysteria is predominately sexual, it is

not exclusively' (Freud and Jung 1974, 4-s). In his reply, Freud by no means assented to this, replying that he was aware that Jung did not share all his views, but hoped that in the course of years he would come closer to them.

112 - Jung (1906), § 16.

113 - Vogt (1898; 1899). On Vogt's use of hypnosis and causal psychotherapy or causal analysis, see Satzinger (1998), 100-32. Against Breuer and Freud, Vogt argued that it was the task of the patients themselves to discover the causal connections, rather than having them interpreted for them by the physician (ibid., 118-19).

114 - In 1900 Warda published an account of a case of hypnoid hysteria treated by Breuer and Freud's cathartic method (Warda 1900).

115 - Contrary to general opinion, the word psycho-analytical had been employed prior to Freud. In 1979, Kathleen Coburn noted that the term had been used by Coleridge in his notebooks (cited in Eng 1984, 463). Coleridge had written about the need for a psycho-analytical understanding. As Erling Eng noted, Coleridge understood this as what was 'needed to recover the presence of Greek myth hidden with Renaissance epic verse, this for the sake of realizing a purified Christian Faith' (ibid., 465). Whilst Coleridge's diaries were not published till the twentieth century, the"OED also notes a published use of the word in 1857 in Russell's Magazine: '[Poe] chose ... the psycho-analytical. His heroes are monstrous reflections of his own heart in its despair, not in its peace.' Whether the word may have been in wider circulation has not yet been established.

116 - Freud (1896a), 151. The German Psychoanalyse is used for the first time in Freud (1896c), 162.

117 - Janet (1919), 601-2.

118 - This was signalled by Horst Gundlach (2002), who noted the embarrassed reception of the malformed term psychoanalysis by Freud's colleagues and followers. See also Shamdasani (2005b).

119 - Bezzola archives.

120 - Forel (1919), 218.

121 - Frank (1910), 19.

122 - Bezzola archives.

123 - Frank (1908), 127-8; this article appeared in a volume in honour of Forel.

124 - Hoche (19o8), 184-5.

125 - Bezzola (1908), 219.

126 - Freud and Jung (1974), 29.

127 - The italicised phrase was deleted from the published version of the correspondence. The originals are on access at the Library of Congress.

128 - Freud and Jung (1974), 26 May 1907, 53.

129 - Forel and Bezzola (1989), 74·

130 - Ibid., 64. Frank's response is reproduced in Forel (1968), 393-5.

131 - Forel and Bezzola (1989),-66.

132 - Ibid., 69.

133 - Ibid., 71.

134 - Ibid., 73. Bezzola never wrote this book, to Forel's great chagrin.

135 - Ibid., 67.

136 - Cited in Cranefield (1958), 320.

137 - Cited in ibid., 320. It seems that Breuer continued to correspond with Forel up to 1908, but this correspondence has been lost (see Tanner 2003, n. 125). It is worth quoting here Ludwig Binswanger's recollection of his visit to Breuer, to whom he conveyed the salutations of his father (Robert Binswanger, to whom Breuer had sent Bertha Pappenheim after her treatment): 'I do not recall Breuer's exact words, but I do remember the vivid gestures and facial expresion with which he responded to my naive question of what his position was regarding Freud since the Studies. His look of downright pity and superiority, as well as the wave of his hand, a dismissal in the full sense of the word, left not the slightest doubt that in his opinion Freud had gone scientifically astray to such an extent that he could no longer be taken seriously, and hence it was better not to talk about him' (Binswanger 1957, 4) .

138 - Forel and Bezzola (1989), 67.

139 - Ibid, 70.

140 - Forel (1908), 268.

141 - Freud and Jung (1974), 33.

142 - Vol. 21, 1907, 563.

143 - Ibid. 566.

144 - Jung (1908a), § 28.

145 - Jung deleted this when he republished the paper.

146 - Jung (1908b), 277. In the version published in the same year, under the title 'The Freudian theory of hysteria', Jung deleted the passage on Bezzola.

147 - Jones (1955), 126.

148 - Janet (1908), 301-2. Janet expressed the same position in 1913 in London at the 17th International Medical Congress : 'I have to admit to my great shame thar I did not fully comprehend the importance of the [Freudian] upheaval and I naively considered the first studies of Breuer and Freud as a very interesting confirmation of my studies : "We are happy, " I wrote at that time, "that Breuer and Freud have recently verified our already old interpretation of fixed ideas in hysteries" ... At most these authors changed a few words in their psychological description : they called psycho-analysis what I had

called psychological analyis ... Again today if one leaves the adventurous discuss ions to one side and only examines the observations published by Freud students on traumatic memories, one finds again descriptions very close to those I had previously published. In considering these first theories and these observations, one has dificulty in understanding how psycho-analysis differs from psychological analysis and where one is supposed to find the new viewpoint which it brings to psychiatry' (Janet 1913, 8).

149 - Since the publication of the French edition of this book (2006), George Makari's Revolution in Mind. The Creation of Psychoanalysis (2008) has appeared. This work is the most significant history of psychoanalysis to date and his analysis converges at a number of points with that developed here, particularly in this section and chapters 6 and 7 of his book. Our main point of difference is with Makari's argument that, after the first schisms, Freud did a volte-face from his prior authoritarian position, and thereafter maintained a relatively loose hold on the psychoanalytic movement. We would rather emphasis the fact that greater latitude developed regarding the range of permissable divergence on aspects of theory (in part necessitated by the damage limitation exercise vis-à-vis the work of figures such as Adler and Jung) only as long as the Freud legend and Freud's fundamental authority remained unchallenged.

150 - Freud and Jung (1974), 157.

151 - Jung (1973), 7.

152 - Introduction to Freud and Abraham (2002), xxvii; Falzeder's emphasis.

153 - Forel (1908).

154 - Ibid., 266.

155 - Forel (l910a), 42 and 44.

156 - Forel (1910b), 315-16.

157 - Forel and Bezzola (1989), 70.

158 - Among those present were: Bernheim, Janet, Forel, Vogt, Jones, Leonhard Seif (then a Freudian), Loy, de Montet, Muthmann, van Renterghem and Warda. Bezzola and Frank weren't able to attend.

159 - Forel (1910b), 313.

160 - Forel (1910a), 44·

161 - The society was officially founded at Salzburg on 19-25 September 1909. The president was Fulgence Raymond, Charcot's successor at the Salpêtrière, with Frank, Forel and Vogt as secretaries. The society comprised not fewer than fifty six members.

162 - One can follow' this discussion in Freud and Jung (1974), 247, 249, 253, 257, 259.

163 - Freud and Jung (1974), 268.

164 - Forel (1910c) ; noted by Tanner (2003), n. 128.

165 - Freud and Jung (1974), 288 and 295·

166 - Ibid., 294-5.

167 - Freud and Ferenczi (1993), 119. See also Freud and Jung (1974), 282.

168 - Freud and Ferenczi (1993), 120.

169 - *Neurologisches Centralblatt*, 1910, 660.

170 - Ferenczi (1911), 299. In Jung's terms, 'the great Freud battle' (Freud and Jung 1974. 50).

171 - Ferenczi (1911), 301.

172 - Freud (1910c), 226-7.

173 - Freud (1914a), 43-4.

174 - Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress. Washington. DC; cited in Alexander and Selesnick (1965), 4.

175 - Frank (1910).

176 - Freud and Jung (1974), 310.

177 - Ibid., 300.

178 - Freud and Jones (1993), 65.

179 - Freud and Jung (1974), 300.

180 - Isserlin (1907).

181 - Freud and Jung (1974), 299-300; Jung's emphasis.

182 - Ibid., 300.

183 - Ibid., 308.

184 - Hoche (1910), 1009.

185 - Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

186 - Freud and Jung (1974), 371.

187 - Ibid., 373.

188 - Ibid., 376. Freud attributed his public priority dispute with Fliess (see Fliess 1906a) to the latter's paranoia brought about by repressed homosexuality: 'The paranoid form is probably conditioned by restrictions to the homosexual components ... My one-time friend Fliess developed a dreadful case of paranoia after throwing off his affection for me, which was undoubtedly considerable. I owe this idea to him, i.e., to his behaviour' (Freud and Jung 1974 121).

See also Freud's letter to Ferenczi of 10 January 1910, in which Freud attributed his final rupture with Fliess to an interpretation which Freud had made to him: 'This piece of analysis, very unwelcome to him, was the real reason for the break between us which he engineered in such a pathological (paranoic) fashion' (Freud and Ferenczi 1993, 122).

189 - Freud and Jung (1974), 376.

190 - Freud and Ferenczi (1993), 243.

191 - Freud and Jones (1993), 93; see also 101: 'He is a paranoiac I am sorry to say.'

192 - Freud and Ferenczi (1993), 262.

193 - Freud and Jung (1974), 376.

194 - Stekel (1950), 141.

195 - Nunberg and Federn (1974), 145, 146 and 148.

196 - Stekel (1950), 142.

197 - Freud and Jung (1974), 399·

198 - 'An der Leser' [To the reader], in Furtmüller (1912), iii; cited in Stepansky (1993). 203.

199 - Somewhat overstatedly, though with some justice, Alexander and Selesnick (1965) argued that, without the dissension which led Bleuler to resign, the subsequent isolation of psychoanalysis from the universities and medical schools would not have taken place (1-2).

200 - Alphonse Maeder papers.

201 - Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

202 - Freud and Jung (1974), 468.

203 - Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; cited in part in Alexander and Selesnick (1965), 5.

204 - Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; Bleuler's emphasis; cited in part in Alexander and Selesnick (1965), 7.

205 - Forel (1919), 221. Ambroise-Auguste Liébeault was the doctor near Nancy who initiated Bernheim into hypnosis.

206 - *Forel's The Sexual Question* (1905) appeared the same year as Freud's Three Essays on the Theory of Sexuality, and received far more attention and was widely translated. Farel also published a book on Ethical and Legal Conflicts of the Sexual Life Inside and Outside of Marriage (1909). Jung reviewed it favourably, noting:

'The author introduces his book with the following words: "The following pages are for the most part an attack, based on documentary material, on the hypocrisy, the dishonesty and cruelty of our present-day morality and our almost non-existent rights in matters of sexual life." From which it is apparent that this work is another contribution to the great social task to which Forel has already rendered such signal service' (Jung 1909, CW 18, § 921).

207 - Freud and Ferenczi (1993), 281.

208 - Ellenberger (1970a), 810-14.

209 - Jung, letter to the Neue Zürcher Zeitung, 10 January 1912, CW 18, §§ 1034-8.

210 - 'On psychoanalysis', letter of Jung to the Neue Zürcher Zeitung of 17 January 1912 (Jung, CW 18, § 1039-40).

211 - In English in the original.

212 - This official protestation appeared in the Neue Zürcher Zeitung of 27 January 1912, signed by Jung and Franz Riklin for the IPA and Alphonse Maeder and J.H.W. van Ophuijsen for the Zurich Psychoanalytical Society. On 28 January, Jung published a heated letter on the debate in the journal Wissen und Leben (Jung 1912a)..

213 - 'A word about psychanalysis', letter of Farel to the Neue Zürcher Zeitung of 25 January 1912.

214 - 'Psychanalysis and psychoanalysis, or Science and Lay understanding', letter of Forel to the Neue Zürcher Zeitung of 1 February 1912.

215 - Freud and Binswanger (2003), 79.

216 - Cf. above, pp. 47-52.

217 - Hale (1971b), 146.

218 - Ibid., 153.

219 - Since the appearance of the French edition of this book (2006), Ernst Falzeder and John Burnham (2007) have published an article on the Breslau conference, which overlaps at certain points with our study here.

220 - Freud and Jung (1974), 545.

221 - *Internationale Zeitschrift für ärztliche Psychoanalyse*, 1913, vol. 1, 199.

222 - Hoche (1913), 1068.

223 - Burnham (1983), 74.

224 - Bleuler (1913), 665.

225 -Bleuler (1910).

226 - Hoche (1913), 1057.

227 - Ibid., 1059.

228 - Ibid., 1060.

229 - Stekel (1911), 36; Stekel's emphasis.

230 - Freud and Jones (1993), 146.

231 - Ibid., 147-8.

232 - Ibid., 149.

233 - Jones (1955), 172.

234 - Hoche (1913), 1068.

235 - Kraepelin (1913b), 787.

236 - Weygandt (1913), 787.

237 - Kohnstamm (1913), 790-1.

238 - Stern (1913), 785.

239 - Stransky (1913), 786.

240 - Freud and Abraham (2002), 184.

241 - Ferenczi (1914), 62-3. Freud took up this reductive explanation in his autobiographical study of 1925: '[Bleuler] strove too eagerly after an appearance of impartiality; nor is it a matter of chance that it is to him that our science owes the valuable concept of ambivalence ... He resigned from it as a result of misunderstandings with Jung and the Burghölzli was lost to analysis' (Freud 1925a, sr). Three years later, Bleuler rejoindered: 'A small correction is permitred.

The reviewer did not leave the International Psychoanalytic Association "due to differences with Jung," but he considered the impossible demands of the association that his assistants either joined it or should stay away from the meetings taking place in the Burghölzli as a sign, that he no longer wanted to belong; and he understood the latter easily, because he had wamed at that time before its founding that this would lead to secessions, and he considered the striving towards orthodoxy to be incorrect in science. It was a matter of principles, not of persans. I do not know of any differences with Jung' (Bleuler 1928, 1728).

242 - Freud and Jones (1993), 199.

243 - Ibid., 482-3.

244 - Ibid., 234.

245 - Freud and Ferenczi (1993), 519.

246 - Freud and Jones (1993), 242.

247 - Freud and Ferenczi (1993), 550.

248 - Freud and Abraham (2002), 251.

249 - Archives of the Psychological Club, Zurich.

250 - Freud (1914a), 50.

251 - Szasz (1989), 149-50; Szasz's emphasis. One may compare what Freud wrote in his final letter to Fliess : 'nor can ideas be patented ... Once they have been let loose, they go their own way' (Freud 1985, 466) .

252 - Ellenberger (1970a), 638.

253 - Stekel (1925), 570.

254 - Stekel (r95o), 138.

255 - Protocols of Aniela Jaffé's interviews with Jung in preparation of Memories, Dreams , Reflections, 154; Jung Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC. On Jung's influence on Freud's analysis of the ego and second theory of drives, see Borch-Jacobsen (1988).

256 - Freud and Ferenczi (1993), 133.

257 - Freud (1914a), 7. Freud was taking over control of the Jahrbuch für psychoanalytische und psychopathologische Forschungen, after Bleuler and Jung had resigned from the editorship.

258 - Freud (1914a), 11-12.

259 - Ibid., 13.

260 - Ibid., 21-3.

261 - Freud (1925a), 48.

262 - Freud (1914a), 15. One wonders how Freud could have known that he would have had great pleasure from Nietzsche without having read him.

263 - Freud (1925a), 59-60.

264 - Scherner (1861).

265 - Popper [Lynkeus] (1899).

266 - Freud (1914a), 19-20.

267 - Janet (1894), vol. 2, 68.

268 - James (1929), 234.

269 - Ellis (1898a), 279.

270 - Ellis (1898b), 608-9 and 614.

271 - Bleuler (1896), 525.

272 - Freud (1985), 448.

273 - On the correspondence between Freud and Ellis, see Sulloway (1992a), 464; and Makari (1998a), 654; on the correspondence with Lowenfeld, see Freud (1985), 413, n. 3.

274 - On Gattel, see Sulloway (1992a), 513-15; Schroter and Hermanns (1992); on Barany, see Jones (1955), 189; Gicklhom and Gicklhom (1960), 187; on Swoboda, see Freud (1985), 461-4, 466-7.

275 - The myth of the universally hostile reception of Freud's work was demolished by Bry and Rifkin (1962); Ellenberger (r97oa), 448, 450, 455, so8, 772-3; Decker (1971); Cioffi (1973); Decker (1975; 1977); Sulloway (1992a), 449-67; Tichy and Zwetter-Otte (1999). See also Norman Kiell's anthology of reviews of Freud (Kiell 1988).

276 - See Macmillan (1997), ch. s, notably 129-30.

277 - Makari (1998a), 646-7.

278 - Micale (1990) and (2008).

279 - Hirschmüller (1989), roo.

280 - Donkin (1892), 62o; cited in Cioffi (1973).

281 - King (1891), 518.

282 - Clarke (1896), 414.

283 - Binet and Simon (1910), 95.

284 - Alt (1908).

285 - Breuer and Freud (1895), 246; Breuer's emphasis.

286 - Hirschmüller (1989), 316-17.

287 - Breuer (1895), 1718.

288 - Sulloway (1992a), 509.

289 - Ritvo (1990); Sulloway (1992a); Makari (1997).

290 - Bell (1902), cited by Freud himself (Freud 1910a, 42). Five years earlier, Freud had cited another passage from the same article to illustrate the absence of knowledge of infantile sexuality in scientific literature (Freud 1905a, 173, n. 2).

291 - Sand (1992); on the embeddedness of Freud's work on dream in the history of the study of dreams, see the remarkable neglected study of Raymond de Saussure (1926), and Ellenberger (1970), 303-11; Kern (1975); and Shamdasani (2003a), section 2.

292 - Freud (1925a), 43. See also Freud (1916-17, 84): 'But to concern oneself with dreams is not merely unpractical and uncalled-for, it is positively disgraceful. It brings with it the odium of being unscientific and rouses the suspicion of a personal inclination to mysticism.'

293 - See also the note Freud added in 1911 to The Interpretation of Dreams: 'However much Scherner's view of dream-symbolism may differ from the one developed in these pages, I must insist that he is to be regarded as the true discoverer of symbolism in dreams' (1900, 359).

294 - Scherner (1861), 192; cited in Massey (1990), 571.

295 - One may compare this with the famous passage in Freud's Introductory Lectures: 'The ego is not master in its own house' (1917a, 143).

296 - Hildebrandt (1881), 55; noted by Kern (1975), 85.

297 - See McGrath (1967). Freud cited Schopenhauer's 'Essay on visions' three times in The Interpretation of Dreams (Freud 1900, 36, 66, 90). On the significance of the German philosophy of the unconscious in the nineteenth century, see Ellenberger (1970a), 208-10, 275-8, 542-3; Shamdasani (2003a), section 3; Liebscher and Nicholls (2010); on Freud's philosophical Schopenhauerianism, see Henry (1993), chs. 5 and 6.

298 - Already in 1930 H. L. Hollingworth noted : 'The modern psychoanalytic movement, and what is often referred to as the Freudian psychology, consists chiefly in an elaboration and application of Herbart's doctrines, and their amplification with a wealth of clinical detail' (HoHingworth, 1930, 48). See also Jones (1953), 281, 371-6; Andersson (1962); Hemecker (1987).

299 - McGrath (1967) .

300 - Nietzsche (1895-1904).

301 - Freud (1985), 398.

302 - Jones (1957), 100.

303 - Merton (1976).

304 - Freund(1895).

305 - Freud (1893).

306 - Freud (1985), 152. On the question of intellectual priority, Ernst Kris noted in his edition of Freud (1954) that the article of C.S. Freund reproduced in part an article by Heinrich Sachs published in 1893 (Sachs 1893), at a time when Freud had not made public his ideas on the principle of psychic constancy. Freud, characteristically, never cites Sachs in the texts in which he refers to this principle.

307 - Freud (1985), 252.

308 - Nunberg and Federn (1967), 48; cited and commented on in Sulloway (1992a), 469-72.

309 - Actually, Névroses et idées fixes [Neuroses and Fixed Ideas] (Janet 1898).

310 - Freud (1985), 302.

311 - Ibid., 325.

312 - Ibid., 463.

313 - In the section of the first edition of the Three Essays devoted to bisexuality, Freud cited Gley (1884), Kiernan (1888), Lydston (1889), Chevalier (1893), Krafft-Ebing (1895), Hirschfeld (1899), Arduin (19oo) and Herman (1903). Only in the second edition of 1910 did Freud add Fliess' name: 'Fliess (1906) subsequently claimed the idea of bisexuality (in the sense of duality of sex) as his own.' However, it goes without saying that Freud was aware that the idea of bisexuality figured prominently in Fliess (1897). In 1924 he went further: 'In lay circles the hypothesis of human bisexuality is regarded as being due to O. Weininger, the philosopher, who died at an early age, and who made the idea the basis of a somewhat unbalanced book [1903]. The particulars which I have enumerated above will be sufficient to show how little justification there is for the daim' (Freud 1905a, 143, n. 1). The Weininger-Swoboda episode is discussed by Sulloway (1992a), 223-32.

314 - Freud (1985), 466-7.

315 - Swales (1995).

316 - Freud (1920b).

الفصل الثاني

تفسير الأحلام

نص للمحللين النفسانيين

من إنجيل متى : الإصحاح السابع آية 7 [وأنا أقول لكم، اسألو تعطوا، آطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم] وكذلك إنجيل لوقا، الإصحاح، الحادي عشر، آية 9.

إن تاريخ التحليل النفسي الذي حكاه فرويد وأتباعه على وجه الإطلاق وفي الحقيقة تاريخ كما يفهم بوجه عام، وكان على الأصح، يوجد على شكل بناء قصة، «أسرة رومانسية» علمية، وضعت لنفي الأصول التاريخية المتواضعة للتحليل النفسي؛ وإلا كيف يمكن أن يفهم الإنسان لماذا اخترع فرويد مثل هذا التفسير الأسطوري، الذي يمكن أن يدخص بسهولة في الواقع ؟ وفوق كل هذا، من الواضح أن فرويد كان واعيا بأن كثيرا من معارضيه لا يأخذون جدية ادعائه الأصالة، وهذا ما كان قد أكد عليه بالضبط انتقاد كل من هوش وأشافنبورغ وفوريل وغيرهم.

هوش : كيف تكون حركة التحليل النفسي ممكنة؟ ومن دون شك، فإن الافتراض السالب هو غياب المعنى التاريخي، والتدريب الفلسفي من جانب الأتباع القادرين على أن يصبحوا متعصبين للنظرية.[1]

أشافنبورغ : وحينما بالغ فرويد في تقدير نفسه فوق قدرها وفوق دلالة نظريته، وقدم بألفاظ جادة علماء التحليل النفسي من خلال ما تعلم، حتى في ما يخص المعرفة الأولية، كما لو كان غير قادر على ذلك، فإنه ينبغي أن ننظر إليه حينئذ على أنه أفسد بإعجابه الأعمى أتباعه.[2]

فوريل : إنه لا يجوز أن ننكر الخدمات العظيمة لفرويد، وبالأخص مدرسته إلا أنه يجب أن أقدم اعتراضين عليه : أولهما أنه يجهل أعمال سابقيه في طريقتهم المنهجية؛ وثانيهما أنه يقدم سائر أنواع الأشياء المقدرة أو المفترضة، على أنها حقائق، وحسب كتاب[3] هيشمان : «نظرية الأعصبة» عند فرويد، قد يصدق البعض بأنه كان اكتشف اللاشعور! ونحن نحتاج فقط أن نحيل إلى الكتب الكثيرة في السيكولوجيا المعاصرة، كما نحيل إلى المفهوم الذي حدده ديسوار تحديدا دقيقا «لما تحت الشعور»؛ حتى نتبين كم كانت هذه الوجهة من النظر غير صحيحة، ويمكن أن يغير فرويد ميدان السيكولوجيا بكاملها ويحدث فيها ثورة هي والسيكولوجيا المرضية، وكما ذكرت فإنه يجهل سابقيه، والذين لا يتفق معهم، يضرب عنهم صفحا.[4]

فوجت، المؤتمر الدولي لعلم النفس الطبي، والطب النفسي 8-7 غشت 1910 : وأعترف أن رجلا مثلي كان قد جمع أحلامه الخاصة منذ أن بلغ ست عشرة سنة، وبحث المشاكل المطروحة هنا للنقاش منذ 1894، أعني أكثر مما فعل فرويد هو وأتباعه، أقول إن هذا الرجل يرفض الحق في مناقشة هذه المشاكل من جانب أصحاب فرويد.[5]

مورتين برانس : لكن عند متابعة هذه الأبحاث في التحليل النفسي يوجد عدم اعتبار كبير لعديد من الوقائع والمعلومات المتعلقة بالسيكولوجية المرضية مما كان راكمته أبحاث المرضى الذين لاحظهم الآخرون، وكما حصر علماء مختصون في البكتيريا الجرثومية دراستهم على بحث عصبة مفردة (باسيلبة) وأهملوا مخازن كبيرة من معرفة اكتسبت في سائر المجالات البكترولوجية.[6]

فيكتورهابرمان : والآن، لماذا يمكن أن يكون هؤلاء الرجال؟ من نحو كرايبلين وزرهن وهوش وايسرلين وأشا فنبورغ، وهم رجال تدربوا في السيكولوجيا، وتمرسوا في الطب العقلي، ودرسوا في الجمعية السيكولوجية وفي علم النفس المرضي، (ولا نكتفي أن نقول شيئا من عملهم في علم الأعصاب) حتى أصبحوا مألوفين لكل طالب في هذه الميادين، كما أصبحت بعض دراساتهم كلاسيكية، وأساسا لكل عمل تال في ما بعد، وأقول لماذا أصبحوا غير أكفاء وغير قادرين على الحكم، ولماذا لم تعد لهم براعة نظرية، وهي براعة حقيقية كانت معروفة عنهم في

السيكولوجيا وعلم الأمراض النفسية؟ ولربما كان ذلك كذلك لأنهم لم يصبحوا قادرين على أن يفهموا ويتصوروا ماذا أصاب هؤلاء الأعضاء المشهورين في جمعية التحليل النفسي الدولية- وبعضهم يكتب من خارج الجمعية في موضوع يروق له أن يكتب فيه، وقد انفصم عن الجمعية- هؤلاء المسيرون المدهشون، ممن قالوا بسيكولوجيا الأعماق مع خبرتهم الواسعة (من أين أخذوها؟) ومعرفتهم المتعمقة في التحليل النفسي (ومن أين اكتسبوا ذلك-أليس كل هذا من قراءتهم لإنتاج الآداب الفرويدية؟).[7]

وهلجيموت : قد ظهر جهل كامل في كل مكان (بفرويد)، بآداب ونتائج السيكولوجيا المعاصرة، أعني بالمنهاج التجريبي والمنطقي.[8]

وفضلا عن ذلك، فإن كثيرا من المتنازعين حول تفسيرات فرويد لا يزالون أحياء (وبخاصة بلولر وبيرثا بابنهايم) وإذا، هنا يكمن الخطر في أن يعارضوه على ملإ من الناس، وعلى هذا، كيف نفهم هذا الموضوع للتاريخ وكتابته؟

وحتى نذكر بمرض العظمة عند فرويد أو رغبته في الكبرياء والتجبر (وقد أفصح بهذا في تفسير الأحلام) أو جنون الهذاء (البارانويا)، وبخاصة (أسطورة العداء غير العقلاني من جانب زملائه، وتوسله بمقاومات التحليل النفسي والمرض الباثولوجي لخصومه) وإذا، يجب أن نقول إن هذا لا يكفي، كما أنه يفتقر إلى استعمال التأويلات المختزلة الباثولوجية والسيكولوجية نفسها وهو عينه الاستعمال الذي طبقه فرويد على الآخرين، وأن ما يهمله هذا اللون من التفسيرات هو أن تاريخ فرويد كان متجها، في بداية أمره، إلى جمهور مخصوص فكتابه (تاريخ حركة التحليل النفسي) كان في الأساس بشيرا ونذيرا للمنقلبين عليه ولم يكن يهتم اطلاقا باعتراضات على أقرانه، والمؤتمرون الذين تحدثوا في برسلو كانوا قد أشاروا إلى أن التحليل النفسي لا يمكنه أن يذهب بعيدا في المناقشات الأكاديمية المفتوحة، وبخاصة في الدوائر المهتمة بالمرض العقلي. ومن خلال تكوين جمعية التحليل النفسي الدولية، الموجهة من وراء ستار يتحكم فيه أنصار اللجنة السرية، كان فرويد يحاول أن يروج، على نحو مثالي لأفكاره وبجمعياتها الخاصة من صحف ودور نشر أرادت الحركة أن تنشر نظرة ناقصة عن آراء المهن الطبية والسيكولوجية والطب العقلي، ومن الآن فصاعدا، فإن

كل من سولت له نفسه أن يسأل فرويد عن رواية الأحداث، كان مصيره الطرد من الحركة، وإذا كان قد ضمن حماية نفسه من الناس بواسطة أتباعه فقد أمكنه أن يستحدث واقعا خاصا به وبتاريخه، من غير أن يخشى أي اعتراض عليه. ومن هذه الوجهة من النظر، فإن حكاية عزلته عن العالم واضطهاده، هي أخف عبارة لجنون العظمة أو المس الأسطوري (مبالغة في الكذب) عند فرويد من خزي الانعزال المؤسسي للتحليل النفسي، وخلافا لذلك، فقد تساعد الحكاية على استمرار هوية الحركة، بصورة استقلالها الأسطوري، وتفوقها على سائر النظريات السيكولوجية والطب العقلي. وحتى نرى الحكايات على أنها مجرد وسيلة لإرضاء طموح فرويد ونارجيسيته، أو مجرد تعلة للرفع من قيمة التحليل النفسي في منافسة السوق التجارية السيكولوجية، كان يجب ألا تخطئ فهم الترابط الداخلي بين الحكاية والتحليل النفسي نفسه.

الاستقراء الخالي من الدنس

إنه من الخطورة بمكان، أن ندرك دلالة ما أدت إليه إعادة كتابة التاريخ، وإفراغ التاريخ من محتواه؛ إذ ليست حكاية أو أسطورة فرويد مجرد وسيلة فصل الدعاية أو الارتقاء الذاتي المضاف إلى النظرية وهو جزء كامل منها؛ إذ بدون الأسطورة، قد يجوز ألا يكون إدعاء التحليل النفسي، احتلاله المرتبة العلمية، قد بلغ المصداقية التي يطمح إليها وكنا رأينا كيف أن أسطورة التحليل، أعني تحليل فرويد لذاته استخدمت لحماية التحليل النفسي من صراع التأويلات التي تهدده من الداخل، وكذلك وبالمثل، فإن حكاية (الحبل غير المدنس) للتحليل النفسي قد لعبت دورا في التحصين الإبستمولوجي المعرفي ضد الانتقادات الداخلية منها والخارجية، وإذا كان فرويد قد خصص كثيرا من الصفحات لإثبات أصالته وعذرية نظريته غير المفترضة، فلم يكن ذلك إلا لأنه كانت تقض مضجعه مشاكل الأولوية والملكية الفكرية، وقد تفوق في هذا لأنه كان يأمل أن يدافع عن نفسه من الادعاء القائل بأنه قد فرض آراء مسبقة على المادة الطبية، أكثر من كونه ترك نفسه ينقاد إليها، وأسطورة (الحبل غير الدنس) للتحليل النفسي مكنه من أن يزعم أنه متحرر من كل تأثير، وأن ملاحظاته كانت غير منحازة، بل هي متحررة من أي أفكار مسبقة، يمكنها أن تلوث المادة، وكما لاحظنا، فإن هذا هو الانتقاد الذي كان

يوجهه إليه نقاده. فهم يدعون عليه بأن التحليل النفسي نظام قبلي، تطبقا كاملا، وحتى نستعمل لغة يشترك فيها فرويد مع مقتضيه والحاطين من قدره، فقد كان يرمي بالتخمينات، والتفكير المجرد بدون أساس تجريبي.

بروير : إذا كانت نظريات فرويد في بادئ أمرها تعطي الانطباع بكونها مبرهنات سيكولوجية رائعة، مرتبطة بالحقائق مع أنها مكونة أساسا على نحو قبلي، كان للإنسان أن يلح على واقعيتها، وعلى التأويلات التي نمت وترعرعت خارج الملاحظات.[9]

من فرويد إلى فليس 7 غشت 1901 : إنك تقف ضدي، وتقول لي بأن قارئ الأفكار لا يقرأ الأفكار الخاصة، من خلال أناس آخرين، مما يجعل مجهوداتي خالية من كل قيمة.[10]

البرت مول : إن الأثر الحادث في ذهني هو أن نظرية فرويد تكفي لأن تفسر الروايات الطبية، لا أن الروايات الطبية تكفي لأن تبرهن على الحقيقة النظرية ولقد أجهد فرويد نفسه لإثبات نظريته بمعونة التحليل النفسي.[11]

من وليام جيمس إلى فلورنوي 28 سبتمبر 1909 : لم ينجح فرويد هو وتلامذته في أن يلقوا الأضواء على الطبيعة الإنسانية؛ إلا أني أعترف أنه أحدث في، شخصيا، انطباعا بكونه رجلا تستبد به أفكار ثابتة، وإني لا أستطيع أن أستفيد شيئا من نظرياته عن الأحلام، ومن الواضح أن رمزيته منهاج شديد الخطورة.[12]

ألفريد بني وثيودور يسمون : وهنا يكمن منهاجه في التحليل النفسي: إنه لا شيء أكثر من كونه اعترافا استفزازيا بمزايا وأخطار معروفة عنه، إذا لم يقبل الكتاب هذا المنهاج كقاعدة مذهبية تجعلهم مسئولين على التحليل النفسي، والأحوال القديمة أو المنسية يمكن أن تسترد منهم بشكل رسمي وهذه هي فرضية فرويد الأساس، وهي فرضية مهمة وجريئة، وقد تكون من وجهة نظر أدبية مضحكة أما بالنسبة إلينا، فنحن نعتبرها خطيرة، وعديمة الفائدة وأقول خطيرة على معنى أنها لم تثبت ببرهان، وإن الإنسان يغامر أن يخدع باسترجاع رسمي.[13]

أرثر ونفلد : يستعمل فرويد الأمور كوسائل للبرهنة افترضت صحتها هي وما تبرهن عليه، إلا أن نتائج منهاج التحليل النفسي ليست صحيحة، إلا حسب افتراض الصحة، وتصديق نظرية فرويد ونفاذه.[14]

جاني : إن ما يميز منهاج التحليل النفسي هو الرمزية، وعندما يكون مفيدا للنظرية، فقد يمكن أن يعتبر الحدث الذهني دائما كرمز لآخر؛ فتحويل الوقائع بفضل طرق التكثيف والابدال والنقل، والإعداد الثاني، والتمثيل المسرحي، يمكن أن يكون تحويلا ضخما، وينتج في موقف يمكن أن يدل الحدث فيه على ما نريد منه... وهو نتيجة لثقة الكتاب في المبدإ العام غير القابل للنقاش المفروض في البداية، ولا تسأل البرهنة عنه بالوقائع بل بتطبيقه عليه.[15]

هيرمان : ولكي ألخص ما قلت، فنحن نمتلك، إذا، من فرويد اللاشعور وما تحت الشعور الميتاسيكولوجي أو الأسطوري السيكولوجي، وهو مفهوم مهم إلا أنه افتراض غامض، لم يأخذ به أحد من علماء النفس؛ إذا كان قائما على أسس غير ثابتة بالبرهان- وبعيدا عن طريق العلم والواقعي.[16]

فوريل : إن ما آخذه على مدرسة فرويد هو تعميمها المتهور والحاسم، ونزعتها المذهبية في بعض ملاحظاتها التي تكون صائبة في ذاتها، ومرتبطة بإسقاط تأويلي لتخيلاتها على الآخرين، ومن جهة أخرى، فقد يجد فيها الإنسان ميلا بدون استثناء لتحويل انتاج الخيال الخصيب إلى افتراضات خطيرة، وإلى جعل هذه التخيلات دوجماطيقية، وإلى إرادتها في أن تستندها تفسيرات تلمودية؛ من خلال تركيبات لسائر أنواع التمحلات (وأحيانا تصل إلى حد الاسفاف غير المعقول)؛ حتى إن الإنسان يجد نفسه منقادا من مجال العلم إلى مجال التعصب اللاهوتي.[17]

كرايبلين : إننا نصادف هنا سمات مميزة أساسية للنزعة الفرويدية في البحث، وفي تمثل الافتراضات الاعتباطية والتخمينات المنحازة، وكأنها وقائع ثابتة تستعمل بدون تردد، لغاية بناء قصور جديدة في الهواء، بل صروح شامخة مع ميل إلى تعميم مجاوز للملاحظات المنفردة.[18]

أدولف ماير : إن موقفي من النزعة الفرويدية هو أنني أرى فيها نوعا من العبادة- نوعا من الهوس لصياغة بعض الحقائق المعبرة وقع رفضها إجماعا، وإن

كانت لا تبالي بقبول الحس النقدي العام، الذي يطلب إليها أن تقوم به في أحسن تفصيلها لخطتها الوحيدة.[19]

ووهلجيموث : لا يوجد في أي موضع من كتابات فرويد كلها نتفة من حجة، إلا ما كان من تقريرات وأقاويل، تحاول أن تبرهن على شيء سلف، ولكنه لم يعلم بأنه لا يعطي شيئا، كما نجد إحالات غريبة إلى نتائج لم تنشر، وليس هناك طريق إلى الوصول إليها من جهة التحليل النفسي.[20]

هولينجوورث : وبعبارة أخرى، فإن علم النفس المقارن «كما أرى أن أعبر عنه بهذا التعبير» يدور كله حول التفسير، وفي نظرية التحليل لا في مادة أخرى مخصوصة؛ وهذا شيء مناقض لسائر الافتراضات، وقابل للتفسير بدونها.[21]

جوزيف جالسترو : لقد حان الوقت لكي نوضح بأن مبادئ التحليل النفسي ليس لها مثل هذا النمط من الحقائق الواقعية، بل هي تخمينات وخطاطات وتركيبات من خيال فرويد الخصيب وفي متابعة دروس فرويد وهو يعرض مفاهيم من نحو العقد والليبيدو واللاشعور والتحويل والنكوص والتوحيد، والنقل والإعلاء وتعداد مسلمات شبيهة بهذه ينبغي أن نأخذ في الحسبان، على نحو ثابت بأن هذه، المفاهيم ليست اكتشافات؛ على معنى أن فرويد عالجها بسائر خصائصها التي يصفها على المستوى الواقعي للنفس، وعلى أرض غابوية لم يدخلها فرويد في سفره الكولومبي - إنها مفاهيم نقلت على نحو ما ينقل ملاحظ خبير نفس الأرض، في قارة ذهنية لم تكشف لأحد أن هذه الكشوفات هي مجرد افتراضات ليس غير.[22]

وهذه الانتقادات للتجريد الاعتباطي لمنهجية التحليل النفسي، تصحب على نحو منتظم بالتحذيرات ضد مظاهرها الإيحائية؛ بالمعنى الذي لاحظه كل من برنهايم ومدرسة نانسي، ولم يكن فرويد، حسب أقرانه، يكتفي بأن يرى نظرياته راسخة في أذهان مرضاه فحسب، بل أيضا، كان يشير من غير إرادته إلى الإجابات التي يحتاجها دعمه لها. ومن ثم، وخلافا لذلك، وبالرغم من زعمه فإن ملاحظاته لا توجد لها صحة موضوعية، وشهادة مرضاه لا يمكن اعتمادها سندا لنظرياته، وفضلا عن ذلك، فمن خلال شهادة حيادة لفعالية تطبيب علاجي نجد

أن منهاج التحليل النفسي، غالبا ما يحول مثل هؤلاء المرضى إلى اتباع ومن ثم، إلى معارضين نشطين في جانب واحد من النزاع والخصومات.

جون مايكل كلارك (في ما يخص دراسات عن الهستريا) : ومن الضروري أن نعتبر، عند دراسة المرضى الهستريين، سرعة الاستعداد الذي به يستجيبون للإيحاءات، وهذه الضرورة يمكن أن تتكرر كنقطة ضعف في منهاج البحث؛ وهو ضعف موجود هنا على وجه الاحتمال. والخطر في كون أن مثل هذه الاعترافات للمرضى يمكن أن تكون لازمة عن وضع عبارات متفقة، مع إشارة بسيطة تقدم لهم، هو خطر جاء من إيحاء لا شعوري أو ممهم به الباحث.[23]

روبرت كوب : إن كل من استطاع أن يقدم أسئلة في صورة ملتوية، سواء أكانت عن وعي أم بدونه، يمكنه أن يحصل من المرضى على أي إجابة تلائم نظامه ولربما كان هذا هو السبب في أن المحللين التابعين لفرويد، تتوفر لديهم مادة أعيت الباحثين الآخرين أن يصلوا إليها، وذهب مجهودهم سدى بغير فائدة.[24]

فوريل : وأزعم أن فرويد بالغ مبالغة كبيرة في علة الاضطرابات العصابية (والذكروية الصدمية).

وفوق ذلك، بالغ في تعميمها على حالات لا يتذكر المريض شيئا عنها؛ إذ غالبا ما يقع الإيحاء إلى مرضى فرويد بأشياء كثيرة قد تكون ضارة أكثر منها نافعة في ميدان الجنس قبل كل شيء.[25]

جيمس جاكسون بوتنام : وعندما يكون الطبيب مقتنعا باعتقاده في الأصول الجنسية لمريضه، فقد يتحتم عليه، بموجب وثاقة هذه العلاقات، أن يكون في وضع لفرض وجهة نظره وآرائه بدون شعور منه على مرضاه، وأن يستخرج منهم بسهولة طاعة وتصديقا لا يصح أن يكون في الواقع تلقائيا لما يظهر منه.[26]

أرثر موثمان : وتلعب عملية التأثيرات الإيجائية المحررة للكبت التي يقوم بها الطب، دورا بالغ الأهمية، والإيحاء القوي الذي يعمل ذاتيا هو إذا، التفسير الذي يحترم أساس المنهاج؛ إذ يخبر المريض بأن مرضه ناتج عن تجربة منسية. وإذا تمكنت هذه التجربة من أن تكتشف فإن علتها يمكن حينئذ أن تعالج. والمريض

مع سريان عمليته الخاصة، قد يستولي بسرعة على ترابط انبعاث ذكرياته بمرضه ويتصل بهذه الفكرة من الإيحاء بأن الأعراض يمكنها أن تختفي.[27]

هوش : والتأكيد على أن أتباع النظرية يعطون لاكتشافات العقد التي تصبح لا شعورية هو تأكيد لا يفاجئ أحدا، واعتقاد الطبيب والمريض (وبالأحرى المرأة المريضة) يقع تحت الأثر الإيحائي على نحو متعادل من دائرة الأفكار المتصايفة وبالتأكيد، فإن المرضى يعرفون معرفة كاملة ما ينتظر منهم.

وفوق كل ذلك، يمكن أن يرى الإنسان بأن الأثر العلاجي المحتمل يجد تفسيرا له من غير أن يعترف بمبادئ نظرية فرويد، وهذه تقنية إيجابية قديمة في ثوب شبه علمي جديد.[28]

مول : وعلاوة على ذلك، فإني معتقد بأن الشفاء الذي ينجزه فرويد، [كما أن استمرار ما يقدمه من وجهة نظر عدم كفاية المواد المنشورة هو استمرار لرأي غير قاطع]، قد يفسر بطريقة أخرى، ونسبة كبيرة من النتائج الجيدة هي على وجه التأكيد قد تفسر كذلك على أنها نتائج للإيحاء، وثقة المرضى في الطبيب وكون أن العلاج يتطلب وقتا طويلا، وصبرا كثيرا هما عاملان قويان في تأثير الإيحاء وأنه من الضروري، ولو على وجه مؤقت، أن ننظر إلى الشفاء على أنه أمر ممكن حتى نقبل أن يفسر الإيحاء هذا كله.[29]

برنارد هارت : إن كل التصورات المسبقة للمحلل، واللحظات الخاصة التي يراها تناسب التدخل في حكاية المريض، وكذلك فإن التأكيد الذي يوجه به البعض مظاهر الحكاية، والنقطة التي عندها بحكم على طلاقة المستدعيات الموصلة إلى العنصر الدال، أقول كل هذا من شأنه أن يحدث تغييرات حاسمة في ذهنية المريض وأدائه.[30]

وقد يرى الإنسان بأنه في كثير من الانتقادات الموجهة لفرويد، قد يكون أقواها انتقاد اعتباطية افتراضاته النظرية، واستنكار الخاصية الإيحائية التقنية وليس هذا أمرا عارضا، ففي سنة 1890، كان الأطباء النفسيون والسيكولوجيون واعين بنهاية نظرية شاركو؛ من خلال انتقاد مدرسة نانسي. ومن خلال السهولة التي تؤخذ بها النظريات، ليتم الإيحاء بها إلى المرضى، وعلى أنها واقعية وعلى تجريبتها السيكولوجية على الموضوعات، وبسبب (أو بالرغم) من نزعتها

الوضعية لم تحظ إثباتاتها الكلينيكية بثقة كبيرة؛ مما دعا فرويد أن يدعمها بنظرياته، وفي سنة 1920 ذكر الشاب كارل بوبر بهذا؛ حين كان يعد نقده المشهور المعروف بعدم تكذيب طبيعة نظرية التحليل النفسي.

كارل بوبر : إن الملاحظات الكلينيكية، التي يعتقد فيها المحللون النفسانيون بسذاجة، تثبت بأن نظرياتها لا تصلح إطلاقا، كما لا تصح التأكيدات التي يجدها المنجمون في ممارستهم، وإذا، ما هو نوع الإجابات العلاجية التي تدحض قناعه المحلل لا بمجرد تشخيصه الخاص بل بالتحليل النفسي عينه؟ وفضلا عن ذلك، فما هو التقدم الذي حصل في بحث مسألة المدى الذي تضبطه توقعات ونظريات (الشعور واللاشعور) من تأثير المحلل على الاستجابات الكلينيكية للمريض؟ إنها لا تقول شيئا عن المحاولات الواعية بالتأثير في المريض باقتراح تأويلات عليه، ومنذ سنوات مضت كنت قد أدرجت حد «الأثر الأوديبي» لأصف تأثير النظرية أو التنبؤ بالحدث الذي يتنبأ به أو يصفه، وينبغي أن نتذكر بأن سلسلة العلل المؤدية إلى قتل : «أوديب» كانت قد ابتدأت بنبوءة وقوع هذا الحادث وكانت هذه خاصية متكررة لموضوع هذه الأسطورة، ولكن يشبه أنها فشلت في جذب اهتمام المحلل، ولربما كان هذا صدفة.[31]

وفي السيكولوجيا والطب النفسي، فإن الافتراضات الاستكشافية (والتأويلات المجردة) حصل لها أن وجدت وضعا إشكاليا في هذا الميدان أكثر من غيره بسبب دور تأثير الإنسان، أعني ما يطلق عليه ويليام كاربنتر «الانتباه المتوقع» أو ما يسميه برنهايم : «الإيحاء» وفي الفيزياء والكيمياء وبيولوجيا الجزيئات توجد إمكانية يجوز أن يصحح فيها التخمين الخاص من خلال التجريب أو الحساب، حتى وإن كانت هذه حالة بالضرورة، وعلى نحو آلي بعيدة[32]، وفي هذه العلوم، كما فسر أندرو بيكرينج[33]، وعلى نحو مقنع «فإن العامل المادي» يقاوم الافتراضات التي توضع حوله، وهذا يرغم الباحث على أن يصححها تبعا لذلك (ويسمي بيكرينج هذا [جدلية الملاءمة والمقاومة] وليس هذا حاصلا في علم النفس الاجتماعي وعلم النفس المرضي حيث إن الافتراضات الاستكشافية تختبر على «أفعال إنسانية»، تهتم لا محالة بنظريات تكون هي موضوعا لها. وفي مثل هذه الأحوال، لم يعد الإنسان يعتد بمقاومة موضوع التجريب؛ إذ يميل

الفعل الإنساني لأن يكيف ذاته بالسياق التجريبي أو العلاجي، وبالضبط، فإن هذا الأثر المعقد هو الذي كان برنهايم ودلبوف قد اعترفا به في تجارب التنويم، تحت اسم الإيحاء، وكان الأفراد المصابون يتكيفون مع المجربين؛ مما يعكس إيحاءاتهم الصريحة منها والضمنية، كما يعكس توقعاتهم النظرية، وفي غضون ذلك يتأثر على ذلك النحو المجربون بالأفراد الذين يترددون عليهم، وكلاهما يسقط في فخ الإيحاءات المتبادلة التي لا يمكن أن تكون لأحدهما فيها أفضلية أو رمزية ما.

جوزيف ديلبوف : وأخيرا قد قدمت تفسيرا للظواهر التي عرضت في مستشفى سالبترير، وهي ظواهر نتجت عن التمرين والإيحاء، ويمكن للطبيب الجراح أن ينظر إلى الخواص التي يقدمها أول مريض له، وكأنه يمثل أساسا سائر الأفراد، أكثر من أن ينظر إليهم كحالة عارضة، وإذ كان مستعملا بدون شعور منه الإيحاء، فهو يحوله إلى علامات عادية، ومما ثم يرتبط بدون معرفة بما يحصله منهم مع أفراد آخرين كانوا أنتجوا العلامات نفسها عن طريق المحاكاة، وهكذا يسقط الطبيب أو المعلم هو وتلاميذته في التأثير المتبادل، ولا ينفك كل منهما يمد الأخطاء المتبادلة ويغنيها.[34]

هيبوليت برنهايم : وحينما يرى أحدنا كيف تكون حالة المرضى الهستيرين من قابلة للإيحاء حتى أثناء نوبات التعافي، وكيف أنهم يحققون بسهولة الظواهر التي تتوقع منهم، أو التي رأوا معظمهم ما يحدث للآخرين، أقول: عندما يرى أحدنا ذلك لا يستطيع أن يوقف نفسه عن التفكير في أن المحاكاة التي تثار عن طريق الإيحاء الذاتي تلعب دورا كبيرا في توليد هذه المظاهر... وهكذا، فإني أعتقد بأن الهستيريا الخطيرة التي تقدم في سالبترير كحالة كلاسيكية، تظهر بوضوح المراحل البارزة والمميزة لسلسلة الهستيريا؛ وهي ما يمكن أن يطلق عليها اسم الهستريا المنشأة والمتعهدة.[35]

وفي الحقيقة، فقد تحدث برنهايم ودلبوف عن الظواهر الهستيرية والتنويمية إلا أن ما يلزم عن تحليلاتهم لا يذهب بعيدا وراء الإطار المحدد للتنويم التجريبي وعلاجه، وبخاصة أنهما يردان كل ذلك إلى أثر واحد من بين آثار الإيحاءات الأخرى، وإنتاج حوادث سيكولوجية مصطنعة، تركز الانتباه على علاقة التنويم

والطب العلاجي، هو ما كان بالضبط قد أعاد اكتشافه المختص الشهير في التنويم مارتن أورن، بسبعين سنة في ما بعد، في مركز المختبرات التجريبية السيكولوجية في ما كان يعرف باسم (الخواص المقتضية للتجريب).[36]

وقد بين مارتن أورن، كيف أن التجريب في السيكولوجيا يتأثر لا محالة بردود أفعال الأفراد المجرب عليهم. وبدلا من أن يكون هؤلاء موضوعات سلبية محضة، فهم يكونون واعين تمام الوعي بوجودهم تحت الملاحظة، ويستغربون ماذا عساه يبرهن عليه هذا المحرب، ومن ثم، يجتهدون بقدر إمكانهم ليقع تصديق الافتراضات التي وضعت من جرائهم، وهذه الملاحظة البسيطة، التي امتدت وعمت ما كان يلاحظه برنهايم وديلبوف في ما يخص تنويم المصابين، لم تكن تنفك تنتاب السيكولوجية التجريربية الاجتماعية، وكانت مضاعفة الإجراءات قد عينت إمكانية تخفيف حدة هذه الإشكالية، ولكن بدون نجاح، وفي الحقيقة لم تكن المشكلة هي مجرد ما كان يسمى، «المعادلة[37] الشخصية» للباحث، ولا التحريف الذي لا مفر منه مما تدخله الذاتية (وقد كان مبدأ اللاتعين» الذي يميز العلوم الاجتماعية والإنسانية معروفا حسب جورج ديفيرو.[38] والمخاطرة هنا هي في الأساس تلك الدرجة التي يحدث عندها التجريب السيكولوجي تغييرات حقيقية في السلوك وفي الوعي الذي للأفراد بها، ماداموا قد سلموا بنظريات وفروض، تطبق عليهم لا على الطريقة التي بها يتكيف فأر السلوكين، أو ذبابة الندى عند العلماء المختصين في الوراثة في شروط مختبراتهم[39]، ويجوز أن نقول بأن النظرية تبتكر «موضوعها» لا بالمعنى الكنطي فحسب إذ تنظمه من الوجهة المفاهيمية بل بالمعنى الحرفي الذي يتحول فيه موضوع التجربة ذاته حتى يتكيف مع النظرية، ذلك أن الأثر الأوديبي هو الذي وصفه كارل بوير، فافتراضات عالم النفس، هي التي تستحدث ما تدعي أنها تصفه أو تتنبأ به، محولة الواقع بدل أن تعكسه فقط.

ووهلجيوث : والمحلل النفسي، عندما ينظر «في العقد النفسية» يشبه أن يكون فاعلا مستحدثا؛ هو يوقظ الاضطراب في الموضع الذي لم يكن فيه من قبل، ثم يقول إنه اكتشف شيئا كالحبكة في القصة.[40]

وهذا الإنتاج الدقيق (بل الإنتاج المتعاون عليه) لما يكون مصطنعا من الناحية السيكولوجية، هو ما كان أنداد فرويد يرونه حينما يتحدثون عن الإيحاء الذاتي أكثر من الإيحاءات المباشرة للتوجيه. والأمر كما يزعم فرويد من نحو أن يقول: «والآن يمكن أن تنام» أو أن أعراضك ستزول غدا، ويحتج فرويد بأن التحليل لا يوجد له منهاج توجيهي، وهو ما لا يتعلق بالإيحاء التنويمي في بدايته.

فرويد: إنه ليس فقط من أجل إنقاذ المنهاج من ألم الوضع، صارت طريقة التداعي الحر لها رمزية على سائر المناهج السابقة، بل لأنها تعرض المريض إلى أقل مقدار من القهر؛ وتضمن إلى مدى بعيد، أن يعاينها أي عامل من عوامل البنية العصابية، وإنه لا شيء يمكن أن يطرأ عليها من طريق توقعات المحلل النفسي.[41]

من فرويد إلى يونج 7 أكتوبر 1906: إنه ولأسباب، بل وأيضا من أجل شخصية أشافنبورغ البغيضة، فإني رفضت أن أجيب عن هجومه علينا... إذ هو لا يزال يحمل سلاحه ضد طريقة التنويم الذي ترك منذ عشر سنوات خلت.[42]

إلا أن قرناء فرويد، بفضل استئناسهم بعمل مدرسة نانسي، كانوا يرون بوضوح أن تبدل الإيحاء التنويمي المباشر، بما يسمى التداعي الحر، كان قد حسم على نحو جازم مسألة الإيحاء الذي شاع فهمه على أنه خلق ظواهر اصطناعية.

فوريل: ومنذ إدخال مذهب الإيحاء، أمكن أن يقرأ الإنسان بعد نهاية التقريظ والتمجيد له، عن عدد كبير من ضروب العلاجات الجديدة المتجمع بها وشعار الدواء هو: «بطل العمل بالإيحاء» وفي مثل هذه الحالات بالضبط، يكون العمل الإيحائي الخالص ممكنا.[43]

برانس: غير أني أريد أن أشير إلى أن الطريقة التي استعملها فرويد تلجأ في الحقيقة إلى استعمال مبادئ التنويم بنوع من التجريد؛ مما يسميه المستدعيات الحرة التي يحصلها من المريض، هي طريقة قائمة في جوهرها على موضوع خاص، فإن المستدعيات تتحدد وتتعين على أساس هذا الواقع، ومن ثم، فإنه لا توجد مستدعيات حرة تحت هذه الشروط.[44]

ويمكن للإنسان أن يقوم بعملية الإيحاء بدون اللجوء إلى التنويم ولهذا السبب، فهي ممارسة التحليل الطبي العلاجي أعفى نفسه من إحداث حالة التقويم

المنتشي، واتجه إلى الإيحاء في حال اليقظة. ونتيجة لذلك، لا شيء يضمن كون أن طريقة فرويد في التداعي الحر، لا يمكن أن يكون لها أدنى إيحاء من سائر الطرائق العلاجية النفسية الأخرى، أو أن نظرياته يمكن أن تكون أكثر موضوعية من طريقة أستاذه شاركو.

بنيامين لوجر : ومن مدرسة سالبيترير الذائعة الصيت في كثير من وجوهها، أخذت النزعة الفرويدية، وأغنت ونظمت أوفر حظها؛ أعني ترويض الهستريا.[45]

هارت : إن البحث الطويل في المرض العقلي، يعني أن أحدنا لم يعد يفحص عند نهاية بحثه الموضوع الذي يريد أن يلاحظ،ه بل الموضوع الذي يتغير تدريجيا أثناء البحث، ويتغير على نحو يمكن أن يحدده البحث نفسه تحديدا واسعا، وهذه هي الظروف التي تفسد إطلاقا النتائج المكلفة التي استخلصها شاركو ومدرسة نسالبيترير، والقراءة المتمتعة في آداب الشخصية المزدوجة، تشير بقوة إلى وجود عامل مفسد مماثل ...وليس من السهل أن نتجب نتيجة أن طريقة التحليل تشتمل على مصادر ممكنة لتشويه حالات أخرى أشرنا إليها آنفا.[46]

وودورث : إن علماء النفس التجريبيين (مثل ميسر وكافكا) يلاحظون مرارا وتكرارا أنه من الصعب أن نحصل على تداع حر وحقيقي... والأغرب أن أصحاب فرويد... يفترضون أن المريض يتخذ موقفا سلبيا من عملية التحليل ويقصر عن أن يبحث على أي ميل، أو ضبط يمكن أن يبذله على حركة فكره وإذا طرحنا هذه الأسئلة على أنفسنا، لاحظنا بأن المحلل النفسي يوجه مريضه أن يتخذ موقفا سلبيا وغير مظهر انتقاداته، ويعبر عن كل فكرة خطرت بباله، أيا كان نوعها سخيفة أو مزعجة، ثم إن المريض ينبه مرات ومرات حتى أنه يجب ألا يحفظ أي شيء إذا أراد أن ينجح له العلاج، ومن السهل بأن نرى أن هذه التوجهات تميل إلى أن تثير حالة ذهنية نحو ما هو خاص به ومقلق؛ ومن شأن هذا أن يثير الناحية الجنسية وبالتأكيد فإن الإنسان لا يمكنه أن يسلم لفرويد طوال الوقت بدون أن يعي بأن المواد الجنسية هي ذات اهتمام، ومن ثم، فهي سريعة الإجابة لهذه الحالة النفسية في هذا الاتجاه.[47]

جاسترو : إن ما يطلق عليه التداعي الحر، ليس هو حرا في شيء، ولا مقنعا على نحو كامل، بل هو مبدأ واستعداد لأن ينقاد المريض إلى اتجاه المحلل النفسي وأسئلته وآرائه المعلومة، وعلاقاته الشخصية بالتحليل، وقد تكون فرص الإيحاء كثيرة؛ إذ تقتحم فجأة، مهما احتاط لها الإنسان، وأنا لا أحيل إلى الأشكال الفجة للإيحاء في علاقة الطبيب بالمريض، وهي علاقة قد تكون مخيبة للآمال، حتى بالنسبة إلى محلل ماهر مثل شاركو في اكتشافاته للأحوال التنويمية الثلاثة المتميزة... وأستنتج بأن سبرأغوار كل ذلك قد يكون له أثر الإيحاء، إذا وجدت هناك نظرية متصورة على نحو مسبق، ومعرفة من جانب المرضى لما يتوقع منهم.[48]

وحتى ما يطلق عليه مقاومات المرضى،فإنه لا يبرهن على شيء ما، كما يجوز لأحدنا أن يبعد إمكانية المقاومة كأمر مفروض (عن طريق حب منقول) أو كشكل من سلوك متدرب عليه حتى يطابق نظريات المحلل.

وابتداء من سنة 1880 حتى الآن، كان شائعا الإيحاء إلى المرضى المنومين ممن لا يتذكرون شيئا أو لا يستجيبون للإيحاء،لكن قد أشار ديلبوف بأن فقدان الذاكرة المنومة التي برهن عليها برنهايم كان مجرد سلوك متدرب عليه، وإذا، فعلى أي أساس يمكن أن يثبت الإنسان بأن هذا الموقف مختلف جذريا في التحليل النفسي؟

فرويد : تنشأ في كل علاج تحليلي، بدون واسطة الطبيب، علاقة انفعالية شديدة بين المريض والمحلل النفسي، الذي لا ينبغي أن يعتد به في الموقف الحاضر. ويمكن أن يكون ذا طابع إيجابي أو سلبي، ويتغير بين طرفي شدة الانفعال من حب شهواني خالص وجامح التعبير في عصيان حاقد ومراغم... ويمكن أن نتعرف هنا بسهولة كعامل ديناميكي قد يسميه المنومون «القدرة على الإيحاء» مما يكون فيه فاعل العلاقة التنويمية تعاطفية، ويؤدي السلوك غير المحسوب فيه إلى صعوبة الطريقة التطهيرية كذلك.[49]

وكما احتج أشافنبورغ وهوش فإن المرضى كانوا يعرفون ماذا ينتظر منهم، ومن ثم فلا يستغرب المرء إذا عرض المريض جميع مظاهر المقاومة أو تحويلا سلبيا كما وصف هذا في نظرية التحليل النفسي، أما بالنسبة إلى الفرويد فإن مثل هذه

المظاهر قد تشهد على جود لا شعور موضوعي، غير متستر كما يقاوم إيحاءاته.[50] وافتراضاته النظرية، إلا أن مقاومة هذه النظرية، في وجهة نظر أصدقائه، يمكن لها هي نفسها أن تشير إليه النظرية. ومثل هؤلاء الباحثين المقيمين بتجربتهم وخبرتهم على التنويم، مثل فوريل، ومول وجاني، فإنهم يثبتون أن تناقض فرويد الموجود بين «عمله الطويل والشاق» داخل التحليل وبين سهولة فشل علاجه القائم على الإيحاء والتنويم، هو مجرد مغالطة، ومن[51] المفارقة أن الإصرار على طب التحليل النفسي لا يتم عمله بواسطة الإيحاء هو إصرار قوته وآزرته آثاره الإيجابية.

جروم فرانك : العلاجات المثيرة، إن اعتبرت وحدها كطرائق للإقناع، يمكن أن تقوي على نحو مفارق وغريب حافز المعالج وقدرته حتى يوثر على المريض من خلال ضغطها على حياده وموضوعيته، وكل هذا يحمله على أن يغري المريض حتى يعبر عن المادة التي تثبت نظرياته فيمكن أن ينظر إليه كبيئة مستقلة بها ويغري المريض على أن يقبل صياغات المعالج لأنه يعتقد كونها خاصة به.[52]

فرويد : وقد يصح أن التحليل النفسي، مثله مثل سائر الطرائق الطبية النفسية الأخرى، يستعمل الإيحاء (أو التحويل)، إلا أن الفارق يكمن في أن التحليل لا يسمح بأن يلعب الجزء الحاسم دورا في تحديد نتائج العلاج، وإنما هو يستعمل بدلا من إغواء المريض؛ حتى يقوم بأداء قطعة بسيطة من عمله النفسي- وهو الظهور أو التغلب على مقاومات تحويله، مما يتضمن تغييرا مستمرّا في اقتصاده الذهني أو توفير عمله الذهني.[53]

فرويد : وفوق كل ذلك يوجد لدي مأخذ آخر على هذه الطريقة (إجراء عملية التنويم عن طريق الإيحاء) وهو أنها تخفي علينا النظرة الثاقبة التي ننظر بها إلى دور القوى العقلية، ومن ثم، فهي لا تسمح لنا مثلا أن نتعرف المقاومة التي بها يصارع ضد استعادة صحته.[54]

فرويد : وفي هذه العلاقات التنويمية تتخذ عملية التذكر صورة بسيطة؛ إذ يعيد المريض وضع نفسه في موقف سابق بحيث يبدو له فيه أنه لا يمكن أن يختلط مع الموقف... والعمل في ظل هذه التقنية لم يبق شيئا قليلا ولا كثيرا من السير الهادئ للأحداث... ويمكن أن ينقلب العمل في الممارسة داخل المقاومة إلى مهمة

شاقة بالنسبة إلى موضوع التحليل واختبار صبر وأناة المحلل. وهذا جزء من العمل الذي يميز العلاج التحليلي عن أي نوع من التأثير الإيحائي.[55]

فرويد : ولكن، يمكنك أن تسألني الآن، أيا ما سميناه، عن القوة المحركة للتحويل التحليلي أو الإيحاء : ألا يوجد هنا خطر في أنه يمكن أن يجعل تأثر مريضنا اليقين الموضوعي لاكتشافنا مشكوكا فيه؟ وحينئذ، فإن ما يكون ميزة لعلاجنا يصبح مضرّا بأبحاثنا، وهذا هو الاعتراض الذي غالبا ما يثار في وجهنا ضد التحليل النفسي، وينبغي أن نقبل بأنه، وإن كان بدون أساس، لا يمكن أن يرفض كما لو كان غير معقول، وإذا وقع تبرير التحليل النفسي، فإنه يجب أن ينظر إليه على أنه ليس شيئا أكثر من شكل خاص الأثر، وإن كان مبغوضا كعلاج مثير ومكشوف، ومن ثم، يتعين أن نعلق عليه بعض الأهمية في كل ما يقال لنا عن كونه يؤثر على حياتنا، وعلى حيوية ودينامية عقلنا أولا شعورنا؛ لأن ذلك هو ما يعتقده خصومنا، وهم يظنون بوجه خاص أننا «نتحدث» إلى العليل المصاب بكل ما يتعلق بأهمية الخبرات الجنسية- أو حتى بهذه الخبرات نفسها- بعد أن نشأت هذه المعاني أو المفاهيم في خيالنا المنحرف، ذلك أن هذه الاتهامات تتعارض بسهولة يردها إلى التجربة أكثر مما تتعارض لو ردت إلى مساعدة النظرية، وكل من كلف نفسه عناء التحليل النفسي، وقام به على وجهه، فسيكون قادرا أن يقنع نفسه في عدد لا يحصى من المناسبات، بأنه يستحيل عليه أن يتقدم بإيحاءات إلى المريض من هذا الطريق...، وقبل كل شيء، فإن صراعات المريض إنما يمكن أن تحل بنجاح، وأن يظهر على مقاومته وينتصر عليها، إذا كانت أفكاره المسبقة التي يعطيها لجزء مما يوجد له منها، حقيقية لديه.

وأيا ما كانت تخمينات الطبيب خاصة، فإنها تزول، ويسقط بها العمل أثناء التحليل، ومن ثم، ينبغي أن تسحب وتعوض بما هو أصدق منها.[56]

وهذا الاستدلال الأخير الذي تقدم أدولف جرنوم، واقترح أن يسميه: «الجزء المتمم للحجة».[57] يقوم في وضع مسلمة تقول : إن الحقيقة السيكولوجية تقاوم النظرية كما تقاومها : «الحقيقة المادية»، وبعبارة أخرى فإن الحقيقة السيكولوجية هي موضوعية، ولا تهتم بأماني السيكولوجيين والمحللين النفسانيين، ولا بتوقعاتهم وافتراضاهم، ولا يمكن أن يعالج المريض علاجا حقيقيا، إلا إذا طابقت

النظرية الحقيقة الواقعية، ومن ثم، يزودنا العلاج بمعيار نحكم به على تفسيرات المحلل وما يبنيه عليها.

ولم يكن فرويد ليقبل على الإطلاق فكرة أن نظرياته تحدث، أو تعدل الظواهر التي يصفها كما يعترض عليه نظراؤه، وفي رأيه أن نظرياته مستقلة تمام الاستقلال عن الواقع الذي يصفه، وإذا تأمل الإنسان فرويد، من وجهة النظر الإبستمولوجية، وجده من أصحاب النزعة الوضعية الكلاسيكية؛ القائلين إن القاعدة الأساس للمعرفة هي الملاحظة- على معنى إدراك الظواهر ووصفها إذ هو كرجل وضعي راسخ في وضعيته مثل أرنست ماخ الذي يبدو أنه[58] كان مرجعه الرئيس في الناحية الابيستمولوجية، إنما كان يميز تمييزا حاسما بين الملاحظة والنظرية. وبوجه عام، فلقد كان الوضعيون حذرين من النظريات التي تجر عليهم خطر أن يخطئوا في فكرة الشيء، وأن ينقلبوا إلى التأمل الميتافيزيقي العقيم، وهكذا حاولوا أن يحددوا أو يحصروا دائرة النظرية وبصريح العبارة أن يضعوا حدا فاصلا بينه وبين الملاحظة ثم كانوا في الجزء الأعظم من عملهم يقولون إن العلم، ليس شأنه فقط التعميم الاستقرائي من الملاحظات، وأن المرء لا يستطيع أن يتجنب وضع الفروض الاستكشافية، لكنهم كانوا يلحون على أن مثل هذه الافتراضات يمكن أن تتصور كما هي : إنها نظريات ليس غير وعلى نحو مفارق وغريب، ولربما مشتمل على بعض المنطق فإن التشديد الذي كان الوضعيون يعتبرونه في الملاحظة، إنما كان في الغالب يقودهم إلى نوع من الاتفاق أو إلى نمط من النظريات الشهوية، وقد يجوز أن يتأمل الإنسان وأن يتخيل ويتلاعب بالأفكار، مادام يكون واضحا لديه أن هذه مجرد أفكار يمكن أن يصححها في ما بعد عن طريق التجربة، وبالنسبة للوضعيين، فإن المفاهيم هي أمور جاهزة وفي المتناول، وكما فسر ماخ؛ فإن الأفكار هي : «تخيلات مؤقتة» يكون من الضروري أن يبتدئ المرء بها في وقت ما لكن لا يمكن أن يتردد في أن يستغني عنها متى أدرك أو حصل على افضل منها، وبالنسبة إلى الفرويد، فإن «المفاهيم الأساس».[59] لما بعد سيكولوجيته، إنما هي فقط[60] «تخيلات»، وكيانات متوهمة، وبنيات فوقية[61] مجردة أو تركيبات علمية[62] وافتراضات مهيأة للعمل[63] ويجوز أن تعوض إذا تعارضت مع الملاحظة.[64]

إرنست ماخ : إنه من طبيعة الافتراضات أن تتغير أثناء البحث، وأن تصبح متكيفة مع التجارب الجديدة أو يسقط بها العمل، وتستبدل بمعرفة أخرى جديدة بسيطة وتامة في ما يخص الوقائع، والأبحاث التي تراعي هذا وتأخذه بعين الاعتبار لا تكون خجولة في وضع أطر للافتراضات. وخلافا لذلك، فإن تدبيرا جريئا قد يكون مفيدا، وفرضية هوجين التموجية لم تكن مناسبة على نحو كامل، وترك تعليلها كثيرا من الأمور التي ينبغي أن تتحقق بالنسبة إلى من أتوا من بعده إلا أنه لو كان قد تخلى عنها لظل كثير من الموضوعات غير مهيأة بالنسبة إلى كل من يونغ Young وفرنسل، اللذين كانا على وجه الاحتمال يحضران أنفسهما في تهييئ أولي، إن فرضية الانبعاث كانت قد اتخذت تدريجيا، وقد تكيفت مع التجارب... وإذا، فإن التجربة عملت باستمرار على تحويل وتكميلها تصوراتنا وجعلتنا متمكنين من التلاؤم مع فرضياتنا.[65]

فرويد : ويمكن أيضا أن نقول : (كما قال جوته في فاوست) : إنه يجب أن نستدعي الساحرة لتعيننا على ذلك- أعني ساحرة السيكولوجيا الماورائية؛ لأنه بدون تأمل سيكولوجي ما ورائي وبدون تنظير- وقد أقول بدون تخييل- فنحن لا نستطيع أن نتقدم خطوة أخرى إلى الأمام، ولسوء الحظ، فإن ما تكشف عنه الساحرة، في هذا الموضع وغيره ليس يكون واضحا ولا مفصلا.[66]

فرويد : ومن المبرر أن نطرح بدون شفقة ولا رحمة، النظريات التي تتعارض مع الخطوات الأولى لتحليل الوقائع الملاحظة، على حين يكون وعينا في الوقت نفسه منبنيا على أن صحة نظريتنا هي مجرد نظرية مؤقتة، وينبغي ألا نشعر بأي انزعاج حين نحكم به على تأملنا في غرائز الحياة، والموت بكون أن كثيرا من العمليات المحيرة والغامضة تحصل هنا- كأن تطارد غريزة أختها، أو تردها من الأنا إلى الموضوع وهكذا، وإنما كان هذا واجبا لكوننا مضطرين لأن نجري عملنا بحدود ومصطلحات علمية، بمعنى استعمال لغة منقولة عن الاستعارة وغريبة عن السيكولوجيا (وعلى معنى أدق إلى سيكولوجيا عميقة) وإلا لم نستطع أن نصف العمليات المطروحة علينا إطلاقا، وفي الحقيقة، كنا لا نستطيع أن نصبح واعين بها.[67]

ماخ : وعن طريق حذف ما يكون استقصاء البحث فيه، خاليا من المعنى وما يمكن أن تكون العلوم الخاصة باحثة فيه، إنما يظهر بوضوح : على أنه متداخل تعقيد العناصر، وبينما يمكن أن تسمى مجموعة من مثل هذه العناصر أشياء أو أجساما فقد تنقلب عن كونها موضوعات منعزلة إن صح التعبير : ومن ثم، لا تعدو أن تكون تخيلات لبحث أولي، نعتبر فيه الصلات والروابط القوية والواضحة، ونهمل تلك الصلات الواهية، وأيضا، فإن تمييز الدرجة نفسه، يحدث تقابل عالم الأنا. وكل أنا منعزل لا يوجد إلا كما يوجد الموضوع المنعزل، وكلاهما تخيلان مؤقتان من النمط نفسه.[68]

فرويد : إن البداية الحقيقية للنشاط العلمي، إنما تقوم بالأولى في وصف الظواهر، وإذا، في أن ينصرف الإنسان إلى جمع هذه الظواهر وتصنيفها والربط بينها، وحتى في مرحلة الوصف، فإنه ليس من الممكن أن نتجنب تطبيق بعض الأفكار المجردة على المواد الموجودة بين أيدينا أو هي أفكار مشتقة من هذا الموضع أو ذاك، ولكن بالتأكيد ليست مأخوذة من الملاحظات الجديدة وحدها، ومثل هذه الأفكار التي ستصبح في ما بعد مفاهيم أساسا للعلم، هي التي لا يكون عنها غنى كمادة نشتغل عليها، وفي بادئ الأمر، قد لا تختص هذه الأفكار بأي درجة من التحديد، ويمكن ألا نضع إزاءها أي تساؤل لبيان حصر محتواها. وما دامت باقية في هذا الوضع ، فقد يتاح لنا أن نفهم دلالتها بالرجوع المتكرر إلى إحالات المادة الملاحظة، التي يبدو أنها اشتقت منها، والتي قد فرضت عليها في الواقع ، وهكذا إن تحدثنا بصريح العبارة، فقد تكون داخلة في طبيعة الاتفاقات المتواضع عليها ومع أن كل شيء يتعلق لا بما قد اختير على نحو اعتباطي، بل يتحدد بما له من علاقات دالة على المادة التجريبية الأمبيريقية، وهي علاقات يشبه أننا نحس بها قبل أن نتعرفها بوضوح ونبرهن عليها.[69]

ماخ : غير أنه بالنسبة إلى العالم، يكاد يكون الأمر ثانويا، سواء تعلق بأفكاره التي تلائم نظاما فلسفيا معينا أو لم يتعلق به؛ مادام يمكنه أن يستعملها استعمالا مفيدا عند انطلاقه في البحث، إذ قد لا يكون العالم محظوظا حتى يملك مبادئ لا تتزعزع باعتبار أنه قد تعود أن ينظر حتى في آرائه القائمة على أساس متين، مثل نظره في المبادئ المؤقتة والمعرضة للتغيير من خلال التجربة.[70]

فرويد : التحليل النفسي، علم تجريبي أمبيريقي : إن التحليل النفسي، ليس هو كالفلسفات، نسقا ينطلق من مفاهيم جديدة معرفة بدقة باحثا أن يدرك العالم في كليته بمعونة تلك المفاهيم؛ وحينما يتم له ذلك، لم يبق له محل لاكتشافات أخرى طرية أولفهم جديد، وخلافا لذلك، يبقى التحليل النفسي قريبا من الوقائع في حقل دراسته، وهو يسعى إلى أن يحل المسائل المباشرة للملاحظة ويلتمس من طريقه بمساعدة التجربة، وهو من ثم، يكون دائما غير تام. ودائما مستعدا لأن يصحح ويعدل نظرياته، وليس في هذا تعارض (كما هو الحال في الفيزياء والكيمياء) إذا كانت مفاهيمه العامة ينقصها الوضوح، وإذا كانت مسلماته مؤقتة، وهو يترك التحديد الدقيق للنتائج التي تحصل في العمل المستقبلي.[71]

فرويد : وأنا أومن بأن هناك فرقا بين نظرية مجردة، وعلم قائم على تفسير اختياري أمبريقي، ولا ينفس هذا الأخير على التجريد امتيازه؛ لكونه يوجد له أساس مصقول من الناحية المنطقية، بل يكتفي بمفاهيم أساسا تبدو عائمة لا يكاد المرء يتخيلها، فيأمل أن يوضحها أثناء نموها، أو أن يستعد لأن يستبدل بأخرى بها، ولما كانت هذه الأفكار ليست توضع أساسا للعلم، ولكل ما يقوم عليه، كانت الملاحظة هي الأساس الوحيد؛ إذ لا توضع الأفكار في قعر الأساس، وإنما في قمة البناء كله، ويمكن أن تستبدل وتنبذ بدون أن تضر في شيء.[72]

إن أطروحة فرويد عن التخييل التنظيريبها الذي غالبا ما ينظر كطباق متضاد مكون من «النزعة الوضعية ومن دليل الشواهد أو الأمثلة الميتافيزيقية والسيكولوجية المابعدية...»، هي في الحقيقة سمة وضعية[73] على نحو خاص وكما لاحظ الفيلسوف رادولف جاشي (1997)، بعيدا عن كل توجيه، لإزاحة القيمة الأساسية المقتصرة على الملاحظة، وعلى حال أو هيأة الواقعة الموضوعية وعلى الخاصية المنطقية للبرهنة النظرية، فإن التخييل التأملي كان فرويد قد تسامح فيه وشجعه؛ لأنه لم يؤثر في أي لحظة من لحظاته الملاحظة المجردة والعارية عن التنظير للظواهر.

وقد استمرت الملاحظة تمد الأساس الأقصى والأخير للعلم، بفضل قدرتها على مقاومة الافتراضات التأملية والخاصة، فالوقائع صلبة وعنيدة، والنظريات

وحدها هي التي تتكيف ببقائها، ويسمي ماخ القائل بالنزعة التطورية، هذه الحالة: «بتكييف الأفكار بالوقائع».

ماخ: إن تكييف الأفكار بالوقائع، كما نراها، على نحو دقيق، هو ما نطلق عليه اسم الملاحظة، ونطلق اسم التكييف المتبادل للأفكار على النظرية.[74]

إلا أن إلقاء مثل هذه النظرة الخاطفة على المستقبل، قد تكون خارجة عن الضبط، في السيكولوجيا وفي علم النفس المرضى؛ حيث تكون الوقائع عبارة عن سلوكات وأفعال ككائنات إنسانية طبيعية، سمحة؛ والمرضى واعون في الوقت الحاضر بما يتوقع منهم، وقادرون على أن يكيفوا أنفسهم بهذه الأفكار وقد لا يستطيع الإنسان إطلاقا أن يعتد بمقاومتهم، حتى يصحح تقلبات التأمل التجريدي لما وراء سيكولوجي لديهم وهذا هو الاعتراض الثابت الذي يأخذه أنداد فرويد عليه: لأن الملاحظة بذاتها في السيكولوجيا لا تبرهن على شيء ولا تمدنا بأي «إشارة عن الواقع»[75]؛ بحيث تسمح لنا أن نميزها عن التخييلات التنظيرية، وليست تكون الملاحظة دائما عبارة (نظرية –منقولة) فقط، مما كان[76] يعمل به فرويد في حدود معينة متبعا في ذلك ماخ، بل لا يمكن للإنسان أن يفصل الملاحظة عن النظرية.

جون ماكوردي: يعرف كل أحد من الناس أن الأفكار والتصورات المسبقة تحدد الملاحظات في جميع الأعمال العلمية تحديدا واسعا. فنحن نرى ماذا نبحث عنه، ولكن نعمى عن أن نتوقع شيئا ما؛ غير أني في التحليل النفسي أرى أن الأمر يزداد خطرا، بسبب ليونة المادة التي تنتج باتفاق، وطبقا لنظرية المحلل.[77]

جاسترو: ينتمي التحليل النفسي إلى تعادل المجموعة النوعية من العلاقات التي تكون فيها الممارسة نظرية مشتقة بكاملها... وهنا يرشدنا المبدأ السيكولوجي الممتاز إلى ما يلي: «يجب أن نخلق الاعتقاد في النظرية، وسوف تخلق الوقائع نفسها».[78]

ومن ثم، فإن الملاحظة هي التي تحقق النظرية، ونتيجة لذلك، لا يستطيع الإنسان أن يفرق بين الإثبات الموضوعي والإثبات الدوري نفسه بين المقاومة والمطابقة، بين الواقعة والتأمل التجريدي: «بين الحقيقة والخيال باستثمار الطاقة الانفعالية».[79]

وهنا لا يوجد شيء يضمن لنا بأن التحليل النفسي ليس نظاما قبليا، وآلة نظرية عازفة عن الزواج تنتج بينتها الخاصة بها- إنها كابوس النزعة الوضعية.

ثم إن فرويد نفسه لم يجب قط عن مثل هذه الاعتراضات، وكان يرجع دائما إلى «الواقع النفسي» و«اليقين الموضوعي» للاشعور على نحو متكرر أكثر من تقديم بينة عما يطلب إليه.

فرويد وانفصاله عن نظرية الإغواء : غير أني حينما اضطررت أخيرا أن أعترف بأن هذه المشاهد للإغواء لم تكن تجد مكانها، وأنها كانت فقط تخيلات يخترعها مرضاي، أو أننا قد فرضناها عليهم، كنت في بعض الأحيان أقع في حيرة تامة... وحينما كنت أعين نفسي، وأعمل وحدي، وجدتني أتمكن من استنباط نتائج صحيحة من اكتشافاتي : أعني أن الأعراض العصابية لم تكن ترتبط مباشرة بالأحداث المسببة الراهنة، بل بالتخيلات المرغوب فيها وذلك مادام العصاب يختص بواقع سيكولوجي، وأنه أكثر أهمية من الواقع المادي، وحتى الآن لا أعتقد أني أفرض على مرضاي خيالات إغوائية وأني أوحي بها إليهم.[80]

ولما كان أدولف جرونيوم في جدال مع بروير، حول موضوع تزييف التحليل النفسي، فإنه يأخذ على بوبر جهله بأن فرويد كان يحاول في الواقع، أن يرد على اعتراض الإيحاء : «باستدلاله المكمل للحجة» مما جعل صاحب منهاج علمي بالغ التعقيد، أسمى بكثير مما يمتدحه به نقاده.[81] ويصعب أن نرى ما يبرر هذا؛ لأن ما يشد الانتباه لغرابته، هو رفض فرويد أن يكون هذا الإشكال موجها إليه كما يفترضه «استدلاله المكمل» لعدم الإيحائية، وكان الأحرى به البرهنة عليها.

وود وورث : إن نجاح العلاج- مما لا أزعم أني أحكم عليه- لا يمكن أن يستعمل كحجة بينة لصالح النظرية، ذلك أن «الحجة العملية» لا تنجح في هذه الحالة إذ لدينا هنا عدد كبير من الحالات العلاجية، بعضها أكثر أو أقل نجاحا في شفاء الحالات العصابية، وكل واحد منها يفهم منه ظاهريا أنه مؤسس على نظرية مختلفة.[82]

هارت : وهذه الحجة قليل وزنها، وفي تاريخ الطب كثير من التراكيب قد بنيت على مغالطات : فيقال في اللغة اللاتينية وبعد ذلك وإذا، بسبب ذلك : Posthoc propter hoc، وبطبيعة الأمر، قد يصح أن النتائج المرضية قد أنجزها

التحليل النفسي، ولكن يصح أيضا بأن النتائج المرضية قام بها كثيرون، وفي الحقيقة قام بها جميعهم، مستعملون مناهج علاجية أخرى، لكثرة المناهج المرتبطة بما يجري خارج أسوار الطب وجدرانه... وإذا، يجب أن نستنتج بأن الحجة اللازمة عن النتائج العلاجية لا يمكنها أن تمدنا بإثبات مستقل لصدق التحليل النفسي وصحته، وهذا ما نطلبه منه.[83]

ووهلجموث : وسأعمل الآن على فحص آدعاء التحليل النفسي فحصا دقيقا في قوله إن العلاجات الكثيرة التي أنجزها محللون نفسانيون تشكل برهانا لا تدحض صحة مذهبه ... وإذا كانت علة التهاب المثانة هي الحصى، فلا يمكن أن يكون مانع العفونة أو الغسل مسببا لإنهاء الالتهاب، لأنه يجب أن نرفع الحصى أولا وإزالة هذا «التعقيد»، لا غيره، هو الذي يمكنه أن يوقف الأعراض العصابية، لكن هذه الأعراض كانت قد عولجت قبل أن يفكر فيها فرويد، ولا تزال تعالج بوسائل أخرى، ومن ثم يلزم أن تكون نظرية خاصة، وهكذا بدا أنه من المعقول أن نفترض أن العامل المشترك هو عامل نشط في مختلف طرق الإجراء العلاجية، سواء أكانت آتية من التحليل النفسي أم غيره، وهذا العامل المشترك هو ما أتمسك به، وهو ضرب من الإيحاء فقط ولا شيء غيره.[84]

الدوس هاكسلي : يدافع المحللون النفسيون عن نظرياتهم بالإشارة إلى نجاحاتهم العلاجية العلمية، ولقد تعافى كثير من الناس عن طريق التحليل النفسي كما يقول هؤلاء المحللون- وإذا، ينبغي أن يكون التحليل النفسي صحيحا كنظرية.. ويمكن أن يكون هذا الاستدلال أكثر إقناعا مما يقال، لو دل على ذلك وأبانه : أولا إن الناس تعافوا وعولجوا عن طريق التحليل النفسي، بعد أن فشلت جميع الطرائق، وثانيا أنهم شفوا على الحقيقة عن هذا المنهاج في التحليل، وليس عن طريق الإيحاء بتطبيق منهاج غير مباشر ضمن طقوس التحليل النفسي.[85]

هولينجورث : لقد فشل فرويد، من بين ما فشل فيه، أن يبين لنا لماذا أيضا نجحت طرائق كثيرة في العلاج أفضل من طريقته الخاصة، وإذا برهنت نظرياته الخاصة على علاجه، فمالنا نقول ما نقوله من النجاح المنقول إلينا عن طريق العلاج الإيحائي لكل من بابنسكي وهورست وروزنوف.[86]

وحينما واجه فرويد اعتراضا على العمل بالإيحاء، فقد كان يمكنه أن يرد بمحاولة إعداد العمليات الإجرائية، التي الغاية منها إزالة كل ما هو اصطناعي من جماعة (ضبط المعادلة السيكولوجية، والتجربة المزدوجة العمياء)، كما كان يستعملها استعمالا واسعا؛ فقد كان يمكن أن يكثر، بل أن يضاعف ملاحظاته وأن يثق في دراساته الإحصائية (على الطريقة الأمريكية).[87] أو أن يحاول تكميم النتائج المحصل عليها، عن طريق التحليل النفسي. وأن يقارنها بأنواع أخرى من الطب النفسي، كما فعل في نتائج الدراسات المعاصرة، كما كان يمكنه أن يشجع الدراسات المتابعة للتشخيص، والتي تسمح للباحثين المستقبلين أن يتحدثوا أو يجروا مقابلات مع مرضاه، وأن يطلعوا على ما يسجله من ملاحظات تحليلية إلا أنه في هذا الوقت؛ لم تكن محاولات التحري والتحقيق الإحصائي والتجريبي معروفة على الإطلاق كما حاول جاتل ويونغ أن يطبقاها.[88] وفي الوقت نفسه، فإن مثل هذه المحاولات لم تكن لتحل المشاكل الرئيسة التي طرحها التفاعل الجنسي بين الملاحظ والذات الملاحظة؛ مما استمر يؤرق معظم الدراسات المراقبة بصرامة[89]، إلا أن فرويد كان عليه على الأقل أن يصدق الفكر الوضعي، وهو يحاول اختيار نظرياته؛ وأن يعزل الواقعة عن الحدث الاصطناعي في كثير من أحواله، وخلافا لذلك؛ فإنه كان يرفض رفضا باتا أن يأخذ هذه الاعتراضات مأخذ الجد، وظل يرجع باستمرار إلى «الملاحظات» والوقائع التي ينتجها منهاجه حينما تكون الثقة قد اهتزت.

من فرويد إلى شاؤول روزنويج 21 فبراير 1934 : إني قد فحصت دراساتك التجريبية لغاية التحقق من قضايا التحليل النفسي باهتمام كبير، ولا أستطيع أن أعطي قيمة زائدة لمثل هذا الإثبات والتحقيق؛ لأن وفرة الملاحظات الموثوقة التي اعتمدت عليها هذه القضايا، تجعلها مستقلة عن كل تحقيق تجريبي.[90]

فرويد 1933 : إنه منذ أمد قريب، رفضت كلية الطب في الجامعة الأمريكية أن نسمح بإعطاء التحليل النفسي صفة العلمية، على أساس أنها لا تقبل أي برهان تجريبي عنه، وكان عليها أن ترفع الاعتراض نفسه على علم الفلك، وفي الحقيقة فإن التجريب على الاجرام السماوية يحتوي على صعوبة خاصة، وهنا كان يمكن الرجوع إلى الملاحظة.[91]

وبهذا الاعتبار، فإن خصوم فرويد الذين يشاركونه في جزء كبير من قناعاته الوضعية، مبررون، ولهم تبريرهم عندما يأخذون عليه خيانته لمبادئه الخاصة.

ووهلجيوث : لقد تمرن علماء النفس التجريبيون على أن يسيروا بحذر وهم يعرفون أن في علمهم شراكا منصوبة بأكثر مما يوجد في العلوم الطبيعة، فكل تجربة يجب أن ينعموا النظر فيها بعناية فائقة، وأن يتفحصوا الشروط عن كثب، وأن أكبر عدو غادر لهو : (الإيحاء) ويصعب إزالته والقضاء عليه.. فالإيحاء بالنسبة إلى العالم النفس، يمثل ما تمثله له البكتيريا بالنسبة إلى الجراح، ذلك أن عالم النفس، يقصد كما ينبغي أن يكون إلى المداواة المطهرة، بينما يتساهل المحلل النفسي مع الإصابات المعدية، وعندما ما يتقدم الإنسان بمشقة من خلال ما تعرض له مثلا، الطفل هانس بمناسبة إجراء التحليل عليه، وما عاناه من مرض تفوح رائحته ويرشح من ألم الإيحاء، ويقرأ ملاحظات فرويد عنه، والانتقادات الموجهة إليه فقد يكاد يختنق.[92]

هارت : إن القيام بالاختبار الثابت، وذلك بالرجوع إلى الوقائع الموضعية هو الذي ينمي لا محالة النظرية، ونرى أن هذا الاختبار هو الذي ينقص نمو نظرية التحليل النفسي؛ لأن الوقائع الموضوعية لا تستخدم فيها لهذا الغرض وإنما تستخدم فيها تلك الوقائع، بعد أن يمهد لها منهاج التحليل النفسي.[93]

وهنا بالضبط، نجد أن أسطورة الحبل بدون دنس للتحليل النفسي، تكون واردة في هذا الموضع، ولما كان فرويد لا يريد أن يتخلى عن طريقته التي تمكنه من الحصول على الوقائع المستدعاة والتي يجب اختبارها، فهو يتعين عليه أن يجد وسائل أخرى للتعامل مع الاعتراض الذي تؤثر فيه افتراضاته وتأملاته المجردة وهذا هو الادعاء الذي كان متحررًا كاملا من تصور مسبق نظري أيا كان نوعه.

فرويد : وباستثناء بعض المقاومات الانفعالية... يبدو لي أن العقبة الأساس للقبول، تكمن في أن خصومي ينظرون إلى التحليل النفسي كإنتاج لخيالي التأملي ولا يريدون أن يعتقدوا في العمل الدؤوب والموضوعي الذي أدى إلى نجاحه.[94]

وبعبارة أخرى فإن تأمل ما وراء السيكولوجيا كان منفصلا بعض الانفصال عن الملاحظة الخالصة، وهذا الغياب لنوع من الاستلزام، هو الذي أعطى

تصديقا للأسطورة، وإذا كان يتعين على فرويد أن يناضل ضد هذا التعصب الذي يلقاه من جانب أساتذته وأصدقائه وإذا رفضوا، ظنا منهم ضمانا قليل الأهمية لدور الجنسية في الأعصبة؛ وإذا كان عليه أن يتغلب على مقاومتهم؛ إذا كان ذلك كذلك، فمن المعتذر أن يتهمه الإنسان، بكونه يرى الجنس في كل مكان تحت تأثير نظريته الجنسية التي سبق أن تصورها.

فرويد : إن إفراد العامل الجنسي، وجعله علة الهستيريا، إنما كان قد نبع على الأقل من رأي غير مسبق من السيد جاني، والباحثان اللذان ابتدأت دراستي عنهما بصدد موضوع الهستريا، وهما شاركو وبروير، كانا بعيدين عن كل افتراض مسبق، وفي الحقيقة، كان لهما نفور عنه وورثته عنهما أصلا.[95]

فرويد : إني أتعلم الآن من تجربة تتزايد بسرعة، وهي أنها بسبب من نوع التأثير الانفعالي الذي يعمل من وراء ظواهر العصاب، لكنه ذو طبيعة جنسية عادة...

وأنا الآن لست مستعدا لأن أستخلص أية نتيجة منها، ولا تتدخل توقعاتي في أي جزء من ذلك؛ لأني كنت قد ابتدأت بحثي في العصاب بصفة تكاد تكون غير متوقعة.[96]

وكذلك وبالمثل، فإذا كان فرويد يشتغل في عزلة مطبقة، وإذا لم يكن قد قرأ ما كتبه شوبنهاور أو نتشه عن نشاط النسيان أو دلالة الحوافز، فنحن لا نستطيع أن نتهمه بكونه قد أسقط تصورهما المسبق على المادة الكلينيكية. ويذكر بيترجي رسالة صادرة عن فرويد إلى لوثار بيكل يلح فيها مرة أخرى على «نقص موهبته الفلسفية» مؤكدا على أنه كانت له فضيلة خارجية، وبعيدة عن «تقديم الوقائع التي تكشف عن نفسها إليه» في صورة غير مقنعة بدون تحيز ولا استعداد.

من فرويد إلى لوثار بيكل 28 يونيه 1938 : ومن ثم، فإني قد رفضت دراسة نتشه، وإن كان يصعب علي أن أجد لديه استبصارا شبيها بالنظرات الثاقبة للتحليل النفسي.[97]

فرويد : إني لا أود خلق انطباع، وهو أني طوال هذه المدة من عملي أعرضت من ملاحظات المرضى، وأغرقت نفسي في التأمل، بل بالعكس، قد بقيت دائما في اتصال قريب من المادة التحليلية، ولم أنفك قط عن العمل

في بحث أمور تفصيلية، مختصة بالأهمية التقنية أو الكلينيكية، وحتى حينما أتحرك بعيدا عن الملاحظة، فإني أتجنب بحذر كل اتصال بالفلسفة في معناها الخاص.[98]

فرويد : وإذا حاول أحد الناس أن يضع نظرية الكبت والمقاومة ضمن الافتراضات، عوضا عن كشوفات التحليل النفسي فإني أعارضه بحزم، لأن مثل هذه المقدمات الطبيعية السيكولوجيا العامة والبيولوجيا، هي موجودة بالفعل ومن المفيد أن نعتبرها في بعض المناسبات، إلا أن نظرية الكبت هي نتاج عمل التحليل النفسي، وهي استنتاج نظري منتزع على نحو مشروع من التجارب العديدة.[99]

والشيء نفسه يصدق على ما يسميه سولوي الجزء «الخفي من البيولوجيا» وإذا، كان فرويد ينكر مرارا وتكرارا أنه لم يتأثر بالبيولوجيا الموجودة في وقته فهذه محاولة، كما يدعي سولوي ليست من الوجهة المتكلفة حظا من قيمة التحليل النفسي كسيكولوجيا «خالصة» ولا تنكرا له. ومما يضفي قليلا من المعنى[100] على محاولته، الإشارة إلى تقارب ما بين نظرياته والبيولوجيا بل الأولى أن هذا كان سيمكنه من أن يجحد بأن نظرياته عن الدوافع والجنسية الطفلية وازدواجية الجنسية، كانت قد سبقت، وإذا، قد صاغت ملاحظة حيادية عن المادة الكلينيكية. وحسب فرويد، فإن هذه الأفكار كانت تنتمي إلى «مسلمات كلينيكية للتحليل النفسي»[101] أكثر مما كانت تنتمي إلى تأملات نشوئية لمساعدة الخارجين عنه من نحو ويلهيم فيلس.

من فرويد إلى كارل أبراهام 6 أبريل 1914 : إن خضوع التحليل النفسي إلى البيولوجيا الجنسية عند فيلس، لا يمكن أن يكون إلا كارثة أفظع من خضوعه إلى النظام الأخلاقي والميتافيزيقي، أو إلى ما شئت من الأنظمة.[102]

فرويد : غير أني أؤكد بأن العمل الراهن (ثلاث محاولات في نظرية الجنس) لا يتميز فقط بكونه مؤسسا بكامله على البحث في التحليل النفسي بل بكونه أيضا مستقلا بطريقة واعية عن كشوف البيولوجيا، كما أني قد تجنبت بعناية إدخال تطلعاتي العلمية؛ سواء كانت مشتقة من البيولوجيا الجنسية العامة أم من بيولوجيا الأنواع الحيوانية بنوع خاص، أقول إدخالها في هذه الدراسة-

وهي دراسة تختص بالوظائف الجنسية للكائنات الإنسانية، وتصبح ممكنة في تقنية التحليل النفسي؛ إذ كان قصدي في الحقيقة أن أكتشف كيف يمكن أن يلقي البحث السيكولوجي ضوءا على بيولوجيا الحياة الجنسية للإنسان.[103]

فرويد : ولقد وجدنا أنه يكون من الضروري أن ننأى بأنفسنا عن الاعتبارت البيولوجية طوال العمل التحليلي النفسي؛ وأن نحجم عن استعمالها في أغراض الاستكشافات حتى لا تضلنا عند إصدار أحكامنا الحيادية، الخاصة بوقائع التحليل النفسي الموجود قبلنا.[104]

وهكذا تقدم الجنسية الطفلية والكبت واللاشعور ونظرية الأحلام «كاكتشافات» صحيحة، نتائج «للملاحظة» و«التجارب»، وكأنها نشأت عن أي افتراض استكشافي (هورستيكي) وعن تأويلات مسبقة، ومن ضروب العدوى النظرية، أو الإيحاءات اللاإرادية من جانب مكتشفها. وعليه، فإن أسطورة الحبل الطاهر أو غير المدنس لميلاد التحليل النفسي، يطابق تمام المطابقة ما يمكن أن نطلق عليه أسطورة الاستقراء غير المدنس للنظرية الافرودية؛ إذ لم يتأثر فرويد بأي أحد منها. ومن ثم، لا يمكنه أن ينقل العدوى إلى المادة الطبية الكلينيكية أو يفسدها، وإعادة كتابة التاريخ تكون من نتائجه تحويل فرضيات فرويد وتأملاته إلى حقائق ووقائع وضعية لا تقبل الجدال، إنها كتابة تجعل تلك الوقائع ، من الناحية الإبستمولوجية مشروعة ومعيقة فقط للاعتراض على الإيحاء.

وبينما تكون هناك صعوبة في المفاهيم السيكولوجية، فإن وظيفة أسطورة الحبل غير المدنس تصبح واضحة، حينما توضع في محلها ضمن سياق خطابة فرويد الوضعية وضمن صراعاته التي يخوضها. وإلى أولئك الذين ينتقدون اعتباطية افتراضاته، فإنه يعارضهم بصورة جامعة للمرضى، بوقائعهم الاختبارية الأمبيريقية، وإلى أولئك الذين يتهمونه بإسقاط نظرياته المنتزعة من أمكنة أخرى على المادة الطبية الكلينيكية؛ يرد عليهم بأنه وجب أن يكون غير مهذب حتى يقدم على مثل هذا العمل، أما أولئك الذين يأخذون عليه أنه يفرض أفكاره على مرضاه، فإنه لم يعمل إلا على أن استمع لما كانوا يقولونه له.

وإذا، كانت الأسطورة الفرويدية وسيلة ناجعة لرد الانتقادات الموجهة إليه ولعكس ترتيب نظام البحث وقلبه، فما كان محتملا وتاريخيا أصبح غير زماني

وصار التأويل : «واقعة سيكولوجية» كما أصبحت التراكيب : «حقيقة تاريخية» ظهرت من صندوق أسود، مفتاحه بيد المحلل النفسي وحده.

ووهلجموث : إن فرويد يصوغ أحكاما ويدافع عنها على أساس معقوليته؛ ثم في الصفحة التالية يرجع إلى ذلك الإثبات على أنه : «واقعة» أو كما بينت، ويرهنت.[105]

هاكسلي : إن جميع الوقائع الكبرى للتحليل النفسي، إنما قامت على فحص تخمينات مجردة»، ولم يقدم أي دليل يعضدها، بل بالعكس، إنها تخمينات عولجت على أنها وقائع.[106]

جاسترو : إن هناك مغالطة واحدة تتخلل صفحات كتب التحليل النفسي وهي مغالطة صفة الإسناد، وتقوم في قبول مفهوم مجرد كحقيقة واقعية اخترعها المفكر لتلائم تفكيره، وهذه المغالطة الإسنادية لدقتها. وقوة تدليسها تغزو كل مرحلة من مراحل تقنية المحلل النفسي وخططه على نحو مقصود : إن هذا المحلل يتناسى الوقائع ويضع في محلها منهاجية القوى : اللاشعور، والهو، والأنا والأنا الأعلى وعقدة أوديب والليبيدو، في كثير من مظاهرها ومن مفاهيم أخرى محركة لها إنها جميعا مفاهيم يستعلمها المحلل لتفسير المعطيات الكلينيكية التي أوحت بها... ونتيجة لذلك، تفقد الفرضية معناها، ويستبدل التأكيد على الواقع. وهذ هو جوهر الهذيان.[107]

ونقترح أن نسمي هذه العملية بتحويل التأويلات والتركيبات إلى وقائع وضعية مفتعلة التفسير، والتأويل يشكل العنصر الأساس الخطابي، وهي الخطاية العلمية الفرويدية المتجهة لمختلف الروايات والأساطير التاريخية، التي يسجلها حول ما يسميه (كشوفة)، والتأويل المفتعل يصنع الأشياء والأحداث من الألفاظ، ويختلق الوقائع من التخييلات والتخمينات والافتراضات وأيضا، فإن التفسير المفتعل، يقدم ما كان فرويد يحيكه ويطرزه واقعا، ويجحد أنه كان يفعل ذلك.

ويمكن للإنسان أن ينتقد بحق وصواب هذا التشيُّؤ غير المبرر، وذلك يلفت الانتباه إلى الخاصية الخطابية والإيحائية لما يسمى «الوقائع» التحليلية، وكما رأينا ذلك، فهذا هو بالضبط ما فعله نقاد فرويد، ولا يزالون يفعلونه حتى يومنا هذا فيقولون : «إن وقائعك ليست أحداثا، إنها أشياء مفتعلة اخترعتها، غير أن هذه

الانتقادات، في كثير من مظاهرها، تبقى قريبة من وجهة نظر فرويد الوضعية موحية بأنه يمكن للإنسان أن يفصل بوضوح الواقعة عن الحادثة المفتعلة في ميدان السيكولوجيا، وهكذا، فإن كثيرا من نقاد فرويد الأوائل، مثل أشافنبورغ وكايبلن وهوش وجاني ومورش برانس، كانوا متحررين على الإطلاق من هذا النمط من التشييئ؛ حينما كانوا يقترحون نظرياتهم المضادة، والانقسام بين ما كان يؤخذ على فرويد، ليس كونه اختلق وقائع جديدة، وإنما لأنه كان ينكر ما كان يقوم به وعوضا عن أن يرى المرء التفسير التحليلي على أنه يحدث وقائع مفتعلة، فإنه يرى فيه تأويلا يؤدي إلى أحداث مصطنعة مقدمة على أنها وقائع ، وبدلا من أن نرى الأسطورة الفرويدية كقصة خيالية مجردة إذا بنا نراها اختراعا يجحد صاحبه على أنه اختراع وإذا، فإن الإشكال هنا هو المداهنة وتدليس تركيب وقائع تحليلية بدلا من تركيب الشئ في نفسه وبذاته.

وعلى هذا، فإن التفسير المخترع للتحليل النفسي يمكن أن يقرأ على وجهين: إما أنه يجب أن نؤكد على خاصيته المتوهمة والمتخيلة، وإما أن نقول بمظاهره المخترعة ومن الحالة الأولى يجب أن نتهمه بالمعالجة الإرادية واللاإرادية للوقائع التي يتلاعب بها المحلل، وفي الحالة الثانية، نتهمه بتلفيق هذه المعالجة، وقد نظن بفرويد كونه وضعيا غير كفء، أو أنه مفرط في الوضعية، ويختلف هذان النقدان، اختلافا بينا من جهة دلالتهما، ومن الناحية الجوهرية، فإن الإشكال يرجع إلى أنه، كيف نعتبر المشروع السيكولوجي ووضعه في تركيبه وبيانه، غير أنه قبل أن نحاول تقييم ذلك، فنحن نحتاج أن نتابع إجراءات فرويد عن كثب.

صناعة التخييل

ينبغي أولا، وقبل كل شيء، أن ننظر في نظرية الإغواء عند فرويد والتخلي عنها، مما كان أمرا حاسما بالنسبة إلى التاريخ التحليل النفسي، ولقد كان فرويد في مراجعاته وتلخيصاته يذكر باستمرار كيف كان يعتقد في بداية أمره في التفسيرات المدهشة للتعسف الجنسي وانحرافات الزنى بالمحارم، التي كان مرضاه ينقلونها إليه قبل أن يتحققوا من هذه التفسيرات؛ إذ هي في الواقع تخييلات تعبر عن رغبات لا شعورية طفلية مشبعة بعقدة أوديب، ومنذ زمان

طويل كان هذا الانقلاب قد تراءى كإشارة استهلالية للثغرة الفرويدية : أولا فشل الحالة الهستيرية، ثم الانقلاب المشهود الذي انكشفت فيه حقيقة الكذب كعمل مفاجئ كما ظهرت حقيقة التوهم ومنطق التخييل.

جان لابلاش دجان- برنراند بونتاليس : صار تقليدا أن ينظر المرء إلى تخلي فرويد عن نظرية الإغواء في سنة 1897 كخطوة حاسمة، في تأسيس نظرية التحليل النفسي، وفي إقدامه على المفاهيم من النحو التخييل اللاشعوري والواقع السيكولوجي والجنسية الطفلية التلقائية وما شابه ذلك.[108]

فرويد : وعندما يتأثر الإنسان برأي شاركو عن أصل الصدمة الهستيرية فقد يميل بطبعه أن يقبل كحقيقة وكعلة دالة التقارير والبيانات التي يقدمها له المرضى الذين يصنف لهم أعراضهم عن التجارب السلبية في سنوات طفولتهم الأولى، وبعبارة فجة، عن الإغواء. وعندما تسقط هذه العلة، تحت ثقل عدم احتماليتها وتناقضها في ظروف مؤكدة التحقق نهائيا، فقد تكون النتيجة محيرة غير مساعدة. وإذا كان المرضى الهستيريون يرجعون أعراضهم إلى الوراء حتى يصلوا بها إلى الصدمات التي قد تكون أوهاما متخيلة، فإن الواقعة الجديدة التي تبرز حينئذ، هي أنهم يخترعون هذه المظاهر والمناظر في التخييل، وتتطلب هذه الحقيقة السيكولوجية أن تؤخذ بعين الاعتبار طوال الواقع العملي، وما يلبث هذا التأمل أن يتبعه اكتشاف بأن التخيلات تقصد إلى أن تغطي النشاط الشبقي الذاتي من الأعوام الأولى من للطفولة. والآن، وانطلاقا مما وراء هذه التخييلات يأتي المجال الكلي لحياة الطفل الجنسية ليلقي الضوء عليها.[109]

فرويد : وتحت الإجراء العملي التقني، الذي كنت أستعمله في ذلك الوقت، كانت أغلبية مرضاي يعيدون إنتاج مشاهد من طفولتهم، وقد أغواهم جنسيا بعض الأشخاص البالغين. أما المريضات من النسوة، فقد كان الجزء الأكبر من الغاوين لهن يكاد يكون من آبائهم، وقد كنت أعتقد في تبادل هذه الأفكار، وأفترض نتيجة لذلك بأني قد اكتشفت أطول الأعصبة اللازمة عن تجارب الإغواء الجنسي في الطفولة، وحينما كنت أعتمد على نفسي، فإني كنت أستخلص نتائج صحيحة من اكتشافاتي : أعني أن الأعراض العصابية لم تكن مرتبطة مباشرة بالأحداث الحقيقية، بل من التخييلات الدالة على رغبة ما...

حتى عثرت، ولأول مرة على عقدة أوديب، التي افترضت في ما بعد أهميتها إلا أني لا أعترف بها كقناع للتخييل.[110]

فرويد : وفي المرحلة التي كان فيها الاهتمام الرئيس متجها نحو اكتشاف الصدمات الجنسية الطفلية، فإن جميع مرضاي من النساء كن يقلن بأنهن إنما أغراهن آباؤهن، ومن ثم ملت إلى أن أعترف في نهاية الأمر بأن تبادل الأفكار والمعلومات معهن لم يكن صحيحا، وحصل أن فهمت أن الأعراض الهستيرية تشتق، وتنتج عن الأوهام التخيلية وليس من ضروب حصولها الحقيقي.[111]

والانطباع الذي تخرج به من هذا المقطع، هو أن مريضات فرويد (أو رغباتهن اللاشعورية في ممارسة الزنى بالمحارم) هن اللواتي كن مسؤولات عن خطإ فرويد الأولى؛ إلا أنه يكفي أن ينظر الإنسان في مقالات فرويد من سنة 1896 التي صرح فيها بنظريته، حتى يرى بأن تفسيره الذي قال به سابقا لا يستقيم مع ما كتبه في ذلك الوقت، وإنما هو في الحقيقة مغرض، وهذا ما كان لاحظه المحلل النفسي[112] بول شدوف سنة 1966، ثم تبعه في ما بعد، الفيلسوف فرانك شيوفي؛[113] إذ في تلك المقالات، نجد تعارضا صارخا مع تفسيراته التالية؛ إذ كان فرويد يلح على الصعوبة القاسية التي يلاقيها عندما يواجه مشاهد الإغراء التي تبرز أمامه، وحسب ما كان يكتبه فرويد آنذاك، فإن مريضاته لم يكن يقتصرن على أنهن كن يغضبن ويثرن حينما يقترح عليهن من افتراضاته، وكان عليه أن يكافح ضد مقاومتهن خطوة فخطوة، وأن يستخلص من ذاكرتهن مزقا من مناظر جنسية مبعثرة ولا رابط بينها.

فرويد : والحقيقة أن هذه المريضات (أو المرضى)، لم يكن يعدن هذه الحكايات عفو الخاطر، كما لم يكن أثناء العلاج يقدمن بغتة إلى الطبيب ذكرى كاملة عن مناظر من هذا القبيل، وإنما كان الإنسان ينجح في إيقاظ الأثر السيكولوجي للحدث الجنسي المبكر، تحت أكبر قوة ضغط من الإجراء التحليلي، وضد المقاومة الشديدة. وفوق ذلك ينبغي أن ننتزع الذكرى قطعة فقطعة؛ وذلك حينما ينبه منهن اللاشعور فإنهن يقعن فريسة للانفعال الذي يصعب أن يزيف.[114]

فرويد : والمرضى قبل أن يقدموا على التحليل، فإنهم لا يعرفون شيئا عن تلك المناظر، وكقاعدة فإنهم يغضبون عندما نحذرهم من أن هذه المشاهد سوف

تظهر إلى الوجود بالتحليل، والقهر أو الإجبار العنيف للعلاج هو الذي يغويهم في أن يباشروا إعادة إنتاج تلك المناظر.[115]

وتثبت رسائل فرويد إلى فيلس عن هذه الفكرة في ذلك الوقت؛ مثلا هناك وصف لحالة السيدة (ج س ب) ابنت عم فيلس، كان فرويد قد حاول أن يقنعها بان المرض الجلدي (إكزيما) المحيط بفمها واضطرابها عند التكلم، تتأصل من كون أنها كانت مرغمة، وهي طفلة أن تمتص قضيب أبيها؛ إلا أنها لم تكن في الظاهر مقتنعة ذلك.

من فرويد إلى فيلس 3 يناير 1897 : وحينما خاطرت وقدمت تفسيري لها، كانت قد اقتنعت أولا، ثم ارتكبت حماقة في أن سألت الرجل العجوز نفسه الذي صرخ لوقع الخبر عليه أولا، حانقا «هل تورطني بأني أنا ذلك الرجل؟» ثم أقسم بأغلظ الأيمان أنه برئ من التهمة، وهي الآن تعاني ألما مبرحا، متذرعة بمقاومة شديدة، وتصر على الاعتقاد بفعلته؛ إلا أنها تثبت توحدها به، باعتباره دنس شرفها وقد حلف على الباطل. وقد هددتها بأن أطردها، وأثناء إجراء العملية أقنعت نفسي بأنها قد كسبت بعض اليقين، وإن كانت قد أبت أن تعترف.[116]

ويبدو أن هذه الإجراءات كانت بعيدة عن أن تكون عفوية في تذكر الصدمات إراديا، وتدل البينة المتاحة بأن مرضى فرويد ليس لديهم مثل هذه الذاكرة وهذه الذكريات قبل أن يعيدوا تكوينها أو إنشاءها من جديد، على أساس من القرائن والعلامات والتخمينات والتأويلات، وغالبا لا يقتنع هؤلاء المرضى بحقيقة مثل هذه الأحداث، وكما اعترف فرويد نفسه، في ما بعد، فقد كان ينقل إلى مرضاه محتوى مشهد الصدمة، (وبعبارة أخرى كان يوصل إليهم افتراضاته وتركيباته).

فرويد : وصحيح أنه في الأيام الأولى من تقنية التحليل، كنا نتخذ وجهة نظر عقلانية عن الموقف، كنا نضع قيمة كبيرة لما كان المريض قد نسيه من معرفة ولم نكن نميز إلا تمييزا قليلا بين معرفتنا عنه وعن معرفته، وكنا نظنها معرفة مكونة من قطع بها حظ كبير يسمح بالاطلاع عليها، إذا تمكنا من أن نحصل على معلومات حول الصدمات الطفولية المنسية، بالرجوع إلى مصادر أخرى-مثلا من الآباء والمربين والمغويين أنفسهم- كما يمكن ذلك في حالات أخرى، فنبادر

إلى أن ننقل المعلومات والبراهين بصحتها إلى المريض مع بعض التوقع لأن نحمل هكذا العصاب والعلاج إلى نهاية سريعة، وقد كانت خيبة أملنا قاسية، حينما لم يكن النجاح المتوقع وشيك الحصول، وفي الحقيقة فإن إخبارنا المريض برجات صدماته المكبوتة ووصفها له لم تنتج قط من أي تذكر من جانبه لها ولا خطرت بباله.[117]

وحتى عندما يحصل لبعض المرضى أن يتمثلوا بصريا، أو ينتجوا أجزاء من مثل تلك المشاهد، تحت إلحاح فرويد وضغطه، فإنهم يرفضون أن ينظروا إليها كذكريات حقيقية لهم، وقد كان صديق فرويد السيد نيوبولد لونفلد، يرى أن هذا الإحساس غير الواقعي برهان على أنها ذكريات كاذبة، أوحى بها فرويد نفسه إلى مرضاه، وكما هو معلوم، فإن مدرسة نانسي كانت قد جربت رسوخ الذكريات الكاذبة على نحو واسع تحت تأثير التنويم.

فرويد : وبينما يكون المرضى متذكرين هذه التجارب الطفلية، ومستدعين إياها إلى الشعور، فهم يتألمون تحت تأثير الإحساسات العنيفة، مما يجعلهم يخجلون، ويحاولون أن يخفوها، ثم إنهم بعد أن يجتازوها مرة أخرى على نحو مقنع، فهم لا يزالون يحاولون أن يسحبوا عنها كل اعتقاد، مؤكدين أنهم خلافا لما حصل في حالة نسيان مادتها (دلالتها)، لا يشعرون بأنهم تذكروا بالفعل تلك المشاهد.[118]

ليوبولد لونفيلد : وهذه الملاحظات التي أبداها فرويد تكشف عن أمرين :

1 - يتعرض المرضى لتأثير الإيحاء، الذي يأتي من الشخص القائم بتحليلهم والمتولي لانتزاع المشاهد من أعماقهم حتى تقترب من خيالهم.

2 - والصور المتخيلة التي قفزت تحت تأثير التحليل، تكذب الاعتراف بكونها ذكريات لأحداث واقعية.

وقد وقعت لي تجربة مباشرة تدعم هذه النتيجة الثانية، ولحسن الحظ، فإن أحد مرضاي، الذين استعمل معهم فرويد طريقة تحليله، حصل أن وقع تحت ملاحظتي فقال لي هذا المريض، بيقين تام منه، بأن مشهد الطفلية الجنسية التي كشف التحليل عنها ظاهريا هي محض تخييل، ولم تقع له هو قط على الحقيقة.[119]

والإشكال هو: لماذا كان فرويد يشعر بالحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ حتى يستدل على أن مرضاه كانوا يتطوعون عفويا ويسلمون له ذكرياتهم؟ والمفارقة هي أنهم كانوا يتذكرون الأحداث المتحدث عنها، وإنما الحقيقة، أنها أحداث كانت تلائم خير ملائمة نظريته عن الكبت، ولو لم تكن تعطى له على ذلك النحو لتأدى به الحال إلى أن يتمحل لها الانفتاح على تكلف الإيحاء، وحتى تسلم له بهذا، كان ينبغي أن يثار التساؤل حول ما إذا كان الشيء الواحد لا يصدق على نظرياته الأخيرة، عن الأعصبة التي حصل عليها من خلال طريقته التحليلية نفسها، وهنا يكون من الخطر على فرويد أن يخفي حقيقة أنه هو الذي كان يفكر ويقدر ويتخيل مناظر مثل السادية واللواطة والمازوشية الفيتيشية (وهي انحرافات.[120] جنسية) يستبدل فيها الموضوع الجنسي السوي.[121] بموضوع آخر متعلق به... من ضروب الشذوذ الجنسي كالانتصاب عن طريق مصب القضيب...).[122] ويتخذها كأنها واقعية تحت تأثير افتراضاته النظرية لما تمليه عليه اللحظة.

من فرويد إلى فيلس 3 يناير 1997 : إن اتفاق مادتي مع الانحرافات التي وصفها كرافت ابينج، هو اتفاق جديد وبرهان صحيح عن الحقيقة الواقعية.[123]

وفي الوقت نفسه، فإن فرويد من خلال تحويله لافتراضاته وتخميناته إلى حديث متبادل مع مرضاه، أصبح قادرا على أن يتنصل من كل شؤونه، كما لو أن عبء المسؤولية يقع على المرضى. وخطؤه كان أشبه بخطإ من يثق ثقة مطلقة بمرضاه، ومن ثم سمح لنفسه أن يضلوه ويخرجوه عن الطريق المستقيم، مما مكنه كذلك من أن يلبس تأملاته هيأة واقعية بالرغم من طابعها الخاطئ، ومع نظرية فرويد الإغوائية، عرض سمعته العلمية للنقد والفشل، غير أنه بتحويل نظرياته الخاطئة إلى تبادل المعلومات مما يأخذ من مرضاه استطاع أن يستعمل استراتيجيات وخطط تأويلية جديدة، يزعم الآن أن مرضاه نطقوا وتوصلوا معه بتلك البيانات، وبدلا من أن تفسر نظرية التحليل النفسي على أنها خطة فاشلة ناتجة عن ترسيخ إيحائي، غير مراد للذكريات الكاذبة، فهي تفسر ما وقع حقيقة، وما حرص مرضاه على أن يطرحوه عليه من معطيات مزعومة.

وأكثر من ذلك، يمكن لفرويد أن يزعم الآن بأنه لاحظ أشياء بدلا من أن يقول: إنه لم يلاحظ شيئا، حتى مع تراخي الوقت الذي تحققت له صحة

دلالة ذلك، وفي الواقع، فلقد جعل فرويد من تفسيراته الخاصة مادة مجسدة، ومتجوهرة التحقق.

فرويد : وكما تعلم، فإننا بواسطة التحليل، نحصل عندما نبتدئ بالأعراض على معرفة التجارب الطفلية التي تكون فيها اللبيدو قد ثبتت، ومن خارجها تشكلت الأعراض، وبطبيعة الحال فإن المفاجأة تكمن في أن هذه المشاهد عن الطفولة الأولى لا تكون دائما صحيحة، وفي الحقيقة أقول: لا تكون صحيحة في معظم الحالات؛ وبالنظر إليها قد تكون مناقضة مباشرة للحقيقة التاريخية، وكما ذكرت لي، فقد عد هذا الاكتشاف أكثر من غيره تكذيبا؛ إما للتحليل الذي أدى إلى هذه النتيجة، وإما إلى ارتياب المرضى الذين تأسس التحليل على عباراتهم ! وفهمنا الكامل لأعصبتهم. ونحن نشعر بالاستياء من كون أن المرضى شغلوا وقتنا لكي يخترعوا قصصهم وتظل الحقيقة ماثلة وهي أن المريض يخلق تخيلاته من تلقاء نفسه، وإن كانت هذه الحقيقة أقل أهمية بالنسبة إلى الأعصبة، مما لو اعتبر واختبر وجرب حقيقة ما تشتمل عليه هذه التخييلات، وتملك هذه التخييلات حقيقة سيكولوجية معارضة للحقيقة الموضوعية، ثم إننا تعلمنا تدريجيا أن نفهم بأنه في دنيا الأعصبة الحقيقية السيكولوجية هي النوع الحاسم.[124]

فرويد : من أين أتت الحاجة بهذه التخيلات وبمادتها؟ وبدون شك، يمكن أن تكون مصادرها كامنة في الغرائز، لكن يبقى علينا أن نفسر لماذا تبتكر التخييلات نفسها بالمحتوى عينه؟ في كل مناسبة. وأعتقد أن هذه «تخييلات أصلية أولى» كما أحب أن أسميها ويسميها آخرون كذلك، ومن ثم؟ فإن هذه التخييلات الأصلية هي موهبة طبيعية من النشأة الأولى لتطور الجنس، ولربما كان من الممكن أن جميع الأشياء التي تقال لنا اليوم في التحليل هي أشبه شيء بالتخييل فإغواء الأطفال، والتهاب التهييج الجنسي عن طريق ملاحظة الجماع الأبوي، والتهديد بالخصاء (أو الخصاء بذاته)، كل هذه أحوال واقعة في الأزمنة الأولى من الأسرة الإنسانية، والأطفال في تخييلاتهم قد يملأون هذه الثغرات بحقيقة فردية، ممزوجة مع حقيقة ما قبل تاريخية.[126]

وقد يمكن أن يرى الإنسان هنا كيف أن إعادة كتابة فرويد للتاريخ اتخذت لها بدقة وجودا موضوعيا، هو ما كان فقط مخرجا لمجموعة من الافتراضات

العالية التجريد؛ وهي افتراضات كانت من وجهة نظر فرويد نفسه كاذبة في نهاية الأمر، وما كان يسميه الخواطرَ السانحةَ (في الأعصبة)[127]، أصبح «مشاهدة» ينقلها مرضاه، ثم صارت تخييلات تعبر عن رغباتهم اللاشعورية، ثم أخيرا من خلال كل ذلك أعاد تدويرها الناجح منتجات وراثية نشوئية تطورية وحقائق ما قبل تاريخية؛ وما يغفله هذا التسلسل المتتابع بوضوح هو وضع التخييلات اللاشعورية التي يزعم فرويد كونها وراء مشاهد الإغواء مما ائتمنه عليها مريضه، وإذا لم تظهر هذه الذكريات المسترجعة على نحو عفوي لتحل مكانها فَعَمَّ إذا، تعبر هذه التخييلات اللاشعورية أولا يكون لها شبيه يمكن التساؤل عنه؟ وماهي التخييلات التي يكون مرضاه حاصلين عليها في الحاضر الواقع ؟ وهل تستجيب الذكريات المفروض استدعاؤها مما يدعيه فرويد نتيجة لذلك، وهي ذكريات توجد تخييلات لاشعورية؛ أعني تستجيب إلى تقنية بحثه وتخميناته؟ ولا نذهب كثيرا وراء التسجيلات التاريخية وتوثيقها، فإن مثل هذه التساؤلات يصعب حلها إلا أن ما أنجزه فرويد من سرد قصصي، ومن براعة استراتيجية كان واضحا : إذ يعرض، بحدسه القوي، السرد العفوي للأحداث كذكريات يحصل لها أن تخال توهمات يمد اعتقادها مفهوم أو معنى وجود الظنون، والتخيلات الملهبة والملهمة لآمال الطفولة وأحلامها، وعوضا عن أن تتأسس نظرية التحليل النفسي على ملاحظة الوقائع . التي ينبغي أن تؤول على وجه صحيح، بعد فترة من التضليل والتغليط كانت هذه النظرية قائمة على تخييل التفسيرات المموهة، المعتمدة على تخمينات فرويد، والحقيقة أنها أخذت زمنا طويلا على هذه الصورة؛ حتى نظر إليها كعهد، أو ميثاق لفعالية الأسلوب الخطابي، الذي أعاد به فرويد كتابة التاريخ.

وإذا، فهل ينبغي أن نرد تأويل فرويد للتخييلات إلى فشله، وإلى فعالية خطابته الخالصة؟ وهذه هي وجهة نظر بعض المراجعين المحصلين من العلماء لنظرية فرويد، من نحو فرانك شيوفي، وهان إسرائيل، وألين إسترسون وفريدريك كروز؛ إذ بالنسبة إليهم، فإن اعتبار اكتشاف التخييلات اللاشعورية هو تزييف تاريخي لا يعتمد على شيء يذكر، ومن هذه الوجهة من النظر، أثرت أسطورة فرويد التأثير العميق بسبب[128] اعتقادنا في اللاشعور الذي هو

خدعه لأعظم سوفسطائي وإذا، فإن واجب المؤرخ ينبغي أن يكون متمثلا في إزالة أو نزع قناع خواء الاعتبارات الفرويدية؛ ومعها هذا التخييل النفسي نفسه؛ غير أن هذه الوجهة من النظر حتى وإن كانت دالة، لا تزال تشوبها شائبة من النزعة الوضعية.

وفي الحقيقة، فإن تاريخ إزالة التزييف في كثير من أوجهها، كان غير قادر على هدم آثار التأويل الأسطوري وفي هذه السنوات الأخيرة، قد رأينا بأنه بالرغم من تزايد عدد الأعمال الخاصة بالنقد التاريخي؛ وفي مجال التحليل النفسي، كان الأمر في غالب الأحيان يعني «تجارة كالمعتاد»، ويستمر الأفراد يعترفون ويقرون بتخييلاتهم، ويكتبون عن حياتهم في عبارة الصراعات الأوديبية، ويستدعون الذكريات المكبوتة عن طريق تعسف الجنسية الطفلية، كما يستمر الممارسون يسلكون سبيل التجارة عن حسن نية : وهل هذا لازم فقط عن سرعة التصديق الإنساني؟ أم بسبب أن التحليل النفسي لا يزال يحتفظ بمركز قوته السلطوية على الجمهور، وعلى الخدمات الصحية والعلوم الإنسانية؟ وقد تكون هذه الوجهة من النظر مبسطة، ولربما أيضا تفشل في تفسير نجاح بعض النظريات السيكولوجية وتعليلها، وبعض أنظمة الطب النفسي التي قد ازدهرت كذلك.

وفي رأينا، فإنه من الأهمية بمكان أن نفهم طبيعة إنتاج التفسير المصطنع والكيفية التي بها سوى صياغات وأشكال جديدة للتجربة الذاتية؛ بينما أحدث وقائع جديدة أو موجودات مختارة مغرقة في التخييل الأنطولوجي

تشسترتون : لم يعد بالإمكان رفض التحليل النفسي كشيء لا قيمة له؛ إذ ارتقى إلى نمط رفيع ، وملك كل سلطة أخلاقية، ودرجة فكرية قد نربطها أنموذج أصحاب القبعات أو اللحى... وعلى أية حال، ليست النظرية إلا تفكيرا في حين أن النمط الرفيع هو حقيقة واقعية، وإذا كانت بعض الأشياء تؤثر بعمق في مراكز الحضارة على وجه حقيقي، فهي تلعب دورا لا بأس به في التاريخ؛ سواء أكان مدى أصلها الأقصى فكرة خاطئة أم لا.[129]

وهذا يردنا إلى طريقتين في فهم التفسير المختلف؛ فالمؤرخون القائمون بالمراجعة حائزون على أسس متينة، للتأكيد على الخاصية المفتعلة لما يسمى في التحليل النفسي البينة البَدَهِيَّة؛ لكن بعضهم سرعان ما ينتهون إلى هذا الموضع

كما لو كان الأمر يتعلق بالتساؤل لفضح وهم واستنكاره. وما يجب أن نفهمه من النقد هو أن التأويل المصطنع يتسبب في التأثير على الناس؛ إذ يستجيب الأفراد إلى التأويل المصطنع لمحلليهم، وللآثار والنتائج الإيحائية للوسط الثقافي، وكثير منهم أعادوا كتابة حياتهم على هذا الأساس، وكنتيجة لذلك، صيغت وتعدلت وقائع جديدة، وبعبارة أخرى، صارت الواقعة وهما أو أسطورة تحولت إلى واقع مما يند عن تعارض الصدق والكذب والحق والصواب مما هو معطى أو مصنوع، وما هو حقيقة أو وهم.

وحتى نرجع إلى مشاهد الإغواء، فقد يكون واضحا من تفسيرات فرويد أن مرضاه لم يكونوا في البداية يتذكرون أي شيء. إلا أن هذا لا ينفي أنهم كانوا يقبلون إمكانية التسلية بهم والتفكه معهم، فيتبعون فرويد في افتراضاته، وإلا كان من الصعب (أن نفهم لماذا كانوا يستمرون في العلاج معه) ومن بينهم إيما إيكشتاين وإليس محو مبرز وأوسكار فيلنر.[130] وهؤلاء قضوا معه زمنا طويلا، واتبعوه ببطولة نادرة، خلال عدد كبير من صولاته وجولاته النظرية... ومن هذه الوجهة من النظر، لا يحتاج الإنسان أن يذكر بالتحويل أو الإيحاء وسرعة التصديق الموجود عند المرضى تجاه فرويد، الذي كان يباشر تركيباته المقترحة عليهم، أنهم يلعبون اللعبة العلاجية التي يعرضها عليهم كذوات سيكولوجية تجريبية، أو مشاركة في مشاهد تقدم لها في ظروف وملابسات خاصة بهم؛ ومن المحتمل أنهم، كلما التحقوا باللعبة، كلما أصبحوا جادين، متقبلين بشكل وواقع خاص، وفجأة لم يعد الماضي هو الماضي؛ إذ سوف تحول ذكرياتهم البريئة عن الطفولة إلى : «ذكريات ساترة» لأحداث مزعجة أو كارثية؛ إذ يمكن أن تصبح الأحلام تأكيدات وإثباتات لوقائع جديدة، كما يمكن أن تتخذ دلالات جديدة ويجوز أن يقبل المرضى أنفسهم المشاركة في مهمة إعادة التأويل لحياتهم خلال حدث الصدمة السابقة التي لا يتذكرونها؛ بما يشبه أنه يعرض عليهم أمل التفسير والتحرر، وليس مستغربا هنا أن مشاهد الإغواء قد تعود إلى البروز كما تنبأ بها فرويد بالضبط.

وقد كتب فرويد في «دراسة سيرته الذاتية» بأن معظم مرضاه، تحت تأثير إجراء الخطة النفسية التي كان يستعملها في ذلك الوقت، كانوا يسترجعون

مشاهد من طفولتهم التي كانوا قد وقعوا في إغواء جنسي من لدن بعض الأشخاص الذين يكبرونهم سنا.[131]

ولا سبب يدعو لأن نشك في هذا، مع أنه من المهم أن نلح على أن هذه الذكريات لا تظهر حتى تكون ذكريات عفوية بل الأحرى أن تكون دراما سيكولوجيا صغيرة من مزاعم فرويد التمثيلية وكما لاحظ جان شميك.[132] فإن الإجراء التقني الذي كان يستعمله فرويد آنذاك من طريقته القهرية التي كانت تتمثل في أن يضغط فرويد على جبهة المرضى ويسألهم أن يستدعوا (صورا وأفكارا)، لم يكن يختلف كثيرا عن طريقة التطهير بالتنويم التي وصفها في (دراسة عن الهستيريا)، للغرض نفسه الذي استمر طريقا واحدا من طرائق إثارة وإعادة ظهور حادث الصدمة، أو صورة بصرية شديدة النصوع (الهلوسة)، وبينما كان فرويد يحكي بأنه يسترجع الذكريات (قطعة وراء قطعة)، كان من الواضح أن مثل هذه الذكريات المسترجعة، كانت مجزأة، أو على الأقل كانت في أول بدايتها إلا أننا لو حكمنا من رسائل كان فرويد يبعثها إلى فيلس، لظهر أيضا بأن بعض مرضاه كانوا ينتهون إلى أن يقدموا لفرويد مناظر تكاد تكون كاملة، تطابق تمام المطابقة توقعه المرتقب.

من فرويد إلى فيلس 24 يناير 1897 : وهكذا، أستطيع أن أقتص أثرا على وجه التأكيد لنمط من الهستيريا، تطورت في سياق فترة اكتئاب خفيف من الإغواء الذي كان قد حصل لأول مرة منذ أَحَدَ عشر شهرا، ويمكن أن أستمع من جديد إلى الألفاظ التي تبودلت بين مراهقين من ذلك الوقت، وكان هذا الاستماع كما لو كان آتيا من أداة تسجيل فونوغرافي.[133]

من فرويد إلى فيلس 22 دجنبر 1897 : إن صحة الصدمات الطفولية تبرهن على الحدث العارض[134] الآتي الذي ادعت فيه إحدى المريضات ملاحظتها له منذ أن كان عمرها ثلاث سنوات، إنها كانت تدخل إلى غرفة مظلمة حيث كانت أمها تنجز فيها عملها، وتسترق السمع إليها، وكان لها سبب وجيه في أن تتوحد مع أمها أو تتقمص شخصيتها، وكان أبوها ينتمي إلى فئة الرجال الذين يطعنون النساء من أجل أن الجروح الدموية هي حاجة شهوية بالنسبة إليهم... والآن تجلس الأم في الغرفة وتصرخ قائلة (أيها المجرم، القذر، ماذا تريد مني

إنني لا أصلح لذلك؛ ومن تظن هذه التي أمامك؟ ثم تمزق ثوبها فوق جسمها مما يحدث انطباعا غريبا ثم تحدق النظر في نقطة من الغرفة وتتشنج اهتياجا وحنقا وتغطي أعضاءها التناسلية بيد، وتدفع باليد الأخرى بعيدا عنها شيئا ما، ثم ترفع يدها وتتخطف بها الهواء بين أصابعها ثم تعضه، فتصرخ وتلعن، وتتلوى وتتثنى معوجة إلى الوراء، وتغطي فرجها وتسقط منبطحة على الأرض، وبعد أن تعتصر بديها تقبع في ركن، وبملامحها المتشنجة ألما تبكي وتندب.[135]

وقد يطرح التساؤل ما إذا كان المرضى أنفسهم يعتقدون في المشاهد التي يسترجعونها على هذا النحو من التأثير العنيف، ومن اللحظة التي يصبح فيها المرضى لا يعدون ذكرياتهم كوقائع، فمن الممكن أنهم صاروا ينظرون إليها كتصنع وتظاهر، أو كادوا يلعبونها كتمثيل يختبرون به فرضيات فرويد- ولئلا يمنعهم هذا من أن يتظاهروا بافتعال هذه المناظر بنوع اقتناع، ونتيجة لذلك فإنهم يحاولون أن يقنعوا فرويد حتى يتخذهم كإثبات على صحة فرضياته، ويمكن أن يعرض فرويد هذه المشاهد التي يتنبأ فيها بإعطاء تفسير مع تدقيق هلوسي، مبينا أن ما يبدو له ينبغي أن يكون تأكيدا كاملا لنظرياته، وإذا، ليس من المستغرب أنه كان ينبغي أن يحصل على تجربة تجعله يستمر في الضغط على وجهة نظره وأن يغوي مرضاه بأن ينتجوا له برهانا عليها.

وفي نهاية الأمر، فإنه لا يمكن أن ننكر بأن فرويد كان يلاحظ بحق شيئا ما وكان مرضاه يقدمون في غالب الأحيان مشاهد الإغواء[137]، وبهذا الاعتبار فإنه يستحيل أن نرد تفسيراته الأخيرة إلى الكذب، كما حاول أن يحتج البعض؛ إذ لا شك أنه كان يستمع أحيانا إلى مرضاه، ويزعم أنه سمع منهم شيئا ما.

والإشكال هو أننا لم نحط علما، ولم نخبر كما يجب، حينما سمع مثل هذه العبارات، وقد يبدو أنهم أثبتوا له على نحو استرجاعي افتراضاته النظرية، ولم يحدث هذا إلا بعد أن أشار في ما بعد، إلى الأسئلة الملحة، وإلى التشجيعات والتحذيرات وإعادة تأطير الواقع.[138]

فهو حينما كان يقدم المشاهد التي يمثلها مرضاه كاعترافات عفوية، كان السرد الأسطوري يتجنب الوقت الذي يكون ضروريا للحصول عليها؛ مما يجعل الإنسان ينسى كيف صارت حتى عملية إنتاجها حقيقية، ولم تكن هذه المشاهد

تنتظر حتى يكتشفها فرويد : إذ كانت قد اكتشفت وساعد على اكتشافها التحاور بين الطبيب ومرضاه، وأيضا بين النظرية وبين من يظن بهم أنهم تطوعوا للتصديق عليها وجعلها حقيقة، ولقد أزالت الأسطورة الفرويدية آختلاق صنع الإجماع المنعقد حول الواقع لفائدة «وقائع » لا تناقش، إنها «وقائع معطاة وملاحظة» وعلى خلاف ذلك قد ظهر أن ما هو معرض للخطر هنا هو الوقائع الحقيقية التي ثم التفاوض حولها، وخضعت في كل لحظة.

وقد يرى الإنسان هنا، كيف أن القراءة التقنية لعملية التفسير المعتنية بالإجراءات التي ينتج من خلالها الواقع النفسي، تتمايز بعض التمايز عن مجرد القراءة النقدية التي تحاول أن ترتب كل شيء تحت جداول الصواب أو الخطإ، والواقعي أو المصطنع ، وبينما يظهر من أن هذه المشاهد والتخييلات التي تستند عليها أسطورة فرويد هي توهمات في أصلها، فقد تصبح حقيقة بالنسبة إلى المرضى حالما يتقبلونها. ذلك أن المرضى الذين كانوا ينتجون ذكريات صدماتهم سنوات 1889 و1891، فإذا مشاهد الجنسية الطفلية المتسمة بالعسف والقهر تظهر هذه بين سنة 1896 و1897 ثم تتوقف؛ إذ جعل فرويد يسائل مرضاه بدلا من ذلك أن يحدثوا له تخييلات، أو ذكريات أوديبية عن : «المشاهد الأصلية الأولى» وفي كل وقت وحين ينتج واقعا جديدا بقواعده الخاصة وطابعه المميز، ولو قدمت فرضيات أخرى ومطالب نظرية لا يمكن أن يترتب عنها عالم من الحقائق السيكولوجية وعلاجات أخرى، يشكل بدوره عصرا أو قرنا من آلاف المدارس الأخرى، ومثل كثير من ضروب الطب النفسي والسيكولوجيات لكان التحليل النفسي يشكل وجودا أنطولوجيا فاعلا للممارسة التي فاعلا للممارسة التي تخلق عالما من خيالها.

ديبلوف : إن وجود عدة مدارس للتنويم قد يشكل فقط وجودا طبيعيا ويمكن أن يفسر بسهولة، وتدين هذه المدارس في وجودها وميلادها إلى سلوك متبادل لفعل التنويم بمن ينومونهم، ومنافستهم وحدها هي التي لا يؤخذ لها سبب معقول : إلا أن يقال إن كل المنومين على صواب.[138]

ووهلجوث : وإذا حلمت حلما وحلله فرويد، فقد يكتشف فيه من عقد جنسية، في حين يمكن أن يكتشف فيه يونج مع الحلم نفسه: «وظيفة غائية منذرة

بشيء ما في المستقبل» وقد يجد فيه أدلر «إرادة القوة» والاحتجاج الذكوري، وهذا في ما أرى، برهان كاف على أن النتيجة لازمة عن التحليل النفسي وأن تفسير الحلم يكون عن طريق تحليل اللاشعور مما يقدمه المحلل.[139]

هارت : إنه يمكن أن نلاحظ أن الترابط الحاصل في أنه بينما يثبت تلاميذ فرويد بواسطة ملاحظاتهم العلاجية الكلينيكية، اكتشافات أستاذهم، يتجه أن تلاميذهم يشتغلون على أدوات صنعت من المادة عينها، وعلى أنموذج واحد لا يجدون صعوبة في العثور على إثبات علاجي طبي واسع للاعتقادات المبعثرة ليونغ.[140]

جود مرمور : ويشبه أن مرضى كل مدرسة، إذا تعلق الأمر بوجهة نظر المحلل، يعرضون نوع المعلومات الفينومينولوجية الظاهرة التي تؤيد التعريفات وتفسيرات محلليهم، وهكذا تميل كل نظرية أن تكون صحيحة بذاتها فيختار أصحاب فرويد المادة المتعلقة بعقده أوديب، وقلق الأخصاء ويختار أصحاب يونغ ما يتعلق بالنماذج النمطية، وأصحاب - رانك ما يخص قلق الانفصال، وأصحاب أدلر ما يدور حول نزاع الذكور، والشعور بالدونية، كما يختار أصحاب هورني الصور المثالية، ويفصل أصحاب سوليفان فكرة العلاقات المضطربة.[141]

الينبرغر : إن المرضى الذين يعالجهم فرويد ويحللهم، يحلمون بالأحلام الفرويدية، ويكتشفون عقدة أوديب وقلق الأخصاء، ويقرون بتحويلات قوية مع المحللين. أما المرضى الذين يزورون يونغ، فيقوم بتحليلهم، فهم يحلمون بأحلام يونغ، ويكتشفون إسقاطاتهم، وظغائنهم ويحققون فرديتهم وهكذا الحال مع كل مدرسة ديناميكية وغيرها من المدارس، وكالحال مع قضية ديكارت المشهورة «الشيطان الماكر»، فإن هذا الشيطان إذا كان موجودا على الحقيقة فقد يؤكد بذاته جميع نظريات طب الأمراض العقلية الديناميكي.[142]

ولكن قبل كل شيء، لماذا نتحدث عن الشيطان الماكر إذا كان يخضعنا؟ إن هذا لم يكن، لأن الأسطورة التاريخية التي أعدها فرويد تخفي اختلاق وتاريخية الظواهر المحللة التي أرغمنا على أن نستنتج أنها كانت وهمية، بل لم يقل البعض أن التعاقد المشروع هو تخييل؛ لمجرد أن الحقيقة الواقعية التي يخترعها لا تكون موجودة على نحو مسبق لوجود العقد التي وقع عليها؟ وأن اللعبة محروقة

بلعبة كريكيت ليست واقعية، لأن قواعدها متفق عليها على نحو خاص؟ ولما كان المشاركون في اللعبة، يحترمون القواعد والتعاقد، ومن ثم يجعلونها حقيقة وعلى المستوى التركيبي، فقد يصدق الشيء نفسه على التحليل النفسي، وعلم أشكال أخرى من الطب العلاجي، ثم إن هذه الممارسات لا تعكس حقيقة العالم إنها تخلق قطاعا منه، ولا يوجد في هذا خطابا، مادام المتصارعون لا يبحثون أن يفرضوا عالمهم على أولئك الذين لم يقعوا على حدوثه ولم يقبلوه قط.[143] وقبل كل شيء، فهم كما يقول ديلبوف : «كانوا على حق وصواب»، ومن جهة نظر فرويد، فإن كل من كان حيا، وكان يعيش، فهو يوجد لديه لا شعور، وعقدة أوديب، ولا توجد إمكانية لاعتبار هذه الأمور كاختيار، وتختار كذلك لفائدة أشكال من السرد الذاتي، وعندما يواجهنا النظام الذي يصدق بذاته على هذا النمط، يصبح السؤال ذو الدلالة والمغزى؛ ليس هو أن نعرف ما إذا كان طرحه صحيحا أو خاطئا، واقعيا أم مبتدعا، تاريخيا أو أسطوريا، بل بالأحرى هو أن نفهم كيف يؤدى وظيفته التي تتفاعل ضمن العوالم الداخلية.

جاسترو : لكن في سائر ضروب التواصل الزاخرة عند فرويد الكثيرة جدا لدرجة أنها أصبحت لا طعم لها، وتحاك وتكرر فيها مغامرات أوديب الفرويدية فإني لم أجد عبارة تشير إلى الكيفية التي بها نشأت نظرية الزنا بالمحارم.

وقد يقرأ الإنسان ويكرر القراءة فيعثر على أنها قد اكتشفت في التحليل وهي من ثم تعني، إن جردت من محتواها الواقعي، بأنها نظرية قد قبلها بعض العصابيين المتألمين الذين خضعوا للتحليل، وذكروا حوادثهم وعلاقاتهم بطفولتهم، وما حدث فيها من تخييلات يمكن أن توصف كلها عند فرويد بهذه العبارة المستعملة في الإجراءات المعتادة، عند تلقيه الاعترافات التي تكون فيها الواقعة، والمتخيل والإيحاء متفاعلة بدقة متناهية.

وعندما تنطلق هذه الدعاوى، فإنها تقبل بفوارق من لدن الأتباع كمذهب عتيق يصدقونه.[144]

ووهلجيموث : وإذا أردت أن أعالج رجلا به آثار جروح هستيرية، فإني أرغمه على أن يقبل الإيحاء، وإذا لم أستطع أن أقول له ذلك سواء عن طريق التنويم أو بغيره، فقد تختفي تلك الندوب أو الآثار الهستيرية عن طريق التكرار

الذي لا ينقطع حتى يتحسن، ولربما نجحت في ذلك نجاحا باهرا إذا جعلته يعتقد أنه كان يتألم من بعض العقد، وحينئذ سيكتشفها بمنهاج التحليل النفسي. وإذا، كان يجب أن أجعله يقبل الإيحاء، لأن ذلك لا يكون بغيره.[145]

بروير النضاح

إلا أن الإنسان قد يطرح التساؤل عما يحدث إذا اعترض على التحليل النفسي، ولا يقبل التأويل (اللازم عن الإيحاء) الذي يقترحه عليه. فهل يمكن أن يكون اصطناع التفسير مشروعا في هذه الحالة : والأمثلة التي نظرنا فيها الآن تخص حالات كان فيها الطرفان يقبلان التركيبات والتفسيرات المتبادلة للمحلل ويعيدان تعديل الوجوه، وكتابة التاريخ الشخصي على هذا الأساس.

ولكن، ما القول في الأحوال التي يرفض فيها أحد الطرفين التفسيرات المصطنعة أو المتبادلة، بل وقد يأتي أن يوصل اللعب، ويسايرها عند مقاومة التحليل ! وما الرأي في الاتباع المرتدين الذين يقترحون تفسيرات منافسة لا تتلاءم ولا تتفق مع أستاذهم؟ وهل الأصدقاء أو الزملاء والمتشككون هم الذين يطلبون البراهين قبل أن يقبلوا نظرية التحليل النفسي؟ وفي مثل هذه الأحوال لا يوجد إجماع واضح. ولا يمكن للإنسان أن يعتمد على موافقة أولئك الذين اقترحت عليهم النظريات حتى يجعلوها صحيحة ويحولوها إلى حقائق، وعلى العكس من ذلك، فقد يرجع الإنسان إلى محل النزاع؛ حيث نوقشت الافتراضات والتأويلات نقاشا مثيرا، واعتبرت الوقائع المطروحة في هذا النزاع، لا تثبت هنا ولا تقبل على نحو كلي.

وقد كانت إجابة فرويد على مثل هؤلاء الأفراد الذين كان يواجههم على نحو مستمر إجابة واضحة. وطبق عليهمالعلاج نفسه، في شكل التفسيرات التي كان يعطيها لمرضاه. ويبدو أن هذا كان قد ابتدأ ينعت به سرا الجنسية المثلية المكفوفة، وجنون الهذاء عند فليس، بعد أن أزعجه نزاعه معه في ما يخص مسألة الأولية في هذا العالم، والسرقة وانتحال رأي الآخر.[146]

من فرويد إلى يونج 1 فبراير 1907 : وإني لشديد الميل إلى أن أعالج أولئك الزملاء الذين يعرضون مقاومة كما أداوي المرضى في مثل هذه الموقف.[147]

وإذا لم يقبل أصدقاؤه نظرياته، فذلك لأن الجنس مكبوت (حال بروير وطب الأمراض العقلية الألمانية)؛ لأنهم منحرفون (شتيكل)، وعصابيون (رانك)[148] وجنون الهذاء (مثل فليس وأدلر، وفرنزي)[149] ومن يقتربون من عتبة الذهان (يونج)[150]، أو في شروط المرض العقلي (رانك أيضا[151])، ومن خلال إسناد: «المقاومات» التي يعترض بها خصومه على نظرياته في المقاومات التي ترجع إلى لاشعورهم، تقديرا وتخمينا، يكون فرويد قد أصاب عصفورين بحجر واحد فمن ناحية أولى، يكون قد نزع بالفعل المشروعية عن أولئك الذين يعارضونه من خلال تحويلهم إلى دمى، تحركها قوى خارجة عن ضبطهم؛ ومن ناحية ثانية، أوقف فرويد كل نقاش عن موضوع نظرياته، وتفسيراته لما قدر مسبقا ما هو موضوع النقاش: وجود اللاشعور الفرويدي، والامتياز المقصور على المحلل النفساني ليفك رموز مظاهره، ونرى هنا الآليات والميكانيزمات المألوفة لتفسير التحليل النفسي المتبادل: من وضع الافتراض إلى إثباته إذ صار اللاشعور الفرويدي حقيقة ثابتة، لا تقبل الجدال، كما أن فرويد كان قد ربح النزاع وطوى النقاش وهنا لا يحتاج أن يطلب تصديق خصومه أو أن يحسب لاعتراضاتهم حسابا يعتد بها، وكما أثبت عالم النفس أدولف ووهلجيموث في قوله[152]: «ربحت الرؤوس وخسرت الأذناب».

فرويد: وهكذا، فإن المقاومات الشديدة ضد التحليل النفسي ليست من نوع المقاومة الفكرية، بل إنها ناشئة عن مصادر عاطفية، وهذا يفسر طابعها الانفعالي، كما يفسر فقرها المنطقي، ويخضع الموقف لصياغة بسيطة: يسلك الناس في معظمهم إزاء التحليل النفسي على النحو نفسه الذي يتصرف فيه العصابيون الأفراد تحت علاج اضطراباتهم... وهذا الوضع هو في الوقت عينه منذر بالخطر، ومسل: فهو منذر بالخطر لأنه لم يوجد شيء له مواجهة كمواجهة الجنس البشري كمريض واحد، ومسل، لأن كل شيء يحدث يكون أشبه شيء بافتراضات التحليل النفسي، ومن ثم يعلن على أنه مرتبط به.[153]

ويخلط هذا الاتجاه نمطين مختلفين من العلاقات: علاقة التعاقد المتفق عليه بين الطبيب المعالج ومرضاه، وعلاقة النقاش العلمي لمحصلين من العلماء فيكون من الضروري فيه محاولة إقناع الأصدقاء والخصوم، وهناك شيء واحد يؤدي

بالمرضى إلى قبول التفسيرات في علاقة علاجية متعاقد عليها، قد تنتهي في أي وقت؛ هذا أمر واحد، وهناك أمر آخر، وهو أن ينتحل الإنسان اعتقاد أن هذه التفسيرات يمكن أن تنطبق على الأنداد، بشكل متساو عليهم وعلى غيرهم على الرغم من الاحتجاجات القائمة حقيقة، وحينما تقع تعمية الحدود الفاصلة عن قصد بين هذه الميادين، يكون فرويد قد رفع بدون وجه حق إلى أعلى درجة الاختيار الوجودي لعلاقة التحليل النفسي؛ حيث يتفق المشاركون في ما بينهم على أن يحددوا عالما حسب ذوقهم لغرض فائدة علاجية ضمن الوجود الأنطولوجي العام، وهذا علم كلي يمكن أن يطبق على الجميع.

ومن الواضح أن فرويد لم يكن قط راضيا عن نظرياته كتفسيرات متبادلة أو عن بينته كحقيقة مصطنعة، متفاوض عليها باتفاق مع مرضاه؛ لأنه لو كان قد رضي عن ذلك لأمكن أن نرد التحليل النفسي إلى مجرد تقنية فنية لمعالجة أو مناورة ماهرة بشكل واحد من «العلاج السيكولوجي»، من بين سائر الأنواع الأخرى من العلاجات؛ إذ كان غرضه أن يؤسس التحليل النفسي كعلم الطب النفسي القائم على السيكولوجيا الصحيحة الكلية، ونتيجة لذلك، كانت الوقائع «المتينة» ضرورية، فهذه الإرادة المخلصة للعلم هي التي قدمت التفسير الأسطوري لفرويد كأمر قائم الذات «حدثا تام الإيجاز» محيطا بالعمل المتمهل لبناء البراهين والحجج.

يونج : لقد روى أستاذ مشهور، غامرت بأن انتقدت أقواله، الحديث الذائع الصيت «ينبغي أن يكون هذا صحيحا لأنني فكرت فيه...».[154]

مقابلة ليونج مع كورت أيسلر 25 غشت 1953 : مثلا، ذات يوم تناقشت مع فرويد حول بعض الموضوعات النظرية وقلت له : «في رأيي هذه القضية ليست صحيحة» فرد علي قائلا : «إنه ينبغي أن تكون صحيحة» وسألته : ما السبب في ذلك إذا،؟ قال : «لأني درستها وفكرت فيها مليا !» وأنت تعلم أنه عندما كان يفكر في شيء، كان يقتنع به، وإذا، ينبغي أن يكون صحيحا».[155]

من يونج ارنست هنهارت 18 فبراير 1957 : إن التقييم الذاتي المبالغ فيه في تفكير فرويد توضحه القولة المشهورة : «ينبغي أن يكون هذا الأمر صحيحا لأني فكرت فيه !».[156]

مقابلة يونج مع هيجو كارتريز 21 يناير 1960 : يجب أن نتصور هذا، لقد قال لي فرويد مرة : «لقد فكرت في هذا الأمر، وإذا، يجب أن يكون حقا صوابا». [157]

ومن هذه الوجهة من النظر لدى المحصلين من العلماء في المناقشات الحديثة، فإن هذا الشكل من التفسير المصطنع الذي أغلق باب الجدال والنزاع على نحو سحري، قبل أن يشرع فيه بوجه خاص كان شكلا غير مشروع ولا مقبول. ولم يعد يتطلب موافقة أولئك الذين احترموه، بل بالعكس، كان مضرّا بهم؛ إذ حول العبارات والقضايا المطروحة للنقاش الإجرائي لدى المجالس إلى صيغ قارة وأوامر لا تقبل الجدال، وهي قضايا كان يمكن أن تقبل ضمن علاقة طبية علاجية متفق عليها، في إطار اتخاذ موفق من لدن أولئك الذين اقترحوها، كما كان يمكن أن تؤدي وظيفتها على نحو مختلف خارجا عن هذه السياق، في حين أنها فرضت على أفراد ضد إرادتها. وبهذا الاعتبار، فإن التفسير المصطنع انقلب إلى مغالطة إعادة كتابة التاريخ.

أرنست جونر : إن رانك وفرنزي كانا عضوين (من اللجنة السرية) وهما لا يستطيعان بأن يصمدا إلى النهاية، وهكذا فإن فرانك كان في حالة مأساوية، وكان فرنزي أكثر ميلا إلى إنهاء حياته تدريجيا؛ إذ قد نشأت لديهما معا مظاهر ذهائية فانحرفا عن فرويد ومذهبه، ومن ثم انصرفا عنه. [158]

بيترجي 1923 : لقد اجتاز رانك تجربة قاسية من فترات الحزن التي تشير إلى صراع غير إرادي، وفي شهر غشت من هذه السنة، أثناء وجبة طعام مع لجنة في سان كرستوفورو، كانت آن فرويد قد شهدت هيجانا عاطفيا؛ وصفته في ما بعد على أنه «مرح هستيري» وقد ابتدأ فرانك بشؤمه، بعشق تقنيات ومواقف نظرية تحركت به بعيدا عن الآراء التي كان تشبع بها لعقدين، وناضل من أجلها كثيرا للترويج لها. [159]

وهذه القضايا هي أمثلة صارخة للطابع الاغتيالي الذي كان يمارس لنزع الشرعية عن التجديدات النظرية والفنية لأكبر اتباع فرويد المخلصين له حتى الآن.

وأوضح مثال بسيط، يمكن أن نعتبره في الطريقة التي أدار بها الصراع بينه وبين صديقه القديم ومساعده جوزيف بروير.

ففي سنة 1909، كان فرويد في محاضراته داخل جامعة كلارك، لا يتردد في أن ينتسب إلى أبوة التحليل النفسي عند بروير.

فرويد: سيداتي، سادتي، إنه لإحساس غريب وجديد أن أجد نفسي في العالم الجديد محاضرا أمام حضور كريم متطلع إلى البحث... وإذا كان هناك استحقاق لحمل التحليل النفسي، وإدخاله في الوجود، فإن هذا الاستحقاق لا يرجع إلى شخصي، فأنا لم أكن مشاركا في بداياته الأولى، فلقد كنت طالبا، مشتغلا بامتحاناتي الأخيرة في ذلك الوقت، حينما استعمل طبيب من فيينا الدكتور جوزيف بروير ولأول مرة سنة 1880 هذه الطريقة لعلاج فتاة تعاني من الهستيريا.[160]

واتبع فرويد هذا الخطاب بوصف طويل متحدثا عن العلاج المشهور لحالة آنO، وقدمه على أنه علاج ناجح تماما.

كما قدم المنهاج التطهيري الذي كان بروير وفرويد قد طوراه معا، غير أن فرويد بعد خمس سنوات، كان قد غير في كتابه «تاريخ حركة التحليل النفسي» لهجته تغييرا كاملا.

فرويد : لقد اعتاد بعض خصوم التحليل النفسي أن يتذكروا في بعض المناسبات أن فن التحليل النفسي لم يكن في أول أمره من ابتكاري، بل من ابتكار بروير، فأنا لم أسمع قط بأن النصيب الأوفر في التحليل النفسي إنما يستحقه بروير على مقدار متناسب من النقد وسوء التقدير؛ وكما اعترفت مرارا وتكرارا بأنه لكي يثار هذا التناقض، ويدفع بهذه المرارة التي كانت محتومة، خلصت إلى نتيجة وهي أنه يجب أن أكون أنا الذي أصلت لهذا العلم، في كل خاصية من خواصه تأصيلا حقيقيا على نحو شامل.[161]

لم يعد فرويد فقط يلح على عدم موافقته واختلافه القائم بينه وبين بروير حول موضوع الآليات السيكولوجية للهستيريا (الدفاع ضد حالة التنويم)، بل أيضا صار يصف معلمه المخلص، على أنه باحث جبان تخيفه النزعة الجنسية التي كان عليه أن يقتنع بها حتى ينشر حاله آنO ضد إرادته، وأن يقطع علاقته به بعد نشر (دراسات عن الهستيريا)، بل أكثر من ذلك، كان فرويد يشير من طرف خفي علانية ولأول مرة، بأن نهاية علاج آن كان أكثر غموضا، مما أباح به، وحتى الآن لم يكن مفهوما.

فرويد : غير أني متأكد بأن هذا التعارض بين وجهتي نظرنا في ما يخص آلية العلاج الطبي للهستيريا، لا توجد له أية علاقة مع فصم صلتنا التي أعقبت ذلك بزمن يسير.

وكان لذلك أسباب عميقة؛ إلا أنه حدث ذلك الانقطاع في أول الأمر لسبب لا أفهمه، على أني لم أتبين السبب إلا بعد أن علمت من إشارات كثيرة واضحة كيف أنه كان قد فسر ذلك التعارض، وينبغي أن نتذكر بأن بروير كان يقول عن أول مريضة له، بأن العنصر الجنسي لم يكن متطورا على نحو مدهش عندها ومن ثم، فهي لم تسهم بأي شيء في الكلينيكية لهذه الحالة[162] ... وفي علاجه لهذه الحالة، كان بروير قادرا أن يستعمل الصلة الإيحائية المكثفة مع مريضته[163]، مما كان يمكنه أن يقدم أول أنموذج كامل لما نسميه في يومنا «التحويل»، وإذا، يوجد لدي الآن من الأسباب القوية ما يجعلني أرتاب أولا وقبل كل شيء بأن ما حررته من أعراض، وتخلصت منها، كان يجب على بروير أن يكتشف من هذه العلامات الدوافع الجنسية لهذا التحويل، لكن الطبيعة الكلية لهذه الظاهرة غير المتوقعة غابت عنه، مع نتيجة أنه توقف فجأة عن كل بحث آخر لما واجهه هذا «الحدث المشؤوم» ولم يطلعني قط على فحواه بتعبير واضح؛ وإن كان قد قدم لي مفاتيح كافية في أوقات مختلفة لأخمن ما حدث في هذا الظرف.[164]

ولكن، ماذا ترشح بين سنتي 1909 و1914، حتى أباح لنفسه إعادة الكتابة المدهشة عن تأسيس حادث التحليل النفسي؟ ولماذا هذا التغيير المفاجئ الكامل في دور بروير في هذا الموضوع؟ وقد يمكن أن نعثر على بعض التفسيرات في سياقات مختلفة وفي لحظات كان فرويد يلمح فيها : مثلا في سنة 1919، كان يتحدث أمام حضور متميز من علماء الأعصاب الأمريكيين أطباء الأمراض العقلية والسيكولوجي وغيرهم، ممن كان معظمهم لا يعرف إلا الشيء القليل فقط[165] كمشارك في كتابة (دراسات عن الهستيريا)، وكمنشط لطريقة العلاج النفسي الجديدة، وهي منهاج بروير- فرويد الذي كان يختلط في غالب الأحيان مع بعض أشكال العلاجات الأخرى القائمة على التنويم والإيحاء والمشتقة من التحليل السيكولوجي عند جاني[166]، وكما أكد أوجين تايلور وغيره، كان فرويد يعتقد أنه أكبر كاتب من الاثنين[167] ومنذ عشر سنوات خلت كان فوريل في تقديمه

للاحتفال بعشر سنوات من حياة جامعة كلارك، قد قدم عمل بروير وفرويد كفن من الطب العلاجي التنويمي، الذي كان فوريل نفسه أحد أكبر المؤيدين له في أوروبا.

فوريل : ومن جهة أخرى، فإن بعض الدوافع المفردة على نحو غامض، ولكنه متكرر تخلف وراءها دوام الكف أو المنبهات ولربما بعض الاضطرابات في الوظيفة التي يمكن أن تتخذ طابعا مرضيا باثولوجيا قد يعذب الضحية عذابا أليما وقد كان بروير وفرويد، منذ سنوات قليلة يستعملان مثل هذه الأفكار في فيينا لتأسيس مذهبهما على الانفعالات المكبوتة التي كانت قد نمت لسوء الحظ، داخل نظام أحادي، بالرغم من أنه كان قد انطلق من وقائع صحيحة. وهكذا، فإن هذه الانفعالات الوجدانية العنيفة بوجه خاص قادرة على أن تتخلف وراء سائر أنواع الاضطرابات العصبية (من التشنجات والشلل والآلام المبرحة، عسر الهضم واضطرابات الطمث) وقد حاول كل من بروير وفرويد أن يقودا المرضى في شروط تنويمية إلى علة لحظة الاضطراب الجنسي، المتكرر النسيان، وأن يجعلاهم يحلمون بتلك اللحظة، ويعطونهم مرة واحدة وإلى الأبد إيحاء مقابلا يشفي من الاضطراب، وقد كان هذا العمل من جانبهما ناجحا في كثير من الحالات، ولكنه لم يكن إطلاقا ينجح دائما.[168]

وإذا، لاشك أن فرويد كان واعيا بالسياق الأمريكي، الذي ظل جونز متمشيا معه[169] وهكذا ليس من الغريب أن يكون فرويد عندما نتحدث من المنصة التي كان فوريل قد تكلم منها منذ عشر سنوات مضت، قد أراد أن يستأنف تقديمه للتحليل النفسي، مع إعادة تلخيص علاج آن O، متجاوزا عن قطيعته مع بروير في موضوع العلة الجنسية الوحيدة للهستريا، وخلافا لذلك في سنة 1914، كما رأينا ذلك، كان يكتب في سياق مجادلات محتدة حول التحليل النفسي الذي كان يذكر فيه اسم بروير بشكل منظم كمعارض، ومنه نفهم أن فرويد ألح إلحاحا شديدا على المسافة التي تفصله عن إرث بروير، وكان من المحال أن يستمر هذا الأخير يقدم كأب غائب عن التحليل النفسي الفرويدي، كما كان يذكر باستمرار ضد فرويد، وعلى خلاف أنموذج الاستمرار والتقدم، استبدله بالقطيعة النظرية وبعبارة أخرى صار من الضروري أن يبين بأن منهاج التطهير كان قد انتهى، خلافا

لما كان يدعيه كل من فوريل وفرانك وبيزولا، وأن التحليل النفسي (بالتأويل الجنسي) يمكنه وحده أن يفسر السبب ويتغلب على مواطن ضعف الطريقة التطهيرية؛ والبرهنة على النقطة الأولى بذاتها لا تطرح أية صعوبة؛ مادام أن فرويد كان دائما يعرف أن علاج بيرثا بابينهايم لما يعرف بآنO، لم يكن نجاحا كاملا، خلافا لما كان يدعيه بروير وفرويد في «دراسات الهستريا».[170]

إذ في نهاية العلاج، فبدلا من أن نتخلص «من اضطراباتها الكثيرة التي عرضتها سابقا» كان بروير[171] قد وعدها بأن تتكفل بها مصحة خاصة في كروز لينجين بسويتزيلاند، باعتبارها تتألم من ألم عصبي وجهي «ألم العصب» والاختلاجات الشديدة، والمورفين والإدمان، والخبل العقلي الهستري.

تقرير بعثه بروير إلى روبرت بينسوانجر، مدير مصحة بيفلو في نصف شهر 1882 : تتألم المريضة اليوم من جنون هستري خفيف، معترفة في هذا الوقت، مخيبة أملها صحت أم لم تصح، وترى أحيانا عدم المعنى في أن يتجسس عليها الناس وما شابه ذلك، وهي تظهر سلوكا قبيحا على الزوار، ثم إنها تتناول كل يوم مقدارا من المورفين من 0,08 إلى 0,1 عن طريق الحقن.[172]

ولم يشر بروير إلى الألم العصبي لمريضته في تاريخ حالته 1985، ولا ذكر الإدمان على المورفين الذي نتج عن مجهوداته لتسكين اختلاجاتها، غير أن الألم العصبي ظهور بارزا من بين الأمراض التي ادعى هو وفرويد (في خطابهما الأولى) أنهما قادران على أن يتقصيا أثر صدمتها.[173] ولقد كان من الأهمية بمكان بالنسبة إلى زملائه في علم الأعصاب وطب الأمراض العقلية، أن يتعلموا أن العلاج التطهيري لأنموذج بروير المطبق على مريضته لم يزل إطلاقا هذا العرض.

وأكثر من ذلك، فإن بيرثا بابنهايم، عندما دخلت إلى مصحة بيلفو، نمت لديها عادة فقدان القدرة، كل مساء، على التحدث بلغة الأم الأصلية.

أولبرخت هيرشمولر : إن الإشارة إلى هذا العرض الأخير في تقرير كروزلينجن، هي بوجه خاص مثير للانتباه؛ منذ أن أثبت بروير في سنة 1895 بأن هذا العرض كان قد زال بجرة قلم، ومرة واحدة إلى الأبد، مع سرد التجربة الأولى الحاسمة.[174]

ونتيجة لذلك، كانت بيرثا بابنهايم قد مكثت ثلاث إقامات أخرى في المصحة الكلينيكية، وكانت كل إقامة تحت تشخيص الهستريا، وفي نهاية 1880 تقريبا، بست سنوات أو سبع، بعد نتيجة علاجها، مع بروير، فإنها كانت قد ابتدأت تتعافى - ولم يكن تعافيها يتعلق بشيء من العلاج المشهور الذي كان يدور حوله الحديث.[175]

هيرشمولر : وما هو مؤكد بالنسبة إلينا، هو أن الانطباع الذي يعطيه لنا بروير في «دراسات عن الهستريا» التي شفي منها المريض بصفة كاملة، هو انطباع لا ينسجم مع الوقائع.[176]

وإذا، قد كشف فرويد هذه الأسرار، وبذلك فرض أصول التحليل النفسي عند فوريل، وفي الحقيقة، لم يكن فرويد يضيع أي فرصة ليخبر بأغوار حركة التحليل النفسي، كما تعرف عن «التسريبات» المتنوعة، أو غيرها من الوثائق المحفوظة والتي خرجت حديثا إلى النور.

بوول بيجري :(1916) : وقد أضيف بأن المريضة (آنO) كانت تعاني من أزمة قاسية إضافية إلى ما أصابها من إجهاد عند وصف الحالة.[177]

يونج 1925 : وإذا، توجد أمور لا تصدق في سائر الحالات الأولى مما عالجه فرويد، ثم إن الحالة الأولى المشهورة التي عالجها بروير مع فرويد، والتي كثر اللغط حولها كمثال[178] على النجاح العلاجي الساطع، لم تكن من هذا النمط إطلاقا، ولكن قال لي فرويد بأنه استدعي لزيارة المرأة في الليلة نفسها، التي زارها فيها بروير آخر مرة وكانت في حالة نوبة هستيرية فظيعة، ناتجة عن توقف فجائي للتحويل.[179]

ذكر يونج لفرويد (1953) : وفي نهاية تاريخ حالة المريضة التي عالجها بروير قيل في حقها، إنها شفيت- من خلال تنظيف المداخن- كما قيل ويقال : إنها نظفت، إلا أنها لم تعالج قط. وعندما تكلفت بها (يعني وقعت في يد فرويد) كانت واقعة تحت نوبة هستيرية حادة، حينما تركها بروير.[180]

فرنزي مذكرة طبية 1 مايو 1932 : في أول الأمر ارتج فرويد وتضعضع ، ثم أفاق من غشيته ببعض التجارب أكثر مما فعل بروير، حينما انتكست مريضته.[181]

من فرويد إلى السيرأرثرتانسلي 20 نوفمبر 1932 : وفي تاريخ حالة بروير، يمكن أن تجد جملة قصيرة، لكن قد مر وقت معتبر جدا قبل أن تسترجع اتزان عقلها بكامله (من دراسات عن الهستيريا...) واختفت وراء هذا حقيقة وهي أنها بعد هروب بروير، تراجعت إلى الذهان، ولزمن قصير-كنت أفكر في 3/4 من السنة- وضعت في مؤسسة غير بعيدة من فيينا.[182]

والإشكال هو أن فرويد لم يستطع أن يستعمل هذا الدليل علانية بدون أن يخلق أساسا تاريخيا للحديث عن المداومة (عن طريق التطهير والتحليل). وافتضاح أنه كان متواطئا ومتورطا في إعلانات بروير المشبوهة في النجاح العلاجي المذكور (في دراسات عن الهسريا).

ولهذا الغرض، لن نعثر في أي موضع من الأعمال التي نشرها فرويد على ذكر لمعجزة البرء الخاص(معالجة آن O)، المتحدث عنه[183]، وخلافا لذلك، فإن ما نجده عنده انطلاقا من سنة 1914، مع ظهور كتابه (تاريخ حركة التحليل النفسي) هو إثبات أن هذا البرء الذائع الصيت، كان ناقصا من وجه آخر : إذ كانت المريضة (آنO) قد نما فيها «حب تحويلي»، وتعلقت ببروير الذي عجز أن يعترف وأن يحلل الطبيعة الجنسية لهذا التعلق؛ الذي اعتاد أن يستخدمه في إزالة الأعراض (وهذا تلخيص للرواية التي نشرت عن هذه الحالة).

إلا أن فرويد كان قد اعتنى عناية فائقة بتقديم هذا السر المنكشف متأخرا كتركيب- غالبا ما يعطي بعد فوات الأوان- لما قد حصل على الحقيقة، وقد تحدث فرويد «في تاريخه» عن «تخمين»، «وتأيل» و«شكوك» أسست على علاقات أو مفاتيح زوده بها بروير، الذي لم يقل له قط شيئا في كلمات معدودة.[184]

أما بروير، فهو في دراسة حياته الشخصية، وفي تأبينه، كان قد قد صرح بأن الأمر كان يتعلق «بتركيبات» وافتراضات.

فرويد : ثم وجدت بعد ذلك سببا لأن أفترض بأن العامل الانفعالي المحض هو الذي جعله يكره أن يذهب بعيدا في عمله، حتى تستبين وتستنفر له الأعصبة : لقد لاقى صعوبة كانت حاضرة باستمرار ولم تغب قط : وهي تحويل مريضته إزاء طبيبها، ولم يدرك هو الطبيعة غير الشرعية لهذه العملية.[185]

فرويد ؛ وكانت المريضة قد تعافت وظلت جيدة، وفي الحقيقة، صارت قادرة على أن تعمل بجد؛إلا أنه في نهاية مرحلة العلاج بالتنويم، بقي هناك حجاب من الظلام الكثيف لم يرفعه لي برويير قط، فلم أفهم لماذا ظل محتفظا بهذا السر زمنا طويلا؛ مما بدا لي أنه اكتشاف لا يقدر بثمن في سبيل إغناء العلم به...ومن السهل أن نرى بأنه جبن عن أن يعترف بالعلة الجنسية للأعصبة.[186]

ولربما كان يريد أن يصدمني أو على الأقل أن يثبط عزمي، بأن دلني على أول مريضة له؛ مما لم تكن تلعب فيها العوامل الجنسية أي دور كحالة خاصة، ثم طوى ذكر هذه الحالة، وما لم أستطع أن أفهم علة ذلك إلى أن تمكنت من أن أفسر هذه الحالة على نحو صحيح، وأعدت بناءها من بعض الملاحظات التي كان قد قام بها نتيجة لعلاجه لها، وبعد أن ظهر أن عملية التطهير كانت قد تمت، لم تلبث الفتاة أن طورت حالة «تحويل الحب»، لكنه لم يربط هذه الحالة بمرضها، وإذا، فقد انسحب فزعا.[187]

وفي رسالة من فرويد إلى خطيبته، يبدأ تاريخها من هذه الفترة، نجد بالرغم من ذلك، حكاية مختلفة.

من فرويد إلى مارثا برني 31 أكتوبر 1883 : وأيضا كان لبرويير رأي سديد عنها، ثم بعد ذلك أعلن صراحة أنها لا تعالج؛ لأن زوجها السعيد هددها بأنها ستفصل عنه، ولم تكد المسكينة تتحمل ذلك، لأنها كانت مخلصة كأخلص ما تكون آمرة، وكانت تتحدث عنه باهتمام واضح، وكانت شديدة الغيرة على زواجها أكثر من أي شيء آخر؛ إلا آنهماك زوجها كان لغيرها؛ لا على نحو قبيح ومهين فقط، وإنما على نحو يمكن أن يقال عنه أنه تخلى عنها، وهكذا أحست بالمرض وفقدت قوتها، إلى أن اتضح لها بعد ذلك كما اتضح له، فاطلع على السبب الذي ألجأه بطبيعة الأمر إلى أن ينفض يديه من كل نشاط معها كطبيب. فهل لك يا مارثا أن تصربي صفحا عن ذلك! إنه لا شيء أضر بالشرف من ذلك بل هذا شيء ينبغي طي ذكره، ويحتفظ به المرء لنفسه ولكل عزيز عليه. وقد عرفت هذا عنه شخصيا.[188]

وهنا، فإن فرويد يصر على الإشارة إلى «قيمة» برويير، وأهميته في معالجة بيرثا بابينهايم، ومما عبر عنه في تأبينه لبرويير رافعا من قدره في الليبدو الطبية، إذا جار هذا

التعبير، غير أنه في إعادة التركيبات التي نشرها، كان يتحدث عن حب تحويلي مارسته بيرتا بابينهايم على بروير. ولا شيء مما في رسالته إلى مارثا، أو في أي وثيقة أخرى يسند هذه الرواية التي تتناقض مع سائر معلوماته عنها[189]، ويبدو أن هذا كان تأويلا افتعله فرويد، حتى يكون متفقا مع نظرية التحليل النفسي؛ إلا أنه غير مسجل، وغير مدون في ما يعرف عن حياة بيرثا بابينهايم، وجميع التفسيرات متفقة حول هذا الموضوع، وتؤيد رواية بروير عنها: وهي أن بيرثا بلبينهايم كانت محرومة من الجنس ،على معنى أنها خالية منه ولا تعرفه، وقد بقيت طوال حياتها هكذا، وبطبيعة الأمر، فإن هذا بالضبط ما كانت إعادة كتابة تاريخ التحليل النفسي تقصد أن تنكره إلى جانب اعتراضات بروير وأنصار فوريل.

وكما أكد كل من جون فورستر ولورا كميرون، فإن حالة (آنO) أصبحت بالنسبة إلى فرويد ما يمكن أن يسمى (بالتجربة الحاسمة الممكنة)، عليها تتوقف صحة نظرية التحليل النفسي، وكان من الضروري[190] بالنسبة إليه أن يثبت أن خلو (آنO) من الجنس، وإن كان لا يكذب نظريته فهو أمر مصطنع ليس إلا.

وحكاية التفسير المصطنع لنهاية علاج (آنO) تستوفي هذا الاقتضاء: إذ بانتساب (آنO) بيرثابابينهايج) إلى: «الحب التحويلي» الذي يجهله بروير يكون فرويد وضع مصيره كقدر مشؤوم ظهر كعرض متبقى عن تحويلها الذي لم يقع تحليله قط. وكما كتب إلى السيراثر تانسلي، فإن حديث الشفاء كان «حديثا عن شفاء ناقص». وباختصار، لقد قام بروير بعمل أخرق، وأفسد العلاج والذين ناصروه عرضوا أنفسهم لخيبة الأمل.

من فرويد إلى تانسلي 10 نوفمبر 1932: ونتيجة لما طرأ على حالة (مأسسة وضع آن O)، فإن المرض قد استمر بها وإن كان شفاؤه قد ظل ناقصا؛ واليوم وقد بلغت من العمر عتيا فوق 70 سنة ولم تتزوج قط، كما قال بروير الذي أتذكره جيدا، بأنه صرح بأنها لم تكن لها أي علاقة جنسية، وفي زهدها عن أي وظيفة جنسية، كانت قادرة على أن تظل محتفظة بصحتها: وقد ساعدها علاج بروير، إذا صح هذا التعبير، على فجيعتها، ومن الأهمية بمكان، أنها وقد ظلت نشطة كانت قد أخلصت، ونذرت نفسها لحزنها الأساس، مصارعة العبودية البيضاء.[192]

فرويد : وكانت مريضة بروير الأولى مصابة بالهستريا، مثبتة في مرحلة عندما كانت تتعهد أباها المريض مرضا خطيرا، وبالرغم من أنها كانت قد تعافت فقد ظلت إلى حد ما منفصلة عن الحياة ومتعافية، إلا أنها كانت تتجنب المجرى العادي لحياة المرأة.[193]

وليس يستحق الذكر أن يبنى هذا التركيب بكامله على تأويل مصطنع وأن يكون من افتعله بدون معرفة بالجوانب الأساس التي ولا شك قد تكون احتجت احتجاجا قويا، قد استشار بعض الناس (ويشبه[193] أن بروير قام بهذا الفعل بالضبط) وإذا كان فوريل يريد أن يوضح لنفسه حدث (آن O)، فهو قد بذل جهدا لجمع شهادة حقيقية عند بروير، والوصول إلى بينة قاطعة، وكالحال مع فرويد كان قد أحجم عن أن يقوم بهذا الفعل كما أمسك عن الاتصال ببرثابابينهايم (وقد كان من السهل عليه أن يتصل بها مادامت امرأته تعرفها شخصيا) وبدلا من ذلك فقد أثبت شهادتهم (غيابنا)، دعما لنظريته بدون أن يأخذ رأيهم، كما لم يأخذ آراء ليوناردو وشكسبير أوميكائيل أنجلو، وفي هذه الملابسات، من يكون من المحلفين (قراء وأصدقاء) قادرين أن يسألوا عن هذه التفسيرات، ماداموا لم يقدموا تأويلات واقعية، بل أحداثا «تاريخية»، اعتبرت كما لو وقعت بالفعل؟

وقد كان فرويد في الروايات المنشورة يلح على أن بروير لم يقل له شيئا عما حدث له، أو دار بينه وبين (آنO)، فكان يدعي في جلسات خاصة بأنه توصل بحكاية من بروير نفسه، أو أن هذا الأخير كان قد أثبت له على الأقل، تخميناته وظنونه.

برانسس ناري بونبارت، مذكرة 17 أكتوبر 1925 : بروير واعترافات فرولين (آنO) بعد عشر سنوات.[1955]

مذكرة بونبارت 16 دجنبر 1927 : لقد حكى لي فرويد قصة بروير وكانت ابنت بروير سألت أباها عنها، واعترف لها بكل ما كتبه في : Selbstdarstellung وقال بروير لفرويد : «ماذا دهاك حتى أقحمتني في هذا الأمر ا؟».[196]

من فرويد إلى ستفن زوريح 2 يونيه 1932 : إن ما جرى بالفعل مع مريضة بروير، هو أنني كنت خمنت حالتها في ما بعد، وذلك بعد زمن طويل من قطيعتنا

حينما تذكرت فجأة شيئا كان بروير قد أخبرني به في سياق آخر، قبل أن نبتدئ في مساعدة بعضنا بعضا، ثم طوى عني فكرة ذلك الشيء، وكنت قد اقتنعت تمام الاقتناع بما كنت قد ركبته من جديد، ونشرته في مكان آخر، وكانت ابنت بروير الكبرى (وهي كانت ولدت بزمن قليل بعد العلاج المشار إليه آنفا، ولا يخلو من دلالة هذا الترابط العميق)[197]، قد قرأت تقريري، وسألت أباها عنه (قبل موته بزمن قصير) وأكد لها روايتي، ثم أخبر بذلك في ما بعد.[198]

من فرويد إلى نانسلي 20 نوفمبر 1932 : لقد كان تخميني حول ما وقع بعدئذ لبروير مع مريضته الأولى صحيحا على وجه اليقين، ولقد أثبت بروير تلك التخمينات لبنته على نحو كامل. ولقد سألته ابنته، عندما قرأت دراسة سيرتي الذاتية حول تلك التخمينات.[199]

وقضية أن الرواية التي يفترض أن بروير كان قد أثبتها، أو اعترف بها، لا توجد في أي موضع من الدراسة المتعلقة بالسيرة الذاتية، ولا من أي نص من النصوص التي نشرها فرويد، ويبدو الكثير من الناس[200]، من يونغ وماري بونبارت وستفن زويج، أن فرويد ذكر حكايات خيالية أبعد ما تكون عن التصديق عن حكاية (آنO) التي افترض لها «الحب المحول» إلى بروير.

أوتوفرانك، اول محاضر أمريكي 1924 : لقد ولد التحليل النفسي في سنة 1881، وكان أبوه هو الطبيب، الدكتور جوزيف بروير، الذي ظل محتفظا بسر هذا المولود غير الشرعي، ثم تخلى بروير عن الطفل[201]؛ لأنه ظهر ابن زنى من الطب العملي الذي كان هو نفسه ممثلا له، وللطب النفسي الذي كان لا يزال مشكوكا فيه في ذلك الوقت... وحكاية القصة هي هذه : إنه لما كان بروير في يوم من الأيام يزور مريضته (آنO) وكانت متمايلة إلى التعافي، فإذا به يجدها مرة أخرى قد لزمت الفراش في توتر مصحوب باختلاجات قوية كانت دلالتها قد فحصها قبل ذلك، فصرخت مريضته عليه بأنها حامل بولد منه. وهذا وحده كاف ليفزع طبيبا محترما مثله، ونتيجة لذلك ترك دوره، إذا جاز التعبير، وأخذ الأمر بديه وصرح بأن مريضته مجنونة، وأمر بأن توضع في مستشفى الأمراض العقلية... وهناك لبعض الوقت، كان الوضع القاسي قد نحاها بإدراكها وطوعا.[202]

أبراهام أردن بريل، محاضرة في مرض الطب العقليي 4291 المعهد الباثولوجي في جناح من مستشفى إيسلندا :

وهناك سبب آخر، ولربما السبب النهائي لانسحاب بروير، فلقد كانت (آنO)، بعد أن تعافت، مصرة على أن تراه من أجل نصحها ومساعدتها على مشاكلها، وقد اعتاد بروير، متبعا في ذلك عادته، أن يخضعها للتنويم، وذات يوم، أقبلت المرأة الشابة إليه في حالة هسترية،، وبينما كان مستغرقا في إعداد الصيغة التنويمية، فإذا بها تمسكه وتقبله، وتعلن أنها حامل منه، وبطبيعة الأمر قد صعق الرجل الشيخ، وقرر أن هذه الفتاة بها مس من الجنون، أو أن العلاج في سائر أحداثه، أصبح خطرا عليها، وكانت تجربة بروير قاسية، ولم يكن قادرا على أن يتحمل معترك الحياة لفرط احتشامه، وكان هذا الحدث بلغ القمة، ثم قرر أن ينفصل عن فرويد.

مذكر بونبارت 16 دجنبر 1927 : ذكر لي فرويد قصة بروير : (قد حاولت امرأته أن تنتحر في نهاية علاج (آن-بيرثا)، وباقي القصة معروف : انتكاس (آن O)، هوسها بالحمل، وهروب بروير.[203]

من فرويد إلى ستفن زوريخ 2 يونيه 1932 : وفي مساء ذلك اليوم الذي كانت فيه جميع أعراضها موزعة، استدعي مرة أخرى إلى مريضته، فوجدها مختلطا عليها، وسجل تشنجات بطنها، وحينما سئلت عما بها : أجابت: الآن وقد حان موعد ميلاد ابن بروير، وفي هذه اللحظة، أمسك بروير بيده المفتاح الذي فتحت به : «أبواب الأمهات» إلا أنه تركه يفلت من بين يديه.[204] ومع كل مواهبه العقلية، لم يكن هناك شيء في طبيعته الخارقة كما لطبيعة فوست، وحينما باغته هذا الرعب المألوف، لاذ بالفرار تاركا مريضته إلى صديق له. وبعد ذلك، صارعت المريضة عدة شهور لاسترجاع صحتها في مصحة.[205]

يونج على إثر ذكره لفرويد (1953) : وعندما جاءتني (آنO) للعناية بها كان مصابها هو المصاب الذي تركها عليه بروير، كانت بها نوبة هستيرية فظيعة وكانت تصرخ قائلة : «الآن يولد طفل لبروير «إني أحتاج إلى الوليد !» إلا أن هذا ليس خاصية في تاريخ الحالة، وقال : إن كل هذا يعطي انطباعا قبيحا... وهكذا[206] ونحن نعلم أنه في 20 يونيه من سنة 1925 بمناسبة وفاة بروير، كان فرويد قد أرسل

تعزية إلى روبرت ابن بروير، مشيرا في رده إلى التقدير الذي كان يحظى به من جانب أبيه، ومساعدته في الأعمال الحديثة، وكتب فرويد: «لقد كان بلسما على جرح لم يندمل قط»[207]، وفي الرسائل المتبادلة التي تطبعها اللياقة، وهي رسائل تلاحقت بين فرويد وأسرة بروير[208]، لم نجد أي أثر لإثبات ادعاء فرويد على بروير في ما ذكر من دراسته السيرة الذاتية، ونرى أنه ليس من المحتمل أن «دورابروير» كانت قد أسرت بمثل هذا الخبر الحساس إلى أحد من الناس، إذ كان أبوها مقصيا مما يقرب من ثلاثين سنة، وكان ذا سمعة منحطة في دائرة الأسرة، وأيا كان الأمر وحتى لو أننا افترضنا أن بروير أثبت[209] ما كتبه فرويد في سيرة حياته، فمثل هذا الإثبات لا يمكن أن يطبق على أكثر تقدير إلا على خلط وتشويش انفعالي، أنجزه علاج بيرثا بابينهايم، وليس ميلاد الطفل الهستيري، مما كان أشاعه فرويد سرّا، أمر محتمل الوجود، وتقديم هذه الحكاية كحقيقة ثابتة، يشبه أن يكون حالة مأساوية لتأويل مغرض وغير قابل للتصديق، وهو تأويل قصده التنقيص من بروير والنيل من أتباعه.

غير أن أول من أعاد صياغة علاج بيرثا بابينهايم في أسلوب نظرية اللبيدو وأشاعها في الجمهور، لم يكن هو فرويد، وإنما ماكس إيتنجتون؛ الذي ابتدأ يراسل فرويد في سنة 1906، عندما كان يوجد في مستشفى بورغولزلي. وفي سنة 1907، ذهب لزيارته في فيينا[210] وفي دجنبر من سنة 1910، في الوقت الذي كان فيه أصحاب فرويد ينزعجون، من ادعاء حق مبادرة فوريل في التقدم، قدم إيتنجتون كلمة عن حالة بروير (أنO)، ونظر إليها من وجهة نظر التحليل النفسي في مؤتمر نظمه فرويد في فيينا حول موضوع (نظرية الأعصبة والطب النفسي).

وفي هذا النص[211] الذي عثر عليه أولبرخت هيرشمولر، في وثائق (إريش جومبيل وهو مدير معهد ماكس إيتنجتون في بيت المقدس)[212] قام هذا الأخير بمراجعة نقدية لتاريخ حالة بروير، أكد فيها على طابع ما قبل التحليل النفسي على معنى أنه غير مكتمل؛ وذلك أن بر وير كان يلح على الطابع غير الجنسي في مجموعه أعراض مرض) (آنO)، وهي بجانب أبيها المريض كانت قد خصبت خيالها بالزنا بالمحارم كحال توهمها حاملا، وهي ما كتبته تبعا لذلك، وحولته إلى بروير الذي استبدلته بوفاة أبيها.

ماكس ايتنجتون : كانت (آنO) في حال من الإغماء وفقر الدم والاشمئزاز من الأكل، وأصبح كل هذا من القبح والبشاعة حتى أنها في أقسى ألمها كانت تريد أن تباعد بنفسها من عناية الشخص المريض، وهكذا كانت تهرب، وفي الوقت نفسه، نتيجة لهذا الوضع ، أصبحت طريحة الفراش وكذلك أيضا كانت تذهب إلى الفراش، حتى ولو كان غير فراشها، ولم يكن العرض المركب السابق إلا مشابها للتعبير عن توهم الحمل.[214]

وبعد أن انتقد إيتنجتون عمى بروير عن التحويل الذي كان تعرض له، فإنه قد استغرب في نهاية الأمر الأسباب الحقيقية لشفاء (آنO)، مستنتجا أن المنهاج التطهيري الذي طبقه أنصار فوريل كان غير دقيق ولا متقن، وعفا عليه الزمان (وبطبيعة الأمر كان هذا هو موضوع حديثه بكامله).

إيتنجتون : ولم تعد الطريقة التطهيرية، ومنذ أمد بعيد، بالرغم من كونها لا يزال لها أتباع ، ينظر إليها كمنهاج طبي عقلاني.[215]

وليس من الواضح إلى أي حد كان إيتنجتون مجرد مقلد للأحاديث التي أجراها مع فرويد، أم ما إذا كان مقترحا لتأويل أصيل ابتكره هو وأيا كان الأمر فإنه من الواضح أن إعادة قراءة تاريخ حالة بروير، كان يقصد إليها، بأثر رجعي، أن توضع بانسجام مع التطورات التالية لنظرية التحليل النفسي، والقضية المتخيلة عن ميلاد طفل في حالة هسترية (آنO)، تضفي لونا على هذا التأويل النظري وحتى كورت إيسلر، في آخر إهداء له، دفاعا عن استقامة فرويد الأخلاقية ووقوفه ضد الطاعنين عليه، كان قد اضطر إلى أن يعترف بهذه الحقيقة، متحدثا بهذا الاعتبار : «عن هذا الانحراف الذي لا يكاد يصدق» في حق بطله.

كورت ايسلر : وصحيح أن رواية فرويد يجوز أن تكون في كليتها كاذبة كوثيقة يعول عليها؛ لكن فرويد ينبغي أن يعتمد عليه كناقل للأحداث، وقد تكون أحيانا بالغة الدقة...إلا أن هاهنا حدثا وقع ضحيته نتيجة اضطراب التعرف المفرط في الجهل...إذ ازدواجية فرويد لثوتيق بروير، وعدم الاحتمالية المفرطة في التضليل للأفعال التي نسبها إلى بروير، والتناقضات الكثيرة القاتلة لتفسيره الخاص ببينة توثيقة؛ كل هذا لا يترك أي شك في أن فرويد وقع ضحية كتوهمه الشخصي في رسالته إلى زويج، ذلك أن الملاحظة المزعومة على

بروير، أيا كان نوعها، ينبغي أن تخضع في لاشعور فرويد، إلى إعداد وتهيئ إلى أن ظهر بعد لأي، وفي عقود متأخرة، مركب معاد فيه النظر، مع قناعته بفكرة غامضة عن الواقع...

وكان يجب أن يتوقع فرويد بأن تصحيحه صورة بروير لزويج أمكن أن يجد طريقة إلى النشر، ولكن لماذا كان هذا الإصرار على تشويه سمعة بروير، بعد عدة عقود؟ ولا يدل هذا الفعل فقط على نكران الجميل، بل يدل على طيش وحماقة؛ إذ كان فرويد قد أفشى سرّا كثيرا ما كان يزعم أنه قد حصل تصديق في ذلك الوقت بشخص بروير وبصداقته.

وهكذا، يكون فريد قد تصرف هنا على نحو متناقض، مع أمانته المعتادة في طبعه؛ إذ ظهر ناكرا للجميل، طائشا، مفتريا.[216]

وبطبيعة الأمر، يحاول ايسلر أن يجعل القضية بكاملها داخلة تحت علم النفس، ناظرا إليها من وجهة عرض ازدواجية لاشعور فرويد نحو صديقه؛ مما يعطي مرة أخرى للتحليل النفسي الكلمة الأخيرة؛ إلا أن هذه المرحلة لا يمكن أن ترد إلى مرحلة شخصة، لأنها بكل وضوح تلعب دورا استراتيجيا، فإعادة كتابة تاريخ حالة (آنO)، كإعادة كتابة أصول التحليل النفسي، وقعت بالضبط في وقت حسم الخلاف العلمي، والتخلص من الوقائع المزعجة التي قد تحمل معها خطورة «تكذيب» النظرية الفرودية، وذخيرة حربية لخصومة؛ لأنه إذا صح أن كانت (آن O) فاقدة للجنسية، بطل التحليل النفسي الفرويدي. ومن ناحية أخرى، فإذا كانت منبطحة متقلبة على الأرض، ماسكة بطنها المتدلي، فهي بذلك تدحض التحليل النفسي الفوريلي، وجاعلة بروير أشبه ما يكون بالمغفل المعتوه، وسرد حكاية الانتصار على بروير حاسمة بالنسبة إلى فرويد، كصراع للتأويلات التي فرقتهما حتى ظهرت على ذلك النحو، وقدم للقراء حدث تاريخي وضع حدا للنقاش بصفة نهائية؛ من حيث إنه لا يمكن لأحد أن يثير هذا الإشكال بعد ذلك.

إلا أن هذا كان تأويلا مصطنعا، أما الذين انطلت عليهم الحيلة، فقد كان هذا التأويل (بدون فهم) مختلفا على الأحسن؛ وعلى الأسوإ كان افتراء محضا، وفي سنة 1953 نشر ارنست جونز، أول جزء من سيرة حياة فرويد، وفيها يكشف عن الهوية الحقيقية (لآنO)، ولأول مرة رأى الجمهور في ما يخص تاريخ

ميلادها الهستري (وهو الحبل الكاذب). والنهاية المنطقية لحمل شبحي، ويزعم جونز أنه تلقى هذا التفسير مباشرة من فرويد، إلا أنه اضاف ملاحظة تقول: إن مصدره في ما يخص السيرة الذاتية لبرثا بابنهايم، كان راويه لإحدى بنات عمومتها السيدة إينا لويزهن[218]، في 20 يونيه 1954 نشرت Aub bau، مجلة ناطقة بلغة المهاجرين الألمان في مدينة نيوبورك رسالة من السيد بول هامبرغر، منفذ وصية بيرثا بابينهايم:

بول هامبروغر: إني واحد من الأعضاء القلائل، القريبين من دائرة أسرة بيرثا بابينهايم ولا يزال حيا، ومن واجبي كمنفذ للوصية، أن أتحدث باسم الأسرة فإن هذه الأخيرة لم تكن قادرة على عدم الاعتذار لفقدان البر والإحسان، حتى تسمح بإبطال السر الطبي الذي ظلت تحتفظ به طوال حياتها، إلا أن الأسوأ من كشف اسمها، كما هو على حقيقته، هو أن الدكتور جونز في صفحة 225 من تقريره الخاص، كانت روايته زائفة وملفقة عن حياة بيرثا، بعد نتيجة علاج الدكتور بروير، فبدلا من أن يخبرنا كيف شفيت أخيرا، وكيف عاد لها رشدها على نحو كامل، وعاشت حياة جديدة من العمل المجتمعي النشط، فهو عرض علينا انطباعا يفهم منه أنها لم تشف قط، وأن نشاطها المجتمعي، وبرها وإحسانها كان كل ذلك مرحلة أخرى من تطور مرضها. وكل من عرف بيرثا بابينهايم طوال تلك العقود التي تبعت ذلك، يرى بأن هذه محاولة للتأويل على حساب شخص لم يعرف قط أن هذا افتراء على شخصها.[219]

ويمكن الاعتراض بأن ما هو محل النزاع هنا ليس شيئا آخر غير ضروب الفشل: «الإنساني من حيث هو إنسان» لفرويد، وهو فشل كان يخصه هو ذاته غير أن قصدنا هنا ليس أن نحكم على سلوك فرويد، ولا أن نقيم أخلاقيته، بل بالأحرى، نريد أن نبين دلالة الوظائف الاستراتيجية للتأويلات المصطنعة عند فرويد، لإثبات كيف أن التحليل النفسي أصبح بالنسبة إلى كثيرين من الناس حقيقة واقعية.

هوامش الفصل الثاني

1 - Hoche (1910), 1009.
2 - Aschaffenburg (1911), 754.
3 - Hitschmann (1911).
4 - Forel (1919), 224, 232 and 235. See Dessoir (1889).
5 - Cited by Ellenberger (1970), 806.
6 - Prince (1911), 348-9.
7 - Haberman (1914-15), 278-9.
8 - Wohlgemuth (1923), 246.
9 - Breuer (1895), 1717.
10 - Freud (1985), 447·
11 - Moll (1913), 190.
12 - James (1920), vol. 2, 327-8.
13 - Binet and Simon (1910), 94-5.
14 - Kronfeld (1912), I94.
15 - Janet (1919), vol. 2, 262.
16 - Haberman (1914-15), 276.
17 - Forel (1919), 229 and 234.
18 - Kraepelin (1913a), 938.
19 - Undated, Adolf Meyer papers, Johns Hopkins University, Baltimore.
20 - Wohlgemuth (1923), 246.
21 - Hollingworth (1930), 149.
22 - Jastrow (1932), 37-8; Jastrow's emphasis. Compare this with Wittgenstein's commentaty in 1942: 'Freud is constantly claiming to be scientific. But what he gives is speculation-something prior even to the formation of an hypothesis' (Wittgenstein 1966, 44; Wittgenstein's emphasis).
23 - Clarke (1896), 414.
24 - Gaupp (1900), 234.
25 - Forel (1906a), 214.
26 - Putnam (1906), 40.
27 - Muthmann (1907), 51. Muthmann didn't intend this as a critique of Freud, which is reflected in Freud's relatively benevolent response : 'He [Muthmann]

still lacks perspective, he treats discoveries made in 1893 in the same way as the most recent developments' (Freud and Jung 1974, 64) .

28 - Hoche (1910), 1008.

29 - Moll (1913 [1909]), 278-9.

30 - Hart (1929), 73-4.

31 - Popper (1963), 37-8.

32 - See Collins (1985) .

33 - Pickering (1995).

34 - Delbœuf (1993a), 259.

35 - Bernheim (1892 [1891]), 168-9.

36 - On this question of the artefact in experimental psychology and psychoanalysis, see Borch-Jacobsen (2009); Stengers (2002) ...

37 - On the 'persona! equation' in psychology, see Boring (1929), ch. 8, and Shamdasani (2003a), section 1.

38 - Devereux (1967).

39 - See Kohler's study (1994) on the laboratory fly Drosophila melanogaster, which continues in a literal manner the programme of an 'ecology' of experimental practices proposed by Clark and Fujimura (1992).

40 - Wohlgemuth (1923), 221.

41 - Freud (1925a), 41; our emphasis.

42 - Freud and Jung (1974), 6.

43 - Farel (1906b), 314.

44 - Prince (1911), 347.

45 - Cited in Adam (1923), 47.

46 - Hart (1929), 73.

47 - Woodworth (1917), 179-80.

48 - Jastrow (1932), 249-50.

49 - Freud (1925a), 42.

50 - On this subject, see the excellent remarks of Stengers (2oo2), ch. 4; as well as Borch-Jacobsen (2009), ch. 2.

51 - On this question of hypnosis in psychoanalysis, see Borch-Jacobsen (1987), reprinted in Borch-Jacobsen (1992).

52 - Frank (1961), 168.

53 - Freud (1925a), 42-3.

54 - Freud (1905b), 261; Freud's emphasis.

55 - Freud (1914b), 148-9 and 155-6.

56 - Freud (1916-17), 452.

57 - Grünbaum (1985), ch. 2, B.

58 - This point is well demonstrated by Assoun (1981), ch. 3. See also Siegfried Bernfeld to Hans Ansbacher, 26 May 1952: 'Freud belonged to the group of physicists and physiologists around Brücke, who prepared the way for the positivism of Mach and Avenarius. He certainly knew the Zeitschriift für wissenschaftliche Philosophie. In the 1890s, Mach struck him . .. In one form or another positivism was unquestionably his "natural" mode of thinking'

(Siegfried Bernfeld Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; cited by Ilse Grubrich-Simitis in Bernfeld and Cassirer Bernfeld, 1981, 260). Freud mentions his reading of Mach's The Analysis of Sensations in his letter to Fliess of 12 June 1900 (Freud 1985, 417).

59 - Freud (1915b), 117.

60 - Freud (1900), 598; (1926a), 194.

61 - Freud (1933), 95.

62 - Freud (1925a), 32.

63 - Freud (1917a), 142.

64 - Freud (1915b), 124.

65 - Mach (1976), 178; Mach's emphasis.

66 - Freud (1937a), 225.

67 - Freud (1920a), 60.

68 - Mach (1976), 8-9.

69 - Freud (1915b), 116.

70 - Mach (1976), 9.

71 - Freud (1923), 253-4.

72 - Freud (1914c), 77.

73 - Jacques Derrida, in Derrida and Roudinesco (2004), 282-3: 'Among the gestures that convinced me, seduced me in fact, is its indispensable audacity of thought, what I do not hesitate to call its courage: which here consists in writing, inscribing, signing "theoretical fictions" in the name of a knowledge without alibi (therefore the most "positive" knowledge). One thus recognizes two things at once: on the one hand, the irreducibile necessity of the strategem, of the transaction, the negotiation in knowledge, in the theorem, in the positing of truth, in its demonstration, in its "making known" or its "giving to understand," and on the other hand, the debt of all theoretical (but also juridical, ethical and political) *positing*, to a performative power structured by fiction, a figural invention ... The "friend of psychoanalysis" in me is mistrustful not of positive knowledge but of positivism and of the substantialization of metaphysical or metapsychological agencies' (Derrida's emphases). On the supposed 'athetic' and non-positional structure of Freudian speculation, see Derrida's 'To speculate-on "Freud"' in Derrida (1987). It seems that Derrida confounded the positivistic critique of metaphysics (evinced in Freud) with its Heideggerian deconstruction.

74 - Mach (1976), 120.

75 - Freud (1985), 264; (1895), 325-8.

76 - Mach (1976), 120: 'Observation and theory too are not sharply separable, since almost any observation is already influenced by theory and, if important enough, in turn reacts on theory.'

77 - MacCurdy (1923), 132.

78 - Jastrow (1932), 261.

79 - Freud (1985), 264.

80 - Freud (1925a), 34.

81 - Grünbaum (1985), 128.
82 - Woodworth (1917), 194.
83 - Hart (1929), 79 and 81.
84 - Wohlgemuth (1923), 162-3; Wohlgemuth's capitalisation.
85 - Huxley (1925), 319.
86 - Hollingworth (1930), 322.
87 - Freud (1910a), 42. Freud refers here to Bell's study of infantile sexuality (1902), which was based on 'no fewer than 2,500 positive observations in the course of fifteen years'.
88 -Gattel (1898) had tried to verify Freud's hypotheses on the subject of 'actual neuroses' on a cohort of 100 patients in Krafft-Ebing's psychiatric clinic. As we have also seen, Jung's association experiments were presented as an experimental verification of Freud's theory of repression.
89 - See Borch-Jacobsen (2009), ch. 6.
90 - Cited in Rosenzweig (1986), 38. Rosenzweig had sent Freud offprints of two of his articles, one of which was devoted to an experimental study of repression. According to Roy Grinker, who was present when Freud read Rosenzweig's articles, 'Freud threw the reprints across the table in a gesture of impatient rejection' (ibid.).
91 - Freud (1933), 322.
92 - Wohlgemuth (1923), 245.
93 - Hart (1929), 77.
94 - Freud (1925a), 49-50.
95 - Freud (1896b), 199.
96 - Freud (1925a), 23-4.
97 - Sigmund Freud Copyrights, Wivenhoe; cited in Gay (1988), 46.
98 - Freud (1925a), 59.
99 - Freud (1914a), 16-17.
100 - Freud (1913a), 182.
101 - Freud (1913a), 182; our emphasis.
102 - Freud and Abraham (2002), 229.
103 - Freud (1905a), 131.
104 - Freud (1913a), 181-2.
105 - Wohlgemuth (1923), 237.
106 - Huxley (1925), 319.
107 - Jastrow (1932), 227 and 229-30.
108 - Laplanche and Pontalis (1974), 405.
109 - Freud (1914a), 17-18.
110 - Freud (1925a), 33-4.
111 - Freud (1933), 120.
112 - Chodoff (1966), 508.
113 - Cioffi (1974).
114 - Freud (1896a), 153.
115 - Freud (1896b), 204.

116 - Freud (1985), 220-1.
117 - Freud (1913b), 141; our emphasis.
118 - Freud (1896b), 204.
129 - Löwenfeld (1899), 195-6.
120 - See for example Freud (1985), 227-8, 288-9.
121 - Freud (1985), 213.
122 - Freud (1985), 218, 223-4.
123 - An allusion to the ninth edition of Krafft-Ebing's Psychopathia sexualis (1894), which Freud was reading at the time (see Swales 1982a and 1983).
124 - Freud (1985), 219.
125 - Freud (1916-17), 367-8; Freud's emphasis.
126 - Ibid., 370-1; Freud's emphasis.
127 - Freud (1985), 226.
128 - For a critique of the debunking of belief, see Latour (1996), which intersects with the argument here.
129 - Chesterton (1923), 34-5.
130 - Alias Mr E in the letters to Fliess; the identity of this important patient was established by Swales (1996).
131 - Freud (1925), 32.
132 - Schimek (1987), 940-4.
133 - Freud (1985), 226.
134 - One should note that this 'confirmation' of the theory of seduction occurs two months after Freud's letter to Fliess in which he announced that he no longer believed in his 'neurotica'.
135 - Freud (1985), 288-9; Freud's emphasis.
136 - This only makes his abandonment of the seduction theory more enigmatic. Since he obtained 'confirmations' from his patients and could attribute the instances where he didn't do so to resistance, what led him to repudiate his theory? Certainly not 'adverse evidence', as Grünbaum contends (1985, 117), because he couldn't have had any (see Cioffi's refutation of Grünbaum's argument, 1988, 240-8). Neither the seduction theory nor its abandonment corresponded to the positivist model of 'adaptation to facts' (Mach).
137 - See Borch-Jacobsen (2009), ch. 2.
138 - Delboeuf (1886), 169; our emphasis.
139 - Wohlgemuth (1924), 499; cited by Cioffi (1998a), 18-19.
140 - Hart (1929), 74; cited by Cioffi (1998a), 18.
141 - Marmor (1926), 289.
142 - Ellenberger (1973), 56.
143 - One could say of psychotherapeutic practices what William James said of religious experience in general, which he described as self-validating states of transformation: 'No authority emanates from them which should make it a duty for those who stand outside of them to accept their revelations uncritically' (James 1929 [1902], 327). On this question and on the issue of 'optional ontologies', see Shamdasani (2004).

144 - Jastrow (1932), 202.
145 - Wohlgemuth (1923), 165; Wohlgemuth's emphasis.
146 - See above, chapter 1, p. 85.
147 - Freud and Jung (1974), 18.
148 - Freud and Ferenczi (2000), 192.
149 - Freud and Jones (1993), 3721.
150 - Freud to Ferenczi, 9 December 1912: 'Jung is crazy (meschugge)' (Freud and Ferenczi 1993, 460); Freud to Abraham, 1 June 1913 'Jung is crazy' (Freud and Abraham 2002, 186). Jones to Freud, 25 April 1913: 'Jung's recent conduct in America makes me think more than [ever] thar he does not react like a normal man, and that he is mentally deranged to a serious extent; he produced quite a paranoiac impression on som e of the Psa psychiatrists in Ward's Island' (Freud and Jones 1993, 199). Brome (1984), 140-1: 'Jung said that the Freudians circulated ru mours about his possible schizophrenia, and so adept and sustained were these rumours that it caused him some damage to his practice and "lost me some of my students".' On the continuation of the myth of Jung's madness by his biographers, see Shamdasani (2005a), 72ff.
151 - Freud to Ferenczi, 21 December 1924 (Freud and Ferenczi 2000, 195).
152 - Wohlgemuth (1923), 69 and 238. It seems that Wohlgemuth was the anonymous 'certain well-known man of science' whom Freud alluded to in 1937: 'He said that in giving interpretations to a patient we treat him upon the famous principle of "Heads I win, tails you lose." That is to say, if the patient agrees with us, then the interpretation is right; but if he contradicts us, that is only a sign of his resistance, which again shows thar we are right. In this way we are always in the right' (Freud 1937b, 257).
153 - Freud (1925b), 221.
154 - Jung (1956), CW 14, § 695.
155 - Transcription of Eissler's interview with Jung of 29 August 1953, 19-20; Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.
156 - Jung (1975), 176.
157 - Charteris (1960).
158 - Jones (1957), 45.
159 - Gay (1988), 470-1.
160 - Freud (1910a), 9.
161 - Freud (1914a), 8.
162 - Breuer and Freud (1895), 21-2: 'The element of sexuality was astonishingly undeveloped in her. The patient, whose life became known to me to an extent to which one person's life is seldom known to another, had never been in love; and in all the enormous number of hallucinations which occurred during her illness that element of mental life never emerged.' In the report which he sent to Robert Binswanger at the admission of Bertha Pappenheim (Anna O.) to Bellevue Sanatorium, Breuer wrote: 'The sexual element is astonishingly undeveloped; I have never once found it represented even amongst her numerous hallucinations' (Hirschmüller 1989, 277).

163 - One may compare this with what Breuer and Freud wrote in Studies on Hysteria: 'It is plausible to suppose that it is a question here of unconscious suggestion: the patient expects to be relieved of his sufferings by this procedure, and it is this expectation, and not the verbal utterance, which is the operative factor. This, however, is not so. The first case of this kind that came under observation dates back to the year 1881, that is to say to the "pre-suggestion" era' (Breuer and Freud, 1895, 7).

164 - Freud (1914a), 11-12.

165 - Among the participants in the celebration of the twentieth anniversary of Clark University were Franz Boas, William James, Adolf Meyer, James Jackson Putnam, William Stern and E. B. Titchener.

166 - On the initial reception of Freud in the United States, see Hale (1971), ch. 8, and Burnham (1967).

167 - Personal communication.

168 - Forel (1899), 412-13.

169 - As his letter to Jones of 1 June 1909 demonstrates, Freud was familiar with the text which Forel delivered at Clark University: 'I got the University's publication at the former celebration ten years ago and could see that none of the five foreigners (Forel, Picard, Boltzmann, Mosso, Ramon y Cajal) had lectured in English' (Freud and Jones 1993, 25).

170 - For more details on this affair, see Borch-Jacobsen (1996), chs. 3 and 4· Since the publication of the French edition of this book (2006), Richard Skues has published a critical reconsideration of the historical literature on the subject. The points raised are too detailed to go into here and have not led us to revise our argument (Skues 2006).

171 - Breuer and Freud (1895), 40.

172 - Hirschmüller (1989), 293.

173 - Breuer and Freud (1895), 4.

174 - Hirschmüller (1989), 114.

175 - To those who would object to Borch-Jacobsen (1996) that this was a 'delayed' cure (Green 1995; Talbot 1998, 60), one may ask why one should attribute Bertha Pappenheim's recovery to her treatment by Breuer, rather than to her subsequent hospitalisations, which seems more likely. As for exonerating Breuer on the grounds that he and Freud never proposed a 'causal' therapy but simply a method to suppress symptoms (Hale 1999, 246), one may note that they wrote in their 'Preliminary Communication' that 'each individual hysterical symptom immediately and permanently disappeared when we had succeeded in bringing clearly to light the memory of the event by which it was provoked' (Breuer and Freud 1895, 6). Moreover, it is clear that Breuer went beyond the assertion of a purely symptomatic treatment when he wrote in his case history: 'In this way, too, the whole hysteria was brought to a close' (ibid., 40), or when he talks about 'the end of the illness' and 'the final cure of the hysteria' (46-7).

176 - Hirschmüller (1989), 106-7.

177 - Bjerre (1920), 86.

178 - Nothing has come to light which would corroborate this element of Freud's account, which is somewhat improbable, as he was a medical student at the time.

179 - Jung (1925), 16.

180 - Transcription of Eissler's interview with Jung of 29 August 1953, 18, Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

181 - Ferenczi (1988), 93.

182 - Cited in Forrester and Cameron (1999), 930. Bertha Pappenheim was interned for just over three months at the Bellevue clinic.

183 - On the contrary: in 1917, Freud recalled how 'Breuer did in fact restore his hysterical patient - that is, freed her from her symptoms ... This discovery of Breuer's is still the foundation of psycho-analytic therapy' (Freud 1916-17, 279-80). In 1923, Freud again stated that Breuer 'succeeded in freeing her [Anna O.] from all her inhibitions and paralyses, so that in the end he found his trouble rewarded by a great therapeutic success' (Freud 1923, 235; the same assertion occurs in Freud 1925a, 20, and again in Freud 1926b, 263).

184 - Freud (1914a), 12.

185 - Freud (1925c), 280.

186 - At least publicly. In private, as we have seen (p. 70), Breuer didn't hesitate to state that the case of Anna O. refuted Freud's theory.

187 - Freud (1925a), 20-1 and 26.

188 - Our emphasis. On the provenance of this document, see Borch-Jacobsen (1996), 39-42. The German original has been accessible in the Library of Congress since 2000, and is reproduced in Borch-Jacobsen (1997), 51.

189 - Freud (1925c), 279.

190 - See Borch-Jacobsen (1996), 33-4; Eissler (2001), 174-5.

191 - Forrester and Cameron (1999), 931.

192 - Cited in Forrester and Cameron (1999), 930.

193 - Freud (1916-17), 274.

194 - See above, note 70.

195 - Cited by Élisabeth Roudinesco in Ellenberger (1995), 15. In the absence of context, it is not clear when this 'confession' took place.

196 -Document supplied by Élisabeth Roudinesco, see Borch-Jacobsen (1996), 100.

197 - False: Dora Breuer was born on 11 March 1882, which was three months before the end of the treatment (7 June 1882).

198 - Freud (1960), 413; our emphasis. Peter Gay introduced the fragments of this letter to Zweig as follows: 'This, [Freud] reported, is what Breuer told him long ago' (Gay 1988, 67).

199 - Cited in Forrester and Cameron (1999), 930; Freud's emphasis.

200 - See Hirschmüller (1989), 127, who refers to Fichtner (1988).

201 - Breuer was still alive at this time.

202 - Rank (1996), 50 and 52.

203 - Brill (1948), 38. We thank Richard Skues for signalling this passage.

204 - Document communicated by Élisabeth Roudinesco.

205 - Goethe, Faust, part 2, act 1. As Eissler notes (2001, 176), Breuer himself had cited the same passage in Studies on Hysteria: 'I must ask to be forgiven for taking the reader back to the basic problems of the nervous system. A feeling of oppression is bound to accompany any such descent to the "Mothers"' (Breuer and Freud 1895, 192).'.

206 - Freud (1960), 413 .

207 - Transcription of Eissler's interview with Jung of 29 August 1953, 18.

208 - Freud's letter of 26 June 1925 to Robert Breuer, reproduced in Hirschmüller (1989). 322.

209 - On 13 May, Freud wrote to Mathilde Breuer, who had sent greetings on his 70th birthday (Freud 1960, 222-3) . Hirschmüller reproduces a letter of Freud of 14 December 1928 to Robert Breuer to thank him and his sister for sending a biographical note on their father (Hirschmüller 1989, 322-3).

210 - See for example Hannah Breuer's letter to Jones, reproduced in Borch-Jacobsen (1996), Appendix 2.

211 - Freud and Eitingon (2004).

212 - Eitingon (1998).

213 - Hirschmüller (1998).

214 - Eitingon (1998), 20.

215 - Ibid., 27.

216 - Eissler (2001), 174.

217 - Ibid., 174-7.

218 - Jones (1953), 224. Jones wasn't the first, as Brill had published a less elaborate version of the hysterical pregnancy in his Lectures on Psychiatrie Psychoanalysis in 1948.

219 - Homburger (1954).

الفصل الثالث

روايات الحالات
بيان الماضي الطبي للمريض

من فرويد إلى فيلس : في ما يتعلق بحال [دورا] 25 يناير 1901، «إنه لمن أدق الأمور التي كتبتها حتى الآن» فرويد (1985).

ولقد بقي تقرير فرويد عن «حالة الرجل الفأر» مثالا يحتذى كعرض لعصاب القهر الكلاسيكي، وقد استخدم على نحو ناجح في دعم نظريات فرويد وبخاصة تلك التي تضع مسلمة أصول الطفولة العصابية، والمنطق الباطني لأهم الأعراض المتوهمة؛ والتي يصعب تفسيرها، والضغوط، الغالب عليها الاختفاء لازدواجية الحالات الوجدانية.

بيترجي(1988) : إن تاريخ رواية بحالة المعروفة مجاله (الرجل الذئب) هو بالتأكيد أفضل [روايات حالات فرويد] إذ كان في أوج قواه وشهرته.

جونز (1955) : وأسطورة (آنO) ذات المولود هستريا، هي مثال أنموذجي لإعادة كتابة تاريخ التحليل النفسي. وهنا كما في مواضع أخرى، يطبق فرويد على تاريخ التحليل النفسي (وفي ما بعد على التاريخ نفسه، إذا اعتبرنا منهاج التأويل في كتاب الطوطم والتابو، وكتاب موسى والتوحيد، وكذلك وودر وويلسون) التأويل عينه الذي كان قد استعمله على نحو سري في مكتبه «لإعادة تركيب» منسيات مرضاه، والذكريات المكتوبة، ومن هذه الوجهة من النظر، فلا يوجد إلا اختلاف بسيط بين حالة (آنO)، وفي حالة بروير وكذلك حالة شريبر، وحالة فيلس، وأيضا حالة الرجل الذئب، وحالات أخرى مثل ما هو الأمر عند يونغ، ورانك وفرنزي، وكل واحد من الناس- صديقا كان أم مريضا، سليم العقل أم مجنونا، يكون معرضا لفك اللغز نفسه؛ من

خلال شرحه لرغبة لاشعورية، وبهذا المعنى يجوز أن نقول : إن روايات الحالة الفرويدية وتواريخها ليست بأقل أسطورية عن حكاية (تاريخ حركة التحليل النفسي) التي وقع سردها في كتابه (السيرة الذاتية) أو تاريخ الإنسانية الذي وقع وصفه في تخييلات نشوء النوع والتوهمات الأنثروبولوجية، وحيثما ننظر، نجد إعادة كتابة التاريخ نفسه، وسرد التأويلات الاعتباطية نفسها، وتحويل الفرضيات نفسها إلى وقائع .

وعلى الأقل، فقد يعترض علينا هنا، بأنه يوجد فارق بين التخييلات الجدالية الفرويدية وروايات حالاته وهو فارق أكدنا عليه مرارا وتكرارا في الفصل السابق. وتحليلات المعارضين الفاسدة، التي لا تكترث تماما بمن يعنيهم الأمر، ما هي إلا تأويلات مصطنعة، في حين أن تواريخ أو روايات الحالات والملاحظات الكلينيكية، تسجل نتائج الاكتشاف التحليلي للغز الذي يعاني منه المريض، حتى إذا لم يشارك فيه على نحو نشط، فقد يوافق عليه في أغلب الأحيان.

وكما يقبل المحللون النفسيون في يومنا هذا، فقد نرى أن ما يهم من غاية التحليل، هو ألا توجد فيه فقط «حقيقة تاريخية» لمركب اقترحه المحلل[1] بل أن توجد فيه «حقيقة محكية»؛ على معنى أن المرضى يستعملونها حتى يعيدوا كتابة تاريخهم على وجه يفهمونه بأنفسهم، وبعبارة أدق، لايهم في شيء أن يكون هذا المركب موهما وتخييلا، إنما الأهم هو أن المرضى يقبلون ويفهمون هذا التخييل كتاريخهم وحقيقتهم.

جان لاكان : إنه يجب أن نكون حاسمين هنا، في تذكر تاريخ المريض كما يقصه هو في التحليل النفسي، لأن ما هو موضوع الرهان ليس الواقع ، وإنما هو الحقيقة؛ ذلك لأن أثر الكلام البليغ، من شأنه أن يعيد تنظير وقوع الاحتمالات الماضية بالتباحث حولها، والتشاور حول معنى حصول الضروري منها.[2]

لاكان : إن التاريخ ليس هو الماضي... وهو كون أن الفرد يعيشه مرة أخرى ويحصل له أن يتذكره ، بالمعنى الحدسي لهذا اللفظ؛ أي أن يعيد الأحداث، وأن يسترجع ما كان قد شكل وجوده ، حتى ولو كانت المشكلة الحاصلة هي في حد ذاتها ليست مهمة، لأن ما يهم في الأمر هو أن يعيش تركيبها؛ فإن تركيبها من جديد هو الأهم. واللفظ الذي يستعمله فرويد ظل صحيحا حتى هذه الغاية،

كما يجب أن نقول ذلك، وعندما يقال كل شيء وينتهي العمل، فلا يكون التذكر أقل من إعادة كتابة التاريخ.[3]

يورجين هابرماس : ينشئ المحلل إيحاءات دالة على تأويل الحكاية التي لا يستطيع المريض أن يعبر عنها : ويمكن التحقق من هذه الإيحاءات واقعيا، إذا اتخذها المريض، وعبر عن قصته بمساعدتها.[4]

روي شافير : قد يضع المحلل أسئلة جديدة وإن كانت غالبا ما ترفض وتقاوم؛ وهي أسئلة تعادل الإمكانات السردية المنتظمة؛ والحصيلة النهائية لنسيج هذه النصوص قد تكون جديدة على نحو جذري، منضمة إلى عمل مبتكر أو إلى طريقة في العمل.[5]

ونستطيع أن نتحدث كثيرا عن هذه الروايات المعاد صياغتها (مع النزعة البنيوية، والتفسيرية، والسردية)، من لدن التحليل النفسي، وبخاصة حول ما إذا كانت تستمر في تقديم نفسها ككونها ناشئة عن التحليل النفسي، حتى ولو ظهر أنها لا تبالي بادعاءات فرويد الكاشفة عن الحقيقة الموضوعية للنفس وإذا كان المعيار الأخير للتخييل الذي يقترحه المعالج هو أن يقبل المريض، «تحقيقه والتأكد منه» فلماذا نلح على التخييلات التي ارتكبها فرويد، لغاية أن تتفق مع نظرية التحليل النفسي كمعارضة لأية نظريات أخرى.

ولماذا ظهر هذا التأويل المحتوم للسيرة الذاتية للمريض في عبارات، مثل الرغبة والكبت والمقاومة، أو التحويل؟ وليست في عبارات من نحو الصراع الطبقي؛ إذا جاز القول، وكوكبة التنجيم، وعلى أي وجه يعتبر التحليل النفسي أسمى من غيره بالقياس إلى العلوم الأخرى؛ وبخاصة إذا كانت قيمة صدقها آتية بما لا تحكيه، وإنما آتية فقط بما تشبهه بالذي تحكي عنه؟

شافير : إن الناس الذين يختارون التحليل النفسي أو (هم الذين وقع عليهم التحليل) يقولون للمحلل عن أنفسهم وعن الآخرين ما عانوه ماضيا وحاضرا وعندما يركب المحل التأويلات يكرر ما قيل له في هذه الحكايات... والمكرر من القول يدرج في خطوط التحليل النفسي وأفكاره الرئيسة.[6]

والحقيقة هي أن نظرية التحليل النفسي، بالرغم من دعوتها إلى التعاون مع المرضى، للتأكيد على مساعدتهم الفعالة؛ تمد دائما إطار الحكايات بما يروى

فوق السرير، ثم في ما بعد رواية الحالة، ولا يوجد هنا ذاتي (لأن المعالج لابد له من أن يبتدئ من مكان ما) إلا أننا نحتاج على الأقل أن نعترف بأن شيئا قد تغير تغييرا أساسا منذ تسلط التحليل النفسي الإيحائي مع فرويد، مما جعل فيه المريض يلقن.

ريمون دي سوسير : لم يكن فرويد محللا نفسيا بارعا... فأولا هو قد مارس الإيحاء مدة طويلة؛ لا لغاية الاحتفاظ ببعض العادات الفكرية والسلوكية وحينما اقتنع بالحقيقة، لم يقض إلا وقتا قليلا لتنبيه عقلية مريضه بها. ولقد كان يريد أن يقنعه بهذه الحقيقة بسرعة، ولهذا السبب كان يتحدث كثيرا، وثانيا يمكن أن يحسن الإنسان فورا بمشكلته النظرية التي اشتغل بها؛ لأنه غالبا ما كان يطور أفكارا جديدة ووجهات نظر كان بصدد العمل على توضيحها لفكره هو نفسه، ومن ثم فهو مقيد بالنسبة إلى الفكر، وليس دائما للعلاج.[7]

بول روزين : يذكر هلين دوتش : كان فرويد بالنسبة إلى هلين يشكل وجها مقدسا، إلا أنها كانت متحفظة في ما يخص علاجه، وكانت ترى أنه يعلم ويعرف أكثر مما يشفي.[8]

خوان رفيير وتحليلها مع فرويد : لقد كان بوجه عام مهتما بالعمل أكثر مني كشخص؛ كان مثلا يعتني بالترجمات (في الأوراق المجموعة)، كما كان مهتما (بالقتل والإبادة)، ويمكن أن يستعد، إذا أصبح الإنسان مقيدا، لأن يبين لي رسالة ألمانية، ويناقشها معي، ويحتج كما ترى، في مثل هذا الموضوع، ومن وجهة نظره الآن، يستحيل أن نعتبره محللا... ولقد خاب ظني، وحرمت، لأنه كان يتخلص من الوجهة العملية في سلسلة جلساته إلى المهمة التجارية.[9]

فرويد، ملاحظات تحليلية عن الرجل الفأر 8 أكتوبر 1909 : كان المريض متأكدا أنه لم يكن يفكر قط في أنه تمنى في يوم ما أن يموت أبوه... وحينما سمع هذه الألفاظ، وقد تلفظت بها بقوة متزايدة، اعتقدت أنه من الضروري أن أزوده بشيء من النظرية، وتثبت النظرية أنه لما كان كل قلق وألم مبرح يقابل رغبة مكبوتة على نحو مبكر جدا، كان من الواجب أن أفترض العكس، ومن المحتمل جدا أن اللاشعور هو ضد الشعوراً وقد كان المريض كثير الانزعاج قليل التصديق، على نحو مفرط [وبعد أربع صفات...]، وقد حان الوقت لأن أترك

النظرية، وأرجع إلى الملاحظة الذاتية والذكريات [وفي الجلسة السابعة، يوم الأربعاء 3 أكتوبر]...، بدا أنه يتخذ الموضوع نفسه، ولم يرد أن يصدق بأنه كانت له هذه الأمنية في يوم ما ضد أبيه.[10]

وسواء اختار المريض أن يتعاون مع المحلل أو اختار العكس؛ بأن يقاوم تفسيراته، تبقى الحقيقة قائمة في أن كل شيء ينشأ من النظرية ويكون مخبرا عن هذه التأويلات- ولا أهمية إذا حدث أن كانت النظرية (جاهزة الصنع) ورثها أعقاب فرويد أو غيره، كما في حال المؤسس نفسه، فإن الافتراضات والتأملات تجرب على المرضى، وهكذا يكون لنا الحق في أن نستغرب، كما فعل ألبرت مول 1909[11] ما إذا كانت روايات الحالات، تقع في الواقع الراهن في جوهر النظرية أم العكس هو الصحيح،وفي نهاية الأمر، ماذا عساها تخبرنا به روايات الحالات هذه؟ وماذا يقوله المريض ويفعله؟ وبالأولى، ماذا أعاد المحلل من تراكيب حدثت؟ وملأ من ثغرات، وانقطاعات موصولة بالتأويل؛ أعني ماذا افتعل المحلل من تأويل.

الباب المبطن المشهور.[12]

وبالتأكيد، فقد يحتج فرويد من جهته احتجاجا قويا؛ إذ حسب رأيه، فإن روايات الحالة، وبيان الماضي الطبي للمريض، تحد «بالملاحظات والتجارب» مما لا يسمح أن يدخل فيها التأويل والافتراض والنظرية المسبقة، والأسطورية الفرويدية كما رأينا، إنما وجدت لدعم التصديق لهذه الأطروحة المؤكدة على وجه مستمر: كأن النظرية (ما بعد السيكولوجيا أو ما وراءها) إنما تجيء بعد الملاحظة، أو على الأقل تتعارض معها، ويلاحظ المحلل النفسي بأن المرضى يحكون لهم (أو لايحكون) كيف أنهم سلكوا معهم، أحسنوا أو أساءوا، التصرف، وكيف تنشأ أعراضهم، وكل هذا يقدم بطريقة حيادية وموضوعية على الإطلاق، وبدون أي تدخل من جانب (المعطيات) الطبية.

فرويد : ليس من المعقول أن نعمل على حالة، بطريقة علمية بينما لا يزال العلاج جاريا؛ بأن نجزئ بنيتها وتركيبها، ونحاول أن نتنبأ بجهة تقدمها مستقبلا وأن نعطي صورة من وقت لآخر عن سير مجراها، كما تقتضي ذلك المهمة

العلمية؛لأن الحالات التي تختص من أول الأمر الأغراض العلمية، وتعالج طبقا لذلك، قد تتأثر بنتيجتها؛ في حين أن معظم الحالات الناجحة هي تلك التي يقوم بها بعض الناس كما يجب، بدون أي غرض مقصود، ويسمح لنفسه بأن تؤخذ على أي نحو جديد تحولت إليه فجأة، وهو يصادفها دائما بعقل مفتح، خاليا من أي تخرصات وافتراضات، والسلوك المعدل بالنسبة إلى المحلل يقوم في التأرجح تبعا للحاجة، انطلاقا من اتجاه ذهني إلى آخر، متجنبا التخمين، أو يبطل التفكير في تلك الحالات التي يقع تحليلها، ويخضع المادة المحصل عليها إلى عملية تركيبية فكرية،بعد أن يكون التحليل قد أثمر نتيجة فقط.[13]

وهذه ملاحظة حيادية، تشكل حجر الزاوية الأساس في التحليل النفسي، ذلك أن روايات الحالة، وبيان ماضي المريض، يفترض فيها ألا يمثل أولئك الحاضرون في التحليل، كالحال مثلا (المعاملات الفلسفية) في القرن السابع عشر للجمعية الملكية، أو القرارات المعاصرة التي تجرى عليها تجاربنا اليوم. وتحل هذه الوثائق محل ما يمكن أن يحدث في مكتب التحليل، وهي تنقل إلى الجمهور أحداثا سيكولوجية، ألقي عليها الضوء أثناء التحليل. ونتيجة لذلك، تحاول النظرية على هذا النحو أو ذاك، أن تفهم هذه الأحداث؛ وإذا، فنحن نرى مباشرة الدور الخطير الذي تلعبه روايات الحالة في الإبيستمولوجية الرسمية في النزعة الفرودية بحيث قد أصبحت تتساوى مع التجربة التحليلية نفسها. وعليه فإن الروايات كما صرح كورت إيسلر بافتخار، هي الأعمدة التي قام عليها التحليل النفسي كعلم أمبيريقي تجريبي.[14] وحتى نحمل هذا التصريح محمل الجد، كان يجب أن نقبل بناء ما بعد السيكولوجيا بكامله، وكأنه قائم على نتف من الحالات التي لاحظها ووصفها فرويد بنفسه : دورا، الرجل الفأر، الرجل الذئب، والمثلي وقد نتردد أن نضيف حالة هانز الصغير، إلى هذه القائمة كمثال، لأنه مع استثناء جلسة مع فرويد، فإن تحليله كان يقوم به على نحو أبوي[15]، وهذا في حد ذاته شيء غريب، إذا اعترف فرويد نفسه[16] بهذا الحدث في كلمته إلى حالة دورا.

فرويد : وخلافا لذلك، فإنه من الواضح أن قصة هذه الحالة الفريدة، حتى ولو كانت كاملة ولا تثير أي شك، فهي لا تمدنا بأية إجابة عن جميع الأسئلة التي

تثار حول مشكلة الهستريا... وليس من العدل أن نتوقع من هذه الحالة الفريدة أكثر مما يمكن أن تقدمه لنا. وكل من كان حتى الآن لا يريد أن يصدق بأن العلة النفسية الجنسية تصح بوجه عام، وبدون استثناء للهستريا، فقد يقتنع بواقعة مقدرة لرواية الحالة الفريدة.[17]

مايكل شروود : ويكاد يكون هذا الموقف وحيدا؛ إذ ربما لا يوجد في غير هذا الحقل، كم نظري ضخم، مؤسس على معطيات خام، أخذت من تسجيل جمهور صغير.[18]

ومع أن مشكلة فرويد، هي أنه لم ينشر إلا القليل من هذه «الملاحظات» فإن ملاحظة واحدة، إذا أنجزت على خير وجه، فقد يمكن أن تقوم بثورة في المادة العلمية بكاملها (ولقد أشار يان هاكيج[19] بحق، بأن التجارب المشهورة التي قام بها كل من «ميشلسون ومورلي»، على حركة الأرض، بالنسبة إلى الأثير، مما جعلنا نستشعر استباق نظرية النسبية، تشتمل على ملاحظات ميشلسون التي قام بها في الفضاء عن الساعات القليلة من أيام، 8، 9، 11، و 12 من شهر يونيه 1887). والمشكلة مع ملاحظات فرويد هي أنه الوحيد الذي يقترب منها ويتناولها، خلافا لما يطلب منه الجمهور أن ينشرها، مما يتميز به العلم منذ القرن السابع عشر.

وكما بين ستفن شابين، فإن هذا المطلب[20] هو مظهر عام وكامل للثورة العلمية لا ما تشير إليه بعض العلوم المعاصرة التي يقع التحليل النفسي ضمنها. وبالنسبة إلى بويل، وأصدقائه في الجمعية الملكية، فإن التجربة الموثقة بصريا من لدن عدة شهود أكفاء وذوي مصداقية، هي التي تكفي لإثبات الحقيقة : واقعيا وفي الميدان مما يقع عليه الإجماع. ولهذا السبب، فإن تجارب بوبل وهوك وأولدنبرغ قد أنجزت في مكان عمومي (في مختبر بقاعة الجمعية الملكية)، وكانت مفتوحة لنظرائهم الذين دعوا إلى توقيع تقرير رسمي، وأما بالنسبة إلى الأصدقاء الذين يعيشون بعيدا فقد يزودون بالمسودة الأصلية، أو البروتوكول المفضل للتجربة، حتى يتمكنوا من إعادة التجربة بأنفسهم... وهكذا يكونون شهداء بدورهم على الواقعة مبدئيا.

وهذه المثالية لإمكانية الملاحظة المباشرة وتكرارها- سواء تحققت في جزئها أو كلها- هي أحد السمات التي تميز فعليا العلم المعاصر عن الممارسات الابتدائية

المتسترة التي تسبقه. وهي لا تزال مستمرة في تحديد أخلاق العملية أيا كان الميدان الذي توجد فيه. وحتى في زمن فرويد، وطوال أيامه، كان الطبيب الباحث يمكنه أن يحضر براهين شاركو بصدد مريضه، أو يتابع جلسات التنويم التي كان برنهايم يقوم بها.

وكلاهما يتحققان من صحة الظواهر التي يصفانها ويتمرنان على النقاشات. وبعد أن زار ديلبوف مثلا سالبترير أصبح مقتنعا بطبيعة العمل الاصطناعي لشاركو، وقصة الهسترية الكبيرة، والتنويم، وكذلك[21] وبالمثل، فإن فوريل وفرويد وغيرهم كثير، بعد أن رجعوا من زيارة عيادة برنهايم في نانسي، صاروا يمارسون التحليل النفسي عن طريق الإيحاء، في عياداتهم ومكاتبهم الخاصة.

برنهايم : كثير من الفرنسيين والأصدقاء الأجانب، عندما يشرفونني بزيارة عيادتي، يستطيعون أن يقدروا بأن همومي ليست وراء نهايات معظم الملاحظات المشكوكة. وليس عليهم ان يجتازوا وراء الحدود الفاصلة للحقائق المبرهن عليها وبعض أصدقائي ممن لا يزالون شاكين، إما بسبب أنهم لم يروا حالاتي المعالجة، أو أنهم مطلعون عليها على نحو ناقص، ينبغي أن يكتشفوا شكيتهم العلمية، لكن إن زاروا عيادتي، فإنهم واجدون لا محالة برهانا مستمرّا للأحداث التي أقررها.[22]

وفي بداية القرن العشرين، كانت سهولة الوصول إلى المراد الطبية والتدريبات التقنية (لا مكان إلا عادة إذا جاز التعبير) مستمرة في تمييز معظم العيادات الأوروبية التي كان يمارس فيها الطب النفسي. وهذا صحيح بالنسبة إلى العيادة البورغولزلية؛ حيث كان التحليل النفسي كما رأينا يتعلم كأي تقنية طبية أخرى. وكان الباحثون الذين يأتون إلى هناك كمتمرنين داخليين يمكنهم أن يتدربوا على العمل في تقنيات جديدة؛ بأن يحضروا مقابلات تحليلية مع المرضى وأن يختاروا التحليل مع يونج وريكليس ومايدر، وأيضا قد يلجأون إلى تحليل أحلامهم جماعيا، وتحليل زلات اللسان أثناء وجبات الطعام التي يتناولونها معا.

بلولر 1910 : إن أطباء عيادة بورغولزلي لا يكتفون فقط بأن يفسروا أحلامهم بعضهم بعضا، بل هم يهتمون ومنذ سنوات، بتلك الإشارات المعقدة

التي تمدهم بها : الأخطاء وزلات القلم، ولفظا مكتوبا خارج السطر، والأفعال الرمزية، همهمات وترنمات بألحان لا شعورية، والأفعال المنسية وغير ذلك، وعلى هذه الأمثلة، حصلنا على معرفة بعضنا بعضا. ورسمنا صورة كاملة لطباعنا وصراع شعورنا ولا شعورنا.[23]

ومرة أخرى في سنة 1909، كان عنوان محاضرات يونج لفترة نصف السنة الدراسية الصيفية، (درس في الطب النفسي مع براهينه)،[24] موضحا الطبيعة المنفتحة للتعلم الذي يقدم في زورخ.

غير أن الأمور في فيينا، كانت على نحو مختلف تمام الاختلاف : ذلك أنه بسبب السرية والثقة في المخاطب التي كان يطلبها فرويد في زبنائه الخاصين لم يكن يسمح لأحد أن يأتي إليه في مكتبه حتى يتحقق (مشاهدة) من صحة ملاحظاته، أو يتعلم من أدق خطوات تقنياته وبراعة فنونه، وحتى نظل مخلصين فإن هذه العقبة مما لا يتعذر التغلب عليها. فقد كان فرويد يسأل مرضاه بكل سهولة وعن طيب خاطر في السماح لهم، بأن يشهد بعض أصدقائهم جلسات معينة ومن دون شك، فقد كان يحصل ذلك كثيرا، ولكن بشرط أن يحترم هؤلاء الأصدقاء سرية الجلسة الطبية (وهذا لا يحتاج إلى القول بأن ملاحظات الأطباء المنشورة في هذا الوقت لم تكشف قط عن أي آسم من أسماء المرضى حتى ولو كانت أسماء مستعارة). وبهذه الطريقة مثلا، سأل بروبر كرافت-ابينج أن يلاحظ مريضته بيرثا بابينهايم.[25] وليس في هذا شيء مستغرب. وحتى المحللون الأوائل، كانوا يرون أن هذا أمر طَبَعيٌّ أن يسمح لبعض الأصدقاء أن يحضروا جلسات التحليل.

أرنست جونر، في ما يخص أمر أونو جروس : لقد كان هو مرشدي الأول في ممارسة التحليل النفسي؛ وقد اعتدت أن أحضر طوال علاج حالاته.[26]

فرنزي 5 فبراير 1910 : آعتقدت أنني قد وجدت بعض الأعضاء من ذوي الأهمية لقضيتنا في طلبة شبان. وكان أحدهم يسمى فاجدا... وقد شرعت في الوقت الراهن في تجربة معه، وقد اخترت حالة مثالية للحصر الهستري. وأنا الآن أقوم بتحليل مريض في حضور فاجدا، ثلاث مرات في الأسبوع، وهو يعمل

كاتبا لي، وقد نجحت هذه التسوية، ولم تكن تخلو هذه من أهمية تعلم التحليل النفسي.[27]

أنجلو هستار : إننا نتذكر استغرابنا، أثناء أول أبحاثنا الدراسية، في مساعدة بعض أتباع فرويد، حينما كنا نحضر عدة مقابلات بين المحلل والذي يجرى عليه التحليل، فكان المحلل يلازم الصمت عمليا لساعات، في حين يوجه المريض تخييله شيئا فشيئا، اتجاها شخصيا، بطبيعة الأمر. وفي غالب الأحيان وبدون تدخل من الطبيب، قد يبوح بأسرار ذات شفافية خالصة؛ إلا أن[28] فرويد كان يلح إلحاحا شديدا على أن الطبيعة الهشة والدقيقة لأسرار مرضاه، تعني أن الاستعمالات العلمية، (لاعترافاتهم)، لا يجوز التسامح فيها، وهي خارجة عن كل تساؤل.

فرويد : ولا يزال تقديم روايات حالة من حالات مرضاي، يتسبب لي في مشاكل يصعب علي أن أحلها...وإذا صح أن علل الاضطرابات الهسترية ينبغي أن تطلب في العلاقات الحميمية للحياة الجنسية للمرضى سيكولوجيا، وأن الأعراض الهستيرية هي تعبير عن معظم أسرارهم، وأمانيهم المكبوتة، فقد يكون التوضيح الكامل لحالة هستيرية مقيدا باستلزام كشف تلك العلاقات الحميمة وتضليل تلك الأسرار.ومن الواضح أن المرضى لن يتكلموا قط، في حال ما إذا كان قد حدث لهم ظن من الظنون، أنه يجوز أن تطرح اعترافاتهم، وأن تستغل في الاستخدامات العلمية ويجب أن يكون من الواضح كذلك أن نسألهم الإذا، بأن نشر حالاتهم يمكن أن يكون غير مجد...[29]

وإني لمدرك، في هذه المدينة على الأقل بأنه يوجد كثير من الأطباء الذين يختارون (أياما بدا استنكارهم)، أن يقرأوا رواية الحالات، من هذا القبيل لا في أن يسهموا في تقديم علم النفس المرضى لأعصبة، بل كقصة بمفتاح تهديهم إلى تسليتهم الخاصة؛ وأؤكد للقراء من هذا النوع، بأن كل رواية حالة مما يمكن أن تتجه لي فرصة ما أن أنشرها في المستقبل، ينبغي أن تصون لهم حدة ذكائهم، بمثل ما تضمن لهم أسرارهم، حتى وإن كان هذا القرار مرتبطا بتقييدات ربما تفوق اختياري للمادة..[30]

وتجدر ملاحظة أن فرويد هنا يتحدث عن وجوب إخفاء هوية مرضاه عن الجمهور، مما هو من جانبه يعتبر مقبولا ومشروعا. ولكن لماذا اتسع في هذا الحظر حتى أدرج فيه زملاءه وقيدهم بسر المهنة؟ فحماية خصوصية مرضاه من الجمهور شيء، وأمر آخر التستر على تحليلاتهم وإخفائها عن تقييم النظراء والأنداد أو «تمثيل الحالة لهم». وفي الواقع، لا واحد من الناس يمكنه أن يدفع مبدأ الثقة الطبية إلى مثل هذا التطرف، وأن يطبق عليه هذه الطريقة الجامدة، كما فعل فرويد، هو وأتباعه[31]، ذلك أن التحليل النفسي أمره غريب، وكأنه علم سري على معنى أن تقديمه للجمهور وعلى نحو مباشر، باعتباره أمرا واقعا، يكاد يكون محرما بالمعنى الحرفي، لهذا اللفظ؛ ومشكلا للتابو، ومثيرا للقلاقل؛ ومن هذه الوجهة من النظر، فإن مكتب فرويد الخاص أصبح أكثر إغلاقا، مما كان يمارس فيه «الفن السحري» وأقل انفتاحا وشفافية من فضاء المختبر المعاصر. فلا واحد من الناس استطاع أن يخترق وجاره وأن يكتنه ما فيه، ولا استطاع أن ينظر إلى تحولات القيم السيكولوجية التي ينجزها العالم، ومن ثم، لا يمكن لأحد من الناس أن يطلع ولا أن يعرف كيف يمكن أن يعاد إنتاجها في استقلال تام عنه؛ لأن فرويد هو الشاهد الوحيد على ما يترشح وراء الأبواب المغلقة والمبطنة من الداخل في هذا العنوان 19، برجاس، مع حالاته التي لا نعرف عنها إلا ما يريد أن تقوله لنا روايات تلك الحالات. وبالنسبة إلى معظمنا، فإننا نعرف منهاج عمله من خلال كتاباته التقنية المبعثرة التي تركها لنا.

فرويد : وكقاعدة عامة، فإنني لا أعيد إنتاج عملية التأويل التي تخضع لها مستدعيات المرضى، ومبادلات أفكارهم، وإذا، فباستثناء الأحلام، فإن تقنية العمل التحليلي، لا تنكشف إلا في أمكنة قليلة جدا... إنه قبل القواعد التقنية التي كثير منها أتوصل إليه عن طريق الاختبار الأمبيريقي، يمكن أن يخطط لها وينبغي بالضرورة أن نجمع المواد من الروايات لأكبر عدد من المعالجين.[32]

ستراشي : وعندما نفحص قائمة الكتابات التقنية التي أنجزها فرويد، نتبين أنه بعد أن نشر (دراسات عن الهستيريا 1895)، وباستثناء بعض التقارير الغامضة ظهرت في سنة 1903 و 1904، لم ينشر أي وصف. وهذا الشح في الكتابة عن إظهار تقنيته، وكذلك في تردداته، والتواني في إنتاجها، إنما يوحي بأنه يوجد لديه

شعور بالممانعة من جانبه، على إصدار هذا النمط من إعادة التقنية، وهذا يشبه في الحقيقة أنه كان على هذا الحال لأسباب مختلفة...

غير أنه وراء سائر نقاشاته الفنية، لم يكف فرويد على الإلحاح بأن التمكن الخاص بهذا الموضوع، ينبغي أن يكتسب فقط عن التجربة الكلينيكية، لا من الكتب... ولا شك أن التجربة الكلينيكية تكون مع المرضى، لكن فوق كل شيء، تكون هذه التجربة منطلقة من تحليل المحلل لذاته[33] وإحدى النتائج المباشرة لهذه الممارسة (السرية) كانت أن رفع فرويد روايات حالاته إلى وضع النمذجة البرادجماتية لكل تحليل تطبيقي (أو لفظ البراديجم[34] غالبا ما كان يستعمله فرويد نفسه) وبمقدار ما أن ملاحظة الشخص الثالث ممنوعة، فإن أولئك الذين يريدون أن يتدربوا على التحليل النفسي يضطرون إلى أن يرجعوا إلى روايات حالات فرويد، إما بأن يلقوا بأنفسهم على سرير علاج فرويد كموضوع للملاحظة لا كملاحظين). وحتى يومنا هذا، فإن المحللين النفسانيين المتدربين، يتعلمون التحليل النفسي، لا بملاحظة السادة الممارسين للتحليل، وإنما بدراسة الحالات التي اهتم فرويد ببحثها. وكذلك باصطناع تحليل ديداكتيكي مع محلل تعلم بالمنهاج نفسه. وكنتيجة، فنحن كلما قفزنا إلى الوراء على السلسلة نفسها، كلما وجدنا أنفسنا على أثر فرويد ومع روايات حالاته المتبعة كقاعدة لا ينتهي اقتفاؤها ونسخها و«إثباتها» على مر الأجيال المتلاحقة من المحللين والذين قع عليهم التحليل. وبهذ الاعتبار ليس صحيحا ولا دقيقا القول، كما فعل سولوي[35] بأن الخاصية غير العلمية التي طورتها الطريقة الفنية عند فرويد، تتسم بكون أن أقرانه لا يستطيعون أن يعيدوا محاكاة خبرته. وخلافا لذلك، لا شك أنه توجد ميادين قليلة تعهد فيها الناس محاكاة الخبرة مع كثير من النجاح؛ وفي بعض العلوم، قلما يمضي الممارسون وقتا لكي يكرروا تجاربهم التي كانت مثمرة. وعندما يحاولون أن يفعلوا ذلك مرة أخرى، فإن إعادة محاكاة التجربة، لم تكن قط شبيهة تمام الشبه بأختها السابقة، لسبب أن الانتقال غير المطابق (المعرفة ضمنية)، ضروري لإنجاح أدوات العمل.[36] وما يعاد محاكاته من خبرة في التحليل النفسي ليس هو التجربة نفسها، بل ما نقله فرويد عنها، مما هو مختلف تمام الاختلاف. والذين يقبلون نقل الخبرة عن فرويد كشيء يحتوي هو نفسه على صعوبة ما، قد يجدون

الظواهر التي تصفها، أينما اتجهوا : لأن الأمر يتعلق فقط بروايتها أو سردها كما قصت عليهم. لكن إن وقع تشكك، وأرادوا أن يتحققوا من دقة نقل الخبرة وجب أن يكون لهم حظ في الإمساك والتحكم في اقتفاء أثره نفسه. وفي كثير من الحالات، متى حاول أصدقاء فرويد أن يطبقوا منهاج التحليل النفسي لكي يروا بأنفسهم عيانا، فإنهم غالبا ما ينتهون إلى ملاحظات وخبرات مخالفة.

أدولف فريد لاندر : وفي ملاحظاتي على مذهب فرويد المتعلقة بالعلة الجنسية للأعصبة أو في خطابي أمام الجمعية الطبية في فرانكفورت، كنت قد ذكرت بأنه لكي أكون موضوعيا، قد قررت أن أطبق منهاج التحليل النفسي الفرويدي في حالات كثيرة. ولم تكن النتائج ذات طبيعة لتغير من آرائي النقدية له.[37]

جاني : إذا كان منهاج التحليل النفسي، يعني بأي حال من الأحوال، وبمعونة بعض التفسيرات غير المحتملة والسخيفة، اكتشاف الأفكار الجنسية المتبثة، فإنه من الواضح أن المؤلفين الذين استشهدت بهم، وبكلامي أيضا لم يمارسوا قط التحليل النفسي. وهل يجب علينا أن نلوم أنفسنا على ذلك؟ وأن الأمور التي ناقشناها هي تبرير لدفع هذا المنهاج للتفسير الجنسي إلى نهايته....ولكن من هو المخول بالإلحاح على استعمالنا لمنهاج فقد اعتباره بسبب ملاحظتنا؟[38]

فوريل : إني أقوى الآن أن أقدم باختصار ثلاثة أمثلة عن التحليل النفسي اثنان منها مارستها بنفسي، وثالثها استعمله فرانك، وفي بادئ الأمر، فإن مسألة معرفة ما إذا كان فقدان الحساسية العامة صفة فردية محصنة، وسمة خطيرة، أو ما إذا كان يحدثها الكبت كما يقول فرويد، هي مسألة لم يقم التحليل بإعادة حل لها، فإن المرأة ظلت باردة جنسيا كما كانت عليه من قبل. وبالنسبة إلى مدرسة فرويد، فإن كل حالة من هذا القبيل تخص الكبت. إلا أن مثل هذا الافتراض هو مجرد تعسف، وإني أرفض تصديقه.[39]

وهنا نلمس نتيجة أخرى كسر من أسرار فرويد : وهي ضرورة أن نأخذ كلام فرويد كما هو : وكما لاحظ الفيلسوف فرانك شيوفي : فإن التحليل النفسي هو علم متوارث بالوصية[40]، قائم على صدق مؤسسه، وإذا كان فرويد هو الشاهد

الوحيد على الظواهر التي تستدعيها النظرية، فمن الأهمية القصوى أن نعتبر أن الحالات المنقولة والملاحظات الكلينيكية ينبغي أن تكون موثوقا بها على وجه القطع، وإذا لم تكن قابلة للتصديق- مثلا إذا تبين في نهاية الأمر أن فرويد نفسه كان متأثرا بأفكار مسبقة باعتبارات شخصية أو برغبة لدحض خصم ما- فإن بناء الصرح كله يكون مهددا بالسقوط، ولم تعد لنا معطيات كلينيكية، بل فقط تخمينات منحازة ومتحملة. وهذا هو السبب منذ البداية، في أنه قد ازدوجت أسطورة فرويد بتقديس الشخصية، ويقول لنا جونز : لقد كان فرويد إنسانا : «نزيها على الإطلاق»، و«استقامته خالية من العيوب».[41] إنه إنسان مستعد لأن يضحي بأعز أصدقائه، وبالنظريات على مذبحة العلم. (ولا يتنازل جونز إلا بشق الأنفس عن أن الفضيحة المضببة لسوبودا- وينجر التي ضبط فيها فليس، فرويد متلبسا بجريمة الكذب، كانت استثناء يثبت ويبرهن على القاعدة : لربما إنها الفرصة الوحيدة في حياة فرويد، حينما كان في لحظة ما، خارجا كلية عن الاستقامة).[42] ويشبه أن تقديس الشخصية مساعد ثانوي غير مضر، إلا أنه يوافق ضرورة ابستمولوجية عميقة. وإذا كان ليس من الممكن أن يكذب فرويد، فذلك لأنه في غياب الشيء نفسه، يكون لنا اعتقاد قوي في الشاهد حتى نعتمد عليه.[43] وكما قال لاكان : إن المجال الفرويدي قد وضع هيكلة الميثاق الرمزي، المنعقد مع الأب المؤسس الذي تكون كلمته مما يرجع إليها أبناؤه باستمرار، هي الضمان الوحيد لممارستهم، وهذا هو ما يفسر مثلا، لماذا كان التساؤل عن معرفة ما إذا كان فرويد يخون امرأته مع أختها هو سؤال ذو دلالة بالغة بالنسبة إلى التحليل النفسي؛ مثل هذا الاهتمام بتفاصيل تافهة عن السيرة الذاتية للحواس انشغالا سخيفا، وغير مناسب ولا لائق. إلا أنه في ميدان التحليل النفسي، يثير مثل هذا السؤال إشكالات جدالية عنيفة وشروحات مستفيضة من العلماء المحصلين[44]؛ إذ هم يقصدون مباشرة إلى ثقة الشهادة، في ما يخص لاشعور الشاهد : كيف يمكن أن يصدق من كانت روحه ورغبته غير طاهرة؟ وهنا نجد تلخيصا للسيد لاكان.

لاكان : ما الذي يجعلنا نقول لأول وهلة بأن الكيمياء القديمة (تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب) ليست على، متى ما أنجزنا كل عمل فيها؟ في رأيي، إن ما

يجعلنا نقول ذلك هو أمر حاسم؛ أعني أن طهارة نفس العالم المجرب كانت بطريقة خاصة، عنصرا أساسيا في الموضوع، وليست هذه الملاحظة بعيدة عن غرضنا، كما يمكنك أن تعتقد، مادمنا على أهبة أن نثير أمرا مشابها يخص حضور المحلل في العمل التحليلي، أو نتمسك بأن تدريبنا لربما كان هو ما يبحث عنه التحليل، وقد أزعم أن ما أقوله هو الشيء نفسه الذي أدرسه الآن بنفسي، حينما أشير، بعد وضع سائر الأقنعة المزقة جانبا، وبطريق مفتوح، إلى أن النقطة المركز التي أسأل عنها هي : ما هي رغبة المحلل؟[45]

قصة اللاشعور

وهل كانت رغبة مؤسس التحليل النفسي صادقة؟ ولنفرض مؤقتا أنها كانت كذلك، وأيضا فلنفرض بعبارة أخرى أننا نستطيع أن نرد سلبا على سؤال مشهور طرحه فرانك شيوفي، وهو هل كان فرويد أفاكا كاذبا؟[46] وهل روايات حالاته يمكن أن تكون بسبب ذلك قابلة للتصديق؟ والإجابة، لا على الإطلاق. ومن الأهمية بمكان، أن نفهم بأن التقرير المكتوب ليس مجرد «ملاحظة» الواقع؛ إذ كل حكاية مهما تكن صحيحة تستلزم الاختيار[47]، وإعداد المونتاج والترتيب[48]، واسترجاع الأحداث من وجهة نظر القاص (وهذا ما يجوز أن نسميه إكراما للفيلم الرائع لكورسوا اسمه : أثر راشومون). وهذا هو السبب الذي جعل بويل هو وأصدقاءه في الجمعية الملكية يلحون على أن تكون التجارب والملاحظات تعمل وتجرب أمام الجمهور، وفي نظرهم، فإن تلاقي شهادات عديدة، هي التي يمكنها أن تصبح أخطاء للشهادات الفردية.

روبرت بويل : ومع أن شهادة الشاهد الفرد تكفي للبرهنة على اتهام الطرف الجاني، فشهادة شاهدين؛ وإن كانت متعادلة التصديق، فقد تكفي في العادة للبرهنة على ثبوت التهمة لإنسان ما؛ لأنه من المعقول أن نفترض بأن كل شهادة مفردة لا تكون إلا راجحة، فإن اتفاق مثل هذه الاحتمالات (التي يجب بسببها أن نحكم على حقيقة ما نود أن نبرهن عليه) يمكن أن يبلغ إلى اليقين المعنوي؛ بمعنى أن مثل هذا اليقين يضمن للقاضي أن ينطق بالحكم بالموت على الطرف المتهم بالجريمة.[49]

وكما يعرف القضاة والمؤرخون جيدا، فإن حكاية الحدث هو بناء أو إعادة تركيب، وصياغة، وتأويل للحدث مما تكون دلالته قد تحددت عن طريق حبكة أودسيسة مورطة- إنها لا تكون حدثا صريحا يمكن أن يستوفي شروطا معينة وأن يقنعنا تسجيله، ومن هذا المخرج إذا، تعرضت ابستمولوجيا التحليل النفسي الرسمي إلى إشكالات معروفة، حرمتنا بأي موضوعية في التاريخ، أو في القانون الجنائي، وكل هذا يصدق على أن دراسات الحالات الفرودية أحكمت كتابتها طولا وتعقيدا، وبينما تقتصر ملاحظات برنهايم، وحتى جاني، على نقل الأحداث في أسلوب مختزل يشبه بأسلوب التلغراف، يحكي لنا فرويد قصصا راهنة مستعملا مصادر السرد المفيدة لكاتب القصة الخيالية (وسننظر إلى بعضها في ما تبقى من هذا الكتاب).

فرويد : وكأمر غريب، فإنه لا يزال يصدمني أن روايات الحالات التي أكتبها إنما تقرأ كقصص قصيرة، وأنها تنقصها، كما يقال، الطابع العلمي الجاد...والوصف المفصل للعمليات الذهنية، كما اعتدنا أن نجدها في أعمال الكتاب الخياليين، يمكننا باستعمال الصيغ السيكولوجية القليلة، من أن يحصل على نوع من الاستبصار أثناء ذلك الشعور الوجداني على الأقل، وروايات الحالات من هذا القبيل يقصد بها الحكم، مثل حكم طب الأمراض العقلية؛ إذ امتيازها على هذه الأمراض كونها تدل على ترابط داخلي بين معاناة المرضى، وأعراض مرضهم وهو ترابط لازلنا نبحث فيه بدون طائل في سير حياة المرضى الذهانيين.[50]

وهل بالفعل هذا امتياز ما؟ وقبل كل شيء كيف نتأكد من أن القاص الفرويدي لا يهمل بعض العناصر ويقحم أخرى بدون وجه حق؛ أو يثبت روابط اعتباطية من شكل جيد لجفاف مادته، ضمن خطة مدسوسة متناسقة (لها بداية ووسط ونهاية)[51]، وباختصار ما هو الدليل الذي نملكه بأنه لا يضحي بالملاحظة- غير المرتبة والمهملة- مما لايقبل في البرهان السردي لإقامة نظرياته؛ إنه لا شيء يثبت لنا ذلك إلا ضمانات فرويد نفسه.

فرويد : قد تكون الحالة التاريخية نفسها معهودا فيها بأن تكتب فقط من الذاكرة، بعد أن يصل العلاج إلى نهايته، إلا أنه يكون تذكري للحالة لا يزال

غضا طريا، ويكتسي أهمية عليا بالنسبة إلى النشر. لأنه ليس كل تسجيل على إطلاق صحيحا، من الوجهة التسجيلية الفوتوغرافية؛ وقد يمكن أن يكتسب درجة عليا من الاستحقاق واليقين، إذ لا شيء يتغير إذا كان مهما، باستثناء بعض المواضع التي تستلزم أن يفسر ترتيبها. ونحن نتبرع بهذا الصدد، لتقديم حالات في صورة محبوكة.[52]

فرويد : وهكذا، فإن أخذنا للملاحظات أثناء الجلسات مع المريض، قد يبرره قصدنا لنشر الدراسة العلمية للحالة. وبوجه عام، فإن هذه الحالة لا يمكن إنكارها إلا أنه على الأقل يجب أن نأخذ بعين الاعتبار بأن التقارير المضبوطة لروايات الحالات، قد تكون أقل قيمة مما يتوقع . وبصريح العبارة، فإن هذه الروايات تمتلك فقط صحة ظاهرية مما يتجه لنا طب الأمراض العقلية المعاصرة، بأمثلة ملفتة متعبة للقارئ، ولا تنجح في أن تكون بديلا لحضورها الفعلي من التحليل، وتكشف التجربة الثابتة بأن القراء يميلون إلى أن يعتقدوا في المحلل الذي يثقون فيه، وفي أي مراجعة يخضع لها مادته.[53]

وسوف ننظر بعد لحظة ما المقصود إلى هذه «المراجعة الطفيفة»، وما إذا كان القراء مبررين على الحقيقة حتى يضعوا إيمانهم في دقة الحكي للشاهد المحلل الممتاز، أما الآن فلنتسامح بأن نقرأ تخمينا لجيمس ستراشي، الذي يحذرنا فيه تحذيرا بالغا ومعلوم أن ستراشي خبير ماهر في كتابات فرويد، ولا يوجد له مثيل.

من ستراشي إلى جونز : رسالة مجهولة التاريخ : إن فرويد غير دقيق في التفاصيل على نحو غريب، ويشبه أنه كان واهما بأنه يمتلك (ذاكرة مصورة فوتوغرافية).[54] وفي الوقت الراهن... فإنه يناقض نفسه حول تفاصيل الواقع ... وحينما نقوم بروايات الحالات (في الأوراق المجمعة)، نرسلها إليه في قائمة طويلة-يوضع معظمها للنشر.[55]

من ستراشي إلى جونز 7 نوفمبر 1955 : لقد وضعت في غلاف قطعتين من التقرير الأصيل لـ «دريت فول»، ويتبين كذلك كم كان[56] الأستاذ غير قادر تماما على دقة التفاصيل، ولقد حصل الآن على الوقائع الصحيحة الموضوعة أمامه إلا أنه لا يستطيع أن يستنسخها.[57]

ويوجد شيء أكثر جدية من هذا الإهمال، وغير الإتقان من جانب فرويد كونه الشاهد العياني الوحيد؛ إذ وراء التشوهات المحتومة التي أدخلها التمثيل السردي للمعطيات الكلينيكية الملاحظة، فنحن نحتاج أن نفهم بأن تقارير عند فرويد، لا تصف بشيء من الدقة، ما يقع في مكتبه، وأيضا تحكي تقاريره أحداثا واقعية كانت أم متخيلة : لا يهمنا هذا الأمر هنا في شيء على الإطلاق؛ إذا كان هو نفسه قد أعاد تركيبها، مثلا حب إليزابيث فون.ر. لزوج أمها، وكذلك حب دورا للسيد، ك، والمشهد الأول للرجل الذئب، وتسهم هذه الأحداث السيكولوجية في الاختلاف الذي لم يحصل له قط أن لوحظ في مكتب المحلل. ويقول لنا فريد إنه يوجد لاشعور مكبوت وراء شعور المرضى. وليس للمرضى ذكر عن هذه الأحداث- إنهم لا يشيرون إليها قط - مع أنهم يتمكنون من تذكرها كنتيجة لقبول تركيب المحلل (وهذا لا ينطبق على حالة إليزابيت فون،ر، ودورا أو الرجل الذئب...) وفي الواقع يضع المحلل هذه الأحداث السيكولوجية على لسان مرضاه (أو في لاشعورهم) إنه هو وحده الذي يقول لهم، نائبا عنهم وحالا محلهم ما يمكن ان يقولوه لأنفسهم. وبهذا المعنى فإن روايات الحالات الفرويدية ليست شيئا آخرا إلا تقريرا موضوعيا عن المعطيات الطبية الكلينيكية يدونها المحلل مجردة ضمن منهاج الإصغاء السلبي، والتعرف المتيقظ (كانتباه حر عام).

فرويد : إنه ينبغي أن يوجه المحلل لا شعوره الخاص مثلما يوجه العضو المستقبل نحو ما ينقله لا شعور المريض له، ومن ثم، يتعين عليه أن يعدل نفسه مع المريض، كما تعدل آلة التلفون المستقبلة لما ينقله لها الميكروفون.[58]

وخلافا لما تجعلنا نفكر فيه خطابة فرويد الوضعية، فإنه لا يوجد، ولا يمكن أن توجد ملاحظة «اللاشعور» لأن اللاشعور حسب تعريفه لم يظهر قط، أو قدم نفسه كالحال مع الشعور (وهذا وبكل وضوح هو السب في أن فرويد في المقطع المذكور آنفا يدعو إلى تحليل الشعور بنفسه)؛ وكما فسر اللاشعور على نحو مختصر في مقال له سنة 1915، نجد أن اللاشعور يصبح فقط، ظاهراتيا، حينما يصير شعورا. وهذا يختفي في اللحظة نفسها التي يظهر فيها.

فرويد : كيف تحصل لنا معرفة اللاشعور؟ وبطبيعة الأمر، إنما يحصل هذا فقط كشيء مشعور به نتعرفه بعد أن يعاني ويجتاز تحولا، أو تحصل إزاحة في شيء شعوري منه.[59]

وإذا، كيف يحصل أن يجري «هذا التحول أو الإزاحة في شيء مشعور به منه» أو هذا الإجراء الذي به يتحول : «شيء ما بذاته» من اللاشعور إلى ظاهرة ملاحظة؟ مثلا، كيف نعرف أن إحساس ضغط دورا الذي أحست به على صدرها هو إحساس يمثل ضغط العضو المنتصب للسيد،ك، على بظرها؟

أو أن قلق الرجل الذئب مما يجربه أثناء حكمه المشهور، يعبر عن صورة مقلوبة لرغبته الجنسية في أن يرضيها له أبوه؟ بل أكثر من هذا، كيف نعرف أن دورا والرجل الذئب يملكان لا شعورا ما؟ وكيف نفهم في الوقت الحاضر أن هذا هو لا شعور فرويدي متحدث عنه؟ إن العلة المفسرة هي أن تأويلات المحللين تقول لنا : «إنه ينبغي استعمال القواعد (النحوية) للتحويل التي تسمى النقل (الإبدال) والتكثيف والإسقاط والتوحد، والانقلاب إلى الضد، والرمزية وغير ذلك...» وإذا، فإن فرويد يترجم أعراض مرضاه وأحلامهم إلى : «أفكار لا شعورية » مجهولة لديهم. والمقطع الآتي يفسر لنا مرة أخرى، كل شيء وبوضوح «اللاشعور».

فرويد : كل يوم يبين لنا التحليل النفسي بأن النقل أو الإبدال من هذا القبيل يكون ممكنا ومن أجل أن يحصل هذا فإن الشخص الذي يخضع للتحليل ينبغي أن يتغلب على مقاوماته- وهي المقاومات نفسها التي تصنع مبكرا مادة تختص بما هو مكبوت بإلقائها من حيز الشعور.[60]

وعلى هذا فإن، اللاشعور يظهر في تفسيرات المحلل الذي يقول بأن هناك أمورا ينبغي أن تنقل، والأطراف المعنية لا تعرف شيئا عنها. ونتيجة لذلك، يرتاب بعض الناس في هذه الأمور. هنا نضع أيدينا على الصعوبة أو الغموض الخاص بجوهر التحليل النفسي على الإطلاق. وهو ما أدت الإبستمولوجية الفرويدية(الإبستمولوجية الخرافية) إلى إخفائه. وفي نهاية المطاف، لا توجد وقائع لهذه النظرية ولا ملاحظات تتناولها بجدية؛ إنها نظرية تدعم نفسها، بنفسها إنها آلة ميكانيكية تأملية متبتلة (بغير زواج) منتجة لفرضياتها وتركيباتها من واقعها الخاص. ومهما تكن ادعاءات فرويد، فإنه لم يلاحظ قط اللاشعور أو الكبت، أكثر من كونه «اكتشف» عقدة أوديب والطفلية الجنسية ودلالة الأحلام. إنه لم يفعل شيئا سوى أن هجم على ما كان موجودا واستخدمه، كما لو أن هذه التخمينات ذات وجود حقيقي وكان يسائل مرضاه أن يثبتوها له.

تقرير بنسونجر عن زيارته إلى فيينا من 26-15 يناير 1910 : وفي إحدى المناسبات، كنت قد رجعت إلى العبارة التي استخدمها فرويد أثناء اجتماع الأربعاء وهي أن «...اللاشعور هو شيء ميتافيزيقي، ووضعنا على أنه حقيقي...» وهذا هو معنى اللاشعور عنده، وبطبيعة الأمر إننا نسلك كما لو أن اللاشعور هو شيء حقيقي، مثل الشعور، ولما كان فرويد عالما حقيقيا، فهو لم يقل لنا شيئا عن «طبيعة» هذا اللاشعور، وبالضبط فنحن لا نعرف عنه شيئا وبالأولى فنحن نستنبطه من الشعور. وهو يرى كما كان كانط يسلم بالشيء في ذاته المختبئ وراء العالم الظاهري- وكذلك فعل فرويد، إنه يسلم باللاشعور بكونه يوجد وراء الشعور الذي نصل إليه عن تجربتنا إلا أننا لا نستطيع قط أن نجربه مباشرة.[61]

وهذا الغموض الذي قيده بنسونجر بالأداة الشرطية الافتراضية (ما إذا) هو بالأولى تقييد معتبر فمن ناحية أولى يشبه أن فرويد كان قلقا من أن يتمسك بالخاصية الافتراضية : «لتظاهراته المصطنعة» التنظيرية وهو يلح على استحالة إبانة جوهر الشيء ذاته للاشعور. ومن ناحية ثانية وبنفس الانفعال يطلب إلينا أن نتصرف كما لو أن هذا اللاشعور هو شيء حقيقي، في حين يخرق الحد الفاصل الذي رسمه بين التأمل والتجربة الممكنة، بين الافتراض والملاحظة، بين النظرية والنزعة التجريبية الأمبيريقية؛ وبدلا من أن يقدم تفسيراته كمحض تفسيرات (ولا شيء غيرها)، ما يلبث أن يحولها إلى أحداث سيكولوجية ينسبها إلى مرضاه. وعوضا عن أن يقدم لنا : «تركيباته كمجرد تركيبات، أعني تركيبات تنتمي إلى الماضي. وفجأة لم يعد نفس الشرط الافتراضي : «ما إذا كان...» للاشعور، أصبح لاشعورا محضا بحذف الاحتراز، فتوصف لنا التقلبات والمكان الطبوغرافي بأقصى جهد للجدية والخطورة.

فرويد : إن عمل التركيب وبعبارة أفضل عمل إعادة التأويل يشبه إلى حد بعيد عالم الحفريات في حفره لمحل إقامة أو مسكن كان قد انهدم أو كإنشاء قديم. والعمليتان هنا متماثلتان، باستثناء أن المحلل يعمل تحت شروط جيدة، وتوجد لديه أفضل مادة تحت تصرفه يمكن أن تعينه، لأن ما يتعامل معه ليس شيئا منهدما بل هو شيء لا يزال حيا. ذلك أن سائر الأمور الجوهرية محتفظ بها، حتى تلك الأشياء التي يشبه أن تكون منسية توجد حاضرة في مكان ما، وعلى وجه ما؛ إلا

أنها دفنت، ويصعب الوصول إلى موضوعها، وكما تعلم قد يداخلك شك ما إذا كانت البنية النفسية وقعت ضحية لهدم كلي. وحينئذ يتعلق الأمر بتقنية المحلل وفنه مما قد يمكننا أن ننجح في أن نخرج إلى النور ما كان قد توارى.[62]

وهذا العمل الأخير الذي يحمل التفسير إلى شيء مادي، هو الذي يحدد التحليل النفسي، في حين أنه يزودنا بمادة (أعني مادة أسطورية) الملاحظات الكلينيكية، وبروايات حالات فرويدية، وبالرغم من المظاهر، فإن روايات الحالات هذه لا تحكي ما وقع، أو ما قيل للمحلل في مكتبه. وبدلا من ذلك، فإنها تمد التمثيل الحكائي بما لم يكن المريض واعيا به، وبما جربه، وذلك قد يطلق على نحو منتظم كما يعتم معالم الحدود الواقعة بين المادة التي يزودنا بها المريض، وبين التخمينات المجردة التي يقحمها المحلل في هذه المادة. وبدون هذا التداخل في السرد- مما يضع المعطيات الملاحظة في مستوى تفسيرها نفسه- لا يستطيع التحليل النفسي أن يقدم نفسه كمادة معرفية تجريبية، أو أن يثبت نظرياته كوقائع غير قابلة للنقاش وإذا، لجدير بنا أن ندرس بتفصيل هذا العمل للتأويل السردي، الذي ندين له بكثير من الاكتشافات المدهشة.

القارئ الفطن

ولنأخذ أمثلة يكون فيها التحويل السردي للفرضيات إلى وقائع وضعية واضحة بشكل خاص.

مثال 1:

تشكو إيدا باور (وهي دورا في رواية فرويد) بمرارة من أبيها لتشجع السيد ك، من أن يتقدم إليها حتى يرتبط بها. غير أنه، خلال سنوات كانت قد فعلت كل شيء لتشجيع الارتباط نفسه.

فرويد: إنه يمكن أن نخلص إلى النتائج نفسها أو نفس الاستنتاج نفس... أعني أنها كانت طوال هذه السنوات تعشق السيد ك، وعندما أخبرتها بهذه النتيجة لم تصدقها.[63]

وبعد تسع عشرة صفحة، تخبر بأن إيدا باور، كانت قريبة من السيدة ك، وأن هذه السيدة اتخذتها كحليفة وكأمينة سرها في مصاعبها الزوجية مع بعلها. وإذا، كيف نوفق هذه الحادثة مع حب المرأة الشابة للسيد ك؟

فرويد : كيف دبرت دورا نفسها حتى وقعت في حب رجل، كانت صديقتها الحميمة تعطي عنه أشياء قبيحة لتقولها لها إزاءه؛ مما ترتب عنه مشكل سيكولوجي مهم، ولا يصعب علينا أن نجد له حلا : عندما نتحقق بأن الأفكار الموجودة في اللاشعور تقيم فيه على نحو مريح جنبا إلى جنب، وحتى المتضادات تجتمع بدون نزاع بينها وهذه حالة الأمور التي غالبا ما تتمادى في الشعور مستقرة، ثابتة.[64]

وفجأة، فإن «الاستنتاج» من تسع عشرة صفحة سابقة، أصبح حقيقة واقعية مستخرجة سائر أنواع التناقضات والمشاكل ؛ غير أنه من قال إن إيدا باور أحبت السيد، ك؟ إنما صرح بهذا فرويد وحده. ومن الواضح أن أهمية المشكلة السيكولوجية عند فرويد كانت تستخفي في الحال، لو أنه وافق على أن يترك افتراضه بدل إسقاطه على لاشعور ايدا باور، بالرغم من احتجاجها عليه (وهذا يكشف على نحو عارض بأن عدم الاكثرات بالتناقضات التي ينسبها إلى اللاشعور، يمكن أن يقال على فرويد نفسه.)

المثال :2 .[65]

لقد تطور عند «إيدا» مرض الربو، وعمرها ثمان سنوات، بعد رحلة طويلة ولمسافات بعيدة على الجبال، وقد كان لفرويد في هذه الفترة (1899-1900) نظرية كاملة عن الهستريا التي ينسبها إلى الكبت، حين الاستنماء الطفلي المصحوب بتخيلات الزنا بالمحارم- وكان يبحث ليقرأ شيئا عن شروطها.[66]

فرويد : والآن فإن الضوء الذي يمكن أن تلقيه على الصدمة الأولى هو أن وجود أبيها كان بعيدا في ذلك الوقت عن البيت، ولأول مرة منذ أن تحسنت صحتها. وفي هذه الذكرى البسيطة، ينبغي أن يوجد أثر للإشارة إلى علة مرض الربو. وتمدني أعراض أفعال (دورا)، وعلامات أخرى غيرها بأسباب وجيهة لافتراض أن الطفلة التي كانت غرفة نومها قريبة من باب غرفة أبويها؛ بحيث يمكنها أن تطلع على أبيها في بيت أمها بالليل، وأن تسمعه يتنفس بصعوبة عن الجماع.[67]

وإلى هذا الحد، فإن هذا التفسير هو مجرد : «تخمين» قائم على علامات لم يقل لنا فرويد عنها إلا النزر القليل. غير أنه بعد أسطر من هذا الكلام، يصير هذا التخمين متهينا لأن يمدنا، على وجه التأكيد بأساس لرواية حالة طويلة.

فرويد : تم بعد ذلك بزمن قليل، حينما يكون أبوها غائبا، والطفلة المخلصة في حبه، تتمنى عودته، فإنها يجب أن تعيد إنتاج الانطباع في صورة صدمة مرض الربو، وهو الانطباع الذي كانت قد أصيبت به، أو على الأقل كانت قد تلقته، ومن ثم، فقد احتفظت في ذاكرتها بالحدث الذي تسببت فيه صدمة العرض، ونحن نستطيع أن نخمن منه طبيعة سير تفكيرها وتسلسله، الممتلئ بالقلق الذي يصاحب هذه الصدمة. وقد كانت الصدمة الأولى حدثت بعد أن أجهدت نفسها، وانضاف إلى هذا التفكير في أن أباها كان قد منعها من أن تتسلق الجبال، ولم يعد يسمح لها بأن تجهد نفسها، لأنها تعاني من ضيق التنفس، ثم جاءت الذكرى، وهي كيف أن أباها يجهد نفسه مع أمها بالليل، والسؤال ما إذا كان يضر أو لم يكن يضر بنفسه تأدى إلى الاهتمام عندها، وهو ما إذا لم تكن تجهد نفسها بالاستنماء - وهو فعل- مشابه للآخر، ويؤدي إلى المني المصحوب بضيق التنفس، ثم أخيرا رجوع مرض الربو في صورة مكثفة بعرض من الأعراض، وجزء من هذه المادة أمكن أن أحصل عليه مباشرة من التحليل، إلا أن الباقي يتطلب تكملة.[68]

ومن المهم أن نلاحظ المجهودات، وضروب التكلف التي عاناها فرويد، لا لكي يخصص الحيز الذي يكمل فيه المادة التي زودته بها إيدا- وذلك لسبب وجيه- لا لأن المشهد الأول من تخمينه؛ بل لأن إيدا زيادة على ذلك[69]، قد أنكرت إنكارا تاما أن تذكر شيئا عن الاستنماء قبل سنها الثامنة أو كانت في علاقة حب مع أبيها[70] وحتى لو احتفظنا بذكرياتها عن رحلتها في الجبل، فنحن نساق إلى استنتاج مؤداه أن إسهام إيدا في راوية الحالة التي قصها فرويد كان إسهاما طفيفا، وكل ما تبقى ما هو إلا عبارة عن تأملات فرويد ثم إنه يقص علينا كل ذلك، كما لو كان الحدث قد وقع بالفعل راسخا في ذهن إيدا، وإذا، تحت هذه الشروط، كيف يمكن للقارئ أن يتعرف الاختلاف؟

مثال 3 : كان سيرجبوس مانكيجيف (الرجل الذئب أ. ك. أ) يحلم بالكابوس في سنه الرابعة؛ إذ كان يرى ذئابا بيضاء قابعة على عروش الأشجار، وبعد محاولة فك الرموز الطويلة والمبعثرة، مع جميع محاولات وضع الفروض، كان فرويد قد قرب من كشف سرها.

فرويد : لقد وصلت الآن إلى نقطة ينبغي أن نترك فيها الدعم الذي أخذته من سير التحليل. وأيضا، فإني أخشى بوصول هذه النقطة أن يتخلى اعتقاد القارئ عني.[71]

وكل ما يتبع هذا، ليس إلا عرضا للمشهد الأصل المشهور أن الطفل في عمر سنة ونصف يلاحظ، باهتمام ممارسة عملية الجماع. وقد تكررت هذه العملية مرارا كثيرة، ويرحب الطفل بالحدث مع تبرير مهتاج، وحينما يصل فرويد إلى هذه النقطة، يعترف بأنه يسأل القارئ كثيرا، إلا أنه لا يترك شيئا خلفه، وبالعكس من ذلك، يسأله أن يوقف ملكة النقد عنده، كما يفعل المرء مع كتاب رواية خرافية.[72]

فرويد : إني أؤكد للقارئ أني أقل ميلا إلى النقد منه نحو قبول ملاحظة الطفل. وإنما أسأله فقط أن يلتحق بي، لاتخاذ اعتقاد مؤقت من واقع المشهد.[73]

وحينما يتقوى فرويد بسماحة القارئ ويتحصن بها، يرجع إليه ويبتزه ويسلك، كما لو أن الواقع (التركيب المشهد الأصل)[74]، كما بناه هو، قد ثبت بشكل نهائي في علبة سوداء : إذ يتخذ الوضعية التي رأى عليها الآباء[75]، ويتيح الرضا الجنسي بواسطة الأب كما رآه في المشهد الأصل[76] ويشتاق المريض إلى من يعطيه آخر نتف من المعلومات التي افتقدها في السر الغامض للعملية الجنسية كما أعطاها له الأب أول مرة في المشهد الأصل، منذ أمد طويل[77]، ويسأل القارئ في موضعين أن يعتقد بأن هذا المشهد هو ذكرى صحيحة كما فعل فرويد مع بانكيف نفسه.

فرويد : وعندما يتعمق المريض كثيرا الموقف الخاص بالمشهد الأصل، فإنه يلقى ضوءا على النتف التالية لإدراكه الخاص، ويدعي، كما يقول، إن الحدث الذي شهده كان فعلا عنيفا؛ إلا أن عبارة الانشراح التي رآها على وجه أمه لا تتفق مع هذا، فيضطر لأن يعترف بأن التجربة كانت مريحة.[78]

فرويد : ثم إن التحليل، في اتصال وارتباط مع الحلم، يغوص في فترة ما قبل التاريخ، وينساق إلى ن يثبت بأنه أثناء التوالد في المشهد الأصل، يلاحظ بأن القضيب اختفى، وأنه يشعر بالشفقة على أبيه بهذا الاعتبار، ويتمتع بإعادة ظهور ما كان يفكر فيه وكأنه قد فقد[79]، ثم في فصل تال، تكون حقيقة المشهد الأصلي

قد ثبتت، ويستعمل في تفسير مشهد آخر يكون المحلل قد بناه وركبه وفي هذا الوقت مع الخادمة جروشا.[80]

فرويد : وعندما يرى الفتاة على الأرض تحكها، راكعة، وعجيزتها ناتئة وظهرها أفقي، فإنه يواجه مرة أخرى الوضعية التي ادعاها لأمه في مشهد التوالد.[81]

وعندما نقبل بأن التركيب الفرويدي كان في بادئ الأمر افتراضيا، فقد نحتج بأن ما هو منتقد فيه يشبه أن يكون المريض قد ساعده عليه، وحتى ولو ادعينا بأن موافقة المريض كانت نتيجة النقل والإيحاء، وأن «ادراكاته الذاتية» واثباتاته هي توهمات راجعة إلى الماضي، فإن فرويد لا يخترع كل شيء. وخلافا لذلك، فإنه على ما يبدو، كان يعتني عناية فائقة حتى لا يوحي بأن المريض أكد له كل شيء.

فرويد : غير أن كثيرا من التفاصيل تبدو لي مبالغا فيها، ولا تصدق، حتى أني أشعر ببعض التردد في أن أسأل الناس أن يعتقدوها. وهكذا، أطلب من المريض أن ينتقد بعض ذكرياته، إلا أنه لا يجد شيئا غير محتمل في عباراته، ويتشبث بها. ويتأكد القراء من جميع الأحداث التي أنقلها، وقد أكون صادفتها في تجربة مستقلة، ولم تؤثر فيها توقعاتي.[82]

وبالتأكيد، فإنه من المعقول أن كثيرا من مرضى فرويد لم يثيروا أي اعتراضات على تفسيراته- حتى المتجرئين منهم عليه والممازحين له- وفي الحقيقة، توجد لنا أمثلة كثيرة تشهد لذلك. وحالة بانكجيف هي مسألة أخرى. وكما يحدث عادة، فإنه توجد شهادته التي تناقض رواية فرويد للأحداث فبعد ست سنوات، ائتمن فرويد الصحفي الاسترالي كاربن أوبهرلزر بأنه لم يكن قادرا قط على أن يتذكر المشهد الذي تخيله فرويد، بالرغم من الضمانات الأخيرة التي أظهرها له، متذكرا لذلك المشهد بعد فترة من الوقت. إذا، كيف نوفق هذه «الإدراكات الذاتية» للمشهد، والذكريات والعبارات، والتقارير التي ينسبها فرويد إليه.

سيرجيوس بانكجيف : وذلك المشهد الذي انفتحت فيه النوافذ على مصراعيها، وكانت الذئاب جالسة هناك- وتأويله الذي لا أعرفه، إن كل تلك

الأمور تبقى معزولة، مقذوفة إلى جانب الطريق، إنها متكلفة، بعيدة التخريج بشكل مرعب لكن المشهد الأصل، ليس إلا تركيبا لا أقل ولا أكثر. وكل هذا غير محتمل؛ لأن الأطفال في روسيا، يكونون في بيت خاص بهم لا مع الأبوين. ويطبيعة الأمر، قد يوجد هناك استثناء وكيف أعرف ذلك، إلا أنني لم أستطع قط أن أتذكر أي شيء من هذا القبيل... ويتمسك فرويد بأني رأيت ذلك لكن من يضمن أن الأمر كان على ذلك الشكل ! أو ليس هذا خيالا من عنده ! ولابد إذا، أن أنظر إلى التحليل النفسي من وجهة نقدية، ولا أستطيع أن أعتقد في ما يقوله فرويد على الإطلاق. ودائما أفكر أنني ربما قد أتذكر. ولكن لم يحصل شيء من ذلك.

كارين أوبهولزر : يمكن للإنسان أن يقول بأن مقاومتك حتى اليوم الحاضر أنها تكون أقوى، مما يجعلك لا تريد أن تتذكرها.

بانكجيف : حقا أن هذا يمكن أن يكون افتراضا. أليس كذلك؟ إلا أنه ليس برهانا.[83]

الأسلوب الحر المباشر

إن الأمثلة التي ذكرناها إلى غاية هذا الموضع، تشترك كلها في أمر واحد : إنها تخلط على نحو منتظم الحدود الفاصلة بين افتراضات المحلل الاستكشافية، وبين الواقع النفسي للشخص على السرير. أما الفكرة الأصل لفرويد، فهي تقدم في نهاية الأمر للاشعور المريض، أو الأفكار الكامنة على نحو لم نعد نتعرف من يفكر؟ وفي أي شيء يفكر؟

وفي الحقيقة، فإن الأمور كانت تسير كما لو أن فرويد كان يقرأ داخل أفكار الآخرين، أو على وجه الضبط كما لو كان يقرأها لنا. وهذه الحالة الأخيرة هي التي حملت روايات حالاته قريبا من السرد الروائي الخيالي، وأبعدت مسافاتها عن الملاحظات الطبية التي تدعيها، وفي الواقع ، كما يلاحظ كيت هاميروغر[84] فإن السرد الخيالي هو الذي يمكن أن يكون أفكارا باطنية، وإحساسات كائن آخر غير من يتحدث، ويصف كما لو كان يتكلم جهارا ولا يسمح الحكي الخيالي، أو غير الخيالي بخرق الحواجز التي يرفعها بين «الأنا» المفرد والآخرين[85]، ومن دون شك فإن هذا ما جعل منه جنسا أدبيا أكثر جاذبية.

وإذا، فلنضف جنس التحليل النفسي الجذاب، ويتصرف فرويد في روايات حالاته كقصاص متضلع، عالم بالقصص الروائية، والقصة الذي تدخل في لب خصائصها، وتكشف أفكارها الحميمية إلينا. وهو يعرف كما يعرف بالزاك وستندال خبايا الدوافع وخفاياها من وراء أفعالها، بل يلج إلى الأفكار والإحساسات التي قد لا نكون واعين بها، أو نرفض الاعتراف بها.

إلا أنه بينما يتبوأ القصاص البارع مركز المسرح، وغالبا ما يتدخل في شرح ظاهر أو في نكته، يحاول فرويد باستمرار أن ينحي نفسه كقاص؛ لغاية أن يخلق وهما بالنفاذ المباشر إلى أفكار خواصه، وطبائعهم (مما يجعله ينزل نفسه منزلة القصاصين الواقعين مثل فلوبر، وزولا، وهنري جيمس). وهكذا، فبدلا من أن يكتب (إن بطلنا المتخبط في تناقضاته، لا يكلف نفسه أن يقبل بأنه يشاهد اتصال أبويه) فإنه يكتب بوضوح : «إن التعبير عن الفرح هو الذي رآه على وجه أمه...»، وكذلك، عوض أن يكتب : «إن دورا، وقد اهتزت، لم تقل شيئا لكنها كانت مستعدة داخليا لأن تعتقد في تفسير ما اقترحه عليها الطبيب حتى تعالج. كما كتب : وهذه قبلت ضمنيا التفسير.[86] وصحيح أن القاص، حتى ولو لم يكن متطلعا كما عهدناه من قبل، إلا أنه يجعل من نفسه شخصيا محتاطا وكتوما وشفافا، كلما تعمق في خصائص أفكاره الداخلية؛ مما يجعله يخلق : «أثرا واقعيا» مطبوعا. والقارئ الذي طلب إليه أن يعلق حكمه واعتقاده، يحصل له الآن الانطباع بكونه شاهدا على حياة المريض الداخلية.

وبطبيعة الأمر، فإن الإشكال هو أن روايات حالات فرويد ليست قصصا خيالية؛ لأن مرضاه أناس بلحمهم ودمهم وعظمهم، لا كائنات متخيلة، يمكن أن يدخل إلى تفكيرها، وعندما نقرأ جملا من هذا القبيل، وفي حالة جروشا، واجه فرويد مرة أخرى الوضعية التي افترض أنه في حالة مشهد التوالد، وإذا، دفعنا لأن نفكر بأن فرويد كان حاكيا أفكارا نقلها إليه المريض في حين لم يكن في الواقع يفعل شيئا من هذا القبيل (وكما رأينا لقد كان فرويد يقص عليه أفكاره الخاصة) وإذا، يوجد تعسف مخصوص لسرد ما ائتمن عليه هنا بأن أجاز لنفسه أن يدخل إلى أوهام الناس الآخرين ما تعسف فيه، في حين أنه لا يزعم فعل ذلك. ومن ثم فهو يدلس مراهنته وتشاركه، ويعمل في ذات الوقت على جنسين من الحكي حكي تخييلي وحكي غير تخييلي.

وفي معظم الأحيان، يتجنب فرويد بعناية أن يصرح جهارا بأنه يورد عبارات صاغها له المريض، ويفضل بكامل الحذر، أن يصل في منطقة الغموض (الخاص بالأسلوب الحر غير المباشر) العزيز على القصاصين الواقعيين؛ مما يكون له تأثير واضح في كل اقتباس مشوش ومختلط، وحكى بخطاب مباشر، وآخر غير مباشر[87]، وبدلا من أن يكتب أسلوب كلام مستقيم [قالت : دورا] (إني أتذكر كم كان أبي يجهد نفسه في ذلك العمل مع أمي)، أو في أسلوب الكلام المائل: «تذكرت دورا بأن أباها كان يجهد نفسه كثيرا مع أمها» فهو يكتب كالحاكي القاص لأفكار ذات طابع : «ثم جاءتها ذكرى وهي كم كان أبوها يجهد نفسه مع أمها في تلك الليلة».

ومن الواضح أن ميزة هذه الصياغة الأخيرة أننا لا ندري من هو المتكلم، هل هو المحلل - القاص، الذي ينقل عن الغائب كيف حصلت ذكرى إيدا باو؟ أم أن إيدا هي التي استعملت لفظة (الأم) الخاصة بالتكلم بالخطاب[88] المباشر. (وقد يسمى كذلك بالحديث مع النفس)[89] بأنه يعتبر مشتركا، يدمج فيه صوت القاص وروايته.

جرار جينت : وهنا نرى الاختلاف الأساس بين المتكلم المحدث لنفسه والأسلوب الحر غير المباشر، الذي غالبا ما يكون مضللا للآخر، أو غير مناسب: ذلك أنه في الخطاب غير المباشر، يفترض القاص كلام الرواية، أو إن شئنا، تتحدث الرواية على لسان القاص، وهكذا يوجد صوتان، وفي الخطاب المباشر يخفي القاص نفسه، وتحل الرواية محله.[90]

دوريت كوهن : يحافظ الحوار الفردي المحكي (حديث الذات) على نصف وضع بين الخطاب الفردي المقتبس (وإرجاع الحالة الأصل لتفكير الشخص في أسلوب خطاب مباشر)، وبين حكي سيكولوجي، وإرجاع الحالة الأصل لأسلوب خطاب غير مباشر)؛ وتقليد اللغة، تستعمل الرواية حينما يتحدث الشخص نفسه، وتطرح تلك اللغة في النحو الذي يستعمله القاص، وهو يتحدث عن نفسه، مما يفرض صوتين يظلان متمايزين في صورتين متغايرتين.[91]

وبطبيعة الأمر، فإن هذا الغموض هو الذي يضع الأسلوب الحر غير المباشر الجذاب بالنسبة إلى القصاص، كما يسمح للجاني أن يتسلسل خفية، ويندس في جلد الرواية، وأن يعيد بناء أفكاره الحميمية الراقية كما تعبر له عن نفسها. وهذا

بالضبط ما يتعلمه فرويد؛ إذ يسمح له هذا الشكل أن يتكلم إلى مرضاه، وكأنه لا يوجد في مكان ما، ويوحي بأن الأفكار التي ينسبها إليهم هي في الحقيقة أفكاره الخاصة، بدون اقتباس في خطاب مباشر «مما يكاد يكون محالا»، والفكرة الأخيرة مهمة : لأن سائر هذه المعاني تستمر في السرد على لسان الغائب والحاكي، كما لاحظ ذلك جينت؛ ولا يختفي في الرواية، حتى ولو عمل كل ما يمكن أن يحدث الوهم في فعله ذلك، ومن أجل هذه الصعوبة، تعذر الإمساك بفرويد وهو يلفق لأنه قلما يعلن صراحة بانه يعيد إنتاج الكلمات التي تحدث بها مرضاه، وإلى من اتهموه، كما فعل ماك شارنبرغ[92] وإلين استرسون[93]؛ بكونه يقدم تدليس تفسيراته كما لو كانت اعتبارات وتأويلات راهنة أعطاها له المرضى، فإنه دائما يرد عليهم بأنه لم يفعل شيئا من هذا القبيل. فتتخذ هذه الانتقادات شكل قراءات أدبية مشروعة لما يمكن أن يكون في الواقع جوازا وترخيصا أدبيًا. وإن محاكمة فلوبير كما قيل[94]، لم تكن لتقع، لولا أن السلطات كان لها من الحس الأدبي ما يكفي لفهم أن قضية (مدام بوفري)، كانت لا أخلاقية من جهة رواية أفكار (إيما) التي روت في أسلوب حر غير مباشر، وليست أفكار الكاتب القاص. وعلى خلاف فلوبير فإن فرويد كان يحق له أن يحتج من وجهة نظر نحوية محضة، بأنه لم ينسب قط صراحة أفكاره الخاصة إلى مرضاه.

وأيا كان الأمر، فإن هذا لا محالة هو انطباع القارئ. وحتى لو وضعنا دفاعه بواسطة النحو جانبا، فمن الواضح أن هذا هو السبب الذي جعل فرويد يستعمل شكلا خاص لحماية نفسه. وبفضل عدم تحديده، سمح له الأسلوب الحر غير المباشر أن يجسد افتراضاته النظرية على وجه من التآني بإحداث نوع من الوهم من نتيجته أنه ينقل ما ينتجه مرضاه من أفكار، ويحمي نفسه في حالة ما إذا تعرض للاتهام باصطناعه «ملاحظات»؛ عندما لا يكون هناك ما يلاحظ وهل يكون خطأ إذا واجهه قراؤه بمعيار أخلاقي، وهو العالم ذو الضمير الحي بأن ما ينقل ما هو إلا إيحاء؟ ومن الواضح أن هذه حجة واهية؛ إلا أنها تكفي لرد اتهامات الاختلاف : غير أنه لا يمكنه أن يتحصن كعالم ضد النتيجة اللازمة فإذا كان ما قرأه في روايات حالات فرويد يمكن أن ترد إلى مجرد الإيحاء، فإن التجربة المشهورة التي اعتمدها التحليل النفسي، يمكن أن ترد إلى مجرد التأثير الأسلوبي والبلاغي المحض.

وفي الأمثلة التي اعتبرناها إلى غاية هذا الموضع ، فإن التفسير القصصي ترك رسما، أو أثرا في نص فرويد؛ حتى ولو كان هذا الأثر الذي يحدث على القراء يجعلهم ينسون تلك الآثار. وبقليل من البحث، نستطيع أن نرى تصور فكرة القاص داخل أسلوبه وشخصه، وأن نتبع الطريق الذي يقود من تفسيرات المحلل إلى أفكاره التي ينسبها إلى مرضاه . ولكن، هل هذا دائما هو ما يفعله؟

ولنفرض مؤقتا أن فريد نجح في أن يشطب تماما هذه الآثار، وفي هذا الافتراض، لا يمكن أن يوجد شيء إلى جانب عدم التحديد في الأسلوب الحر غير المباشر، ومن بين عدة مصادر : فإن عباراته تظل عائمة، إذا جاز هذا التعبير في الفراغ، بدون أن يعرف أي أحد من الناس بالضبط ، هو الذي يعطينا تفسيراته الخاصة؛ بتقديمها لنا كمستدعيات، أو تصريحات نطق بها المريض نفسه. لكن، لما كنا لا نتقدم إلى مكتبه، وكنا مكرهين على أن نخول لأنفسنا العلم نفسه بكل شيء كما يخوله هو لنفسه، فنحن لا نفعل شيئا إلا أن نضع فروضا لا يمكن التحقق منها. وإذا أقدم فرويد على طمس المعالم والآثار لعمل تفسيره من نصوصه، فنحن لا نعلم، حسب التعريف أي شيء عن هذا العمل.

وفي بعض الأوقات على الأقل، قد يحدث لنا أن نحصل بصدفة طارئة على ملاحظات أخذها فرويد أثناء الشهور الأربعة الأولى، من تحليله حالة «الرجل الفأر».[95] ولو سلمنا أن الملاحظات التي ركبها من ذاكرته في المساء، بعد كل جلسة لا تشكل تفسيرا وفيا لتحليله[96]، فقد يكون لنا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد بأن فرويد لم يدرج إلا بعض القضايا، تخص الحكاية التي كان عاملا على تركيبها، وفي الحقيقة، فإن الملاحظات المأخوذة من الجلسات السبعة الأولى، يبدو أنها كانت قد كتبت لغرض تقديمها لجمعية التحليل النفسي بفيينا، في ما يعرف تحت اسم «بداية تاريخ رواية المريض»[97] وعلى أي حال، فنحن نستطيع أن نعتبر أن هذه الملاحظات كتسجيلات محضة غير متوسط فيها، وهي تسجيل كيف أن التحليل يوضح تدريجيا حتى يكون قريبا من النسخة الأصل، وحينئذ يمكن أن نبرر شكوكنا في وثاقته. وبالرغم من ذلك، فإن هذه الملاحظات على ماهي عليه، تمثل رواية أقل نموا وأقل تنقيحا مما يمكن أن ينشر، ونتيجة لذلك،

فهي تمدنا بفهم دقيق للعمل السردي الذي استعمله فرويد في حالاته المروية، ولربما في حالات أخرى.

أرنست جونز : لقد كان من عادة فرويد أن يتلف مخطوطاته، وملاحظاته التي تأسست عليها، وعن كل مقالة نشرها غير أنه من الحظ الغريب أن هذه الملاحظات عن الحالات التي تكتب يوميا كل مساء وقع الاحتفاظ بها، على الأقل في ذلك الجزء الأمثل من الشهور الأولى للعلاج، وهذه المادة لا يمكن تقييمها بثمن؛ لأنها تتيح فرصة فريدة لملاحظة فرويد، وهو منكب على عمله، إذا جاز هذا التعبير من نحو توفيته لتفسيراته، ولاستعماله الخاص للمقارنات والتماثلات لتوضيح فكرة قد وضعها، وكذلك التخمينات الأولية التي يصطنعها، مما يمكن أن يكون نتيجة لذلك إما مثبتا أو مدحضا، على معنى أن كل هذا عبارة عن محاولة انتهج بها هذا العمل المجزء والموضوع تدريجيا[98]، وإذا، فلننظر في هذا المنهج المسلوك.

المثال 4 :

لقد كان المسمى أرنست لانزر «الرجل الفأر» مريضا وعاشقا لابنت خالته جيزلا (امرأة أو صديقة فرويد قد عمل على نشر حالتها)، إلا أنه، كما دلت الملاحظات المنتزعة من الجلسة الثامنة من أكتوبر 1907، فقد أخبرنا بأنه (ليس من الممكن أن نعتبر الاقتران بينهما حاصلا، نظرا للصعوبات المادية)[99] - وفي الظاهر، فإن ابنت خالته ليست غنية بما فيه الكفاية، وفي 8 دجنبر، يشير لانزر بصفة عابرة، على أمه. بعد ستّ سنوات في ما بعد، كانت قد صممت على أن تزوجه من ذات قربى بعيدة عن نسبها، وهي غنية، ولنتأمل الملاحظات التي سجلها فرويد في هذا الموضوع.[100]

تحليل فرويد لملاحظات 8 دجنبر 1907 : وبسائر أنواع المراوغات، وتحت علاج التحويل، يبدو أن حكاية الإغواء كانت قد التبست عليه دلالتها، وهي مرتبطة بمخططه أنه القديم؛ أعني الافتراض بأن يتزوج إحدى بنات سابورسكي وهي فتاة جذابة، بارعة الجمال عمرها الآن 17 سنة، ولم يكن يشك في أن يتجنب هذا الصراع (بين تصميم أمه وبين حبه لابنت خالته جيزلا)، ومن ثم

احتمى بالمرضى، وهو طريق كان قد مهد له اختيار الطفولة من أخته الكبرى الشابة وكذلك بالرجوع إلى حكاية زواج أبيه. ولقد عرف من أبيه ساخر يصف نفسه كخطيب شاب. وكانت أمه دائما تسخر منه وتقول إنه كان مرة قد راود ابنت جزار عن نفسها ومن ثم وجد فكرة (وهي فكرة استنبطها فرويد وأوحى بها إليه)، لا تقبل التسامح؛ على معنى أن أباه كان يرغب أن يتخلى عن حبه ليحمي مصالحه المادية عن طريق الارتباط مع سابورسكي، وهكذا أصبح غاضبا عليه ويظهر هذا السلوك في الشتم الذي يعبر عنه بصعوبة... وفي الظاهر، كان يقاوم إغراء أحلام اليقظة في أن يتزوج مع ابنتي عوضا عن ابنت خالته. وفي أن يسب زوجتي وابنتي. ويعبر التحويل بفجاجة (على معنى أنه يترجم بسهولة) كما يلي: وكانت امرأة فرويد تجلد حمارها (على معنى أنها تثور ضد كل شخص محترم في الأسرة)، وكان مرة أخرى يرى (يتخيل في أحلام اليقظة) في ابنتي مكان عينيها، وكأنهما واقعتان على ثدييها؛ مما يعني أنه وقع في حبها، لا من أجل عينيها إنما من أجل مالها.[101]

وهكذا كان فرويد في ذلك المساء قد خطط شكلا قصصيا، لمادة يمكن أن يمد بها مريضه، إلا أن في ملاحظاته، كانت ردود أفعال مريضه قد أتاحت له أن يستفيض في تفسيراته الخاصة، ومن الواضح أن لا نزر كان بوجه خاص قد رفض فكرة تقدم بها فرويد لم يشك في أنه وقع مريضا، حتى يتجنب أن يختار بين الفتاة الفقيرة والغنية؛ مما نجاه من الغضب والاهتياج، الذي عبر له به التفسير التحليلي غير السار، وهو تفسير راجع إلى الإغواء التحويلي حتى يتزوج الفتاة الغنية متبعا في ذلك مثال أبيه، ولنلاحظ أيضا بأن هذا كله قد لخص في جلسة واحدة للتحليل، ولننظر في الرواية المنشورة عنه.

فرويد: رواية حالة الرجل الفأر

وذات يوم، أشار إلي مريض من غير قصد، إلى حادثة لم أكد أتعرَّفُها لكونها علة معجلة بمرضه، أو على الأقل، هي سبب غير مباشر للإصابة التي كانت قد ابتدأت منذ ست سنوات مضت، ولا تزال مستمرة حتى الآن. والمريض نفسه لم يكن على بينة بأنه يحمل إلي شيئا ذا بال.. لقد كانت أم المريض قد نشأت في أسرة غنية، لا تزتل بها صلة عن بعد، وكانت هذه الأسرة مهتمة بالصناعة، وكان

أبوه في هذا الوقت، وقت زواجه قد توغل منهمكا في الأعمال؛ مما جعل منزلته مريحة، وعلى أحسن حال، ولقد قرأ المريض، من بعض المبادلات التافهة بين والديه (اللذين كان زواجهما سعيدا جدّا) بأن أباه، قبل أن يتعرف على أمه معرفة شخصية، كان قد خطب فتاة جميلة ولكنها فقيرة، ومن نسب مغمور. وقد حكت الأم للمريض، بعد موت أبيه، في أحد الأيام، أنها كانت قد ناقشت مستقبله مع بعض أقاربها الأغنياء، أن واحدة من بنات خالتها صرح لها بنفسه منها، عندما تتم دراستها... فجره مخطط هذه الأسرة إلى صراع، فلم يدر ما إذا كان يمكنه أن يبقى مخلصا للسيدة التي أحبها بالرغم من فقرها، أم يتبع خطو أبيه، ويتزوج الفتاة الغنية المرتبطة به من الحب، وكانت قد تعلقت به، على أنه كان قد حل الصراع الذي حصل في الواقع دائرا بين حبه وبين التأثير المستمر لأماني أبيه وهو تأثير لم ينفع معه إلا أن حله بأن سقط مريضا. أو بعبارة أوضح، وقع مريضا حتى يتجنب مسؤولية إعطاء حل للحياة الواقعية.

وكما كان متوقعا، فإن المريض لم يقبل في بادئ الأمر تجلية هذا الموضوع وإيضاحه؛ قائلا إنه لم يتصور أن يكون مخطط الزواج له مثل هذا التأثيرات: إذ لم يشعر بأي تأثير في ذلك الوقت عليه، ولكن، أثناء سير العلاج، اضطر إلى أن يعتقد في صحة شكي، وبضفة فريدة من نوعها؛ وبمساعدة التخييل التحويلي، كان قد جرب، كحدث جديد ينتمي إلى الحاضر، أصدق تجربة من ماضيه الذي نسيه، أو الذي لم يمضه إلا من خلال شعوره الذهني ثم حلت فترة صعبة وغامضة من العلاج، ومن المحتمل أنه أثبت في نهاية الأمر، أنه كان قد التقى بفتاة على درجات سلم بيتنا، وارتقى بها فورا إلى أن جعلها آبنتي، ولقد أعجبته، وصور في نفسه أن السبب الوحيد الذي ربما كنت معه مؤدبا على نحو لا يصدق، هو أنني أريد أن يكون صهري... ثم دخلنا في سلسلة من المقاومات الشديدة والتعنيفات الأشد مرارة من جانبه، لم يعد بالإمكان قادرا على أن يتغاضى عن الآثار الغامرة، لعقد تمثيله الكامل بين التخييل التحويلي، وبين حالته الراهنة في ما كان عليه في الماضي، وكنت أنوي أن أكرر عليه حلما من أحلامه التي وقعت له في تلك الفترة، حتى أعطيه مثالا عن طريقة علاج ذاته: لقد حلم أنه رأى ابنتي أمامه، وكانت لها رقعتان على ثدييها، مكان عينيها. إنه ولا أحد ممن يفهمون لغة الأحلام

قد يجد صعوبة بمثل صعوبة توجيه هذا الحلم: إنه يصرح: «إنما تزوج ابنتي: لا من أجل عيونها الجميلة، بل من أجل مالها».[102]

وينبغي ألا نمعن النظر كثيرا في الفتاة الشابة التي وقع الالتقاء بها على درجة سلم البيت؛ إذ هذا أمر لا يمكن أن يوجد في ملاحظات التحليل كمادته حتى يحصل التخييل، باعتبار أنه غائب في ملاحظات التحليل، ثم إنه تخييل يرغب أن يصبح المحلل صهرا، وما هو مثير في الأمر؛ كون أن فرويد يتلاعب قصدا بعلاج منتظم في الزمان؛ إذ في ملاحظات لانزر، نجده يرفض فكرة أن أباه كان قد تزوج أمه خارجا عن المصلحة، وأكثر من ذلك، إنه كان مهتاجا أو في حال من الغضب؛ أعني كون أن فرويد (لم يكن واضحا، إما بعد الجلسات أو طوالها) فسر كفعل تحويلي الصراع الذي ينسبه إلى مريضه، غير أنه في حال مروياته، نجد أن الرجل الفأر، يقبل تفسيرات فرويد، بعد طول فترة مقاومة غامضة[103]، وعلاوة على ذلك فإن إحدى تخييلاته العدوانية المنكشفة، طوال الجلسة [أو بالأولى، تركب عن طريق التحليل بعد وقوع الحدث]، تصبح في رواية الحالة حلما تأكيديا على أن لانزر أباح به في ما بعد، مما مكن فرويد على نحو غامض عرضي، أن يبرر ويفسر العناصر الاعتباطية لتأويله برجوعه إلى «لغة الأحلام» المزعومة[104] والنتيجة هي أن مقاومة لانزر تلاشت، إذا جاز التعبير، إلى أجل معلوم، تبخرت فيه هذه المقاومة متحولة بذاتها إلى إثبات افتراضات المحلل. وقد نكون متعجلين أن نجد توضيحا جيدا لأطروحة (لاكان) تبعا لقوله: «بأن التحليل النفسي هو تجربة جدلية»، «تحول فيها الحقيقة إلى موضوع»[105]؛ إلا أن الجدل هنا مقلوب إذ يحول النفي (لا).[106] الخاص بالموضوع إلى «نعم» محررة، ويظهر أن هذا الجدل متخيل بكامله، وبطبيعة الأمر، فإن القارئ لا يخبر بهذا، وخلافا لذلك يفترض فيه أن يعتقد بأن هذا التصور التفسيري، مما يراه المحلل، هو تأمل جدلي للمريض نفسه.[107]

العامل البريدي البارع والمقامر المجرد من المبادئ

ومع هذا المثال الأخير، نكون قد اقتربنا مما يمكن أن يحمل على أنه تزييف للملاحظات. وفي ما مضى، كنا رأينا فرويد في عمله متصورا للتأويل والتفسير

حتى أنه كان ينسب أفكاره الخاصة إلى مرضاه، أو أنه كان يحول تركيباته الخاصة إلى ذكريات ينقلها إليه مرضاه على سريره.

وإن كان في المثال السابق قد ظهر التزييف في تحريف ملاحظات تحليله الخاص، أكثر مما ظهر في تركيب قصته؛ كالحال مع مؤرخ عديم الضمير، الذي يبدل الوثيقة حتى تتلاءم مع روايته للأحداث. ونحن الآن نترك المجال الغامض للجواز، أو المجاز الشعري، وانحرافه عن القواعد والتصور السردي، ونقتحم مجالا تكون فيه المرويات والمنقولات حتى ولو كانت بألفاظ المرضى، التي تكتب كتابة مجردة.

المثال 5 :

وفي 3 أكتوبر من سنة 1907، أثناء الجلسة الثانية لفرويد، نجده يحكي لنا عنها على لسان لانزر مع قدر كبير من الامتعاض والنفور، كيف أن فكرة «الرجل الفأر» الذي استعير له كاسم، كانت قد خطرت بباله : إذ كان الوسواس قد ركبه بهذه الفكرة من شهر غشت، حينما كان مشاركا في مناورات عسكرية «بجاليا» كجندي احتياطي، وأثناء السير، قال له القبطان، واسمه نمزيك، بأن يقرأ شيئا عن أسلوب التعذيب الشرقي؛ القائم على أن يملأ إناء كبيرا بالفئران، وتربط بالأجزاء الخلفية من جسد المتهم، وهكذا فإن الفئران يمكنها أن تقضم في طريقها إلى استه. وهذا التذكير أحدث له خوفا وسواسيا للسيد لانزر؛ حتى أنه تخيل أن مثل هذا العتذيب يمكن أن يصيب جيزلا، وهو خوف تجنبه بطريقة وسواسية خفيفة بمساعدة ملتوية، أو بمعونة عفوية، تقصد إلى أن مثل هذا الحادث لن يقع.

وأيضا في الجلسة نفسها، حكى لانزر كيف أن القبطان نمزيك في الأمسية التالية، قال له إنه ينبغي أن نعوض الملازم الأول دافيد ببعض النقود، كان هذا الأخير قد دفعها في طرد بريدي، يحتوي على نظارة أنفية أرسلت إلى لانزر. وإذا، فإن العقوبة الثانية تكونت في ذهنه. وهي ألا يرد النقود، لأنه لو فعل لكانت حبيبته قد تعرضت إلى التعذيب الفأري.

وقد حل محل هذا الإجراء مباشرة عقاب مضاد مهيب : وهو أن يعيد النقود إلى الملازم دافييد، كما أشار بذلك القبطان نمزيك، ولكنه حينما حاول أن يسدد دينه للملازم دافييد، تبين له أن القبطان نمزيك كان مخطئا؛ إذ لم يكن دافييد على الحقيقة هو الذي قد اقترضته النقود.

فرويد : تحليل ملاحظات 3 أكتوبر 1907 : كنت أبحث عن مسؤول المحاسبة وهو ضابط صف، وأسلم له أمرا بموجبه يحمل 380 كرون إلى الملازم دافييد... فرجع وقال لي : إن السيد دافييد المعني يوجد في موقع متقدم...والضابط الذي ذهب إلى قرية صغيرة عرض أن يتقدم إلى الدائرة، ويدفع عني النقود، لكني اعترضت على ذلك، لأني أخلصت للرسالة المؤدي عليها اليمين [لأنه قيل لي ينبغي أن نعطي النقود إلى دافييد، (ولم تكن علاقة دافييد بالدائرة واضحة) أكملت اجتماع دافييد، وسلمت له 380 كرون التي كان قد دفعها من أجلي. لكنه رفض العرض قائلا : «إني لم أدفع شيئا من أجلك» وفي هذه اللحظة، فاجأتني فكرة : سيكون من نتائج هذا أن كل واحد يحكم عليه بأن يتألم من أجل هذه العقوبة : (لأنه لم يوف بعهده). ولفظ «كل واحد» يدل بوجه خاص على موت الأب، وهذه المرأة...[108]

وفي 4 أكتوبر من سنة 1907 أثناء تحليل الجلسة الثالثة، فسر فرويد للانزر مرة أخرى قصة عدم رد النقود الخاصة بالطرد البريدي، كما لو أنه كان يصعب عليه أن يفهم ذلك أثناء الجلسة السابقة، وهل كان ينبغي إعطاء النقود إلى الملازم دافييد، كما قال القبطان نمزيك، أو تسليمها إلى الدائرة، كما أشار عليه الضابط الذي ذهب إلى القرية الصغيرة الموجودة قرب مكان إجراء المناورات.

فرويد : تحليل ملاحظات 4 أكتوبر 1907 : وقد سألته ما إذا لم يكن يعتقد في الواقع بأن النقود قد سلمت لا إلى الدائرة ،بل إلى دافييد. فأجاب : بأنه يشك بعض الشك في ذلك؛ إلا أنه، حرصا على قسمه، يعتقد في الاحتمال الأخير، وهنا نضع يدنا على تعتيم الذاكرة وعدم يقينها، كما لو أنه قد سوى شيئا ما بعد هذه الحادثة. وفي بداية هذه القصة، كما أضاف في ما بعد، كان يوجد في الأساس قبطان آخر، قدم إليه، وقال له : بأنه يجب أن يسأل في الدائرة ما إذا كان يعرف شخصا آخر يسمى الملازم لانزر، يوجد لديه طرد بريدي، ينبغي أن يسدد

عليه دينا حتى يتسلمه، وقد رد هذا القبطان بالنفي ذلك لأنه لم يأخذ الطرد، ثم جاءت قصة القبطان نمزيك، وفضلا عن ذلك، فقد أفاض في تفسير لقائه بدافيد الذي قال له : إنك لم تكن مسؤولا عن البريد، بل المسؤول عنه هو الملازم إنجل، وهنا حدث لي سهو : إذ أثناء إغفاءة بعد الظهيرة كان قد حل المشكلة في حلمه، إذا جاز التعبير، إذ توصل إلى أنه كيف سوى كل شيء، وأثبت ذلك كما يلي : كان يود لو يذهب إلى الدائرة مع ضابطين هما إنجل ودافيد، وهنا أعطى دافيد 380 كرون إلى امرأة شابة تشتغل هناك، ومدتها إلى انجل، وكان لانزر نفسه حفاظا على جسمه ووقائه، يريد أن يسدد هذا المبلغ إلى دافيد.[109]

وحتى تتضح هذه الأمور، فإنه ينبغي أن نبرز بعض النقاط الأساس؛ ذلك أن القبطان المجهول الاسم، لم يتسلم الطرد البريدي من الدائرة، ولم يكن هو الذي سدد الثمن عوضا عن لانزر. وعلاوة على ذلك، فإنه خلافا لما يدعيه القبطان نمزيك كذبا، ليس الملازم دافيد هو الذي قام بذلك الفعل، ولا الشخص الموجود وراء طاولة عد النقود (مما هو خلف في القول)، وكما يشير السياق بوضوح فإن الملازم إنجل، هو المسؤول عن البريد الحدودي الخاص بالجنود القائمين بالمناورات وهو كذلك الذي أدى ثمن الطرد البريدي- مما يفسر ما اشتغل عليه محيط الهذيان المسترجع في نصف حلم لانزر- هو المتلقي الأخير للنقود 380 كرونات، أما ما يخص هذه المرأة الشابة في الدائرة، فلم يكن الاسم المجهول هو الذي أشار إليها (لأنه تحدث فقط في الدائرة)، بل لانزر هو الذي ذكرها (مع أنه لم يكن في الدائرة)، ولم يكن له طريق لأن يتعرف ما إذا كان الشخص الموجود وراء طاولة النقود، هو رجلا أو امرأة، وفي الواقع ، إنما ظهرت المرأة الشابة فقط في تخييل ما استرجعه لانزر من تذكر، هذا يأتي أثناء وجوده مستلقيا في غفوة، وحل المشكلة في حلمه إذا جاز هذا التعبير.

وتستمر قصة لانزر، فبعدما تردد زمنا طويلا ليسأل الملازم دافيد حتى يشركه في تحييله غير القابل الصديق عن تعويض التسديد، فإنه قد ركب القطار، ورجع إلى فيينا في حالة اضطراب وهيجان.

وهنا هدأ روعه صديقه جالتزر. وأخيرا نجح في أن يتغلب على ما يكفه عن تسديد دينه، وأرسل النقود إلى الدائرة في (غالسيا).[110] وهذه النقطة الأخيرة

ويجب أن نتذكر هذا، لا تتعارض في شيء مع كون أن المبلغ المذكور في ذمة الملازم إنجل. وفي الحقيقة، كان يجب عليه أن يرسل النقود إلى الدائرة الموجودة في (سبسا)، لأن هذا هو المكان الذي يتعين أن يستلم فيه إنجل البريد الخاص بالجنود، في حال القيام بالمناورات.

وإذا كنا رجعنا إلى نشر تاريخ أو رواية الحالة، فذلك لأننا نلاحظ أن فرويد تجاهل هذه الواقعة، حتى يحتج على نحو غير متوقع بشكل كامل، بأن المبلغ كان في الواقع واجبا في ذمة الضابط في الدائرة لا غيره.

فرويد : رواية حالة الرجل الفأر : وهذه العبارة الأخيرة هي التي زودتني بالبداية التي منها يمكن أن أصحح مختلف التشوهات المتضمنة في الحكاية. وبعد أن رد إليه صديقه رشده، فإنه قد أرسل المبلغ التافه من النقود، لا إلى الملازم دافيد ولا إلى الملازم إنجل، بل وجهه مباشرة إلى الدائرة.

وإذا، كان يجب أن يعرف أنه مدين بالمبلغ في ذمته إلى الطرد البريدي ومن ثم، يرده إلى الضابط لا غيره الخاص بالدائرة (وهو ذكر...) ومن ثم، كان عليه أن يعرف ذلك قبل أن يبتدئ رحلته، وقد تبين أنه كان يعرف ذلك قبل أن يقوم القبطان نمزيك ببحثه والتماسه التنفيذ وقبل أن يفي بوعده، لأنه الآن يتذكر أن بضعة ساعات قبل لقاء القبطان القاسي والعنيف، أتاحت له الفرصة أن يقدم نفسه لقبطان آخر، قال له : كيف هي حالة الأمور في الوقت الراهن. وهذا الضابط حين سمع اسمه أخبره بأنه كانت توجد في الدائرة قبل زمن قصير، سيدة شابة، وأنها سألته ما إذا كان يعرف الملازم، أعني (المريض) الذي وصل إليه طرد بريدي، عليه أن يسدد ثمنه حتى يتسلمه، وأجاب الضابط بأنه لم يقم لها بشيء إلا أن السيدة الشابة كان من رأيها أن عليها أن تثق في الملازم. وقالت حينئذ إنها مستعدة لأن تدفع تكاليف الطرد بنفسها، وبهذه الطريقة، تمكن المريض من أن يحصل على نظارة الأنف التي طلبها... وأخطأ القبطان القاسي، حينما تسلم الطرد، وسأله أن يدفع وأن يرد 380 كرونات إلى الملازم دافيد. وكان يجب على المريض أن يعرف ذلك الخطأ. وبالرغم من كل ذلك، فقد وفى المريض بعهده القائم على هذا الخطإ، وهو وعد مرتبط بالتعذيب وبالألم المبرح بالنسبة إليه.[111]

ولا يسعنا إلا أن نستغرب للحرية التي اتخذها فرويد إزاء حكاية مريضه كما نستغرب استبعاد حدوث الحكاية التي استبدل بها أخرى، وبالمرأة الشابة في الدائرة، التي تخيل لانزر وجودها في إغفاءته، صارت عاملا حاسما، ونقلت إليها ألفاظها، وأفضل من ذلك، فإن هؤلاء البيروقراطين في الإمبراطورية الهونغارية الأسطرية تقرر أن تدفع أجرة البريد لجندي مجهول في حال تنقل، والآن يدعي فرويد- مناقضا ملاحظاته- بأن القبطان المجهول الاسم هو الذي كان قد فسر كل شيء للسيد لانزر. وكان هذا يعرف كل شيء عن النقود، بكونها ليست واجبة على دافيد ولا على إنجل (أما العامل الكريم في الدائرة الذي تسلم الطرد البريدي، وكيف تسلمه القبطان لمزيك فكل ذلك يظل لغزا...).

لكن لماذا تورط فرويد في إعادة الكتابة؟ ولماذا اضطر أن يتمسك بأن لانزر كان مدينا بالنقود إلى السيدة الشابة، المتوهمة في الدائرة، بدلا من أن يكون مدينا للملازم إنجل ؟ ولا نحتاج أن نتأمل كثيرا حتى نعثر على الإجابة؛ إذ في القسم المعقول (العقدة الأبوية وحل فكرة الفأر)، نجد فرويد يفسر لنا بأن قصة القبطان المجهول الاسم، كانت قد أحيت في لاشعور لانزر توحده بأبيه.

فرويد : حالة رواية الرجل الفأر

لكن الخبر القائل بأن السيدة الشابة في الدائرة بمكان (سبسا) كانت بملاحظة متممة حول نفسها هو خبر شد وقوى توحده بأبيه في اتجاه آخر تقريبا. وفي هذه المرحلة من التحليل، كان المريض قد نقل معلومة جديدة من أثرها أن صاحب فندق في هذا المكان الصغير كانت له بنت جميلة في هذه الدائرة وكانت قد شجعت بعزمها الضابط الشاب الجميل؛ حتى أنه فكر في أن يرجع إلى هذا المكان بعد أن تنتهي المناورات. وأن يحاول حظه معها. غير أنه كانت توجد لها منافسة في صورة سيدة شابة في الدائرة... وعلى شاكلة أبيه في قصة زواجه، كان يتردد في أي منهما يمنحها عطفه حينما ينهي الخدمة العسكرية.[112]

ونحن الآن نفهم لماذا يبدو فرويد مضطرا لأن ينساق وراء إدراج العامل البريدي الكريم في الحكاية : وذلك لغاية إثبات، أو وضع مقابل لبنت صاحب الفندق الجميلة، وهكذا يخلق تناظرا غير موجود مع قصة أب لانزر. (وهي أقل

بناء من مثال 4)، مما يفترض ترددا بين فتاة غنية وفتاة فقيرة[113]، وهكذا يبدو فرويد قد اخترع هذه القصة حتى يجعل حكاية مريضه متفقة مع فرضيته الأوديبية. وقد يتساءل الإنسان ما إذا كان هذا لا ينطبق أيضا على ما قيل حول بنت صاحب الفندق الذي لم يشر إليه في أي مكان من كتابة ملاحظاته. وبغض النظر ما إذا كانت هناك أم لم تكن فتاة واحدة، فإن الحقيقة تبقى واحدة، وهي أنه توجد بينة على المنافسة بين فتاتين، كما لا توجد، نتيجة لذلك جهة تناظر بين الأب وروايات ابنه. وهذا التناظر الذي يكون متمما للحل البارع لفكرة الفأر المقترحة يبدو وكأنه تناظر غير موجود.

مثال 6 :

وفي 30 نوفمبر سنة 1907، يحكي لانزر روايات متنوعة عن الفترة التي كان فيها أبوه جنديا.

فرويد : تحليل ملاحظات يوم 30 نوفمبر 1907 : وكان أبوه في إحدى المناسبات توجد لديه عشر فلورنت من نقود الكتيبة، ليسدد بها بعض النفقات، إلا أنه خسرها في لعب الورق مع بعض الناس؛ مما جعله يحاول أن يستمر في اللعب، فخسر كل ما معه، واشتكى لبعض رفاقه بأنه ود لو يطلق الرصاص على نفسه فقال له الرفيق : يجب أن تنفذ ذلك، لأن من فعل مثل فعلتك ينبغي أن يطلق الرصاص على نفسه، ثم أقرضه بعض النقود. وبعد أن أنهى الخدمة العسكرية حاول أبوه أن يعثر على الرفيق الذي أقرضه المال لكنه فشل في ذلك (وهل رد ما عليه من دين؟).[114]

وينبغي أن نلاحظ أن المريض يقول فقط بأن أباه حاول عبثا أن يعثر على هذا الرجل بعد أن ترك الجندية؛ لأن الغاية، من البحث كانت تقوم في تعويضه (ولا يوجد في النص شيء يثنينا عن التفكير أنه سبق له أن رد الدين قبل هذا. ويظهر أن فرويد نفسه هو الذي وضع هذه الملاحظات في تلك الليلة مستغربا كلامه (وقد وضعه بين قوسين كما سبق) وهو ما إذا كان أبوه قد أدى ما عليه من دين كما أن فرويد أعاد قراءة تلك الملاحظات، وسطر على تلك العبارة (بين قوسين) بقلم؛ مما يبدو أنها لفتت انتباهه[115]، ومن السهل أن نفهم لماذا تساءل : عن الغرض

الذي قاد لانزر إلى أن يستشير فرويد، إذ أن هذا الغرض كان كفا اضطراريا حرمه من رد المبلغ الذي قدمه أثناء المناورات العسكرية. وإذا، كان فرويد يفكر في يوم الجلسة، وقد خطر بباله التشابه بين الموقفين[116]؛ إذ استغرب ما إذا كان الأب قد أدى ما عليه من دين قبل مغادرته الجيش، أو ما إذا كان من جهة أخرى بحث بدون طائل أن يقوم بذلك في ما بعد- وفي هذه الحالة، فإن التناظر بين الأب والابن واضح تمام الوضوح، إلا أنه لا توجد علامات على أن فرويد سأل لانزر لأن الجلسة التالية التي وقعت بعد مدة أسبوع، اتخذت اتجاها آخر في أي موضع من الملاحظات ثم إن فرويد زهاء مدة أربعة أشهر في ما بعد ذلك، انهمك في قراء ملاحظات بعد أن رجع إليها، تمهيدا لمحاضرة أربع ساعات على حالة لانزر، وهي محاضرة قدمها يوم 27 أبريل من سنة 1908 (اجتماع علماء النفس الفرويديين بسالزبورغ)[117]، ومن جهة أخرى، وقد سأله يونج، وكرر السؤال، أن يقدم حالة من حالاته عوضا عن (إعلان المبادئ)[118] كما يقصد في الأصل.

من يونج إلى فرويد 11 مارس 1908 : إني أطلب إليك تقديما عقائديا، ونحن جميعا سنتبعه؛ وحسب ذوقي، فإني أفضل هذا على إشاراتك للكلام عن التحليل النفسي.[119]

ومن الواضح أن يونج كان يثمنّي أن يمدهم فرويد في نهاية الأمر بوصف مفصل عن تحليل كامل، ينتظره كل، واحد منهم؛ إلا أن فرويد، وعلى نحو مفاجئ قصر في إعطاء تحليلات وافية (وهذا في سنة 1908)، وقرر في آخر لحظة أن يقدم محاضرة عن حالة لانزر، بالرغم من كون أن هذا التحليل الأخير لم يكن قد انتهى.

من فرويد إلى يونج 13 مارس 1908 : أما في ما يخص محاضرتي، فإني سوف أنجزها...والتقرير عن الحالة التي التزمت بها، يمكن أن يلخص في ساعة. إلا أن هذه الحالة لم تنته بعد، فلا تزال في المرحلة الحاسمة. والنتيجة النهاية قاصرة عن المطلوب؛ إذ يجب ألا يعتد الإنسان، كما يقال بدجاجة... وإذا انقلب الأمر على الحال الأسوأ، فإني أريد أن أكون حرًّا حتى استبدل بها شيئا آخر؛ إذ من الذي يعرف ماذا سيحصل طوال ستة أسابيع ؟[120]

وإذا، كان لهذه الحالة أن تمد فرويد بإعطائه فرصة ثمينة، ليقدم (دفاعه وتوضيحه لنظريته عن العصاب الوسواسي) الذي انتقده جاني، في عمله الضخم (الوسواس والوهن النفسي).[121]

وهكذا، وبافتراض الرهانات، فلقد كان من الضرورة القصوى أن ينهي حالة لانزر، وفي 8 أبريل، أثناء انعقاد (جمعية التحليل النفسي بفيينا)، صرح فرويد أنه اكتشف حل «قضية الفأر» (ويجب أن نلاحظ أن هذا حل لم يكن إلا في مسودة سيطرحها في نشر رواية الحالة).

محضر جمعية التحليل النفسي بفيينا، وهو اجتماع انعقد يوم 8 أبريل 1908.

ويذكر فرويد حله لمشكلة «الفأر» عن العصاب الوسواسي، وهو يعني توحده مع أبيه، وكان صديق لأبيه قد أقرضه نقودا ليردها إليه، إلا أن أباه، لربما لم يؤد ما عليه من دين؛ لأنه كان قد قمر بها (فأر القمار).[122]

ومن الواضح أن فرويد لم يبذل أي مجهود ليسأل المريض عن هذه المسألة الحاسمة، وقد أكد لانزر في ملاحظاته أن أباه لم يعين قط صديقة، ولم يترك إلا احتمالين مفتوحين؛ إما أن أباه كان قد أدى ما عليه من دين، قبل نهاية الخدمة العسكرية، وإما أنه لم يؤد ما عليه من دين قط، غير أن فرويد يقول في هذا الموضع؛ أنه لم يؤد ما عليه من دين قط. غير أن فرويد، يقول في هذا الموضع بأنه من الراجح أنه لم يؤد ما عليه، مما يوضح أنه لم يكن يعرف عنه شيئا في هذه النقطة قبل ذلك[123]، والسبب الوحيد الذي يدلي به فرويد، يجعلنا نعتقد أن الأب لم يكن على وجه الاحتمال قد رد ما عليه من دين؛ مما يدل على أنه كان مدمنا على لعب القمار – وهذا ترابط ملفت للانتباه؛ وإن كان غائبا في ما كتبه من ملاحظات. وإذا، فهل علينا أن نفترض بأن هذا الترابط جاء من جانب لانزر أثناء جلسة كانت بعد 20 يناير؟ وعلى هذا نستمر على اعتقاد ما تبع هذا من تطور في رواية الحالة.

فرويد: رواية حالة الرجل الفأر: وكما يحدث دائما مع المريض المرتبط بأمور الجيش. فإنه يكون في حال توحد لا شعوري مع ابنه الذي يقضي سنوات عديدة في الخدمة العسكرية، وتكون له حكايات مليئة بالأعمال البطولية في الجندية...

وكان أبوه، في وسعه كضابط صف أن يتصرف في مبلغ صغير من النقود. وفي إحدى المناسبات خسرها في لعب الورق (على معنى أنه كان مقامرا)، وهكذا وجد نفسه في وضعية حرجة، لولا أن بعض أصدقائه قدم له مبلغا من المال. وبعد أن ترك الخدمة العسكرية أصبح موسرا، وتحسنت أحواله، محاولا أن يعثر له على أثر. ولقد كان مريضي غير متأكد ما إذا كان قد نجح في إرجاع المال. وتذكر خطيئة أبي الشاب كان يؤلمه. وكلمات القبطان (ينبغي أن تؤدي مبلغ 380 كرون إلى الملازم .أ.) كانت ترن في أذنيه، كإشارة إلى ما لم يقم به أبوه من واجب أداء ما عليه من دين.[124]

فرويد : رواية حالة الرجل الفأر : وفي هذا الطريق، تصبح الفئران دالة على معنى (النقود)، وكانت جميع أفكاره المرتبطة بهذا الموضوع، بسبب الدفع المقسط، قد انعكست على حياته الوسواسية، وأدت إلى سيطرة اللاشعور، وعلاوة على ذلك، طلب القبطان إليه أن يؤدي التكاليف اللازمة عن الطرد البريدي فكان هذا الطلب قد قوى دلالة فقدان الثقة عن طريق لعب القمار، مما رده إلى خطيئة قمار أبيه.[125]

وهذا المقطع الأخير يقوي شكنا في ترابط لعب القمار، كما ظهر في السياق بوضوح، ويدل على أنه يؤدي وظيفة (لعب القمار، مما لم يكن المريض واعيا به) وهكذا ركبه المحلل تبعا لاقتضاء خط استدلاله : ويشبه أن فرويد، وليس لانزر هو الذي وصف الأب كمقامر فاقد للذمة، حتى يضاعف الاحتمال بأنه لم يؤد دينه قط، وأيا كان الأمر، فإن فرويد يعامل الآن هذا الاحتمال كشيء مؤكد. وتنطق رواية الحالة بكون الأب فاقدا للذمة، ولا يؤدي ما عليه من دين، ومن ثم، فهو مذنب. وقد نقول كذلك بأنه حاول بدون جدوى أن يكتشف أو يعين مكان صديقه (حتى يرجع إليه نقوده - إلا أن هذا احتمال غير وارد، ولم توجد عليه دلالة، تشير إلى أن الابن قال شيئا عن ذلك التقرير) ولو كان قد فعل، فلماذا إذا، استغرب فرويد في ملاحظاته بأن الأب لم يدفع ما عليه من دين؟ ومع الأسف، فقد أضاف فرويد بأن المريض لم يكن متأكدا ما إذا كان قد نجح في إرجاع النقود، مسندا عدم اليقين إلى لانزر، الذي كان مختصا به في الوقت الذي كتب ملاحظاته. وهل سأل فرويد في الوقت نفسه لانزر عن الموضوع، فأخبره هذا الأخير بأنه لم يكن يعرف ما إذا

كان أبوه قد أدى دينه؛ إلا أن التساؤل قد يزيد من التشويش علينا؛ لأن لانزر إذا كان متأكدا من أن أباه لم ينجح قط في اكتشاف صديقه، حتى يرد له المبلغ الذي هو مدين له به؛ فكيف عرف فرويد أنه لم يكتشفه، وإذا لم يكن هذا مأخوذا من الملاحظات، فإن الرواية التي احتفظت بهذه النقطة من دون أن يتحقق بأنه يناقض نفسه من غير سهو؟ وفوق كل ذلك، فما الذي أذن لفرويد أن يسلك هذا المسلك حتى ينسب لمريضه عدم اليقين في أن تذكره لخطيئة أبي الشاب كان فاجعا له ؛ إذا كان المريض نفسه لا يعرف عن أبيه ما إذا كان قد أدى ما عليه من دين- وباختصار أن يعرف ما إذا كان مذنبا أم غير مذنب؟ وفي الحقيقة، فإن شهادة المريض إنما استدعيت لغاية أن يسقط فرويد الأهلية مباشرة لصالح الافتراض الذي يفضله. وقد خلق فرويد بعمله هذا بالرغم من ذلك وهما قائما على أن مثل هذا الاعتبار إنما أمده به لانزر، وأن إلحاحه (بأن المريض لم يؤد ما عليه) إنما جاء به لانزر نفسه. إلا أنه لا توجد بينة في ملاحظات التحليل، التي من شأنها أن تدعم هذا التصور، بينما تشير التناقضات في نشر الرواية إلى أن فرويد لم يكن لديه أي إثبات لافتراضه المنتزع من المريض. ويبدو أن عدم أداء الدين، وهو مفتاح أساس في «حل فكرة فقدان الذمة، وحل كثير من التفسيرات الفرودية التالية.» إنما كان موجودا في ذهن فرويد فقط. ونحن على كل حال، إنما استمالنا الاعتقاد بأن هناك ذكرى أوردها الرجل الفأر أو الفاقد للذمة المشهور.

لاكان : إنه عن طريق الاعتراف بقوة الذاتية، وضغطها كوسواس الدين غير المؤدى- في سيناريو محاولات تافهة للتعويض ورد النقوذ- وهو سيناريو عبر عنه خياليا بعبارات من جانب المدين، حتى يحاول أن يتصرف بشكل ما. مما نشأ عنه ضغط للخلوص من الدين الذي استغله المريض لدرجة الاعتقاد الباطل أقول : هذا الطريق أوصل فرويد إلى غرضه، وهو غرض تأدى به المصاب إلى أن يكتشف أمورا في قصة فقدان أبيه للطاقة، وفي زواجه لأمه (الفتاة الجميلة وإن كانت معدمة) المغتصبة في حب حياتها، وفي نكرانه الجميل لصديقه الذي نسبه وكل هذا اكتشاف في هذه القصة، مع مجموعة من الملابسات المحتومة التي سادت كل حياة المصاب منذ ميلاده. والهوة التي لا تملأ صنعها رمز الدين الذي كان العصاب فيه دالا على فعل الاحتجاج.[126]

لاكان : [الحقيقة العميقة للرجل الفاقد الذمة (الرجل الفأر)] إنما تقع في ما يحيل فرويد على نحو فريد بمصطلح «الفظ غل أو قيد»؛ مما يجعله مترددا في السماع والانصات في العصاب، وفي مصير العصاب معا. وقد وسعه حتى شمل الفرد كله، وجاوزه، وهذا يقوم في أن فقدان الإيمان استولى على زواج الأب، وأن الغموض نفسه غطى كل الإخلال بالوفاء برد النقود، محدثا للأب تسريحه من الخدمة العسكرية؛ واتخاذ قراره الأخير في أن يتزوج[127]، والآن فإن هذا الغل الذي لم يختلق الأحداث الخالصة (إذ كل ذلك حصل في أية حاله، على نحو آلي، في ميلاد المصاب) بل بالأولى، اخترع الفشل الأكثر جدية؛ لأنه أكثر دقة وغموضا في أن يتمتع بحقيقة الكلام، وفي أن يتسخ الشرف- ذلك أن الدين الذي أحدثه الفشل يشبه أنه ألقى بظلاله على زواج الأسرة بكاملها كما أن الدين أحدث الرذالة التي لم يمكن أداء ما وجب عليها- وهذا القيد أمد الدلالة، التي نفهم منها مشابهة الخلاص، ورد الاعتبار الذي يهيج المصاب لدرجة الوهم، أثناء جريان الإغماء الوسواسي الفظيع ؛ مما أدى به إلى أن يستغيث بفرويد.[128]

العودة إلى الرجل الذئب

ولننظر الآن في المثال الأخير. ولقد استعملنا حتى الآن ملاحظات تحليل فرويد، لنكشف عن طريق المقارنة إعادة كتابة المعلومات المسجلة في مرويات حالاته. غير أن هذا ليس هو الوسيلة الوحيدة المتاحة للمؤرخ لينبش في العمل التفسيري، المختفي وراء الوجهة السردية «الروايات المرضى» وإذا كان الإنسان مستعدا لأن يفترض الدور المستعصي، فبإمكانه أيضا أن يتحدى السر الطبي الذي يثيره فرويد، ويحاول أن يلتقي بالمرضى أنفسهم- أو بأصدقائهم وذويهم، حتى يسألهم عن مرويات قصصهم. وهذه مهمة منتشرة وواسعة الامتداد، مليئة بعدم اليقين (وبعض الناس قضوا في بحث مهامهم زمنا طويلا يفعلون ذلك)، لكن في غياب ملاحظات التحليل، فهذه هي الوسيلة الوحيدة التي غالبا ما تكون متاحة للعثور على فكرة سانحة للإحالة إلى مرويات حالات، ومنذ سنوات أتاحت قضية توحد كل من (آن[129])، وإيمافون[130]، وإليزبت فون[131] وكاسيلي.م.[132]

وكذلك كاثرينا[133]. والسيد .هـ.[134] ودورا[135]، أتاح كل هؤلاء للمؤرخ أن يعيد فتح الصناديق السوداء لهذه الحالات المشهورة في أغلب الأحيان، مظهرة ضروب التفاوت الخطيرة بين مرويات فرويد وشهادات المرضى أنفسهم أو شهادات أصدقائهم المقربين وأسرهم.

المثال 7 :

والحركة المباغتة المبهرة في هذا الصدد، هي بدون شك اكتشاف هوية الرجل الذئب في الوقت الراهن من سنة 1973، بواسطة الصحافي الأوسترالي كارين أوبهولزر. وفي السنة الماضية، نشر المحلل النفسي، الهاوي، واسمه موريل جاردينر وثيقة مثيرة، مشرفة للتحليل النفسي. وقد توسطت هذه الوثيقة بين مقدمة (آن فرويد) وبين مقالتين لكل من راث ماك برانشفيج وجاردنر نفسه، الذي هو مكرس لأمثلة المريض الفرويدي- والفرد الواحد من بين نظرائه قد يكون مريدا لأن يتعاون بنشاط من أجل إعادة التركيب، أو تتبع حالته[136]، والرجل الذئب الذي قرأنا عنه في هذا الكتاب، يقضي حياة هادئة، منعزلا في فيينا، التي استنفد فيها حياته في شركة تأمين بعد أن خسر ثروته في روسيا، وهويته كما وقع، لا يشبه أن تكون سرّا خفيا على مجموعة المحللين النفسيين الذين زاروه حول التحليل النفسي مع فرويد، وقد قرر كارين أوبهولزر، عندما تفاجأ أن يعثر عليه حتى يكتب مقالا عنه.

كارين أوبهولزر : لقد كان الأمر سهلا نسبيا. فقد أعطى فرويد تاريخ حالته (ب) وعلمت منه من خلال كتاب موريل جاردينر بأنه كان عائشا في فيينا، وهكذا ابتدأت أبحث تحت اسم (ب) في كتاب التليفونات، فلم أجده في جدوله ولربما لم يكن لديه تلفون «لم يكن كذلك كما اكتشفت في ما بعد» ثم أني لم أكن أعتقد أن هذا الكتاب المعنون بهذا العنوان كان موجودا على الإطلاق. إلا أنه في هذا الوقت، كل من دخل إلى عمارة في فيينا، في أي سنة، كان مسجلا في جدولة هذا الكتاب، وقد فتشت عن الاسم الروسي؛ لأن الرسالة الثامنة للرجل الذئب كانت باسم حقيقي. هو حرف (أ)، ولم أستمر في البحث طويلا، فالاسم بانكجيف سيرجيوس كان هو اسمه.[137]

ويشبه أن سيرجوس كونسطا نتنوفيش بانكجيف، الذي تسلم مبلغا من المال من وثائق سيجموند فرويد[138]، والذي أثبت له كل من كورت ايسلر، وبوريل جاردينر طوق الجنود الصحي المحبوك[139] كان قد تأثر بالأولى، كونه قد اكتشف أحد الأعضاء من الجمعية الدولية للتحليل النفسي، فلما كسب أوبهولزر ثقته نجح في إقناعه أن يوافق على سلسلة من المقابلات بالرغم مما مارسه عليه ايسلر وجاردينر من ضغوط لكي ينكر التماس المقابلة[140] غير أن بانكجيف وضع شرطا وهو أن مقابلاته ينبغي ألا تنشر إلا بعد وفاته، وعندما نقرأها نفهم بسرعة السبب في ذلك. إذ قرب نهاية حياته التي قضاها بخضوع طبقا لدور «الرجل الذئب» كان بانكجيف قد انقلب ضد من أحسن إليه، وكذب مع قليل من الانتقام، ما كتبه عنه فرويد، وماك برانشفيج وجاردنير. وقد زعم هؤلاء الثلاثة أن المراحل المختلفة لتحليل فرويد له، (14-1910)-(20-1919)، كانت قد سمحت له أن يعيش حياة عادية ومنتجة.

فرويد : 1923 : كنت قد انفصلت عنه عام (1914)، معتبرا إياه لعبة... ثم إن المريض (تحليل الرجل الذئب 20-1919) أحس بأنه أصبح عاديا، وكان يتصرف على أنه سوي ولا مطعن فيه.[141]

فرويد : وكانت حالته الصحية قد توقعت بسبب مرض نشأ عن شعبة من عصابه الدائم.. ويرجع الفضل إلى تلميذي الدكتور راث ماك برانشفيج إذ في ظرف وجيز من العلاج، كان في كل فرصة يدفع تلك الشروط إلى نهايتها.[142]

راث ماك برانشفيج : إن نتائج الطب العقلي العلاجي لبانكجيف وتحليله معي كانت رائعة. وظلت على هذا الحال، حسب آخر معلوماتي عنه سنة 1940، بالرغم من وجود أزمات شخصية كبيرة.[143]

موريل جارديبر : ولا يجوز الشك في أن تحليل فرويد أنقذ الرجل الذئب من حياة معطلة أو وجود كسيح، وقد تغلب الدكتور برانشفيج على أزمة حادة خطيرة. وكلا الرجلين مكنا المسمى الرجل الذئب من أن يعيش حياة صحية طويلة متسامحة.[144]

وليس الأمر كذلك، كما أجاب بانكجيف بعنف؛ إذ بعد ست سنوات مع تحليل فرويد له كان لا يزال يتألم من أثر الاجترار الوسواسي، ومن نوبات هبوط النشاط العصبي[145]، بالرغم من العلاج التالي والثابت، وهو التحليل الذي كان تلقاه من ذلك الوقت (وبعد الحرب كان متابعا للتحليلات مع الفريد فون وينترشتاين.[146] وهي محللة غير معينة يقال إنها (هي إيفالبيل)، وكذلك مع ويلهيلم سولمز، وهو مدين بهذا؛ لكونه أضاف إقامة في مصحة منصوح بها للتحليل النفسي سنة 1955، [147] كما تتم المحادثات والمقابلات الموجهة يوميا في التحليل مع كورت إيسلر، حينما رجع هذا الأخير إلى فيينا أثناء فصل الصيف.[148]

بانكجيف : وفي الحقيقة فإن كل الأمور تشبه كارثة.، فأنا أكون في الحالة نفسها كما لو أني جئت أخيرا إلى فرويد وفرويد ليس غيره.[149]

بانكجيف : وعوضا عن أن يتحسن حالي، فقد أضر بي المحللون النفسيون. كانت هذه هي النظرية. وكان فرويد قد عالجني بنسبة مائة في المائة... وهذا هو السبب في أن جاردينر كان قد أوصاني بأن أكتب مذكراتي. وحتى أبين للناس أجمعين كيف عالج شخصا مريضا خطيرا... وهذا خطأ.[150]

وإذا، ما القول في تفسير فرويد لكابوس طفولته والمشهد الأول من العلاقة الجنسية لأبويه وقد كررها ثلاث مرات؟ أما بانكجيف فهو لم يعتقد قط فيها. ولم يتذكرها أبدا، خلافا لما حاول فرويد أن يسوق إليه قراءه حتى يعتقد في رواية الحال (ويمكن الرجوع إلى مثال 2).

بانكجيف : أما أن مشهد الحلم الذي كانت النوافذ فيه مشرعة وغير ذلك وكانت الذئاب جالسة هناك، وكذلك ما أعطى لها من تفسير، فكل ذلك لا أعرفه إذ هذه الأمور بعيدة كل البعد، وأنها مخترعة على شكل فظيع، وبعيدة كل البعد وبعيدة عن التخريج.[151]

أويهولزر : كان بانكجيف يمكن أن يعود إلى هذا الموضوع ولو في بعض الأحيان، وكان دائما يلح علي أنه لم يتذكر قط المشهد الذي وضعه فرويد. وقد أخبره هذا بأن الذاكرة يمكن على وجه الاحتمال أن تسترجع ذلك. إلا أنه لم يحدث قط شيء من ذلك.[152]

ثم ما القول في المشهد مع الخادمة جروشا، وكانت جاثمة على يديها وركبتها مما يفترض أنه تذكر وضع أمه أثناء المشهد الأول. وهذا ما نسبه فرويد إلى انجذابه الاضطراري إلى النساء من أوضاع اجتماعية متدنية؟ ومرة أخرى فإن بانكجيف لا يتذكر شيئا من هذا.

بانكجيف : إني لا أستطيع أن أتذكر، وأيضا، فأنا لا أستطيع أن أتذكر جروشا إنها كانت خادمة كما أعتقد، ولكني لا أقدر أن أتذكر شيئا على وجه التفصيل.[153]

وأيضا ما القول في رغبته الجامحة إلى العلاقة الجنسية، التي رأى فيها فرويد صدى للمشهد الأصل؛ وقد أنكر بانكجيف إنكارا قاطعا كونه كان له اختيار خاص في ممارسة الوضع الجنسي على غير وجهه.

أويهولزر : وحتى أرجع إلى مشكلة الجنسية عند فرويد، فهو يقول في بعض المواضع : إنك تفضل اختيار بعض الأوضاع أثناء ممارسة الجنس، منها الخلف أو المؤخرة.

بانكجيف : حسنا، إن هذا ليس على إطلاقه، وإنك تعلم....

أويهولزر : لكن هذا يتعلق أيضا بالمرأة، وكيف تربت، إنه توجد نساء لا يمكن ممارسة الجنس معهن إلا من القدام، وهذا حصل لي، كما أن هذا يتعلق بما إذا كان المهبل متجها إلى الأمام أم إلى الجهة الخلف.

أويهولزر : أنا أفهم ما قلت، ولكن فرويد يكتب في كل حادثة قائلا : «إنه كان يتمشى في قرية تشكل جزءا من ضيعتهم، حينما رأى فتاة قروية، جالسة القرفصاء إلى جانب غدير ماء منهمكة في غسيل ثيابها فيه»،[154] وهو يزعم أنك وقعت في حبها بدون هواك وإرادتك، حينما تصادف شيئا من هذا القبيل.

ثم يستمر قائلا : «وحتى في اختيار موضوعه النهائي الذي يلعب دورا أساسا في حياته، فإنه يدل عليه يذكر تفاصيل [وإن لم يستطع أن يبرهن عليها هنا]، مما يشبه أن يكون كل ذلك متعلقا بنفس الملابسات».[155]

بانكجيف : هذا ليس صحيحا على الإطلاق.

أويهولزر : وكيف ذلك؟

بانكجيف : وأكرر نفيي : إن هذا ليس صحيحا.

أويهولزر : وإذا، لماذا لم يكتب فرويد ذلك عنك؟

بانكجيف : في ما يخص ثريز، إن كنت تلح على التفاصيل فإن أول مجامعة كانت هي التي جلست فوقي.

أبهولزر : ينبغي أن يكون هذا مناقضا تماما[156] وكذلك وبالمثل، يرد فرويد مشاكل بانكجيف المعنوية، والإمساك البطني الدائم إلى رغبته التي نفذت إليه من جانب أبيه، وأمه أثناء المشهد الأول، وقلق عقدة الإخصاء التي تثيرها فيه التخيلات الأنثوية، أما ما يخص بانكجيف، فقد كان أفصح في التفسير البلاغي الذي أهمله فرويد، ولم يشارك معه هذا الشرح في ذلك الوقت.

بانكجيف : ولقد كان بي إسهال (قبل اتصالي بالتحليل النفسي) وجاء الدكتور درونز إلى الضيعة... وأخذ قارورة صغيرة ملفوفة بالورق أخرجها من جيبه وقال لي : خذ هذا المركب الكيمياوي (كالوفيل) وصب لي منه شيئا في الكأس وقال : تناوله. وكانت النتيجة أسوأ مما يتصور وفي المرة التالية، قلت له إن ذلك لم ينفع في شيء، وإنما جعل الأمور تسير من سيِّئ إلى أسوأ. وقال : إنك لم تأخذ منه القدر الكافي. ثم في ما ذكر لي أحد الممارسين، إن ذلك الدواء (الكالوفيل) إنما يعطي للأفراس، لا لبني آدم. وأقول لك إن ما وقع لي هو أني لم أعد أستطيع الأكل طوال فصل الشتاء- وكان الأمر قاسيا بالنسبة إلي، فكانت الأغشية المخاطية قد تمزقت، فماذا ترى كيف كانت النتائج؟

أويهولزر : أعتقد أنه كان إمساك البطن أو القبض.

بانكجيف : نعم إنه إمساك لم يكن لي أن أفعل معه شيئا... وقد ظل معي هذا باقيا إلى يومنا الحاضر، وأن أمعائي لا تشتغل طبيعيا ومن تلقاء ذاتها، وكان علي أن أتناول شيئا ما مرتين في الأسبوع. وفي ذلك الوقت، قاسيت آلاما شديدة، لقد كان مرعبا ما فعله بي ذلك الرجل.

أويهولزر : ألم تكن عندك صعوبات معدية قبل ذلك؟

بانكجيف : قبل ذلك، كان كل شيء يؤدي وظيفته على أحسن ما يرام.[157]

غير أن فرويد كان يدعي أنه نجح نهائيا في إزالة هذا العرض طوال التحليل الثاني لبانكجيف. وفي الحقيقة، فإنه في ملاحظة ملحقة برواية حالته سنة 1923

كتب بانكجيف أنه رجع ليرى فرويد في فيينا حتى يشتغل ما بقي من التحويل الذي لم يصل فرويد إلى إعطاء حل له.

فرويد : ثم إنه جاء إلى فيينا، وذكر مباشرة بعد نهاية العلاج أنه قد استحوذت عليه رغبة شديدة في أن ينتزع حريته من تأثيري فيه. وبعد شهور من العمل كان جزء من التحويل الذي لم يتغلب عليه بعد، قد تعامل معه بنجاح.[158]

ولم يقل لنا فرويد شيئا آخر عن «هذا الجزء من التحويل» إلا أن راث ماك برانشفيج قال لنا في (ملحق تاريخ فرويد عن الأعصبة الطفلية) إن هذا يرجع إلى إمساك البطن، الذي يبدو أن فرويد اعتبره توحدا تحويليا مع إمساك بطنه الحاد الأزمة.

ماك برانستفيج : قد رجع بانكجيف إلى فرويد لأشهر معدودة لغاية التحليل بهدف الإنجاز الناجح للتخلص نهائيا من إمساكه البطني الهستري.[159]

وهنا أيضا يقع الاحتجاج من بانكجيف، فهو لم يصرح قط بأن إمساكه كان قد عولج، وإنما لم يكن هذا هو السبب الذي جاء من أجله لفرويد، وعلى هذا فإن هذا الأخير، في الوقت الحالي، هو الذي ألح بأنه تعرض لفترة تحليل ثانية، بالرغم من أنه كان يرغب في أن يرجع إلى «أوديسيا» لينقذ ثروته التي كان الثوري البولشفيكي يهددها.[160]

بانكجيف : وعندما زرت الأستاذ فرويد في غضون ربيع 1919، في طريقي إلى يبورغ، كنت راضيا عن نفسي، وعن حالتي الذهنية، وشروطي الانفعالية التي لم أفكر قط في إمكانية أني في حاجة إلى معالجة نفسية أخرى.[161]

من بانكجيف إلى جارديبر 14 سبتمبر 1970 : إن إعادة إجراء التحليل النفسي علي في سنة 1919، لم يقع بالتماسي أو طلبي، وإنما كان لرغبة فرويد في ذلك.[162]

أوبهولزر : لقد كان بانكجيف غالبا ما يقول لي : إن السنوات الأربعة من تحليل فرويد له قد ساعدته... ولكن الخطأ الذي ارتكبه هو أنه ذهب ليرى فرويد مرة أخرى سنة 1915.

أبهولزر : لأنه وافق على أن يستأنف هذا التحليل بالرغم من أنه لم يكن يريد ذلك، ولقد زار فرويد في طريقه إلى فرايبورغ، حيث كانت آمرأته تريز مقيمة مع أختها المحتضرة، وكان فرويد قد أقنعه أن يعود إليه من فرايبورغ إلى فيينا لإعادة التحليل، وكانت هذه هي الكارثة، وكان الرجل الذئب دائما يؤنب فرويد على هذا.[164]

بانكجيف : ولقد كانت قضية أمعائي على الحقيقة هي السبب في أني أقمت مع فرويد في ذلك الوقت، وأن ذلك «الأمر هو ما كنا نتعامل معه».

أوبهولزر : وما الذي صارت عليه اضطراباتك المعوية؟

بانكجيف : وفي قليل من الوقت، كانت الحال تحسنت على نحو ما وكتب: «لقد نجحنا» لا مثيل لهذا الأمر! لكني قلت لفرويد، إني أود أن أرحل، بسبب أموري المالية فأجاب : «لا أبدا، ينبغي أن تبقى هنا. إنه يوجد شيء ينبغي أن نجد له حلا... وهكذا بقيت وهذا هو السبب في أنه كان الأوان قد فات».[164]

وفي نهاية الأمر، ماذا تبقى من إنشاء التحليل النفسي الفرويدي؟ إنه لم يبق منه كثيرا، وبدون إثبات وتأكيد من المريض، فإن المشهد الأصل يبقى افتراضا لا أساس له، كالحال مع خلق عقدة الإخصاء التي تثير افتراضا- ومع كل شيء آخر يستلزمه تحليل فرويد، وبدون وجود المشهد الأصل مع جروشا، لا يوجد طريق إلى تفسير خصوصية حياة الحب عند بانكجيف. وبدون إثبات التفضيل المقتصر على الجماع من الخلف، فلا يوجد سبب للاعتقاد بأن الممارسات الجنسية تعيد تنشيط المشهد الأول الأصل. وكذلك بدون علاج الإمساك البطني، فلا سبب يدعو للاعتقاد في تفسير فرويد النشوئي السيكولوجي لهذا القبض، وكذلك فإنه بدون «تلك القطعة من التحويل» للتغلب عليه، يطرح التساؤل : ولماذا نتحدث في نهاية الأمر؟

وإنما تتسق رواية الحالات عند فرويد فقط، لأنه يبتكر عند تقاطع السرد وتشابك ما هو ضروري منه بالنسبة إليه، حتى يجعل حياة بانكجيف تطابق قضية نظرية هو الذي نسج خيوطها وسيرها، وعلى هذا، فإن رواية الرجل الذئب ليست هي ذلك الرجل سيرجيوس بانكجيف، ولا هي مرويات الرجل الفأر ودورا، وأرنست لانزر، وإيدا باور، إن التحليل النفسي هو قصة نشأت[166] عن

الافتراضات وتحييها خواص نظرية وتغطيها تخمينات المحلل في ألوان زاهية من الواقع أما أن بانكجيف كان قد أمضى عمرا من حياته وهو يقوم بدور الرجل الثغلب، فهذا لن يغير من الأمر شيئا، إنه يخلط نفسه مع الصفة التي كتبها عنه فرويد، في قصة إلى أن جاء الوقت ليقرر فيه الخروج من الحكاية ويتحدث باسمه الخاص.

وهل فرويد قصاص؟

وفي أكاديمية مليئة بالنزعة الشكلية، في ما يخص الصفة العلمية للسيكولوجيا ومسكونة بعلم السيميوطيقا (علم الرموز)، والهيرمينوطيقا (علم الاستكشاف) والبنيوية في مظهرها الأخير، والنظريات الأدبية التفكيكية؛ فلا يمكن للإنسان إلا أن يتخيل الرد الآتي : «إنك انتقيت بعض الاستراتيجيات التي استعملها فرويد في روايات حالاته، حتى يدعم خطابته الوضعية، وبخلق الوهم بالنزعة العلمية التجريبية الأمبريقية، إلا أننا نعلم، ومنذ أمد بعيد بأنه لم يكن عالما، ولكنه رجل استثنائي، ظاهرة غريبة وغير عادية من رجال الآداب. إلا إنه أحد الكتاب الذين غيروا وجه العالم بإعطائنا لغة جديدة نصفه بها...وبطبيعة الأمر، إن روايات حالاته هي قصص! وإذا لم يكن كذلك، فكيف أمكنه أن يكتشف التعقيد الذي لا يصدق لأفكارنا العميقة، ومجاوزتها لكل تحديد، ودلالتها الاعتباطية! ونحن لم نذهب إلى المختبر حتى نرود أنفسنا على تفسير وتعليل الغموض وازدواجية الرغبة إنها رغبة تنقلب على نفسها، وتفقد نفسها في الآخر. ونحن نجد هذا في أقلام كبار الكتاب - وهل نأخذ على ستندال ودوستويفسكي وبروست، أنهم لم يكونوا علماء! وينبغي ألا يقارن فرويد نفسه بكوبرنيك أوداروين؛ وكان بالأولى يحق له أن يقارن نفسه بدانتي، وشكسبير، وجميع هؤلاء العظماء من القصاصين الحاكين لروح الإنسانية. وعندما نتحدث عنه على هذا النحو أفلم يحصل له أن فاز بجائزة جوته؟

وهذا الدفاع القصصي الاستكشافي عن فرويد والتحليل النفسي، أصبح من المواضع المشتركة في يومنا هذا، إلا أنه يتعين أن نعرض على بساط البحث الحدث العنيد والصلب؛ إذ لا شيء يغضب فرويد أكثر ما يغضبه، هو أن يقارن بالقاص.

فرويد : وهناك كتاب ظهر حديثا للسيد هافلوك إليس... ويتضمن مقالا من التحليل النفسي في علاقته بالجنس. وهدف هذا المقال هو بيان أن كتابات المبدع في التحليل النفسي، ينبغي أن نحكم عليها بكونها ليست عملا علميا ولكنها نتاج فني، ولا يمكننا أن ننظر لهذه الوجهة من النظر كانقلاب اتخذ لمقاومة وتطليق التحليل، حتى ولو كان ذلك مقنعا بوجه الصداقة والمداهنة على نحو ما ولكننا نميل إلى أن نرد على مناقضته بحزم وصرامة.[167]

وهذا الرفض للصفة الأدبية، ليس على إطلاقه رفضا للسرد، لأنه مرتبط على وجه مباشر «بإرادة العلم» : «وصياغة إيزابيل شتنغر» التي تبتغي من الوجهة التاريخية تعريف التحليل النفسي، لها دلالتها هنا. وألا يقبل هذا بجدية هو رفض لمشروع التحليل النفسي من حيث هو كذلك، وإبطال له بكونه عديم الدلالة بكامله. وكالشأن مع محاولات أخرى، في نهاية القرن التاسع عشر لتأسيس علم النفس العام، ادعى التحليل النفسي بأنه سيقضي على سائر أشكال المعرفة السابقة عليه. ومن هذا المنظور، فإن الآداب تمثل الإشكال الوحيد للتحليل النفسي. وفي الحقيقة، ماهو الموضوع الذي يمكن أن يتأسس، ولم يتناوله القصاصون والشعراء وأصحاب الدراما، بل سبقوا إلى تناوله؟

وأي مكان خفي.في النفس الإنسانية، يمكن أن يثيره التحليل النفسي، لم يسبق أن استقصى البحث في أعماقه أولئك العباقرة؟ وأي امرئ لا يتمنى أن ينافس المعرفة الإنسانية التي لا ينضب معينها- وهي معرفة مودعة في عالم الآداب؟ وفي الآداب يصطدم التحليل النفسي كمرآة : الشخص المنعكس فيها غريب ومثير للأعصاب.

من فرويد إلى أرثر شنزلر : لقد عذب نفسي سؤال عن سبب عدم لقائك وهو: لماذا في كل هذه السنوات حاولت بدون جدوى أن أتعرف عليك وأن نتحادث معا؟... وأعتقد أنني كنت أتجنب لقاءك بضرب من المقاومة، أن تصادف شخصي المزدوج أو البديل عني. ومهما تستغرقني إبداعاتك الرائعة استغراقا تاما، فيبدو لي أنني أجد تحت مظهرها الخارجي الشاعري، افتراضات كثيرة وفوائد ونتائج أعرف أنها تكون لي وحتميتك، مثل النزعة الشكية لديك، يسميها الناس تشاؤمات- وكذلك انشاغالاتك بالقضايا الحقيقية للاشعور،

والحوافز الغريزية في الإنسان ودراستك النقدية للتقاليد الثقافية لمجتمعنا، وتمعنك في الأفكار الدائرة في فلك قطبية الحب والموت- إن كل ذلك يحركني بإحساس غريب عن الألفة الأسرية.[168]

وإذا، على أي وجه تكون حكايات التحليل النفسي، وخواصها مختلفة عن القصة الأدبية؟ وعلى أي نحو تكون أكثر تصديقا؟...وما الذي يبرر آدعاء المحلل النفسي في أنه يعرف عن الطبيعة الإنسانية أكثر مما يعرفها الكتاب المؤلفون؟ ولا يكون إثبات «القطيعة الإبستيمية» المعرفية بين التحليل النفسي والآداب إلا على نحو دوغماطيقي، فإن إعادة إنشاء نوع من اللاتماثل بين فرويد وبين شخصياته المتلونة بذاتها، يمكنها أن تحسم مسألة التحليل النفسي واستيفائها حقها.

فرويد، بمناسبة عيد ميلاد السبعيني. : لقد اكتشف الشعراء والفلاسفة قبلي اللاشعور. أما ما اكتشفته أنا، فإنما هو المنهاج العلمي، والعلمي الذي يمكن أن يدرس به اللاشعور.[169]

فرويد : وفي هذا النزاع المتعلق بتحديد أي أحلام يمكن التمسك بها، فإنه يشبه أن الكتاب ذوي الخيال الواسع هم الذين يكونون إلى جانب....مؤلف (تفسير الأحلام).

إذ هؤلاء المبدعون هم حلفاء مقدرون، وأن بينتهم ذات قيمة عالية، لأنهم جديرون أن يعرفوا طائفة كبيرة من الأمور الموجودة بين السماء والأرض، مما لم يتهيأ للفلاسفة أن يجعلونا نحلم به. وليت هذا الدعم الذي يمنحه الكتاب يكون في صالح الأحلام التي لها دلالة أقل غموضا ! والعين الناقدة نقدا دقيقا يمكن أن تعترض بأن الكتاب لا يتخذون موقفهم، لصالح الأحلام الخاصة ولا لضدها. تلك الأحلام التي توجد لها دلالة سيكولوجية، بل يقنعون بأن يبينوا كيف ينتقص الذهن النائم تحت التأثيرات التي تظل نشطة فيه كبقايا من الحياة اليقظة.[170]

وفي سنة 1909، حدث نقاش في جمعية التحليل النفسي بفيينا، في موضوع مسرحية «إليكترا» للموسيقار ريشارد ستروس، الذي أنجزها لأوبرا فيينا. وكان كتاب النص المسرحي قد ألفه هيجوفون هوفمان تشال، الذي كان يعترف إلى حد ما بالتحليل النفسي، ومع ذلك لم يحبها فرويد كثيرا.

فرويد : محضر جمعية التحليل النفسي، بفيينا 31 مارس 1909 : قد يكون لنا الحق في أن نحلل عمل الشاعر،ولكن ليس من حق الشاعر أن ينتج شعره خارج تحليلاتنا، وقد يبدو هذا الأمر علامة من علامات عصرنا؛ ذلك أن الشاعر يخوض في سائر الأنواع الممكنة من العلوم ثم ينصرف إلى عمل شعري من المعرفة التي اكتسبها، وبذلك يكون للجمهور مبرراته في أن يرفض هذا الإنتاج.[171]

والرغبة في إثبات عدم التناظر، بين التحليل النفسي والآداب، هي رغبة واضحة هنا بوجه خاص، وقد تصرف فرويد على نحو متعجرف، ناكرا على الشاعر حقه أن يستخدم التحليل النفسي كمصدر لإلهامه، بينما هو ضمن لنفسه الحق في أن يجلس الشاعر على سريره. ولقد أكد التحليل النفسي سيادته، وسيطرته على الأدب من جانب واحد؛ عن طريق إخضاعها إلى التأويل التفاعلي. وقد تبع هذا قرن كامل من التحليل لنفسي، ومن النقد الأدبي ذي نزعة تحليلية، ومن الأهمية بمكان بالنسبة إلى فرويد أن يجعل قراءه يعتقدون في الطبيعة العلمية لتفسيراته وتركيباته وهذه الطريقة الوجيهه لإثبات التحليل النفسي في تفوقه على منافسة المفسرين. وهكذا، يقدم التحليل النفسي على أنه الطريقة الوحيدة الممكنة للجمهور أن يفهم حياته الخاصة وحياة غيره من الناس الآخرين.[172] وبغير هذه المزاعم، لا يكون التحليل النفسي شيئا أكثر من تفسير يدرج ضمن كثير من التأويلات الأخرى في السوق الواسعة للتفسيرات الأدبية، والفلسفية والسيكولوجية والدينية. . .وإذا، فإن السؤال ليس هو في أن نعرف ما إذا كانت كتابات فرويد تسمح لنا بأن نلقي بعض الضوء على الملابسات والظروف الإنسانية، كما يحق لأي كاتب موهوب، بل فضلا عن ذلك، لأن نعرف لماذا يجب أن ننسب وضعا خاصا لكتاباته بحيث لا نقارنها بشيء من الكتابات؟ ولماذا كان يفعل كثيرا بعض الناس مثل هذا الفعل أثناء القرن العشرين؟ وينبغي أن نضيف : إنه يتعين علينا أن نقيم التحليل النفسي كنوع من ضروب النقد التأويلي والجمالي المحض.

وتوجد أسس تبحث هذا النقص فيه. ولا يجوز أن يكون التشبه بالعلم أفضل طريق لكتابة الآداب.

جان كوكتو : إنه يبحث ألا نخلط الغموض الذي تحدثت عنه، وما يسأل فرويد مرضاه عنه من غموض حتى يسبر غوره. ولقد سطا فرويد على بعض العمارات المتسخة، وحرك قطعا رديئة من الأثاث والصور الفوتوغرافية الشبقية. ولم يحدث له أن قدس الشاذ كشيء متعال؛ كما أنه لم يوقر قط الاضطرابات الكبيرة، وقد أمد كرسي الاعتراف لديه بنوع من سوء الحظ. ومفتاح فرويد إلى الأحلام، هو من السذاجة بطريقة لا تصدق. وهناك، فإن طريقة التعميد البسيط صارت بذاتها شديدة التعقيد.

ولقد كان الوسواس الجنسي مكرسا لديه إلى إغواء المجتمع التافه، بأن الجنسية قد لا تقوم بأي دور فيه، وقد برهن كل من دافنشي وميكائل أنجلو على ذلك، إلا أن أسراره لا علاقة لها بما حركه فرويد؛ فكان خطأه أنه أحدث غموضا لنا، وجعله في وحدة مخزونة، حملت الناس على الخصام والصراع حولها وفتحها حينما لم يعد بالإمكان سبر أغوارها، بل لا يمكن فتحها إطلاقا..[173]

هوامش الفصل الثالث

1 - For a good exposition of this point of view, see Spence (1982).

2 - Lacan (2005), 213.

3 - Lacan (1988), 13-14.

4 - Habermas (1971), 260; our emphasis. Also see Loch (1977), 238.

5 - Schafer (1980), 36; our emphasis.

6 - Ibid., 35; our emphasis.

7 - Saussure (1957), 138-9. Raymond de Saussure had been analysed by Freud.

8 - Roazen (1985), 193.

9 - Joan Riviere's typed interview with Kurt Eissler, 1953, 9-10, Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; the document was initially classified until 2020, but has recently been made accessible to researchers.

10 - Freud (1907-8b), 76 and 84; Freud's emphasis. We refer to Hawelka's complete French-German edition of Freud's notes whenever the passage is not to be found in Strachey's truncated edition of the 'Original Record'.

11 - See above, p. 120.

12 - 'Interview with Professer Freud', André Breton (1990 [1924]), 94-5.

13 - Freud (1912), 114.

14 - Eissler (1965), 395.

15 - Freud (1909a), 5: 'The case history [of 'Little Hans'] is not, strictly speaking, derived from my own observation.'

16 - To take only a few examples from the era, Bernheim's work (1980 [1891]) included 103 observations; the second volume of Janet's book on psychasthenia (1903) had 236.

17 - Freud (I905c), 13. It is true that to this Freud added: 'He would do better to suspend his judgement until his own work has earned him the right to a conviction.'

18 - Sherwood (1969), 70.

19 - Hacking (1983), 174·

20 - See Shapin's classic article (1984), and Shapin and Schaffer (1986).

21 - Delbœuf's first chapter (1993a) describes a visit to the Salpêtrière, the second a visit to 'Liébeault's clinic', the third a visit to 'Bernheim's clinic'.

22 - Bernheim (1980), ix.

23 - Bleuler (1910), 660. For more on this, see also the recollections of Brill (1944), 42, and Hilda Abraham (1976), 62; as well as Falzeder (1994b) and Shamdasani (2002).

24 - 'Verzeichnis der Vorlesungen an der Hochschule Zürich', Staatsarchiv, Zurich.

25 - See Breuer's report quoted in Hirschmüller (1989), 285. Krafft-Ebing's visit isn't mentioned in the case of 'Anna O .' in Studies on Hysteria.

26 - Jones (1955), 29.

27 - Freud and Ferenczi (1993), 143·

28 - Hesnard (1925), quoted in Ohayon (1999), 101.

29 - This is indeed true for Ida Bauer ('Dora'), who had tled from the treatment, but not for Ernst Lanzer (the 'Rat Man') or for Sergius Pankejeff (the 'Wolf Man'), who, if we are to believe a note added by Freud in 1923, had both given their formal consent to the publication of their case histories (Freud 1905c, 14).

30 - Freud (1905c), 7-9· One will note that Freud's 'assurances of secrecy' were not sufficient to prevent historians from identifying most of his patients. We now know the names of Cäcilie M. (Anna von Lieben), Emmy von N. (Fanny Moser), Elisabeth von R. (Ilona Weiss), Katharina (Aurelia Kronich), Emma (Emma Eckstein), Mr E (Oscar Fellner), Dora (Ida Bauer), the Rat Man (Ernst Lanzer), Little Hans (Herbert Graf) and the Wolf Man (Sergius Pankejeff).

31 - As well as regularly transgress - Lynn and Vaillant (1998) have shown that the basis of data available to them on the subject of Freud's analyses, he bad kept third parties informed on the progress of the treatment in more than half the cases. Indeed, one need only look at almost any correspondence between Freud and his disciples to be struck by the continual stream of indiscretions about his patients, as well as by his polemical use of confidences learned during analysis.

Freud even publicised disparaging comments by one of his patients (Pastor Oskar Pfister) concerning Jung, his previous analyst: '[The patient] gave me this information quite spontaneously and I make use of his communication withoutasking his consent, since I cannot allow that a psycho-analytic technique has any right to claim the protection of medical discretion' (Freud 1914a, 64, n. 2). To Poul Bjerre, Jung wrote : 'ln a breach of medical discretion, Freud has even made hostile use of a patient's letter - a letter which the person concerned, whom I know very well, wrote in a moment of resistance against

me' (17 July 1914, Jung 1975, xxix-xxx). For the identification of Pfister, see the letter from Abraham to Freud of 16 July 1914 in the new, unexpurgated edition of their correspondence, which shows at which point the medical secret was shared among insiders: 'I think Pf is completely unreliable. His letter quoted in "History" was written in opposition to Jung; with a change of attitude he goes back to Jung, and now back to you again!' (Freud and Abraham 2002, 258). Even a loyal supporter like Jones complained in private of several analytic 'indiscretions' by Freud: 'Here are a few more examples. Not to mention the Swoboda case which is different, there was an occasion when he related to Jekels (when in his analysis) the work on Napoleon on which I had been engaged for two years. Jekels immediately published it in such a good essay that I never wrote anything on the subject.

Then Freud told me the nature of Stekel's sexual perversion, which he should not have and which I have never repeated to anyone' (Ernest Jones to Max Schur, 6 October 1955; Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society). We wonder what Jones' reaction would have been bad he known of the 1953 interview granted by Joan Riviere to Kurt Eissler about her analysis with Freud - carefully kept under lock and key at the Library of Congress until its recent declassification : 'He [Freud] wanted to get out the emotional reaction to Jones ... He then read me a letter from Jones which made some uncomplimentary remarks about me. And he expected me to get very angry. And I was merely burt that Freud should take the attitude of [censored word] ' (Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; Riviere's emphasis).

32 - Freud (1905c), 12-13; our emphasis.

33 - Strachey (01958), 87.

34 - Stadlen (2003), 144- 5.

35 - Sulloway (1992b), 172- 4..

36 - On this subject, see Collins' edifying elaboration (1985).

37 - Friedlander (1911), 309. See also Friedlander (1907).

38 - Janet (1913), 38; included in Janet (1925), vol. 1, 627.

39 - Farel (1919), 227.

40 - Cioffi (1998b), 182.

41 - Jones (1955), 433i Jones (1953), 327.

42 - Jones (1953), 315.

43 - Once again, psychoanalysis comes back to a pre-modern system of knowledge: 'English "moderns" - repeatedly insisted upon the epistemic inadequacy of testimony and authority. Truth could be guaranteed by going on individual direct experience and individual reason; reliance upon others' testimony was a sure way to error' (Shapin 1994, xxix).

44 - See, for example: Swales (1982b); Kuhn (1999); Skues (2001). See Maciejewski (2006) for the reportage of Freud's signing into a room at Hotel Schweizerhaus in Maloja, Switzerland, in August 1898 with his sister-in-law as 'Mr and Mrs Freud'.

45 - Lacan (1981), 9; Lacan's emphasis.

46 - Cioffi (1974).

47 - Mink (1965).

48 - Danto (1965), ch. 8; Veyne (1971), ch. 8.

49 - Robert Boyle, 'Some considerations about the reconcileableness of reason and religion', quoted in Shapin (1984), 488.

50 - Breuer and Freud (1895), 160-1.

51 - Aristotle, Poetics 1450b.

52 - Freud (1905c), 10; our emphasis.

53 - Freud (1912), 113-14; our emphasis.

54 - See the Preface to Freud (1933), 5: 'At that time I still possessed the gift of a phonographic memory.'

55 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

56 - Allusion to the handwritten notes related to a 'third case' that Freud initially intended to append to his text on 'Psychoanalysis and telepathy' (Freud 1921), but which ended up forming the basis for his lecture on the case of Dr Forsyth in 'Dreams and occultism' (Freud 1933). We should note what Strachey wrote about this in his 'Editorial note' to his translation of 'Psychoanalysis and telepathy' in the 18th volume of the Standard Edition: 'The two versions of the [Forsyth] case agree very closely, with scarcely more than verbal differences; and it has therefore not seemed necessary to include it [the manuscript version] here.'

In reality, a comparison between the published version and the original manuscript deposited at the Library of Congress shows that Freud, for no apparent reason, changed the chronology of certain events mentioned in his notes.

57 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

58 - Freud (1912), 115-16.

59 - Freud (1915a), 166.

60 - Freud (1915a), 166.

61 - Binswanger (1957), 7-8; Binswanger's emphasis.

62 - Freud (1937b), 259-60.

63 - Freud (1905c), 37· We know that Ida Bauer terminated the treatment after Freud had tried once again to convince her of her love for Mr K.

64 - Freud (1905c), 61; our emphasis.

65 - An example pointed out by Scharnberg (1993), vol. r, 27.

66 - On this subject, see Makari's interesting article (1998b), which reconstructs this theory strangely ignored by the majority of Freud's commentators.

67 - Freud (1905c), 79-80; our emphasis.

68 - Ibid., 50; our emphasis.

69 - Ibid., 76.

70 - Ibid., 57·

71 - Freud (1918), 36.

72 - One will note that Freud, according to Pankejeff's account, had asked him exactly the same thing at the beginning of the treatment. 'When he had explained everything to me, I said to him, "All right then, I agree, but I am going to check whether it is correct." And he said: "Don't start that. Because the moment you try to view things critically, your treatment will get nowhere." So I naturally gave up the idea of any further criticism' (Obholzer 1982, 31).

73 - Freud (1918), 38-9.

74 - Ibid., 39.

75 - Ibid., 39.

76 - Ibid., 41.

77 - Ibid., 70.

78 - Ibid., 45·

79 - Ibid., 88.

80 - For the highly conjectural character of this second 'scene' constructed from one of Pankejeff's vague memories, see Viderman (1970), 109-11; Jacobsen and Steele (1979), 357-8; Spence (1982), 117-20; Esterson (1993), ch. 5.

81 - Freud (1918), 92.

82 - Ibid., 12.

83 - Obholzer (1982), 35-6.

84 - Hamburger (1973), 83: 'Epic fiction is the sole epistemological instance where the 1-originarity (or subjectivity) of a third-person *qua* third person can be portrayed' (quoted in Cohn 1978, 7).

85 - Freud (1908a), 153.

86 - 'With her spasmodic cough, which, as is usual, was referred for its exciting stimulus to a tickling in her throat, she pictured to herself a scene of sexual gratification per os between the two people whose love-affair occupied her mind so incessantly. Her cough vanished a very short time after this tacitly accepted explanation - which fitted in very well with my view' (Freud 1905c, 48; our emphasis). The preceding lines established on the contrary that Ida Bauer, far from having accepted Freud's interpretation, had explicitly rejected it: 'she would not hear of going so far as this in recognizing her own thoughts' (ibid.).

87 - On free indirect style, first discussed by Bally (1912), see Lips (1926) and Pascal (1977).

88 - Spitzer (1928).

89 - Cohn (1978), 99-140.

90 - Genette (1972), 194.

91 - Cohn (1978), 105. Pascal (1977) speaks in this regard of 'dual voice'.

92 - Concerning Ida Bauer's hypothetical 'primal scene', Schamberg thus writes: 'the spying event ... has been transmuted into *an observed datum*. Dora herself had *recounted her recollection* of having spied' (Scharnberg 1993, vol. 1, 27; Schamberg's emphasis). But Freud, as we have seen, at no point says that it concerns a memory that Ida Bauer would have told to him.

93 - Esterson: 'The Wolf Man himself confirmed that he had not recalled the supposed event [the "primal scene"]. Yet on two occasions Freud reports alleged statements made by his patient in which he describes specific details of the primal scene. Since the Wolf Man is hardly likely to have given descriptions of an occurrence he did not remember, it would seem that Freud misleadingly embellished his account in order to give more credence to his vital interpretation of the wolf-dream' (1993, 69). Here again, Freud's formulations turn out to be much more ambiguous when we examine these passages closely: Pankejeff at most had vague 'auto-perceptions' and it was the 'analysis'- or the analyst?- that made him 'make an assertion' about the primal scene.

94 - Lerch (1930), 132-3; Jauss (1970), 203-6 (quoted in Cohn 1978, 106-7).

95 - We do not know how these notes escaped destruction, unlike all the others (see Strachey's 'Editorial note', in volume 10 of the Standard Edition).

96 - As Billig remarks, 'it only takes five minutes to read aloud the longest of Freud's reports of these fifty-minute sessions. Thus, the bulk of the dialogue must be treated as being lost' (1999, 58).

97 - Reprinted in Nunberg and Federn (1962), 227-37.

98 - Jones (1955). 230.

99 - Freud (1907-8b), 76.

100 - In the quotations that follow, the italicised and bold-face passages are emphasised by Freud. In Hawelka's edition the italics correspond to passages underlined in ink in the manuscript and the bold characters to passages underlined in crayon. Hawelka explains that 'one can suppose that the author underlined in ink at the moment when he wrote these notes. The lines traced in crayon were added to mark what interested Freud when he read them with a view to editing for publication' (Freud 1907-8b, 14). We have added Hawelka's italics and bold characters whenever we cite from Strachey's editions of the notes. Those that are underlined indicate our emphasis.

101. Ibid., 178 and 180.

102. Freud (1909b), 195-9.

103 - The chronological distortion is pointed out by Mahony (1986), 72-4, and the transformation of the patient's refusal into acceptation by Kanzer : 'In the supplementary notes, however, we find no evidence that the patient was really overwhelmed or even influenced by the interpretation' (1952, 234).

104 - Freud's interpretation is in fact based on his theory of symbolic equivalence: money-excrement (Freud 1908b, 172-4; 1917b), which theory itself goes back to a series of associations elicited during the treatment of Oscar Fellner ('Mr E'), in January 1897: 'I read one day that the gold the devil gives his victims regularly turns into excrement; and the next day Mr E, who reports that his nurse had money deliria, suddenly told me (by way of Cagliostro- alchemist- Dukatenscheiber [one who defecates ducats]) that Louise's money always was excrement' (Freud 1985, 227). Here again, it's unclear if these associations are Freud's or Fellner's.

105 - Lacan (2005), 177 and 178, and more generally 176-85.

106 - Ibid., 178-80.

107 - On the interpretation of psychoanalysis in terms of self-reflection, see Habermas (1971), ch. 10.

108 - Freud (1907-8b), 50. One will note that the idea of the torture of the father only comes to Lanzer when he meets Lieutenant David, and not when Captain Nemeczek tells him about the rat torture, as Freud asserts in the case history. Freud's chronological revision can be explained by his desire to attribute the 'rat idea' to a revolt against the father who is represented by the 'cruel captain' (see Freud 1909b, 217-18). Lieutenant David, on the other hand, had no reason to awaken Lanzer's 'paternal complex', nor to elicit the obsessive idea.

109 - Freud (1907-8b), 54-6.

110 - Ibid., 60 : 'The next morning they [Lanzer and his friend Galatzer] go together to the post office to send the 3.80 crowns to the post office in Galicia.'

111 - Freud (1909b), 172.

112 - Ibid., 211.

113 - In this scenario, the young woman at the post office obviously corresponds to the poor girl, and the innkeeper's daughter to the rich girl. Compare the version proposed by Lacan, for whom the abject of the Rat Man's fantasy is to 'repay the debt to the poor girl' : 'the true abject of the subject's tantalizing desire to return to the place where the woman at the post office is, it's not at all this woman; it's a character who, in recent history, *stands in for the character of the poor woman. She is a servant from the inn* whom he met during maneuvers, in the atmosphere of heroic ardor characteristic of historical fraternity, and with whom he indulged in the hanky-panky characteristic of this generous fraternity. It's a question, in some way, of repaying the debt to the poor girl' (Lacan 1953. 19; our emphasis). We see that Lacan's structural interpretation

takes no fewer liberties with Freud's case history than Freud does with Lanzer's account. In the end, we are left to wonder what exactly we are talking about.

114 - Freud (1907-8a), 290.

115 - As we saw above (note 100), the underlining in pencil was subsequent to the underlining in ink.

116 - In the margins of the manuscript, Freud wrote in ink (and thus, presumably, the same day) : 'patemal transference'.

117 - On this lecture of which we have no trace, see Jones (1955), 42, as well as Rank's decidedly uninformative 'report' (1910). According to a letter from Freud to Édouard Claparède, dated 24 May 1908, which is deposited in the collections of the Claparède Archive in Geneva (and we thank Anthony Stadlen for alerting us to its existence), Franz Riklin had made a rather long report of Freud's lecture, destined, it seems, for Claparède's *Archives de psychologie.* We were, unfortunately, unable to locate this document.

118 - Freud and Jung (1974), 131.

119 - Ibid., 135.

120 - Ibid., 136.

121 - Janet (1903), vol. I, 454, 621 and 641-2.

122 - Nunberg and Fedem (1962), 370-1.

123 - This would tend to support Patrick Mahony's hypothesis, according to which Freud would have seen Lanzer only sporadically after 20 January 1908, the date on which the analysis notes end : 'My suspicion is that after January 20 [1908], Freud saw the Rat Man irregularly until April, and after that most irregularly, hence accounting for the absence of any more reference to the patient at meetings of the Vienna Psychoanalytic Society' (Mahony 1986, 81). If we accept this, Lanzer's treatment, which Freud tells us in the case history lasted 'for about a year' (Freud 1909b, 155). would have in fact lasted less than four months, followed by a few individual sessions. This hypothesis would provide an opportune explanation of why the published case, as Hawelka notes, 'adds very little data to that which already appears in the manuscript' (Freud 1907-8b, 12). Mahony's hypothesis, nevertheless, seems to be contradicted by Freud's letter to Édouard Claparède on 24 May 1908, in which Freud declines Claparède's invitation to publish his Salzburg lecture in the *Archives de psychologie* : 'Another reason standing in the way is that the patient in question will not finish his treatment until July, meaning that a definitive report of the case would, at present, be impossible' (Archives Claparède, Geneva).

124 - Freud (1909b), 210-11.

125 - Ibid., 213-14.

126 - Lacan (2005), 249.

127 - Once again, we observe that Lacan's narrative revisions are no less blatant than Freud's : where exactly does Lacan find it that Lanzer's father had been dismissed from the Army and that this was the reason for his marriage?

128 - Lacan (2005), 293. Also see Lacan (1953); on Lacan's rereading of the 'Rat Man' in terms of 'symbolic debt', see Forrester (1997b).

129 - Ellenberger (1972).

130 - Ellenberger (1977); Andersson (1979).

131 - Gay (1988), 72.

132 - Swales (1986).

133 - Swales (1988).

134 - Swales (1996).

135 - Decker (1991), 14.

136 - Anna Freud, in Gardiner (1972), xi.

137 - Interview with Karin Obholzer, Vienna, 15 March 1994.

138 - Five thousand Austrian shillings per month, which were delivered by Kurt Eissler (interview with Karin Obholzer, Vienna, 15 March 1994). Muriel Gardiner, for her part, would occasionally send him much higher sums (up to 12,000 shillings) as 'advances' on the royalties from his 'Memoirs', in exchange for receipts signed by him (Muriel Gardiner to Sergius Pankejeff, 1 November 1976, Muriel Gardiner Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC). She also paid his taxes. Wilhelm Solms, President of the Psychoanalytic Society of Vienna, provided free analysis that was in fact paid for by the Freud Archives.

139 - Gardiner, for example, wouldn't forward him the mail from readers of his 'Memoirs', which he bitterly complained about (Obholzer 1982, 46). This epistolary embargo didn't apply, however, to the letters from analysts like Richard Sterba, Frederick S. Weil, Alfred Lubin or Leo Rangell (Sergius Pankejeff Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC).

140 - See Obholzer's introductory account (1982). Also see Sergius Pankejeff's letter of 18 July 1974 to Muriel Gardiner, in which he mentions Obholzer's proposal : 'Dr. Eissler is of the opinion, as is Dr. Solms, that I should decline this proposition' (Muriel Gardiner Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC).

14r - Freud (1918), 122.

142 - Freud (1937a), 218.

143 - Gardiner (1972), 263-4. Passage written after Pankejeff's breakdown following his wife's suicide in 1938, which had necessitated a new period of analysis with Mack Brunswick in Paris, then in London.

144 - Gardiner (1972), 366.

145 - Gardiner sent him psychotropic drugs (Dexamyl) from the United States; see Obholzer (1982), 209-10; see also letter from Kurt Eissler to Muriel Gardiner on 7 March 1965, Muriel Gardiner Collection, Manuscript

Division, Library of Congress, Washington, DC. After meeting Pankejeff in Paris, Marie Bonaparte wrote to Jones on 18 June 1954 : 'He seems a very sick man' (Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society). According to recently declassified documents at the Library of Congress in Washington, DC, Kraepelin, with whom Pankejeff had been in treatment before going to see Freud, had diagnosed him as suffering from a manic-depressive state which was hereditary in nature : 'We went to see Kraepelin, who knew my father very well since my father was often at his office... As far as the diagnosis is concerned, he was of the opinion that like my father I was suffering from states of manic-depression. Exactly like him, I had depression, which was also of a cyclical nature' (typed interview with Kurt Eissler from 29 July 1952, IV, 13-14, Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC). Pankejeff, after decades of analysis, came to the conclusion that it was Kraepelin and not Freud who correctly saw his case for what it was: 'Ah, Kraepelin, he's the only one who understood something about it!' (typed interview with Kurt Eissler from 30 July 1954, 19, *ibid.*).

146 - Letter from Pankejeff to Eissler on 3 December 1955 (Sergius Pankejeff Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC).

147 - Gardiner (1983), 872.

148 - Gardiner (1972), 363.

149· Obholzer (1982), 171-2.

150 - Ibid., 112-13.

151 - Ibid., 35.

152 - Interview with Karin Obholzer, Vienna, 15 March 1994·

153 - Obholzer (1982), 40.

154 - Freud (1918), 93.

155 - Ibid.

156 - Obholzer (1982), 134.

157 - Ibid., 47.

158 - Freud (1918), 122.

159 - On Freud's constipation, which he called his 'Konrad', and for which he often sought treatment, see Jones (1955)·, 59-60 and 83.

160 - Gardiner (1972), 266.

161 - At the beginning of the analysis, Odessa was still under English control. This was not the only time that Freud put the analysis before Pankejeff's personal wishes and plans : 'But I remember, one time I wanted togo to Budapest for one or two days, but Freud didn't let me go... "There are many beautiful women in Budapest; you could fall in love with one of them while you're there!" ... Eissler : Why didn't the Professor want you to fall in love?

Pankejeff : I believe he thought that the treatment wouldn't progress any further' (typed interview with Kurt Eissler of 30 July 1952, v, 9-10; Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC). Freud had also forbidden Pankejeff from getting married and having children: 'Freud hadn't let P. get married, had forbidden him from having children' (Kurt Eissler, commentary on two interviews with Pankejeff, 30 July 1952, 12, ibid.).

162 - Gardiner (1972), 111.

163 - Ibid., I42, n. 2.

164 - Interview with Karin Obholzer, Vienna, 15 March 1994.

165 - Obholzer (1982), 47-8.

166 - Freud (1910d), 134·

167 - Freud (1920b), 263 .

168 - Freud (1960), 339·

169 - Remarks quoted in Trilling (1950), 34.

170 - Freud (1907b), 8-9.

171 - Nunberg and Federn (1967), 189. See Shamdasani (2003b).

172 - For an earl y and penetrating critique of the reductive confusion Freud implemented between hermeneutical understanding and the causal explanation proper to the narural sciences, see Jaspers (1973). For the reuse of this critique in a hermeneutical defence of psychoanalysis, see Habermas (1971), chs. 10 and 11; Ricœur (1970; 1981). In brief, for Habermas and Ricœur, psychoanalysis can be saved as a hermeneutics if it lets go of its 'scientific self-misunderstanding'; for Jaspers this self-misunderstanding irremediably stamped psychoanalysis as a bad hermeneutics.

173 - Cocteau (I953), 39-42.

الفصل الرابع

مسؤولية احترام الماضي وتدبيره.

تقول (آن فرويد) إلى كورت إليسر في 27 يناير 1951 [1]
[تعلمت تجربة كبيرة مما كان يحكيه الناس حينما يناقشون أبي أو ما يقولونه وكان كل ما يقال ليس صحيحا].

وفي مستهل هذا الكتاب، كنا طرحنا السؤال : وهو لماذا يكون التحليل النفسي- وهو فرع من المعرفة يتعامل مع الماضي- شديد الحساسية للتاريخ؟ ولقد أصبح الآن السبب واضحا؛ ذلك أن البحث التاريخي بطبيعته يهدد أسس التحليل النفسي في هويته.

وهذا ليس إلا لأن المؤرخين يفصلون نظرية عن الوفرة الوافرة من القصص التي تحيط بها، كما لو كان التساؤل في عزلة النواة العقلية والأمبيريقية للتحليل النفسي عن الأغلفة النظرية والسياسية، والأسطورية، ومن خلال بداهة ضروب التفاوت بين تفسيرات فرويد والمادة التي يتكلم عنها، ومن خلال البرهنة على عملية التركيب التي تحرص الحكايات الأسطورية على إخفائها، وكذلك من خلال بيان اختلاف وقائع التحليل النفسي السابقة على بلورتها، داخل موضوعات الإجماع الثقافي، ومن خلال كل ذلك، فإن المؤرخين لفرويد أبانوا على أنه توجد هناك نواة فقط.

إلا أن هذا لا يشير إلى أن المؤرخين كشفوا أخيرا القناع عن حقيقة التفسيرات الفرودية أو اعتبارات مرضاه. فمثلا قد رفض سيرجيوس بانكيف أورانست لانزر هذا التفسير أو ذاك لفرويد، لأنه لم يقل لنا شيئا عن صدقيته وفائدته بالنسبة إليهما في ما بعد. ثم إنه لم يكن مرضى فرويد بالضرورة أجدر بالثقة منه، واختلافاتهم معه كانت جزءا من لعبة التحليل، ومن الخلاف حول التفسيرات، غير أنه، خلال

إلقاء الضوء على نوع من الاعتباطية القابعة وراء ضروب التفاعلات السردية عند فرويد، تجعل الدراسة التاريخية نظرية التحليل النفسي نسبية، وأقل مشروعية من النقد الإبستمولوجي، وبدلا من البرهنة على أن فرويد لم يتمكن من أن يستدل (يحقق ويختبر، ويجعل صادقا) على ما اقترحه- مما لم يوقف الناس عن قناعتهم بقوة إقناع تفسيراته-فإن النقد التاريخي قد وضع موضع تساؤل ميثاق التفسير الهيرمينوطيقي بين فرويد وقرائه، من خلال اكتشافه عدم توثيق نصوصه؛ مما جعلها مشبوهة. وإذا، كيف يفترض الإنسان استمرار الاعتقاد في كل ما يقوله، عندما تواجهه أنصاف الحقائق والكذب والتقريرات المضللة، وضروب التغليط الأسلوبية وألوان الحذف المغرضة؟ ولماذا يظل الإنسان ينسب إليه امتياز توصله إلى اللاشعور، حينما يتضح له كيف أنه يطلب باستمرار لزوم الصمت من أولئك الذين لا يتفقون معه؟ ثم، لماذا ينبغي أن نستمر معتقدين في الصور التي رسمها لنفسه، عوضا عن العبارات المضادة لبعض مرضاه؛ ولزملائه السابقين وخصومه، حينما يجعلها تقول ما يريد منها؟ وبالإجمال، لم يعد بالإمكان أن ننظر إلى فرويد أنه شاهد ثقة، أو بالأولى على أنه شاهد من بين شهود آخرين بأغراضهم الخاصة ومنافعهم.

وإذا ثبت هذا، لم يكن من المستغرب أن أتباع فرويد كانوا يفعلون كل شيء لإحباط عمل المؤرخين وتعطيله، من خلال الحجر والرقابة على الوثائق وسد الأبواب وإحكام إغلاقها على السجلات المحفوظة والموثقة، في وجه كل حركة للتحليل النفسي، وإطلاق الحملات المسعورة للتنديد والطعن في العلماء المحصلين.

ومن المهم أن نحمي الاحتكار السردي لفرويد ضد التفسيرات البديلة، التي يقترحها بعض مرضاه وخصومه ومنافسيه، وبعض المؤرخين؛ إذ بدون هذه الحماية قد ينقلب التحليل النفسي إلى طب علاجي قصصي من بين سائر العلاجات الأخرى التي تنافسه، وتزدهر في سوق القطاع الخاص، من جانب تحسين حال علم النفس العام. وعلى هذا، فإن التحليل النفسي يمكن أن يتلاشى في كثرة الاختلافات، وضروب التفسيرات المتنازع فيها، أكثر من الادعاء بكونه علما متينا للتفسير والعقل؛ وبالأخص لصورة علم النفس الطبي

الأصيل. وهكذا، فإن تكاثر المرويات القصصية، كان ينبغي أن توقف لتمكين متانة التفسيرات الذي لا يقبل النقاش ووضع السؤال. وليس هذا بسبب أن أتباع فرويد اعتقدوا بالضرورة في سائر تفسيراته، بل لأنهم حرصوا على استمرار تقوية التحليل النفسي وحمايته وجعله ثابت الصحة؛ وكيف يمكن أن نجعله ثابت الصحة إلا أن نصرح بأنه كذلك، وأن نلعب لعبة قيمة الصدق والعلم؟ وهكذا، فإن التاريخ الرسمي للتحليل النفسي كان الدفاع عنه ثابتا في ضرورة الحكاية الفرويدية، وبهذا الاعتبار، فلقد لعب دورا نظريا مهما ومؤسساتيا، حاميا للأحداث، والملاحظات، مما يفترض أن التحليل النفسي قام عليهاهكذا ومن الواضح في مثل هذا الموقفهكذا أن المؤرخين نظر إليهم محدثين للبلبلة، ينبغي إسكاتهم.

العمل المختصر

ولقد واجه ورثة فرويد، بعد موته في 23 سبتمبر 1989 إشكالا، وهو كيف يمكن التعامل مع آدابه المتبقى. وإذا كان فرويد منسجما وحريصا على أسلوبه فقد أوصى بأن جميع أوراقه ينبغي أن تحرق بعد وفاته؟ إلا أن أرملته لم تحمل نفسها على أن تفعل ذلك[3]. وكيف يمكن للإنسان أن يتعامل مع كل هذه الوثائق، فهل يتركها في أعلى سقف البيت أم يضعها في مكان التوثيق أم ينشرها؟ ولقد كان هذا هو السؤال، حينما عادت رسائل فرويد إلى فليس إلى الظهور، واشترتها ماري بونبارت، وكما رأينا[4]، فقد كانت اقتنتها على شرط صريح، وهي أن هذه الرسائل لن تدخل في ملكية فرويد ووفت بوعدها، مقاومة ضغط فرويد الذي كان يريد إحراقها.

مذكرة ماري بونبارت مقيدة في 24 نوفمبر 1937 : وعندما كتبت إلى فرويد من باريس بأن إيدا فليس باعت رسائله، وأني اقتنيتها من رينهولد شتال تأثر بالغ التأثر، وحكم بأن هذا الفعل خال من الود من جانب أرملة فليس. وكان سعيدا حينما علم أن هذه الرسائل توجد تحت يدي. ولم ترسل إلى مكان ما في أمريكا؛ مما كان يمكن من دون شك أن تنتشر مباشرة. وكانت إيدا فليس مصممة ألا تصل هذه الرسائل إلى يد فرويد[5].

وبينما لم تقع هذه الرسائل في يد فرويد، فقد يجوز أن تحصل عليها أسرته ويمكنها حينئذ أن تقرر ماذا تفعل بها. ولما كان فرويد قد أتلف رسائل فليس[6]، فلم تعد هناك حاجة للتفاوض بين ملكيتين أدبيتين، كما حصل في ما بعد مع رسائل فرويد ويونغ، وقد اعتبرت ماري بونبارت أن هذه «المادة» لما كانت مهمة بالنسبة إلى تاريخ التحليل النفسي، فإنه ينبغي أن تنشر بكاملها[7]. وفي بداية مايو من سنة 1945؛ بعثت هذه الرسائل إلى (آن فرويد)، وترددت هذه الأخيرة إزاء عدم اعتبار رغبة أبيها الصريحة؛ إلا أنها وافقت على «أن المادة» ذات قيمة لا توصف كما شرحت ذلك لأرنست جونز،[8] وتقرر أخيرا أن يعد كريس طبعة تحت إشراف كل من (آن فرويد) وماري بونبارت معا. ويبدو أن كريس كان في موقع مؤهل لهذه المهمة كمؤرخ للفن، ومحلل نفسي تدرب على يد (آن فرويد). وعلاوة على ذلك؛ كان قد تزوج بالمحللة النفسانية (ماريان ري)؛ وهي كذلك كانت آبنت الصديق القديم لفرويد أوسكارري وميلاني بوندي أخت إيدا فليس.

ومن الواضح إذا، أن فليس كان واحدا من الأسرة، وابتدأ كريس العمل في صيف 1946 [9] والمشكل الخطير الذي واجهه هو المرسلة إليهم هذه الرسائل وشخص ويلهام فليس لا يستهان به؛ إذ كان منظرا طموحا وكاتبا لأعمال أدت إلى شهرته، وكان مختصا في تطبيب أمراض المسالك التنفسية العليا من الأنف والحنجرة والأذن... وقد اكتشف أنه، من خلال تطبيق مادة (الكوكايين) على الغشاء المخاطي الأنفي، وهي مادة مخدرة، يمكن إزالة الأعراض، من نحو وجع (الشقيقة).، والأعصاب، وعسر الهضم والتنفس، وهكذا، استنتج فليس إثبات وجود : «عصاب الارتكاس الأنفي» ومجموعة من أعراض، أو العلامات التي تنسب إلى بقايا الأمراض المعدية، وإلى صعوبات العصب المحرك للعروق الخاص بالمنطقة التناسلية.

وحينما لاحظ فليس الازدياد المنتظم للمخاط الأنفي أثناء الحيض، وبالعكس اختفاء تعسر الطمث، الذي يمنع تطبيق مفعول الكوكايين على الغشاء المخاطي الأنفي، افترض وجود علاقة ارتكاسية خاصة بين الأنف والعضو التناسلي وحسب التدبير الذي تمكن به من أن يزيل الأعراض النوراستينية أو التوهينية من بعض مرضاه الذكور، من خلال تطبيق الكوكايين على بعض المناطق، (أو النقاط الجنسية) من الغشاء المخاطي الأنفي، كان قد استنتج بأن العلاقة الارتكاسية

نفسها بين حاسة الشم، والمنطقة الشهوية التناسلية توجد عند الرجال، وأن الوهن النوراستيني توجد لهما علة جنسية (الاستنماء). وقد فسر في عمل له نشر سنة 1097 [10] هذه الملاحظات، ضمن نظرية واسعة عن انتظام الإيقاع البيولوجي (البيورثمي) في حياة الإنسان. وأثناء دورة الحيض الأنثوية، المكونة من ثمانية وعشرين يوما، تمكن من أن يضع ظواهر دورية للذكور؛ تعيد إنتاج نفسها من كل ثلاثة وعشرين يوما؛ وتوجد كلتا هاتين الدورتين في كل واحد منا، مما سماه فليس (الاستعداد الثائي الجنسية)[11]؛ وأن تركيبهما أو اقترانهما اعتبر كسائر أنواع التدابير المعقدة، يفترض فيه أن يحدد الأحداث بوجودنا البيولوجي من أول يوم من ميلادنا (وهنا نقصد الجنسية الطفلية) إلى يوم وفاتنا.

وفي هذه الأثناء، صادف أن نشر كريس الرسائل وكانت نظريات فليس (خارجا عن أهمية الايقاع البيولوجي في الدورات المتبادلة) قد رفضت ولم يعد أحد يصدق بالعصاب الارتكاسي الأنفي، أو الدورة الذكرية المكونة من ثلاثة وعشرين يوما. غير أنه حينما كان كل من فرويد وفليس يكتب أحدهما للآخر فإن هذه الفرضيات كانت قد أفرطت في خلفها واعتباطيتها.

سولوي : ولنأخذ مثلا بالمفهوم القائل أن الحياة منتظمة في إيقاعها، أو ما يسمى الإيقاعات الحيوية البيولوجية المنظمة وغير ذلك. وعلى هذا، يمكنك أن ترجع إلى الوراء، حتى تصل إلى ما قاله داروين عن (أصل الإنسان).

فتجد نقاشا محكما حول السبب في أن دورات الإخصاب والحمل عند الفقريات العليا، تتبع مراحل إما أسابيع أو شهرا؛ أي مضاعفة دائما من عدد سبعة أيام أو أربعة عشر يوما أو عشرين. وقد احتج داروين على أن هذا مجرد نتيجة للتطور، لكوننا قد نشأنا عن نسل غير فقري، كان يعيش في مناطق مدية وجزرية، وذلك أنه في هذه المناطق المدية تكون دورات الغذاء، وإذا، التوالد الدوري متعلقة بمراحل من المد والجزر، وإذا، خاضعة للقمر. وعلى هذا، فإذا كان شارل داروين يأخذ بهذا العنصر الجوهري أخذا جديا، فلماذا لا يأخذ به معاصر وفليس؟[12]

يتخذ فرويد من جانبه أفكار فليس بجدية وعلى نحو كامل، وكما تبين الرسائل،فإن الأحداث الكبرى والصغرى في الحياة الأسرية لفرويد، من طمث

مارثا إلى تناقص الطاقة اللبيدية الفرويدية[13]، وموت جاكوب فرويد[14]، أدت إلى إحداث تفسير على ضوء دورات فليس، وتعطي لفلس هذا إثباتات لنظرياته. ولم يتردد فرويد أن يقدم تشخيص الأعصبة الارتكاسية الأنفية، أو لحاسة الشم لمرضاه وتطبيق العلاج الذي دافع عنه فليس (استعمال العقاقير والكوكايين...) ولربما في بعض الأحيان، يرسل فرويد مرضاه إلى برلين ليعالجهم، فليس بمباشرة الكوكايين لفترة تمتد على الأقل لنصف سنة أو ثلاث سنوات[15]، لغاية علاج (الشقيقة)، والمشاكل المتعلقة بالقلب، والصعوبات الوظيفية (من عصاب القلق، وعسر التنفس، والإحباط) مما يعزوه صديقه إلى أصل حاسة الشم.

من فرويد إلى فليس 24 يناير 1825 : ولقد كتب في الآونة الأخيرة، بعد فترة مريحة أعقبت رد الفعل مباشرة، بأن بعض الأيام الرديئة جدا تلت ذلك ساعدني خلالها استعمال الكوكايين في المنخر اليسرى، طوال مدة مغرية، والآن لازلت مستمرّا في تقريري. وفي اليوم التالي ناولت منخري من الكوكايين مما لا يمكن أن يقوم به أحد من الناس في الحقيقة؛ أعني أنني دهنته مرارا وتكرارا، حتى أمنع تجدد حدوث الانتفاخ. وأثناء هذه المدة، أفرغت بتجربتي، مقدارا غزيرا من القيح اللزج الغليظ. ومنذ ذلك الحين، وأنا أشعر بالراحة والابتهاج، كأن شيئا لم يكن، وقد ادخرت لك عبارات الإخلاص، اعترافا بالجميل، وبالنقاش بسبب ما أشركت فيه العملية في هذا التحسن غير المسبوق، إلى أن ننظر ماذا عسى يقع في ما تجيء به الأيام.[16]

وبوجه عام، فإنه من الواضح أن فرويد وفليس كانا قد ارتبطا في تعاون فكري مكثف، معتبرين أفكارهما متكاملة ومتصلة (وفي رسالة من سنة 1993 كان فيها حديث لفرويد [عن صياغتنا العلبة] للوهن النوراستيني).

ولقد كان فرويد على شكل ظاهر قد تأثر بنظريات فليس، إلى درجة أن سماه (كيبلر البيولوجيا)[17] وفي سنة 1901، اقترح توقيعا مشتركا لعمل، عنوانه (الثنائية الجنسية الإنسانية)[18]، قد أصبح في ما بعد يعرف باسم (ثلاث مقالات في نظرية الجنس) ثم في سنة 1904، كان فرويد قد استدعى فليس إلى أن يلتحق به لتأسيس (مجلة علمية تختص بالبحث المستقصي البيولوجي والسكولوجي للجنسية).[19]

إلا أنه لا توجد إلا إشارات قليلة لفليس في منشورات فرويد بعد سنة 1905 وماعدا بعض الإحالات إلى نظرية الدورية، وبعض الملاحظات التي اعترف بها فريد لأصول فليس، من مفهوم الجنسية الثنائية[20]، كان فليس، قد المحى من إحالات فرويد، وبخاصة في ما اعتبره فرويد (عزلته الفريدة) طوال تكوين نظرية التحليل النفسي، أما فليس، فقد كان من جانبه قد ورط فرويد في أولوية خصامه مع أوتو وينجر، وهبرمان سووبودا، من خلال نشر رسائل مزعجة، احتج فرويد عليها بأنه لم يستعمل الجنسية الثنائية في مقالاته الثلاثة. ودافع بنفسه بكونه بلغ خفية أفكار فليس إلى مريضه سووبودا، وغيره إلى وينجر الذي استعملها في كتابه (الجنس وخاصيته)[21] ثم إن فرويد كان يدافع خفية عن الاتهامات التفصيلية لفليس من خلال وصفها بالهذاء المزمن (البارانويا) الحادث عن كبث الجنسية المثلية وأضاف فرويد، وهذه أصل أفكاره عن العصاب الهذائي.[22]

وقد واجه أرنست كريس مسألة خاصة، وهي كيف يلائم محتوى رسائل فرويد إلى فليس، مع أسطورة نقاوة المفهوم الذي اقترحه فرويد في أعماله الخاصة بالجمهور. والطريقة الأكثر بساطة، هي أن يستعمل الاستراتيجية الخاصة، وهي أن يجعل فليس مصابا باثولوجيا، ومن ثم، يمكن أن يصور نظرياته على أنها التعبير عن هذائه المزمن (البارانويا) ولكن، كيف أمكن أن يتأثر فرويد بمثل هذه التأملات البارزة الهذيان؟ وقد درس كريس في مقدمته عدة كتاب منتقدين لفليس زاعما أن الادعاءات العلمية لهذا الأخير تنتمي (إلى عالم علم النفس الباثولوجي)[23] وأنه كان يعاني (من مبالغة التقييم الذاتي ذي الطابع البارانوي لفكرته)،[24] وأن أعماله الطبية تشتمل على نزعة تصوفية،[25] وأن مذاهبه تتحرك بعيدا عن الملاحظة «وأنها نمت وارتفعت إلى ما فوق الواقع والمشاهدة»[26] وقد قام كريس ببحث أسري محاولا أن يحصل على تأييد مأذون به للتشخيصات الآتية، من ابن فليس واسمه روبير الذي كانت زوجته من عمومته، إلا أن هذا لا يبرهن على الصعوبة. ذلك أن روبر فليس انقلب على أبيه؛ وبخاصة بعد نقاش طويل مع فرويد من سنة (1929)[27] وقد كان تدرب على يد كارل أبراهام، وقد استقر آنئذ كمحلل نفسي في نيويورك.

من آرنست كريس إلى آن فرويد 18 أكتوبر من سنة 1946 (مع نسخة من بروير فليس) : إني أشكرك على المناقشة مع الدكتور فليس، لإطلاعي على عدد قليل من الأسئلة الواقعية والمشخصة. والأهمية الكبيرة آنذاك من المراسلات التي جعلتها تتألم كثيرا، وحينئذ حصل لها في ما بعد أن أصبحت مريضة بالبارانويا وتقرير الدكتور فليس عن تجربته مع العلاج الأنفي كان مهما للغاية... وقد أضاف الدكتور فليس إلى أبيك ما تذكره عن مرض جدته، وتكلم له عن محادثة في «تجيل».[28]

من كريس إلى (آن فرويد) أكتوبر 1946 (من دون نسخة إلى روبر فليس): لقد وصف روبير فليس بالضبط طبيعة الباراونويا الخاصة بأبيه؛ ورسم له صورة منفصلة عن وجهة نظره التي وظف فيها تجربته واقعيا، والتي لم تكن كذلك، كما وصف الاتجاه الأخير لوالده نحو فرويد على نحو كامل في اتجاه ماريان نفسه... وفي رأيه أن ويلهلم فليس كان واقعا تحت مرض باثولوجي، وأكد أن أباه قد أخبره بذلك في «تجيل».[29]

من آن فرويد إلى كريس 29 أكتوبر 1946 : لقد وجدت حالة روبير فليس مفهومة بكاملها، وكذلك لم أر شيئا في أنه لم يقرأ الرسائل، قبل أن يقرر ما إذا كان سيساعد على شرحها. فكلما عرف شيئا عن مرض أبيه، كلما أصبح بطبيعته حذرا في سلوكه، مادام لم يقم بأي احترام لو أنه وضع نفسه كابن لأب.[30]

وما إن تحول فليس إلى إنسان مريض عقليا، حتى نحي، وأعدم نهائيا من الإهمال؛ وكان تعاونه مع فرويد قد تمثل على نحو غير متناظر، وكما أكد كريس لجون رودكر (في نشر المخيال image) الذي أراد فيه أن ينشر رسائل تحت عنوان (رسائل فليس)؛ إذ تبين أن فليس لم يلعب أي دور في إنشاء التحليل النفسي.

من كريس إلى جون رودكر 26 مايو 1953 : أولا وقبل كل شيء، قد بقيت معارضا وبدون شرط على الإطلاق لرسائل فليس أن يكون لها ذلك عنوانا للنشر وهناك أسباب جدية، وليست عاطفية، بالوقوف ضد هذا؛ ذلك أن فليس كان حدثا عارضا، وتكتسب الصداقة في مستهل الطريق وعلى تبادل من «طلوع فجر التحليل النفسي»، فقد يبدو لي أن أصوله ينبغي أن تكون مستحقة للعنوان، إلا أنه على حال من الأحوال، ينبغي أن يتجنب اسم فليس في العنوان الرئيس.[31]

غير أن هذه المناورات لا تكاد تكون كافية؛ إذ كان من الضروري أن نحذف الآثار الأكثر وضوحا لصالح فرويد من النظريات الهذيانية لصديقه، وبعبارة أخرى، حتى توضع الرقابة على الرسائل. وليس من الواضح متى اتخذ هذا القرار، ولكن في أكتوبر من 1946، كان المخطوط المختصر معدا.[32] وهذا العمل الموجز كان قد أعطى له كاسم،[33] واستمر إلى غاية 1947، مع بعض المراجعات وأنه فقط في سنة 1985، حين نشرت الرسائل بكاملها، اتضح أن تدرج الرقابة قد أصبح مفضوحا، فمن ضمن 284 رسالة، كانت تحت تصرف كريس، لم يبق منها إلاّ 168 رسالة. وهذه نفسها لم يطبع منها إلا تسع وعشرون بدون حذف، أما سائرها (ومن ضمنها بعض المخطوطات وبخاصة المخطوط ح.خ) فقد اختصرت بنسب مختلفة، وغالبا بدون التنصيص على ذلك. ومن ثم، فإن ثلثي الرسائل كانت تقريبا قد آطرحت. وكما أسر جيمس ستراشي أخيرا إلى ماكس شور في عبارة موجزة بالإنجليزية : (إن الرقابة على الرسائل الفرويدية في مبتدئها كانت متطرفة).[34]

ملاحظة الناشر على الطبعة المختصرة لرسائل فليس

لقد وضع الاختيار والانتخاب على أساس إخبار الجمهور بكل شيء متعلق بالعمل العلمي للكاتب، وبقواعده العلمية مما يحمل الشروط والملابسات الاجتماعية والسياسية، التي أصلها التحليل النفسي، أما ما يخص الحذف والاختصار مما نشر فقد يخل بالثقة الحرفية أو الشخصية.[35]

ارنست جونز : إن الرسائل والمقاطع المحذوفة من النشر، مما قرأه الكاتب الحالي أيضا، تحيل كلها إلى تفاصيل غير مهمة، تدور حول تنظيم الاجتماعات والأخبار المتعلقة بصحة الأسر المتنوعة وبالمرضى. وبعض التفاصيل الخاصة بمجهودات فرويد المتابعة (قانون المراحل) عند فليس، وعددا كبيرا من الملاحظات حول بروير؛ مما يكشف على أن فرويد كان قد أضمر كثيرا من الآراء النقدية القوية حول بروير، إضمارا أكثر مما كان يفترض بوجه عام.[36]

غير أن المرء حينما ينظر إلى المقاطع التي خضعت للرقابة، يتضح له أن الجزء الأكبر بينها، إن لم يعن فقط الحياة الخاصة لفرويد، فقد يرتبط مباشرة بالأهمية

النظرية التي يشترك فيها مع فليس. وعلى هذا، فقد لا يجد الإنسان إشارة في الطبعة الأولى من استعماله للكوكايين، لغايات علاجية تطبيقية، إلى حذف بعض مرضاه، أو بعض الأعراض، أو إلى شخصه نفسه كما لا توجد أية إشارة إلى إيما إيكشتاين، وهي إحدى المريضات المفضلة عند فرويد؛ الذي أصبح قائما على تحليلها، وقد توقف بعد عملية كارثية على أنفها، أجراها عليها فليس بطلب من فرويد.[37]

من آن فرويد إلى كريس 11 فبراير سنة 1907 : ومنذ البداية مرة أخرى فإني مسرورة بحذف رواية حالة إيكشتاين. ولا أعتقد أن يصيب القارئ من هذا مكروها، ولا أن يخل بالمعنى. ويبدو لي أن هناك مجموعة من الاعتبارات الضافية إزاء ذلك الحذف.[38]

ويصدق هذا كذلك على تبادل الرسائل بين فرويد وفليس في سنة 1904 في ما يتعلق بقصة سووبودا- ويننجر؛ إذ في الرواية المراقب عليها، كان التراسل قد انتهى ببطاقة بريدية بريئة، بعث بها فرويد إلى فليس سنة 1902 من (باستوم) وهي قد تعطي القارئ لمحة عن أولية الخصام، الذي أدى بفليس إلى أن يقطع العلاقات مع فرويد.

من آن فرويد إلى سوزان برنفلد 15 دجنبر 1951 : ومع طبعة رسائل فليس لقد اعتبرت أناوارنست بطبيعة الحال، إلى أين كان سيؤدي موضوع الصراع الخاص بويننجر؟ إلا أننا قررنا، وقد كنت على حق في هذا وقف ذلك الطبع. وإن استمرار تاريخ فليس مفيد جدّا في معرفة تحول طبعه؛ إلا أنه لا يجعل شيئا فوق ذلك.[39]

والأكثر جدية من كل ذلك، كان انقطاع الرسائل بين سنوات 1886-1896 وملاحظات كريس، مما قد طمس الروابط بين نظرية فليس عن علة، أو عن سبب مرض الجنسية الأنفية الخاصة بالوهن النوراستيني، وبين تعاظم أهمية فرويد طوال تلك السنوات الحاسمة في دور «العقد» الجنسية في الأعصبة الواقعية (من النوراستينيا) القلق العصابي وإذا، في الهستريا والعصاب الوسواسي والبارانويا.

من فرويد إلى فليس 6 دجنبر 1896 : وأخيرا، فإني لا أستطيع أن أزيل التخمين الذي يرى أن الفارق بين الوهن والقلق العصابي، الذي أفرزته من الناحية الكلينيكية، هو فارق مرتبط بوجود مواد لمدة 23 يوما و28 يوما.

ملاحظة كريس : وهذا افتراض تخلص منه فرويد في الحال، وهو يمثل قمة مجهوداته ليربط آراء فليس بآرائه الخاصة.[40]

وإذا، كان هذا في البداية نوع تأمل؛ جعل خاصية نظريات فرويد ذات طابع بيولوجي، في ما يخص دور الجنيسية في الأعصبة الذي تخلى عنه، بل ومحاه لصالح اختيار أفضل بالاحتفاظ على الأسطورة الرسمية باكتشاف غير متوقع في المادة الكلينيكية.

فرويد : (1910) : وحتى العمال الذين يكونون مستعدين لأن يتبعوا دراستي السيكولوجية، قد يميلون إلى الاعتقاد لأني بالغت في تقدير النصيب الذي تقوم به العوامل الجنسية... وبعيدا عن هذا الموقف، أو هذا الوضع الذي أرمى به من الناحية النظرية في وقت اشتراكي مع بروير في نشر (الدراسات) من سنة 1895؛ فإني لم أكن قد اتخذت بعد هذا الموقف، وإنما تحولت إليه حينما أصبحت تجاربي عديدة، وتغلغلت في صميم الموضوع بعمق.[41]

وما خلا الرسالة المهمة المحررة في 14 نوفمبر 1897، لا يكاد الإنسان يجد أي أثر في طبعة كريس عن القذارة، وأهمية التبرز التي شغلت باله في الشهور التالية لتخليه عن نظرية الإغواء، والتي تخص انحراف الكبت العادي من انتقال الأنواع الإنسانية إلى وضع الاستقامة. وإلى الاستقذار المرتبط (بالمناطق الشهوية) الشرجية والفمية مما كان قد تخلى عنه آنذاك.

من آن فرويد إلى كريس 11 فبراير (قائمة المقاطع التي يجب أن تحذف) رسالة 154 : يجب أن تحذف القذارة، وكذلك الحال مع رسالة 165 .[42]

وهنا كذلك فإن نتيجة الحذف قد ألقت الغموض والتعتيم على الترابطات القائمة بين هذه الافتراضات المستقذرة، الخاصة بالتذكير الذي أنشأه ونماه الفرد من جراء المناطق الشهوية؛ مما ترك أثناء نمو النوع وتطوره وبين نظريته الجنسية الطفلية مما عرضه فرويد في المقالات الثلاث من سنة 1905. وعندما يواجه

القارئ مفاهيم من نحو «المناطق الشهوية أو الجنسية» «والانحرافات المتعددة الأشكال»، «والكبت» وكذلك «رد الفعل التكويني» ومرحلة الكمون، وربطها بالمرحلة الشرجية والفمية (الشفوية) فليس من المحتمل أن يتمكن من فهم أن هذه المعاني لم تشتق من ملاحظة الطفولة، بل تفرعت عن التأملات البيولوجية، التي يشترك فيها فرويد مع فليس.[43]

من فرويد إلى فليس 11 فبراير سنة 1897 : لقد قصدت أن أسألك، في ارتباط مع أكل الحيوانات قذارتها [واسمح لي على استعمال ألفاظ غير متداولة] سؤالا، وهو متى يظهر الاستقذار أول الأمر عند الأطفال الصغار؟ وما إذا كانت توجد مرحلة في الطفولة المبكرة، حينما تكون هذه الإحساسات غائبة، ولماذا لم أذهب إلى دار الحضانة وأجرب[لقد أسقطت آن فرويد شيئا من النص] ولربما كان السبب في أني لم يتوفر لي وقت مع عمل يدوم لأكثر من إثنى عشرة ساعة ونصف، ولأن امرأة من عامة الشعب لا تشد أزري في أبحاثي.[44]

من فرويد إلى فليس 22 دجنبر 1897 : وهل سبق لك أن رأيت جرائد اجتازت الرقابة الروسية ولم تمنع في الحدود؟ إن الألفاظ، وأشباه الجمل، والجمل لكنها تختفي وتتلاشى، ويصير الباقي غير معقول.[45]

غير أنه لم تكن المقاطع النظرية الصريحة للمراسلة هي التي خضعت للرقابة فقط بل تلاشت صورة الكتابة ورسومها كذلك. وقد كان فرويد يصف لفليس ما يجري في مكتبه على نحو غير مهذب، ولا متقن التدريب، وكل هذا يجعل التراسل ضروريا لإعادة تركيب ممارسة فرويد في ذلك الوقت، وبخاصة طوال فترة «نظرية الإغواء أو التغرير» وقد يرى الإنسان كيف أن فرويد كان يلقي أفكاره في الهواء، ويخبرها على مرضاه[46]؛ من خلال إلحاحه عليهم إلى أن يحصل على التأكيد والإثبات المطلوب، وكيف كان يهدد أدنى رفض كمقاومة ينبغي الظهور والانتصار عليها بسائر الوسائل الممكنة[47]، وكذلك يمكن أن يرى الإنسان كيف تثير «ضغوطه التقنية» أحوالا رائعة المنظر على ذهول بعض مرضاه الذين «يحيون من جديد» مشاهدة متكررة على طولها، متسمة بالإغواء الذي يذكرهم به فرويد.[48]

من فرويد إلى فليس 6 دجنبر 1896 : وعن طريق التداعي، أعادت ذكرى من ذاكرتها اللاشعورية لمشهد (وهي في سنها الرابعة(رأت فيه أباها)، وهو في غمرة تأثير الجماع، خابطا برجليه، مبللا الحاضنة.[49]

من فرويد إلى فليس 17 دجنبر 1896 : وهل تعتقد أن ممانعة شرب الجعة والحلق قد يوضحه مشهد جلست فيه الحاضنة عارية، لتظهر ما حلقت داخل طاس ملئ بالجعة لغاية أن تترك نفسها تتقطر، وهكذا.[50]

من فرويد إلى فليس 3 يناير سنة 1897 : لقد كانت تتألم من أثر «اجزيما» حول فيها ومن إصابة في جوانب فمها لم تشف منها... (وقبل أن رسمت الملاحظات المقارنة بكاملها لمصها القضيب...) وقد ظهر في طفولتها، (12 سنة) كف عن الكلام لأول مرة، حينما كانت بفم مملوء، هاربة من امرأة معلمة، وكان لأبيها كلام شبيه بالدوى، كما كان فمه ممتلئا.[51]

من فرويد إلى فليس 12 يناير سنة 1897 : وهل تستطيع من فضلك، أن تبحث عن حالة طفولة متشنجة، يمكن أن تقتص أثرها (في المستقبل أو ذاكرتك) في الاستغلال الجنسي وبخاصة للحس (الأصبع) من الشرج، وبالنسبة إلى اكتشافي الجديد، فإني قد تمكنت من أن اقتفي أثر إصابة مريض، على وجه اليقين، يكاد يشبه الصرع عند العلاج عن طريق اللسان من جانب حاضنته وعمره سنتان.[52]

من فرويد إلى فليس 11 فبراير سنة 1897 : إن وجع الرأس الهستري، مع إحساس بالضغط على قمة الرأس والصدغين وغيرهما، هو ميزة لمشاهد يكون فيها الرأس محتفظا لغرض القيام بأفعال في الفم. ولسوء الحظ : لقد كان أبي واحدا من أولئك المنحرفين الشواذ، وكان مسؤولا عن هستريا أخي «وجميع تلك الأعراض كانت متوحدة» وعن كثير من الأخوات الشابات.[53]

ومن الواضح أن مثل هذه الأمور لم تكن مناسبة للنشر خارجا عن تبصر فرويد لممارسته الراهنة؛ مما يبرهن كيف أنه كان يكتب على نحو من الاتساع عن نظرية الإغواء، وعن الأحداث التي قادته إلى التخلي عنها في مراجعاته التاريخية التالية.

من آن فرويد إلى كريس 11 فبراير 1947 : وإني مرسلة إليك بملاحظات أعطاها إلي مارتن فرويد بعد أن قرأ المراسلة غير المختصرة وبطبيعة الحال فإن ضروب البتر كانت ملاحظة. وفقط مع آراء قليلة لم يكن متأكدا إلى أين وصل البتر... وكان مندهشا من روايات الحالات التي لم تستعمل في الأعمال الأخيرة وكانت ذات طابع مشوه وفاسد، وعلى ما أرى، فإن الأخت الأخرى كانت قد صادقت على ذلك... وقد اتفقنا على ألا نترك شيئا من المرحلة التي تظهر فيها التخيلات الشاذة كمقدمة منذرة بالجنسية الطفلية، لكننا مع ذلك أبقينا على كثير من ذلك، وهذه هي قائمة المقاطع المحذوف منها :

- رسالة 112 (6 دجنبر 1896) فقرة عن الهستريا حذفت، وفي الرسالة نفسها، من صفحات 10 و 11، قد يستنبط منها تاريخ الشذوذ والانحرافات.

- الرسالة التالية لرسالة رقم 113، والمؤرخة بالقلم من 1896/12/17، صفحة 2 الفقرة الثانية عن الشذوذ مع المربية (وهل نعتقد....)أنه كان يجب أن يشطب على ذلك.

- رسالة 119 ص 249 (ولسوء الحظ، فإن أبي كان قد قام بذلك التشطيب).

- رسالة 141 : إن الأب كشاذ، والألفاظ (لا تستثني أبي)، يجب أن يشطب عليها، وهذه كانت من أجمل الرسائل.[54]

من كريس إلى فرويد 29 أبريل 1947 : كان قصدي أن أزيل كل شيء يمكن أن يعطي الانطباع عن الحميمية المبالغ فيها، وكل شيء تكون تفاصيله متسعا فيها عن شكاوى الأنف والقلب قبل موت أبيه، وفوق ذلك، لقد حققت كل ما يمكن أن يحدث الانطباع بوحشية مرويات الحالات، وكل ما يوجد هنا وهناك، يمكن أن يكون شديد الحميمية بترابط تلك الاختصارات، ثم إني أعتقد أن ضروب الحذف والاختصار ينبغي أن تذهب بعيدا، ولا يؤنبني ضميري على الاختصارات التي أطلب إليك الآن أن تقومي بها. وخلافا لذلك، فلربما نقرر أزيد من ذلك في المستقبل على نحو جذري.[55]

وهكذا، فإن هذه المقاطع الذي ظهرت مصدقة لامكانية تقديس الجنسية الشيطانية، قد نالها الاختزال والحذف، وقد انطلى على فرويد خدعة تشابه

المناظر المشاهدة في الشذوذ الذي يثيره في مرضاه، وفي تفسيرات الإغواء الشيطاني الذي ينتزعه التعذيب كالحال في محاكم التفتيش. وبدلا من أن يتخذ الاحتياط الخاص بمشاهدة مرضاه انتهى إلى الاعتقاد في تصديق تفسيرات العجائز الساحرات التي تتحزب مع معذباتها بالفعل؛ وأكثر من ذلك، فلقد كان يشيع الافتراض القائل بأن الأفعال الشاذة التي يخضع لها مرضاه، تشكل جزءا من ممارسة طقوسه عن طريق طائفة سرية شيطانية لا تزال تفعل فعلها. ولقد كان فليس متشككا في ذلك، فكان من الواضح بالنسبة إلى فليس وآن فرويد، أن التشابه الملفت للانتباه بين علاج فرويد ومحاكم التفتيش لا يمكن أن يستسيغه الجمهور. والمقاطع التي نعيد نقلها هنا كاملة، وبأحرف بارزة، تطابق تلك المقاطع المحذوفة.

من فرويد إلى فليس17 يناير1897 : ولكن، لماذا الشيطان الذي امتلك الأمور الشريرة كان يستغلهم على نحو ثابت جنسيا، وبكيفية مستقذرة؟ ولماذا كان اعترافهم تحت التعذيب أشبه شيء بالاتصال الذي يفعله مرضاه في العلاج النفسي؟... فقد كان لايكشتاين مشهد؛ حيث يخزها الشيطان بابرة في أصبعها ويضع سكر القند (نبات) في كل نقطة من نقاط الدم الساقط! ولما كان الأمر يتعلق بالدم فلا عتب عليك.[57]

من فرويد إلى فيلس 24 يناير 1897 : لقد ابتدأت أفهم فكرة وهي أنه كالحال في الانحرافات والشذوذ التي تكون فيها الهسترية سلبية يوجد الآن أمامنا بقايا من طقس جنسي بدائي، ولربما لا يزال موجودا حتى الآن-نوع من الدين في الشرق السامي (مولوش، وأسترات)، ولنتصور أني حصلت على مشهد من ختان فتاة، وقطع جزء من الشفة السفلى (التي هي أقصر إلى يومنا هذا)، تكون ماصة بها الدم، بعد أن تعطي قطعة من الجلد لتأكلها، وقد زعمت هذه الطفلة مرة وعمرها 13 سنة، أنها تستطيع أن تبتلع جزءا من الدود (خرطون)، وجعلت تفعل ذلك، والعملية التي تجربها ربما تؤثر عن طريق النعار، (عرق لا ينقطع دمه) الذي يتأصل بهذه الطريقة... وإذا، فإني أحلم بدين شيطان بدائي، بطقوس تستمر تأديتها على نحو سري، وتفهم العلاج القاسي لأحكام الساحرات، وأواصر الروابط متوفرة.[58]

غير أنه بالرغم من وجود سائر هذه المجهودات للرقابة، فإن رسائل فرويد إلى فليس تظل قابلة للانفجار، ولا يمكن أن يخفي الإنسان واقع أن فرويد كانت له صداقة متينة لدرجة التطرف مع فليس. وعلاوة على ذلك، فقد ظهرت هذه العلاقة أشد غرابة؛ إذا حاول الإنسان أن يصف في الوقت نفسه فليس كهذائي خطير «بارانوايك». وعندما نحاول أن نفصل فرويد عن فليس، كلما ظهرت صداقتهما الحميمية أشد انفعالا حول هذه العلاقة.

من آن فرويد إلى كريس 29 أكتوبر 1946 : لقد قرأ هوفر الرواية المختصرة ويبدو أنه تأثر بها على نحو إيجابي، وإن كان مترددا حول الأثر المترتب عن العمل الخارجي في كثير من النقاط، تماما كما وقع لنا نحن على نحو متشابه، أما أرنست فرويد، فهو يقرأ الآن الرواية غير المختصرة، إلا أنه بدا أكثر ارتياعا وتخوفا من كونه متأثرا، ويعتقد أن طريقة الإعجاب بالرجل، الذي لم يتحول في نهاية الأمر على نحو أقوى، إلى أعظم رجل أمدته بانطباع التراضي.[59]

من هينز هارتمان إلى آن فرويد 17 مارس 1947 : إن قصة إبداع التحليل النفسي هي نفسها قصة حدوث الأزمة، ولم يكن هذا ليفاجئنا على وجه التأكيد وكان يمكن أن يدهشنا لو لم تكن تلك هي الحال؛ إلا أنه بالنسبة إلى الجمهور فهذه الأمور غير معروفة، وإلى حد ما لا تصدق.[60]

من سيجفريد برنفلد إلى آن فرويد 18 يناير 1950 : إني آمل أن يصدر الكتاب قريبا، وفي رأيي، فإن هذا شيء مهم وعظيم، ومن ناحية أخرى، فقد يتنبأ الإنسان أن يكون بعيدا عن كل شيء، بأن الكتاب قد تتبعه عدة نشرات، تفسر بأن فرويد كان مريضا على نحو مقلق، وأن التحليل النفسي لا يلائم إلا حالته الخاصة.[61]

من ستراشي إلى جونز 24 أكتوبر 1954 : وفي الواقع، فإن هذه حالة كاملة من الحمق المضاعف مع فرويد، في دوره غير المتوقع كشريك هستري[62] للبارانويا.

من جونز إلى ستراشي 11 يناير 1954 : «في ما يخص محاولة أو مقالة متعلقة بليونارد ودي فنشي : إني لا أكاد أتفق مع ما قلته عن فرويد الذي حاول أن يتصالح تدريجيا مع نفسه إزاء الجنسية الثنائية، وأعتقد شخصيا أنه كان قد

تجاوز المصالحة معها، إذا كنت تفهم ما أعني؛ إذ أن فرويد لم يتحرر قط من فليس وظل يتصارع معترفا بذلك السؤال المطروح في سنة 1910 في صقلية، وكثير من الأمور جرت مع أدلر، وشتيكل، وأكثر بكثير مع فرنزي.[63]

وقد يتعالج الإنسان ويشفى من مرض الباثولوجيا، وقد كان فرويد يشير إلى الحل الذي فسره لبعض أتباعه ومريديه. وكان قد نجح في ما فشل فيه فليس، وغرق في الهذيان.

من فرويد إلى فرنزي 6 أكتوبر 1910 : إنني لم أعد أحتاج إلى ذلك الانفتاح الشخصي... إذ كانت هذه الحاجة قد انطفأت في، منذ أن صارت حالة فليس (...) وقطعة من استثمار الجنسية المثلية، كانت قد استرجعت واستعملت لتوسيع أناي الخاص بي، وقد نجحت في ما فشل فيه فليس الهذائي البارانوياك.[64]

بعبارة أخرى، قد شفي فرويد نفسه من تأثير فليس عليه. والعلاج الذي كان يبحث عنه كريس كان موجودا؛ ولم يكن شيئا آخر غير تحليل فرويد لذاته إذ كان قد تمكن من أن يحرر نفسه من تأثير فليس، وأن يجد أفكاره الخاصة الأصيل، وصحته النفسية في الوقت نفسه. ونتيجة لذلك، فإن النصوص ينبغي أن تعرض على نحو تدعم هذه الأطروحة، وكما يرى أي إنسان، فإن تحليل فرويد لذاته لم يجد له مكانا نقديا في رسائله إلى فليس (وستة أسابيع من التفسير الذاتي، كان قد تبعها الاعتراف بالفشل)[65] وقد ارتفع كريس من خلال التفسير والرقابة إلى مركز المراسلات، وميزها كأصل للتحليل النفسي. وهذا قد تطابق مع أسطورته المتدرجة ضمن حركة التحليل النفسي. وفي سنة 1941، كان كريس قد ادعى للتحليل النفسي بأنه لا شيء من المجموع الواسع للافتراضات، في العلم الحديث يكشف إلى أي مدى مشابه، كان تأثير الباحث المنفرد[66]، وقد فسر في مقدمته لرسائل فليس ما كان به مدينا لتحليل نفسه المبتدئ في صيف سنة 1897.

وهذا ما كان فرويد قد استطاع به أن يكسب استبصارا ضمن، بنية عقدة أوديب. ومن ثم، ضمن المسألة المركزية للتحليل النفسي،[67] مما مكنه كذلك أن يخطو (خطوة من نظرية الإغواء إلى الاستبصار الكامل، داخل دلالة الجنسية الطفلية[68] في صيف وخريف 1897)، ثم انقاد إلى الاستبصار داخل دور من أدوار

المناطق الشهوية في نمو الليبيدو،[69] وإلى نفسير الأحلام (ربيع 1898)، وإلى إعطاء حل لمشكلة الأفعال المنسية (صيف 1895)، وأخيرا إلى فهم العلاقة بين البحث النظري للأحلام، وعلاج الأعصبة (بداية سنة 1899).

وفي هذه المدة الزمنية المتسلسلة الرائعة، كان من الضروري، ولو على نحو اصطناعي، أن يبتدئ التحليل النفسي للذات في غشت، بدلا من أكتوبر سنة 1897؛ على معنى أن ما حصل كان بعد الشكوك الأولى الخاصة بنظرية الإغواء وأن يجهل بأن المناطق الشهوية إنما برزت في شهر دجنبر 1896، ليستغرق تحليل الذات إلى غاية 1899 وإلى الرقابة إلى سائر المقاطع التي تبين بأن فرويد، استمر يغازل فرضية (العلة الأبوية) إلى شهر أبريل من سنة 1898 [70]، بعد أن تخلى رسميا عن نظرية الإغواء، والانتهاء الحالي لتحليل (نوفمبر 1897)، وفوق كل ذلك، قد يتعذر أن ننسب كل هذا التطور إلى فرويد نفسه[71]، وإلى انفصال نظرياته عن كل ما يربطها بنظريات فليس، وعن سياقاتها التاريخية والفكرية بوجه عام. وقد كان كريس، عن طريق اصطناع التحليل النفسي لذاته، كمصدر وحيد لنظريات فرويد، قد ارتقى بأسطورة الابتكار الذاتي، أو التوليد الذاتي للتحليل النفسي «كعلم مستقل»[72] بطريقته الفعالة. وما يطلق عليه القطيعة الإيستمولوجية الفرويدية، إنما كان حصيلة الرقابة المفضية بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ.[73]

وقد كان هناك امتياز إضافي لعملية كريس: إذ أمد التحليل النفسي إمدادا تاما بأصول التحليل النفسي؛ من خلال جعل نظرية فرويد إنتاجا لنجاح تحليله لذاته.

وعلى هذا تقارب العلاج والعلم: إذ عالج فرويد نفسه من خلال كشفه الغطاء عن الحقيقة، ورأى عين اليقين لأنه شفي، وذلك لأن الجنون والحمق في الرسائل كانا تخليصا وإنقاذا؛ باعتبار أنهما مجرد تحايل على طريق الشفاء الذي هو عين اليقين، إذ كانا عوائق نجح فرويد في أن يتغلب عليهما بطريقة بطولية. أما كريس، فكان يفكر في خصوصيته، واعتبر أن فرويد جعل نفسه مريضا بإرادته حتى يتمكن من حل مشكلة الأعصبة.

من كريس إلى آن فرويد 7 دجنبر 1947: إني أعتقد أن تحول فرويد بعد تحليل نفسه بذاته، كان تحولا رائعا، لأن عصابه أصبح بالنسبة إليه أداة للبحث، وإني أفكر في أغلب الأحيان بأن ذلك سمح له أن يصبح قادرا على أن يحل اللغز والسر

الغامض. إلا أني أعلم جيدا كذلك بأن الناس لا يمكنهم أن يقولوا مثل هذه الأمور ويعتبرونها روايتي الخاصة لتقديس بطل، كان ينبغي أن أتجنبه بطريقة أخرى.[74]

وهكذا، فإن كريس في مقدمته كان قد أبرز الألم، والمسعى غير المتكافئ للتحليل الذاتي للنفس، كما أبان عن إطراء التقدم والمقاومة وتعاقبها، وتأرجح مزاج فرويد طوال هذه الفترة. إلا أن هذا كله لم يكن إلا إبراز حقيقة كون أن هذا العمل التحليلي، مكنه من أن يفصل فرويد تدريجيا من فليس، من خلال الظهور على ضروب الصراع اللاشعورية، التي كانت السبب الأصل لتجاذبه الباثولوجي إلى نظريات صديقه ولسخرية القدر، فإن فليس في الواقع هو الذي فصل ذاته، وأخذ به مباشرة معظم أسرة فرويد؛ التي رأت فيه ردًا على ورود الانتقادات الممكنة مما يمكن أن يتيحه نشر رسائله. فهذا برنفلد الذي أطلعه كريس على مقدمته في شهر يونيه سنة 1949، كان قد اقترح أن يرفق النشر برسائل مع مقال لفريد عن تحليله لنفسه حتى تفهم هذه النقطة جيدا، وتبرأ ساحة فريد.

من برنفلد إلى آن فرويد 18 يناير سنة 1950 : وهذا هو رأيي عن أوراق تحليل فرويد لنفسه، وهي أوراق تكشف إلى أي حد كانت أعراضه العصابية قليلة وغير مناسبة، كما توضح العلاقة بين تحليله لذاته- وهذا عمل في حد ذاته جليل- وبين البناء الكلي لطريقة التحليل النفسي ومحتواه.[76]

وكان لهذا الإجماع أثر على نحو من التراضي، وفي الواقع الحقيقي؛ إذ في الرواية الأولى التي أدرجها كريس في مدحه، نجده، وقد ذهب بعيدا في وصف الأعراض التي يفترض أن تحليل فرويد لنفسه، كان قد أدى به إلى أن شفي منها، إلا أن هذا الوصف نبه كلا من آن فرويد وماري بونبارت إلى ما يمكن أن يترتب عنه من مخاوف؛ إذ يفهم منه أن فرويد قد ظهر فيه كعصابي لم يشفه تحليل ذاته.[77]

وإذا حكمنا بما ورد في الرسالة المطولة التي بعث بها سنة 1942، فسنجد أن إحدى نقاط الخلاف[78] بينه وبين طبيعته، كانت إحالته إلى طبيعة الجنسية المثلية للصداقة بين فرويد وفليس.

من كريس إلى ماري بونبارت 6 نوفمبر سنة 1947 مع نسخة إلى آن فرويد): إن شرحك المحسوس التالي أو الثاني، يحيل إلى مقطع يمكن أن يفهم (صفحات 78/77) : إن فرويد يشير مرارا وتكرارا بأن علاقته مع فليس، لعبت في جزء كبير

منها، دورا مهمّا في تحليله لنفسه (ويمكن الرجوع إلى الرسالة 66 مثلا). وتسمح عدة مقاطع لأن يفترض المرء بأن فرويد تحقق من أن مودته لفليس ارتبطت بمساءلة أساس من أول مرحلة من تحليله لذاته وبعلاقته مع أبيه (الرسالة 134)، ويشبه أن تقدم تحليله لذاته كان قد سهل له الابتعاد بل والنفور من فليس» وإذا، فإن شرحك لهذا المقطع يمكن أن يقرأ: «[يمكن أن يستنتج الناس بأن فرويد كان جنسيا مثليا. وإني أعرف أن هذا ما تقصدين. ولكن الآخرين قد لا يعنون هذا]» ومن ثم، فإني سأرد عليك، بأن كل من يقرأ الرسائل- وإني لمحيل فقط إلى المختارات التي أنشرها- قد يعتريه الانطباع بمودة صادقة غير مألوفة، وبارتباط قد يوحي أن ننظر إليه من الخارج، بقربه للميول الجنسية المثلية، فيها نوع من الإعلاء، ولا أحيل هنا قصدا إلى النص غير المختصر الذي تكون فيه تلك الإحالة إلى العلاج الأنفي متجهة إلى تقوية هذا الانطباع. ولقد أشار فرويد نفسه مرارا وتكرارا إلى أن علاقة فليس قد لعبت دورا مهما في تحليل فرويد لنفسه (ولنرجع مثلا إلى رسالة رقم 66). وقد يسمح الإنسان لنفسه من قليل من المقاطع، أن يشك في أن فرويد كان قد وصل إلى نوع من التبصر، بأن علاقته بفليس قد ارتبطت بالمسألة الرئيسية للمرحلة الأولى من تحليله لنفسه؛ أعني علاقته بأبيه، وبالميل الأنثوي [رسالة رقم 134] ويشبه أن تقدم التحليل النفسي، من خلال تحليل الذات جعل انفصاله عن فليس سهلا.[79]

ونقطة الخلاف الثانية هي كثرة الاعتلالات الجسدية التي حلت بفرويد من سنة 1890، منها الشقيقة والأعراض الأنفية، والأعراض المعوية، والمزاج المتقلب، وفوق كل ذلك، عدم انتظام ضربات القلب المصحوب بسوء الهضم وآلام الاختناق. وفي ما يخص أعراض القلب التي أعيت فرويد وأزعجته، فإن بروير كان يرى أنها ناتجة عن «مرض عضلي قلبي مزمن». أما فليس، فهو يرى أنها ناتجة عن تسمم النيكوتين، وإذا، وقع تشخيصها بالعلة الأنفية التي وصف بردها العادي: استعمال الكوكايين مطبقا على الغشاء المخاطي الأنفي، وبإجراء عمليات في صورة خدروفية. ويرى آخرون[80]، إليزبث ثورنثون، بأن تلك الأعراض كانت حادثة عن آثار الكوكايين، مما كان يتناوله فرويد تبعا لنصيحة فليس، وكان يأخذه مبدئيا لتسكين مرض الشقيقة[81] ومن هذه الوجهة من النظر، كان تطبيب فليس

بالكوكايين هو المرض بعينه، مما كان يزعمه بردا وشفاء، كما وصف كارل كروس، على نحو مشهور؛ التحليل النفسي بهذا[82] وحتى لو أشرنا بأن مثل هذه الترابطات قد تكون غير مقبولة، فإن الأمر الثابت قائم على مستوى الاهتمام في ما يخص كل إشارة على العلاج الأنفي المذكور في الرسائل. وعندما أخذ فليس مسبقا بتشخيص ماكس شور (الذي كان تبعا لذلك هو الطبيب الشخصي لفرويد) للتجلط التاجي، فقد توصل إلى استنتاج فحواه أن الأعراض القلبية وغيرها كانت ذات طبيعة عصابية، وقد فسر هذا في الرواية الأولى من مقدمته.

مقتطف لكريس منتزع من حكاية الرواية غير المنشورة من تقد يمه لرسائل فليس : لم يشر فرويد إلى العلة المباشرة التي ساقته إلى تحليل ذاته وبعد نصف سنة من موت أبيه، في ربيع سنة 1897، كان قد أشار إلى بعض الاضطرابات العصابية، التي قلل فليس من خطورتها (رسائل رقم 65)، وليست هذه أول مناسبة يلمس فيها فرويد هذا الموضوع من صعوباته العصابية، فهو كان قد ذكر في سنة 1897، شيئا من هذه الصعوبات، وبخاصة في وقت اشتداد الصراع في تعاونه مع بروير، ومن ذلك الحين، جعل فرويد يذكر تقلبات أحواله الصحية، وتقلبات مزاجه، والشكاوى القلبية التي كان كان يميل إلى أنها أدت إلى إساءة استعمال النيكوتين (التبغ)، وهي شكاوى لم يقع تشخيصها قط، وعلى وجه اليقين،[83] لقد تقلب مفهوم فرويد كثيرا، إلا أن الرسائل تقوي الانطباع بأنه كان محقا وصائبا في افتراض علة سيكولوجية، أو مساهمتها سيكولوجيا، وقد تأكد هذا الانطباع بسبب نجاح تحليله لذاته. وفي ما بعد ذلك، في سنة 1898 أصبح فرويد يشعر بالراحة، وأنه عادي، وفي صحة جيدة.[84]

ثم إن ماري بونبارت، وآن فرويد كانتا معارضتين لأي إشارة تنعت المؤسس الأول بالعصاب؛ مما كان سيعطي أسلحة لخصوم التحليل النفسي. وهكذا، بقي التشخيص الرسمي مقتصرا على الأعراض العضوية القلبية، ولقد وبخت آن فرويد محللها السابق.

من آن فرويد إلى كريس 4 يونيه 1947 : إلا أنه في سائر العبارات التي تحيل إلى تحليل فرويد لنفسه، يمكن أن يلاحظ الإنسان أنك لا تزال في صراع داخلي. ومع ذلك توجد تفسيرات كثيرة، والدفاع عنها.

وكل هذا يثير في القارئ انطباعا أنت لا تريد أن يثار، أعني تعطشه للمعرفة لكنه يجد نفسه على أرض محرمة عليه. وأعتقد أنه ينبغي أن نحل مشكلة الشعور قبل أن تقدم هذه الفقرة في صورتها النهائية، ولقد قررنا أنه ليس صحيحا أن ننقل بعض الآراء، مادام يطلب بعض الناس حذفها. وهكذا، قررنا العكس لأنه لا يوجد أساس للدفاع، ويمكن أن يجدها قارئ طَبَعِيَّة، حتى أنه يصل إلى أن يعرف هذه الأمور.[85]

وقد اقترحت آن فرويد أن يطلب إلى ماكس شور حتى يكتب ملاحظة على تشخيص التجلط، ويذكر بصراحة الرسالة التي يشار فيها إلى اعتلال العضل القلبي الذي افترضه بروير (وأضافت أن هذه الرسالة ينبغي ألا يقع فيها حذف ولا بتر...)[86]، وكان هذا تركيبا خضع لتقطيع كريس، من جهة أنه يبعد الأسباب، أو بعضها للتحليل الذاتي، ولما زعزع كريس هذا الرفض، كتب رسائل جديدة ليبرر حالته، والتجأ إلى أفراد آخرين من أسرة فرويد؛ فلاحظ أن هينز هارتمان يتفق معه بأن فرويد كان يعاني (من عصاب عضل قلبي)، وأن «فليكس دوتش» الذي كان طبيب فرويد مبكرا في سنة 1920، مال أيضا إلى أن يبعد التجلط التاجي العارض. وحتى شور نفسه، كان قد غير رأيه بعد أن قرأ الرسائل، وفجأة شعر بأنه لم يعتقد قط في وجود التجلط العضلي من 1890 [87]، ولم تكن آن فرويد مستعدة لأن تتراجع عن موقفها.

من آن فرويد إلى كريس 12 نوفمبر 1947 : إنه بعد تقلبات كثيرة من رأي لآخر، أشعر بأن رأي شور، قد فقد قيمته لاتخاذ القرار، أما هارتمان الذي ليست لديه أية بينة طبية، فلا يمكن أن يعرف عنها أكثر من غيره من القراء للرسائل، أما «فليكس دوتش» فهو على ما أعلم، ليس حياديا في هذا الموضوع.[88]

إنه لا يوجد شيء نعمله إلا الاستسلام؛ ذلك أن الرقابة الآن هي نفسها أصبحت مراقبة. وقد نقل كريس المراجع الخاصة «بالنزعة الأنثوية عند فرويد» وكذلك الأعراض العصابية المتنوعة، ولم تبق الإحالة غامضة عن تقلبات مزاجه، وتعاقب أطوار التقدم والمقاومة. ونتيجة لذلك، يبقى القارئ في حيرة من أمره ما إذا كان فرويد قد شفي بالضبط، والتحليل النفسي للذات الذي أخذ به كريس إلى مرحلة مركزية ليزودنا بعلاج، كان الغاية منه التمويه على الرسائل.

فأصبح الآن شفاء بدون مرض، وبدون طريق إلى تمييز الأعراض. وعليه، فإن تعمية أصول التحليل النفسي أصبحت مطبقة. وبقي الأمر على هذا إلى سنة 1966؛ حيث كشف ماكس شور خفية، بعض الشذرات من أجزاء المراسلات غير المنشورة؛[89] وفقط ظهرت في سنة 1985، الرسائل كاملة غير منقوصة، إلا ما كان من بعض أسماء المجهولة للمرضى.[90] غير أن أسطورة عذرية التحليل الذاتي كانت قد ترسخت جذورها وانطمرت، ووقع تخزينها في آداب التحليل النفسي وانتشرت في سائر العلوم الفرعية الأخرى، بإدراج شخصيات محنكة، بالغة التعقيد في تفكيرها مثل دريدا، وريكور. لقد نجحت ضروب الرقابة؛ وإلى يومنا هذا، كم من الناس يتعبون أنفسهم حتى يقرأو الطبعة الكاملة لرسائل فليس.

السيرة الذاتية بحثا عن كاتب

قد ظهر كتاب «أصول التحليل النفسي في ألمانيا سنة 1950»، وفي إنجلترا سنة 1954، غير أن هذا كان أول خطوة لإثبات التاريخ الرسمي للتحليل النفسي وقد أعلن كريس المهمة التالية في الرسالة نفسها التي بعث بها إلى فرويد، وفيها الإشارة إلى تصحيحه الأخير والنهائي.

من كريس إلى آن فرويد 7 دجنبر 1947 : إن السيرتين الذاتيتين، مما لم يطلع عليه لودفينج، كانتا قد أشبعتانهم الرغبة التامة، وحققتا الرضا الكامل للخصومات، حتى أن ظهور كتابنا (للسيرة الذاتية)، قد يمر بدون إثارة حساسية تذكر، وإذا، كان لبرنفلد من الوقت ما جعله يكتب سيرة ذاتية صحيحة، وكذلك كان من الوقت ما جعله ينشر مختارات من رسائل مضافة أو يكتب سير ذاتية للتحليل النفسي بدل فرويد.[91]

من برنفلد إلى كريس 11 يونيه 1949 : لقد توصلت اليوم بأول حلقة من حلقات التحليل النفسي، وقرأت شيئا على عجل من خلالها. وانطباعي أنك قد قمت بعمل عظيم مع المقدمة : إن السيرة الذاتية لفرويد جعلت تتشكل.[92]

وكنا رأينا[93] بأن فرويد شديد الحساسية للاطلاع على حياته الخاصة، وكان ورثته يشاركونه هذا الاتجاه، وهم يرفضون بانتظام كل تعاون مع مشروعات مثل السيرة الذاتية المتوهمة لأرفينج ستون، ولتخطيط فيلم[94] على صورة هوليوود من

جانب أناتول ليفتاك، أو للقيام بأبحاث تاريخية كما تزعمها الدكتور فون هاتنبرغ من باد-بادن.

من آن فرويد إلى إيسلر 26 فبراير 1952 : إني أعرف شيئا عن مخطط هاتنبرغ، وقد طلب إلي أن أساعده منذ سنة مضت؛ إلا أني رفضته فورا، ولا أدري كيف أن غريبا مثل هاتنبرغ يكون له الحق في أن يكتب سيرة ذاتية، وكيف يمكن أن تكون له معرفة ما، حتى يقوم بذلك. ويبدو لي أنه يفعل خيرا لو ترك رغبته، ولربما يسقط خططه غير المشروعة.[95]

ومن جهة أخرى، فإن هذا الاتجاه المعيق على نحو قوي، أصبح غير قابل للدفاع حينما أصبحت السيرة الذاتية والمذكرات غير المسموح بها تظهر، وكل هذا يهدد بتقليص صورة فرويد عند الجمهور، وفي سنة 1946 و 1947 ظهرت سيرتان ذاتيتان نقديتان عن فرويد إحدهما لاميل لودفينج[96]، والأخرى لهلين بونر[97]، وما لبث أن تبعتهما غارات أخرى داخل حياة فرويد الخاصة، فأصاب آن فرويد حنق شديد من جراء ذلك، ووصفت عمل لودفينج بأنه عمل مقيت[98]، بينما وصف عمل بونر بكونه «مرعبا»[99]، أما مقالة إيركسون عن حلم إيرما كما ورد في كتاب (تفسير الأحلام)، فقد أصابتها بمغص في بطنها،[100] وأيضا فإن ليسلي أدامز، محلل نفسي من تمورك، قام يبحث عن شباب فرويد،[101] فاتهم بالمهوس،[102] وقد استحق جوزيف وورتيس أن يحاكم؛ لكونه نشر مذكراته لتحليله مع فرويد. وهكذا،[103] ذواليك. وذلك أن الأمر كان يتعلق بإنتاج «سيرة ذاتية صحيحة» كما يصف كريس، حتى تشكل متراسا لدفع انتشار التفسيرات غير المسموح بها.

من هينز هارتمان إلى آن فرويد 17 مارس 1947 : إنه توجد الآن سير ذاتية عديدة عن فرويد؛ والإشكال هو ما إذا كان يوجد من بينها عمل يمكن أن يقبل.[104]

مقدمة جونز إلى المجلد الأول من سيرته عن فرويد : لقد احترمت أسرة فرويد إرادته ورغبته في خصوصيته، وكانت تشترك معه في ذلك بفهم، بل إنها ذهبت إلى أن حمته من مجرد البحث العمومي. والذي غير اتجاهها في ما بعد، هو الأخبار الصادرة من عدة روايات كاذبة، اختلقها أناس لم يكن لهم به علمٌ على الإطلاق. وهي حكايات تراكمت على التدريج تراكم الأسطورة الكاذبة.[105]

ولكن، ما الذي يتعين عليه أن يكتب الحياة الحقيقية لفرويد، وفي أكتوبر من سنة 1946 اتصل جونز بليون شمكين، مدير (شركة سيمون وشوستر)[106]، الذي أراد أن يعرف ما إذا كان جونز مهتما بكتابة سيرة ذاتية لفرويد. وما لبث جونز أن تصل بآن فرويد، التي كانت متذبذبة حول هذا المشروع؛ إلا أن جونز كان قد وقف ضدها في صراعها مع ميلاني كلين؛ إذ هو[107] لم يكن في يوم من الأيام جزءا من الأسرة على الحقيقة كما أنها لم تكن متأكدة كيف يمكنها أن تثق فيه. ومن ثم، ارتأت أن يتعاون جونز مع سيجفرد برنفلد، وهو صديق لها قديم لما كانت شابة في فيينا،[108] ظانة أن برنفلد يمكنه أن يدير المشروع، أو على الأقل يراقب مساعده وفضلا عن ذلك، فإن برنفلد قد يكون مؤهلا بوجه خاص لأن يقوم بهذه المهمة حينما ابتدأ، متبعا هجرته إلى الولايات المتحدة، يباشر أبحاثا مفصلة مع زوجته سوزان، وهي شابة لفرويد، والسياق الفكري لعمله الأول.[109]

من آن فرويد إلى كريس 13 مارس 1947 : إن جونز لم يكن كارها للبحث عن المشاركين، كما أنه ليس مناسبا لهذا العمل وحده على الإطلاق؛ باعتبار حال صحته. وهو نفسه كان قد فكر في برنفلد، مما ليس هو فكرة قبيحة؛ إذا كانت المهمة قابلة للتقسيم، إلا أني لا أعتقد إلى حد ما في واقعية هذا المشروع، ولا أعتبر كذلك أن صحة جونز تكون كافية؛ لأن مادته إذا احتفظ بها على هذا النحو فمن المحتمل أن يزعج نفسه بهذا الموضوع.

وعلى أي حال، فإني لا أريد أن أظهر إزاءه أي سلوك سلبي، مادمت لا أريد أن أفقد كل تأثير في هذا العمل.[110]

من آن فرويد إلى برنفلد 4 مارس 1947 : إن شيمكين مهتم أشد الاهتمام بنشر سيرة ذاتية لأبي، وهو هنا متصل بأرنست جونز، الذي يرغب كثيرا في أن يستعمل المادة (من الرسائل والمذكرات الشخصية وغيرها...) في حوزته حتى يكتب على الأقل جزءا واحدا لو وجد من يتعاون معه. وكونك مهتما بقضية يكون فيها هو ذلك الشخص، وأنك تحب أن تكتب حول تطور الفكر التحليلي على نحو ما فعلته في مقالاتك التي نشرتها، فقد يفيدك العمل معه.[111]

ولقد كان برنفلد متشككا في جونز أكثر من شكه في آن فرويد. وفضلا عن ذلك، فمن الواضح أنه تصور مقالاته ذات الطابع التاريخي لمسودات فصول

كتابه السيرة الذاتية الخاصة بفرويد،[112] وعليه، فإن تعاونه مع جونز قد يدخله في صراع مع مشروعه ومع ذلك فقد كان يرغب في أن يشتغل مع جونز.

من برنفلد إلى آن فرويد 19 مارس 1947 : سأبوح لك بسر : إنه يحزنني إسهام جونز، إذ كان هذا الرجل في سنة 1937 بإنجلترا، قد أبدى ملاحظات حول شخصية فرويد وحياته، فصدمني؛ لا لأن تلك الملاحظات قد صيغت بشكل عدواني، وبطريقة غير لبقة حول مائدة الغذاء، بل لأنها بالأساس كشفت عن أن جونز في ذلك الوقت، كان يفتقد نوعا من التعاطف والاحترام لفرويد مما يطلب في المؤرخ الموضوعي، وأنا أعرف أنه لا يحبني كثيرا، وعليه فإني أشك ما إذا كان يستطيع أن يتعاون معي. وأيضا فإني لا أحبه، ولكن قد أكن له بعض التقدير، لإسهاماته في التحليل النفسي مما تتطلبه المحاولة.[113]

من آن فرويد إلى برنفلد 26 مارس 1946 : إن اتجاه جونز السلبي، كما ظهر لك أنت نفسك، ليس خفيا على أحد، ومعروف لدي على نحو أكثر، إلا أني أعتقد أن ذلك كان منه بالأساس نتيجة حسد، وشعورا بأنه غير مقدر حق قدره. ولربما كان قد تضاءل وقلت قيمته، ومنذ أن مات أبي... كما أني لا أعلم ما إذا كانت حياته ستطول، ويقوى حتى يتم هذا النوع من العمل.

إلا أني أشعر أن مادته ذات فائدة عظيمة، وينبغي على الأقل أن يجمعها ومن ثم يهيئ الطريق إلى العمل عليها؛ بحيث يكون بعيد المدى. إلا أن هذا بطبيعة الأمر، لا يكون هو الطريقة التي ينبغي أن تقدم إليه هذه المهمة.[114]

غير أنه بعد شهور عديدة، كتب جونز مقدمة لدراسة فرويد عنوانها (مسألة مهنة التحليل النفسي) وهي دراسة لم ترق لآن فرويد، وهذه القضية هي التي اختلف فيها جونز مع فرويد، ورد فيها الأضرار المخالفة للطب إلى فرويد، وفي 16 مارس، طلبت آن فرويد من كريس أن يخبر شيمكين بأنها تعتبر، أو تنظر في سحب اتفاقها من جونز ككاتب للسيرة الذاتية لفرويد.[115] وإجابة شيمكين، أنه اقترح أن يعهد هذا الدور إلى برنفلد، تساعده آن فرويد نفسها.[116] ولما كانت هذه الأخيرة لا تريد أن تشارك مباشرة، فقد اقترحت، بدلا من ذلك تعاونا بين برنفلد وكريس، ويرد دور جونز إلى مجرد مخبر[117] وأخيرا في سبتمبر، قرر الناشر أن يعرض على جونز عقدا لكتاب كتاب من 300.000 كلمة،[118] وظهر المشروع

وكأنه في راحة ممتدة لسنتين ونصف، إلى أن كتب جونز إلى برنفلد في 27 مارس من سنة 1950، يطلب إليه معاونته بتوافق مع المشروع الأصلي[119]، وقد استغرب جونز كيف استطاع أن يدرج العمل في المقالات التي كان برنفلد واثقا من الوعد الذي قطعه مع آن فرويد، فإنه قد طمأن جونز على هذه الفكرة، وقدم الأبحاث المطبوعة وغير المطبوعة إلى تدبير جونز.

من برنفلد إلى جونز 24 أبريل 1950 : إني لا أرى كيف يمكن أن تتلاقى في دراساتي مع عملك، ولا أدري لماذا لم تستعر فقرات أو صفحات من طبعتي، فإنه يمكنك أن ترتب ذلك مع صاحب الطبع والنشر الأصل، وإني لجد مسرور بأن نتعاون متى أردت أن تستقبل معلومة غير منشورة من جانبي.[120]

وكما أظهرت المراسلات بين 1950 و 1955، فإن تعاونهما كان مثمرا، وأكثر مما يمكن أن يظن الإنسان، إذا تخيل اعتراف جونز في الكتاب الأول.[121]

بيترسواليز : لقد كان المجلد الأول لسيرة جونز إعادة كتابة أوسع مما كتبه برنفلد، الذي كان أول من قام بعمل بحث تاريخي صادق عن فرويد... وقد أقول إن برنفلد كان الملهم الحقيقي... أما القطع الخاصة بكتاب جونز، فهي لا تعدو أن تكون انتحالا من برنفلد.[122]

وقد طرح جونز عدة أسئلة على برنفلد، مثلا سأله عن تاريخ ميلاد فرويد وكراهيته كتابة مقال عن سيرته الذاتية، حول المذكرات (المحجوبة)، ومع علاقاته مع برنتانو[123] ومينرت. وقد أعطى برنفلد أجوبة مفصلة، أو شرع في أبحاث لمساعدة جونز، كما أنه صحح مسودات الفصول التي بعث جونز إليه كما فعل ذلك جيمس ستراشي، الذي كان أحد المساعدين المستترين في السيرة الذاتية. وقد سأل برنفلد بدوره جونز حول موضوعات، ربما استطاع أن يجيبه عنها بوثائق كانت تحت يديه : ماهي المسألة بين مسقط رأس فرويد[124] (شلوسرجاس) والسوق؟ وأين سجلت الشرطة شكاية خادمة فرويد بأخيه غير الشقيق؟ وماذا يعرف عن النشاط الإجرامي لعمه جوزيف فرويد؟ ومتى ذهب فرويد إلى (واندسيك) ليزور خطيبته أثناء أبحاثه على الكوكايين؟ (وكان رد جونز : هو أن القطار الذي سافر فيه فرويد وصل إلى محطة هامبورغ يوم 2 سبتمبر 1884 على الساعة 4.45 صباحا).

غير أنه من الواضح أن الاتجاه الرئيس لدفق المعلومات، كان منطلقا من برنفلد إلى جونز، الذي لم يعرف إلا قليلا عن طفولة فرويد وشبابه. ولقد جعل الوضع يتغير حينما كسب جونز ثقة الأسرة، بعد أن عرض على آن فرويد فصله الأول.

من جونز إلى ستراشي 27 أكتوبر 1951 : وإنه لمن المدهش حقا، كيف تحولت أسرة فرويد بكاملها إلى متحمسة لكتابة سيرته الذاتية : لقد استمرت تمطرني بالأخبار.[124]

وفي أبريل من سنة 1952، وافقت الأسرة على أن تظهر لجونز (رسائل بيروثل) تقريبا 2000 رسالة بين فرويد ومارثا بيرني، أثناء تعهدهما لأربع سنوات، ثم (مذكرتهما السرية) التي هي علامة على الثقة الكاملة. وقد كان برنفلد على أحر من الجمر لأن يعرف ما تحتويه تلك الرسائل، وسأل جونز أن يبعث إليه ميكروفيش (جذاذات مصورة) عن رسائل بتروثل، وعرض عليه أن ينقلها، غير أن جونز لم يكن ملزما، كما قال، لأنها إنما أرسلت إليه (بعد انقطاع المناقشات، وانتزاع سائر الضمانات... ولم يبق له شيء...)،[125] والحقيقة هي أنها كانت راجعة إلى خطاطة برنفلد كما أثارتها صلة جونز بآن فرويد، ولأسباب كثيرة لم تتضح بعد؛ وكانت آن فرويد تعتقد أن زوجته تمارس عليه تأثيرا قبيحا، وأنه يتجه نحو ما هو مثير للحساسيات، وقبل ذلك، في سنة 1947، كانت آن فرويد قد أقلقها أن كريس وعد بأن يظهر رسائل فليس إلى برنفلد؛ محتجة بأن الإنسان لا يمكنه أن يعول على قدرة امرأته في أن تكتم سره[126]. وبعد سنتين، حينما صرح برنفلد بعزمه على نشر مقال مع امرأته حول تحليل فرويد لنفسه، كتبت آن فرويد إلى كريس تطلب إليه ألا يقدم برنفلد على ذكر رسائل فليس، أو الاستشهاد بها من غير إذا، ولا طلب رخصة، وأن يرسل منها مسودة لإخضاعها «للنقد».[127] إلا أن ما أفاض الكأس، هو أن برنفلد أشار إلى أنه كان باحثا عن عم فرويد، جوزيف الذي كتب عنه في «تفسير الأحلام» وأنه كان قد أقحم ذلك، مع قانون، ووصل كورت إيسلر، الذي بلغ كل شيء إلى آن فرويد (وفي ذلك الوقت) لم يكن برنفلد ولا جونز يعرفان أنه كان قد اتهم بصحة تزييف النقود، مما اشتبه فيها أيضا بعض إخوة فرويد الكبار.

من برنفلد إلى ايسلر في يناير 1991 : ما هي الأفعال الإجرامية التي ارتكبها العم جوزيف أخو جكوب فرويد؟ ومتى كان ذلك؟ وبماذا حكم عليه فيها؟[128]

وهنا طفح الكيل وتجاوز الحد. فلقد أصاب آن فرويد الرعب[129] بسبب هذا التطفل على أسرار أسرة فرويد، فقررت أن ترد بسرعة على طلب برنفلد وجريه وراء المعلومات[130]، وما إن كتب برنفلد مقالا حول تجارب فرويد عن الكوكايين، حتى كان الحظر على رسائل بتروثل التي غطت هذه المرحلة، مثيرا للسخط والغضب وكما ذكر جونز، الذي فوجئ وهو يقرأ تلك الرسائل، بأن فرويد في شبابه كان نشر مقالا في يونيه من سنة 1884، وفيه يدافع عن استعمال الكوكايين الذي دخل حديثا إلى السوق، بسبب الاعتلالات الجسمية، مثل الاضطرابات المعدية ودوار البحر والوهن العصبي، والألم العصبي الوجهي، والربو، والإعياء، وأيضا قد كتب فرويد بأنه كان قد نجح نجاحا باهرا؛ في كونه أزال آثار التسمم من مريض مدمن على المورفين، بإعطائه دواء الكوكايين من خلال الفم. وقد كرر هذا في حديث أعطاه في مارس من سنة 1885، ونشر في الشهر التالي. وكان قد أوصى كذلك بإعطاء دواء الكوكايين بحقنة تحت الجلد، مضيفا بأن عدم إدمان الكوكايين قد يتطور؛ وخلافا لذلك، فإن النفور المتزايد منه قد يكون واضحا.[131]

وهكذا، حاول البريخت إرلتمير، وهو اختصاصي في الإدمان على المورفين أن يجرب تلك الطريقة على بعض مرضاه. وفي سنة 1886، نشر مقالة ينتقد فيها فرويد انتقادا عنيفا. وقد احتج بأن تناول الكوكايين لا يؤدي إلى إزالة المورفين وفضلا عن ذلك، قد ينتج عنه الإدمان على الكوكايين؛ مستنتجا أن فرويد أرخى العنان : «لآفة ثالثة» على الإنسانية بعد الكحول والموفين[132]. وكرد على إرلتمير نسب فرويد إلى نتائج هذا الأخير كونه أعطى دواء الكوكايين، كحقنة تحت الجلد بدلا من الفم كما أوصى فرويد بذلك. ومن الواضح أن هذا تضليل كما أمر فرويد في الطريقة الأولى من مقالته المنشورة في أبريل سنة 1885. وباستثناء بعض الإشارات الخفية في «تفسير الأحلام»؛ حيث يستدعي مظهر شخص «صديق عزيز» كان قد أصبح متسمما بسبب تناول الكوكايين، من خلال تناول حقن خلافا لنصيحة فرويد[133]، فإنه لم يشر قط إلى هذا الانزعاج من حادث

عارض، مفضلا عليه أن يقص كيف أنه فشل في أن يحظى بأن يكون أول من اكتشف الخواص التخديرية للكوكايين؛ مما تابعه عليه، صديقه كارل كولر، حسب علامات جاءت من فرويد، حينما كان يزور خطيبته.[134]

ومن الواضح أن برنفلد، وقد اعتمد في عمله على مقطع من «تفسير الأحلام»، كان قد نجح في تعرف بيان الدواء مجهول الاسم (وهو الإدمان على المورفين) الذي ادعى فرويد بأنه تعافى بفضله. وكان أرنست فون فليش ماركسو، وهو زميل فرويد وصديقه، ممن استعمل المورفين، حتى يصارع الآلام المبرحة الناتجة عن بتر أصبعه، وكما وجد إرلتميير تماما في مرضاه، فلقد طور فليس ماركسو الإدمان على الكوكايين بفضل معالجة فرويد. وقد توفي لست سنوات في ما بعد، وهو يدمن المورفين والكوكايين معا[135]،وقد سأل برنفلد جونز ما إذا كانت رسائل بتروثل تلقي بعض الأضواء على هذه الحادثة، فأثبت جونز بأن هذه الرسائل تتضمن أخبارا «ذات فائدة عظيمة وغير متوقعة[136]»، في هذا الموضوع، مضيفا أنه يريد أن يلتمس حالة برنفلد مع آن فرويد، حتى يمكنه أن يراجع على الأقل هذا الجزء من المراسلات.

من جونز إلى برنفلد 28 أبريل 1952 : وأية عشرة كانت عشرتهم، لقد كان مينرت مخمورا. وكان فليشل مدمنا على المورفين بطريقة قبيحة، وأخشى أن يكون فرويد يتناول من الكوكايين أكثر مما ينبغي له. وأنا لم أشر إلى هذا.[137]

من جونز إلى ستراشي 27 مايو 1952 : إن الطريقة التي بها يكره فرويد الناس على أخذ الكوكايين قد تضربه، وتهدد سلامته، وحتى مارثا، يتعين عليها أن تتناول منه لتورد خديها، وإنما يهتم فرويد بالآثار الداخلية السحرية للمخدر الذي يأخذ منه قسطا كبيرا لنفسه. وقد كان فرويد وفليس في السنوات الأخيرة يتعاطيان الكوكايين على نحو دائم تخديرا لمنخر كل واحد منهما.[138]

من جونز إلى آن فرويد 8 مايو 1953 : أظن أنك تعرفين أن برنفلد كان يصف حادثة الكوكايين، فهل توافقين على أن أرسل إليه مستخلصات من (خطابات الزفاف بروت بريفي) حول هذا الموضوع ؟ وإنه لا يمكن أن يوجد شيء شخصي فيها؛ إلا أنه يوجد تفسير كامل لتجاربه عنه.[139]

ولقد كانت آن فرويد قد أعطت إذا،ها؛ ولربما كان ذلك، بسبب أنها لم تعتبر تواطؤها. وهكذا، فقد أبانت الرسائل عن أمور كثيرة غير متوقعة.[140]

1 - لقد فشل علاج فليشل فشلا ذريعا : إذ بعد عشرة أيام من إزالة المورفين كعلاج وصفه فرويد، لم يزل الكوكايين الآلام ولا أعراض الخلل، وقد حاول الطبيب ثيودور بيلروث إجراء عملية جديدة على ما تبقى من العضو المبتور، مع وصفة علاجية بالمورفين لفليشل.[141] وقد كانت إدعاءات فرويد في مقالته التي ظهرت في الشهر التالي، بأنه كان يداوي مرضاه بالإدمان على المورفين، ادعاءات لا أساس لها من الصحة.

2 - وقد استمر فليشل يتناول الكوكايين بانتظام في الصيف،[142] مقسطا الزيادة المتدرجة في الجرعات طوال الشتاء والخريف من 1884-1885. وهكذا خلافا لإثبات فرويد في حديثه في شهر مارس 1885، فإن حالة فليشل لم تتحسن بالإدمان على الكوكايين.

3 - وعلى عكس ما زعمه فرويد، في رده على إرلتميير، وفي مقطع من (تفسير الأحلام)، في ما يخص الصديق غير المرغوب فيه، كان يعطي حقنا من الكوكايين إلى فليشل من شهر يناير 1885، محاولا أن يخفف من استمرار ألمه بعدما ابتدأ فليشل يحقن نفسه بجرعات مبالغ فيها من الكوكايين.

وقد تعامل برنفلد مع هذه القضايا بحنكة فائقة في مقالته التي ظهرت متأخرة بعد وفاته في سنة 1953 .[143] والنقطة الأولى كانت قد أهملت بكل بساطة، أما الثانية، فقد وقع التطرق إليها. وقد لاحظ، بدون أن يستخلص نتيجة واضحة بأن مقاطع السيرة الذاتية الوشيكة الظهور لإرنست جونز، أدت به إلى أن يعتقد أنه كان بإمكان فليشل أن [144] يضيف زيادة الكوكايين. وقد لوحظ هذا في شتاء 1884-1885. أما في ما يخص النقطة الأخيرة، فقد أبرز برنفلد التناقض بين رد فرويد على إرلتميير، وبين دفاعه عن الحقن تحت الجلد في مقاله من سنة 1885 كما أن فرويد لم يرجع إلى هذا المقال قط. وقد استعملت هذه النقاط الثلاثة للتركيز على ذلك الحذف، وعلى أن ينظر إليه كلا شعور، غير أمين[145] أو هو فعل منسي (هفوة) ناتج عن شعوره بالإثم، بكونه حقق رغبة غير شعورية لقتل فليشل، (واستشهد برنفلد بحلم «مختبر بروك» في تفسير الأحلام)، مما حول

بالفعل الانتباه مما قاله فرويد عن استعمال المحقنة. واختتم برنفلد مقالته بإثبات أن فرويد تخلى عن سائر أبحاثه الخاصة بالكوكايين ابتداء من سنة 1887، وإن ظل يذكر مقطعا من كتاب (تفسير الأحلام) في موضوع ممارسته للتخدير الأنفي بالكوكايين من سنة 1895، مسلما بأن فرويد كان قد تمسك في بعض الأوقات برغبة (شبكة محدودة) في هذه المسألة.[146]

وبالرغم من هذه المراوغات، فإن المقالة كانت قد أثارت هيجانا حقيقيا مع (آن فرويد).

من آن فرويد إلى جونز 19 سبتمبر 1952 : إني لم أحب تلك المقالة على الإطلاق، ما عدا الأحداث التي كانت ذات أهمية فائقة، لكن التأويلات التي امتزجت بالأحداث، كانت مهلهلة وخاطئة، وأحيانا مثيرة للسخرية. وأرجوك ألا تتركه ينشرها على هذه الصورة؛ وأنت تعرف، قبل كل شيء، كيف أن هذه الأمور تقع في الحقيقة؛ ويكون هذا هو دورك أن تسكت كاتبي سيرته الذاتية الآخرين أولئك الذين يبتدعون نصف الواقع.[147]

من جونز إلى ستراشي 22 سبتمبر 1952 : وكيف حصل لك أن عرفت ردود أفعال آن فرويد على قصة برنفلد مع الكوكايين؟ وبالبريد نفسه حصلت على رسالة من عندها تتطلب إلي أن أوقفه.[148]

وحتى يتحاشى جونز مثل هذه الانفجارات بالنظر إلى الفصل الذي أعده على الحادثة نفسها، فإنه مالبث أن انفصل عن برنفلد.

من جونز إلى آن فرويد 22 سبتمبر 1952 : وكلما عرفت الكثير عن التاريخ كلما سقط في عيني عمل برنفلد، والعبقرية الشيطانية هي بالتأكيد ذلك الطاعون (سوزان)؛ ولقد كتبت فصلا عن الكوكايين (ولم أنهه بعد). وأتمنى أن يروق لك أكثر مما كتبوا عنه.[149]

من جونز إلى آن فرويد 31 أكتوبر 1952 : وأتمنى أن يعجبك الفصل الخاص بالكوكايين، بأكثر مما فعلته سوزان في التمثيلية العاطفية الميلودرامية؛ ولم تقم إلا بالمجهود القبيح؛ وسيكون هذا قدرا كبيرا من التخمين حول اللغز الذي أحس الناس بسببه خطورة قصة الكوكايين، وإني متأكد بأن أفضل طريق لتبديدها هو أن نعطيها تفسيرا يجعلها معقولة.[150]

وفي الحقيقة، فإن فصل جونز لم يعمل إلا على إعادة انتحال مقالة برنفلد وفي غالب الأحيان، كان الانتحال نقلا حرفيا، مضيفا زيادة معلومات مقتطفة من (خطابات رسائل طلب الزواج)، ولقد أعطى جونز تفاصيل إضافية، ووصفا حيا عن فليشل، وعن علاجه عن طريق نزع المورفين منه؛ مما أدى إلى كارثة. وقد صرح بطريقة متهورة ببعض القضايا كان برنفلد قد تجنبها بحذر وكياسة؛ إذ قد زعم أن تخليص فليشل من المورفين لمدة قصيرة كان ناجحا،[151] وإن الكوكايين كان قد ساعده لبعض الوقت، لضبط بعض أعراضه[152]، فاستعمل عبارات غامضة ومعتمة قصد بها تفسير كيف أن فرويد كذب في زعمه، النجاح، مما عبر عنه في مقالات سنة 1884 و 1883. وهكذا، يكون جونز قد أكد على أن فرويد كان قد أثبت في مقالته المنشورة في أبريل 1883؛ بأن مريضه لم يتقدم في الإدمان على الكوكايين، بل أضاف على نحو كاذب : «بأن ذلك كان قبل أن يتألم فليشل من تسمم الكوكايين»[153]، وفي ما يخص أفكار فرويد لاستعمال المحقنة، لم يعمل جونز إلا على تكرار تبرئة برنفلد، اعتمادا على التحليل النفسي؛ من خلال لجوئه إلى «القمع اللاشعوري»[154]، وإلى حتمية السلوك اللاشعوري «إلا أنه حذف إحالات تشير إلى أمنية فرويد أن يموت فليشل».[155]

ولحظ جونز، كان هذا كافيا للتخفيف عن آن فرويد التي أعطاها فصله لكي توافق على نشره.

من جونز إلى برنفلد 22 دجنبر 1952 : نعم، لقد وافقت آن فرويد على جميع الفصول موافقة تجاوزت اندهاشي؛ إلا أن ما يستحق أن أقوله لك هو أنها تتمنى ألا تنشر شيئا عن الكوكايين، ولهذا فأنا لا أدري بماذا أنصح لك، ولقد طلبت إلى أن أثنيك على عزمك بألا تفعل.[156]

إلا أن برنفلد لم يفهم السبب الذي من أجله اعترضت آن فرويد على مقالته، لا على الفصل الخاص بجونز، وهو فصل، كما لاحظ يذهب إلى أبعد مما يظن.

من برنفلد إلى جونز 31 دجنبر 1952 : لا تحاول كثيرا أن تثنيني كثيرا عن نشر مقالي، ولقد كتبت إلى السيدة فرويد، وطلبت إليها تعليقا على الموضوع.[157]

وكانت هذه آخر رسالة كتبها برنفلد إلى جونز، وفي دجنبر سنة 1951، كان لا يزال على قيد الحياة مع التجلط التاجي، وتوفي في أبريل سنة 1953،

ولسخرية القدر، فإن جونز الذي كانت آن فرويد قد اعتبرته ضعيفا من أن ينجز المهمة، هو الذي بقي حيا بعد موت برنفلد، واستفاد من بحثه في كتابة سيرة فرويد الذاتية.[158]

السيرة الذاتية التي كتبها جونز:
الشكل النهائي للقصة

توضح الحادثة الطارئة لتعاون برنفلد وجونز، الطريقة التي كانت بها السيرة الذاتية الفرويدية مشروعا طائفيا للمطلعين على خبايا أمور فرويد، وكيف أن المعلومات التاريخية، التي قام عليها المشروع، كانت متمركزة، وقع ترشيحها ومراقبتها من جانب آن فرويد، فمن منزلها في هامبستيد من جانب آن فرويد (وهو الآن محل متحف فرويد)، كانت تقرر بكيفية سيادية، من يمكنه أن يصل إلى الوثائق، وأي الوثائق ينبغي أن تنشر أو تذكر، وأي الأحداث الخاصة بأبيها ينبغي أن يشار إليها، أو بالأولى يجب حذفها، وهكذا، استطاع جونز أن يقرأ المراسلات كاملة، والوثائق التي اقتصر فيها على أبحاث أخرى في جزء منها، أو في كلها لعقود مضت، وفي بعض الحالات تبقى الأمور كما هي: فالرسائل الكاملة لفليس، (المنشورة سنة 1985)، ورسائل بتروثل والحوليات السرية (أصبحت في متناول الباحثين منذ سنة 2000)، والمراسلات مع مينا برنيي، وكارل أبراهام وأوسكار يفستر، وساندو فرنزي، ويونغ، وماكس ايتنجوب، وأبراهام بريل وكذلك الصحف الخاصة بماري بونبارت، وكحال كريس مع رسائل فليس، كان جونز قد أخضع فصول سيرته الذاتية لآن فرويد حتى تصادق عليها، وتنتقدها. وغالبا ما تكون رقابتها متعلقة بنواح سخيفة، كما قد تكون أحيانا أخرى، ذات مغزى عميق في نقاط محددة: مثلا أخبر جونز بألا يشير إلى القبض المزمن أو الإمساك عند فرويد.[160] وهذه إحدى المرات القلائل التي خرج فيها جونز عن الطاعة. وقد منع من الإشارة إلى أن الأخت مارثا إيلي بيرني، ولدت أطفالا غير شرعيين (ابنه الشرعي الصِّحافي المشهور، إيلي برني، كان قد هدد بدعوى قضائية)[161] وقد طلبت آن فرويد في رسائل أخرى بأن ينقل، أو يغير من مقاطع تتعلق بأبراهام[162] وبفستر،[163] واشتكت من كون آن فرنزي أدى عمله على نحو رديء،[164] ومن جهة أخرى، فهي في الأساس، لم تحرص كل الحرص على الرقابة

كما كان جونز هو الذي قام بمعظم هذه الأمور. وإذا كان في هذه لمهمة أشد براعة من برنفلد، فقد كان كذلك يعرف كيف يستبق رغباتها، ويتجنب القضايا الشاغلة، أو على الأقل، يقدمها من زاوية نظر مقبولة.

من جونز إلى آن فرويد 28 دجنبر 1951 : لقد اعتاد أبوك أن يسميني الرجل الديبوماسي للجمعية الدولية للتحليل النفسي، ولكنني، حينما غصت في أفكاره من خلال هذا العمل، وجدت نفسي أمام شخص كامل النزاهة، وكارها لكل تراض وتوافق؛ مثلا في ما يخص عصابه، كنت أحمل بطبيعة الأمر، المسؤولية للضغط الأساس على إنجاز رائع تغلب به على العمل الفذ، وأعتقد أن تحليله لنفسه كان عملا بطوليا فرويدا؛ إلا أني لا أريد أن يقول النقد عني «بطبيعة الأمر لقد عمي جونز، وما أعماه إلا إعجابه الذي جعله يعطي صورة من جانب واحد ويحذف الجانب الآخر منها، وهكذا،...[165]

ولا شك أن السيرة الذاتية لجونز، كانت تشخيصا دراميا لحكاية فرويد، وكما رأينا في معالجة مقالة برنفلد حول الكوكايين، فلقد تبدى جونز خبيرا محكنا في فن استعمال الوثائق والتعليلات التي توصل إليها وحده، حتى يلبسها تفسيرات فرويد ويثبتها في حين ينزع عنها كل تناقض، وحينما اختصر كريس الرسائل الموجهة إلى فليس، كان قد اقتطع منها قصدا جوانب التندر والحكي فجعلها جافة، يابسة، كما ظهرت عليه الآن.[166] وخلافا لذلك، لم يتردد جونز أن يكون حاكيا مطرزا للنوادر والحكايات التي قصها فرويد، مضيفا إليها تفاصيل خلابة. وهذا النوع من إدخال التحسينات، لم يناقض قط الحكي التاريخي الذي اقترحه فرويد، والثلاثي المكون من آرنست كريس، وآن فرويد، وماري بونبارت، وفي الحقيقة، لقد ألبسوا هذا النوع من السرد جمالا، وأضفوا عليه الحيوية، ونتيجة لذلك، فإن آن فرويد التي أزعجتها النزعة الحسية للسير غير المرخصة، لم تتضايق بها.

وهذا المنهاج في التشخيص الدرامي، كان بوجه خاص واضحا في معالجة جونز التي خصها كما سماه (مرحلة فليس)، وحينما ارتبط بالأقسام غير المنشورة من التراسل، فإنه لم يتردد في أن يفشي سائر أنواع التفاصيل، والحيثيات التي تدور حول العصاب المشهور بما أشارت إليه آن فرويد، بأن يضرب عنه صفحا، أو على الأقل، أن يخفف ويقلل من شأنه؛ ذلك أنه قد كشف بأن فرويد عانى[167]

كثيرا منذ ما يقرب من عشر سنوات من «عصاب نفسي خطير» تميز «بالعلاقة العاطفية»[168] والتبعية لفليس، وبنوبات اكتئابية شديدة[169] والخوف من الموت والترحال والتغريب، ومن[170] الكف عن الذهاب إلى روما[171]، وكذلك من مشاكل متعلقة بالقلب؛ وهي مشاكل ذات أصل سيكولوجي جسماني[172] (وهكذا، كان جونز يكرر تشخيص كريس على نحو خصوصي) ويمكن أن يقال بأن فرويد كان يتألم كشهيد.

جونز : لقد كانت معاناته في ذلك الوقت شديدة. وبالنسبة إلى تلك السنوات العشر، لم تكن له الافترات قليلة، بدت له فيها الحياة تستحق أن تعاش، ولقد دفع ثمنا باهظا للمواهب التي تمتع بها في العالم، إلا أن هذا العالم ليس كريما في رد الجزاء.[173]

ولقد ذهب جونز بعيدا، في إشارته إلى أن فرويد كان يتناول الكوكايين الذي يصفه له صديقه فليس، حتى يعالج به الخمج الأنفي. وكان يقول مازحا : «إن الرجلين كانا يبديان مقدارا جامحا من الرغبة... في حال منخريهما معا»[174] إلا أن جونز كان يقلل بانتظام من حماسة فرويد للعلاج الأنفي ونظريات فليس. وتنتمي هذه الأفكار إلى حقل علم النفس الباثولوجي».[175] وكان فليس قد طور في الواقع «أفكارا إضطهادية» إزاء فرويد في وقت تشاجرهما[176]، وتأكيد فليس على العمليات الجسمية في الممارسة الجنسية «ينبغي أن يمثل عائقا لتقدم فرويد الشاق من الفسيولوجيا إلى «علم النفس»[177]، في حين، أن نقاشهما كان حوارا ثنائيا أكثر منه حديثا للذات مع نفسها[178]، وافتتان فرويد الغريب بتخيلات فليس الجامحة إنما يفسر : «بتوحد لا شعوره» مع أبيه عن طريق صديقه فليس».[179] وكل هذا كان قد تلاشى حينما تولى فرويد تحليل «عدائه العميق المقبور» نحو والده بعد موته، مكتشفا بسرعة تعاقب عقدة[180] أوديب عليه، ومعنى الأحلام، ودور الجنسية الطفلية التي كانت إلى ذلك الحين، قد اختفت بسبب النظرية العصابية للإغراء أو الغواية السرية. وهكذا، عندما كان فرويد يحلل نفسه، جاعلا من هذا التحليل مفتاح اكتشافاته السيكولوجية، فإن جونز طابق، عن قناعة، رواية الأحداث التي خططها فرويد وعززها كريس[181]، بينما أعطاها اتجاها من التحليل النفسي أكثر بيانا. ولقد وضع التاريخ في خدمة أسطورة (علمية) زينتها الزخرفة التوثيقية والوثائق.

جونز : وفي سنة 1897، باشر فرويد وحده ما يمكن أن يسمى بدون شك أكبر عمل بطولي في حياته، وكان عزمه وشجاعته ونزاهته قد جعلت منه أول كائن إنساني، لم يلق نظرة خاطفة فقط على عقله اللاشعوري الخاص- وأول رائد من الرواد الذين ذهبوا بعيدا في الأغوار- بل تغلغل في أعماق نفسه وسبر أغوارها. وهذه البطولة الخالدة خولته وضعا خاصا في التاريخ.[182]

ونحن نجد المنهاج نفسه في الفصل الذي أهداه إلى «مرحلة بروير» وكان كريس، في طبعته لرسائل فليس قد حذف على نحو منتظم سائر المقاطع التي كان فيها فرويد قد تعرض بالسوء إلى بروير، بالرغم من المساعدات المالية والمهنية التي كان قد قدمها خلال سنوات لصديق انفصل عنه، ومن ناحية أخرى، لم يتردد جونز في أن يشير إلى نكران الجميل، ومرارة تعاليق فرويد[183] على المحسن إليه وأحيانا كان يتعذر على جونز أن يفسر هذا الموقف. وأحسن ما فعل أنه أورد بحذر جميع المقاطع التي ألح فيها بروير على دور الجنس في الأمراض العصابية؛ وبذلك يناقض ما كتبه فرويد حول دفع التعاون معه، إلا أن جونز ذكر أيضا أوصافا أقل إطراء لبروير في رسائله إلى فرويد؛ مثل نعته بالضعيف العقل غير الحازم، ومن ذلك النوع التافه في ميله إلى النقد القاسي. وكل هذه نعوت حرمته من التصديق على النظريات الثورية[184] لزميله الشاب. وفوق كل ذلك كان التسريب الأخطر : هو ما شهر به جونز من قضية (آن،O) المتعلقة بميلاد الطفلة الهسترية التي انتشرت، كما رأينا في الكواليس الخاصة، للحط من قيمة بروير، وحصر اعتراضاته في العلة الجنسية للأمراض العصابية قطعا. وقد ذهب جونز إلى أبعد من ذلك، حتى أنه أعطى الاسم الحقيقي لمريضة بروير التي اكتشف سرها في رسائل بثروثل؛ وادعى أن رسالة من هذه[185] الرسائل تحتوي جوهريا على الحكاية نفسها التي حكاها له فرويد- وهذا كذب ظاهر[186]، وقد أضاف تحسينات إلى حد ما، مدعيا أن بروير، بعد الهرب من ميلاد الطفل الهستري (في عرق بارد) ورعب شديد، كان قد انتقل في اليوم التالي مع امرأته فينسيا، التي رزقا فيها ببنت (ولدت في ظروف غريبة)[187] كتب عليها أن تنتحر لسنتين في ما بعد عند وصولها إلى مدينة نيويورك (ولا يوجد شيء صحيح في هذه الحكاية المثيرة على الإطلاق).

وكالحال مع برنفلد، كأن جونز يرسل بانتظام مسودات من فصول سيرته إلى جيمس ستراشي، الذي كان يشتغل على مسودات مجلدات (الطبعة المعيارية). وكان هذا المشروع قد ابتدأ مباشرة بعد موت فرويد. ويمكن أن يعتبر ثالث أعمدة تاريخ التحليل النفسي الرسمي، بعد (أصول التحليل النفسي والسيرة الذاتية لجونز). وفي رد ستراشي على الفصول الثلاثة التي توصل بها، حتى يدرجها في المجلد الأول، أرسل جونز عشر صفحات مع شروح إضافية على عدة نقاط، كان أحدها خاصا بقصة (آنO)، وميلاد الطفل الهستيري.

من ستراشي إلى جونز 24 أكتوبر 1951؛ مغامرة بروير : لقد حكى لي فرويد القصة نفسها مع قدر كبير من الأمور المأساوية. وأتذكر جيدا قوله : وهكذا، أخذ قبعته وخرج من المنزل- إلا أنني كنت دائما متشككا. وحول ما إذا كانت هذه القصة رواها بروير لفرويد أو أن فرويد استنبطها : «تركيب لواقع» فقد تأكدت شكوكي في عبارة :إلا أنه في نهاية المرحلة الأخيرة من العلاج التنويمي بقي حجاب من الظلام لم يرفعه بروير قط... [إنه لربما أراد أن يحطمني، أو على الأقل أن يربكني بالإشارة إلى أول مريضه الخاص، وهي حالة لم تلعب فيها العوامل الجنسية أي دور على الإطلاق؛ إلا أنه لم يعد يتحدث عن ذلك قط. ولم أفهم لماذا فعل ذلك إلى أن توصلت إلى تفسير الحالة على وجهها، وأعدت تركيبها]. ويبدو أنه يمكنك أن تجد في صفحة 20 مزيدا من البينة عن هذا الموضوع. وهل صيغت ملاحظات فرويد المنشورة في هذه الصورة لأسباب التحفظ والحذر؟[188]

وقد وضع ستراشي، على نحو واع، أصبعه على الغرابة نفسها التي كنا صادفناها[189]، وإذا كان فرويد قد سمع الحكاية مباشرة من فم بروير، فلماذا احتاج «أن يركبها إذا؟» ومن الواضح أن ستراشي يتهم فرويد في كونه، قد قدم تحت زي واقعة تاريخية ما كان مجرد تفسير، أما جونز، وكان قد عرف جيدا أن هذه حالة- مادام كان قادرا على أن يستعمل رسالة مارتا كوسيلة للمقارنة- فلربما ظن أن تقريرها سيبقى موقوفا.

من جونز إلى ستراشي 27 أكتوبر 1951 : لقد أمدني فرويد بروايتين لحكاية بروير : رواية مسرحية حول اختطافه قبعته؛ ثم رواية صحيحة بكاملها

كان فيها بروير قد نوم (آن) تنويما مغناطيسيا؛ وهدأ روعها قبل أن يغادرها. ولقد تركت قبعته؛ ولكن عبارة (خرج من المنزل)، يشبه أن تكون مشروعة، لأنها تنقل روح الموقف.[190]

والإشاعة البذيئة التي أطلقها فرويد، أصبحت الآن رواية رسمية للجمهور وحتى ستراشي نفسه، في ملاحظة مرفقة بترجمته لحالة (آن O)، كان قد انحاز فيها إلى جونز. وهذا مثال للتآني أو التواقت الزمني بين السيرة الذاتية، والصيغة الأنموذجية.

ستراشي : ويوجد في هذا الموضع كما قال فرويد، ذات يوم إلى مترجم مشيرا بأصبعه إلى نسخة مفتوحة من الكتاب فجوة من النص؛ وما كان يفكر فيه ويعمل على وصفه، هو حادثة عارضة طبعت نهاية علاج (آنO). وقد روى هذه الحكاية أرنست جونز، في سيرته الذاتية لحياة فرويد، ويكفي هنا أن نقول : ما إن تكلل العلاج بالنجاح عل ما يبدو، حتى عرّض المريض فجأة حضور بروير إلى تحويل قوي إيجابي على نحو لم يحلل. وكان هذا بدون شك ذا طابع جنسي.[191]

وعلى المنوال نفسه، أخذ جونز يعالج أيضا موضوع (العزلة الرائعة) لفرويد، وضرب الحصار على عمله[192] من جانب زملائه، مع انتظام خفوت نسبة المراجعات السلبية لأعماله؛ بينما عوملت مراجعات عدة على نحو إيجابي، ذكرها جونز على أنها استثناءات مشجعة : «دراسات عن الهستريا» استقبلت استقبالا حسنا من لدن الهيأة أو الجمعية الطبية.[193] كذلك قد وقع الترحيب بكتاب: «تفسير الأحلام»، وبالأخص رحب به بورخارت، وهو أبلد مراجع شديد الازدراء[194] وقد كان قد أوقف مبيعاته فورا في فيينا. وأيضا : «ثلاث مقالات عن نظرية الجنس، ومع كل ذلك فإن رواية حالة دورا، كانت سببت لمؤلفها أن ينفي نفسه من مهنته».

جونز : لقد استقبل كتاب : (تفسير الأحلام) بالترحيب الغريب، وبالاحتقار والاستهزاء. لكن المقالات الثلاث أصابت الناس بصدمة فظيعة. وظهر أن فرويد ذو عقل شرير وشيطاني... وفي الوقت نفسه، ملأ فرويد كأسه بفساد أخلاقي في أعين أصحاب مهنة الطب عن طريق... حينما قرر نشر رواية حالة ترجع بوجه

عام إلى تحليل دورا. . .إلا ان زملاءه لا يغفرون له نشر مثل هذه التفاصيل الخاصة بمريضة من غير إذا،ها؛ وفوق ذلك، أن تنسب إلى فتاة شابة ميولات الانحرافات الجنسية المنفرة. . .[195]، وهذا النمط من إفراغ النزعة التطهيرية (البيورتانية) التي افترض فيها مواهة التحليل النفسي، وكأنه تمشي مع ترويج جونز لأسطورة جديدة، يشير إلى طهارة فرويد، وإذا صدقنا السيرة الذاتية لجونز، فقد نجد أن فرويد : «كان شخصا طاهرا على غير المعتاد» وفقط الطهارة المذكور موضوع هنا في محله،[196] لأنه كان أبا ورب أسرة بأخلاق فيكتورية : مفتون يحب امرأته[197] ومقتنع بامرأة واحدة على شكل غريب[198]، وقد كان صرح بأنه متنازل عن كل نشاط جنسي إلا على زوجته[199]، بينما حكمه شخصا على الحرية الجنسية، من خلال كتابته، لا يبدو[200] مبررا لذلك. وإلقاء نظرة على مراسلاته تكفي لإطراح هذه الأسطورة والتبرؤ منها.[201] وما يستحق أن يلاحظ، هو أن التراسل قد تم بإخراج مسرحي لأسطورة وضعية اخترعها وصنعها.

جونز : ولمفاجأته الكبيرة، وبالعكس عن ميله التطهيري الشخصي، وجد فرويد نفسه مضطرا اضطرارا كبيرا لقبول نتائج أبحاثه المرتبطة بأهمية العوامل الجنسية عند الأخذ بأسباب المرض. . . ولم يكن الاكتشاف مفاجئا. وبالرغم مما أشار إليه خصومه، فلم يكن هذا الاكتشاف مرتبطا بأي أفكار مسبقة. [202]

وعلى هذا، فإن ابتكار التحليل النفسي، كان نقيا وخاليا من النزعة الجنسية بالمعنى القوي لهذه الكلمة، وكما لاحظ برونو بتلهيم، إن اعتبرنا الكتابين الأولين لسيرة حياته، فإن جونز كان قد انتهى، عل نحو غريب ومخالف للعادة، إلى أن يحجب فرويد عن التحليل النفسي كله.

برونو بتلهيم : وكيف يستطيع شخص مثل جونز، الفاقد لصفة المحلل النفسي، أن يوضح على نحو ما، عن طريق ما يمكن أن يكون له من علاقات حميمية مع فرويد. فهو عندما كان يتحدث مع أخت زوجة فرويد، التي كانت واحدة من محيط أسرته لمدة اثنتين وأربعين سنة، يقول عنها فقط : «لم يكن هناك إغراء جنسي من ناحيتهما»، وقد يستغرب الإنسان حول ما إذا كان فرويد الذي قضى عمرا طويلا مع هذه المرأة الرشيدة على نضجها وصرامتها، قد سكن معها

في فنادق؛ إلا أنه لم يجد لديها أدنى ميل أو جاذبية جنسية؛ وكيف لا يندهش أكثر لهذه المرأة، في ألا تصبح ذات جاذبية جنسية بالنسبة إلى فرويد.[203]

وأيضا، فإن جونز، وهو الجندي الثقة لفرويد في حروبه الأولى، كان قد أحيا استراتيجية القذف بالمرض الباثولوجي، الذي عبأه فرويد ضد خصومه بتحديد قوته وصلابته، وعلى هذا، فكل شخص، تعس الحظ وتعرض لفرويد في نقطة أو أخرى، كان سوف ينعت بانتظام على أنه حالة مرضية، أو هو شخصية تشعر بالنقص. وهكذا، كان فليس مريضا بالهذاء البارانوي، ومينرت وصف بالعصاب الشديد[204]، واتهم بروير بأنه ضعيف الشخصية[205] والشكوى العصابية المزعجة وكان شتيكل يتألم من الحمق المعنوي، وطبيعة أخرى، كما يقول، لا أحب أن أشير إليها هنا[206]، واختص يونج «بالاختلاط الذهني»[207]، وكان موتون برانس «بالأولى أحمق» أما فرنزي، فكانت تنتابه رغبة شديدة غير عادية، لا تشبع من حبه لأبيه[208]، على أن أدلر كان شخصا مشاكسا،وفي خصام دائم حول تفوق أفكاره وأولويتها[209] وحصل رانك على وصف : «الميولات العصابية التي لا تخطئها العين[210] وتعرض أشافنبورع وفوجت، لتجلي زلات لسانهما[211]، وكان حظ حماس السيد مول أنه أخذ نصيب «التشهير المبرر»[212]، واعتبر جوزيف كوليتر ذا شهرة بميله الشديد إلى المزاح الفاضح، وكانت امرأته «بحالة هسترية قبيحة متشككة مع ماض مشبوه»[213]، وتعين لهوش الإعجاب الخفي والعداء المرير لفرويد[214]، وحتى دورا نفسها، كانت مخلوقة بغيضة تضع الانتقام قبل الحب.[215]

وعلى هذا، فنحن نرى أن سائر أنواع النوادر والشتائم تعبأ لازدراء الخصوم وتحقير حجمهم ومنع أصواتهم من أن تسمع . وهكذا، في محاضرة الطب العقلي أقيمت سنة 1910، صرخ ويلهم ويجانت، ضاربا بقبضة يده في قاعة المحكمة. وفي سنة 1908 و 1909 كانت المحاضرتان اللتان ألقاهما أبراهام تباعا قد أشارتا: «الهيجان المتميز بالغضب» من لدن أوبنهايم، «وثورانا محتدما قلقا» من لدن زيهن ضد الأفكار المهولة والرهيبة[216]، وقد كان «فريد لندر» قد هدد فرويد بكونه صاحب دعاوى[217]، وقد انتقد ريمان : «كتاب تفسير الأحلام» من غير أن يقرأه[218] كما أن كولينز قد احتج على الجمعية الأمريكية المختصة بالأعصاب، لأنها

سمحت لجيمس بوتنام أن يعرض حكايات فاضحة بورنوغرافية حول العذارى الطاهرات». [219]

جونز : لقد عاش فرويد فترة كان فيها الكره اللاهوتي قد حل محله الخزي والبغض الجنسي، وفي تلك الأيام وما تبعها، كان الناس ينظرون إلى فرويد وأتباعه، ليس فقط على أنهم منحرفون جنسيا، بل موسوسون ومرضى هذائيون بارانويون. وقد شعر الناس بتركيب هذه الأمراض على أنها خطر حقيقي على الأمة والجماعة بل أخطر على حضارة مهددة. وكما يحدث عادة في مثل هذه الظروف، فإن الرعب المثار يؤدي بذاته إلى فقدان ما يعتقده الخصوم المتحفظون أنهم يدفعون ثمنه. وجميع الطرائق الجيدة من التسامح، وحتى معنى آداب السلوك- فبالأحرى كل تفكير في النقاش الموضوعي أو البحث- كانت تلقى جانبا. [223]

لقد كان جونز تقد استقبل مساعدة ليلى فيزي-فاجنر- وهي محللة متدربة على يد بالينت [224]- التي كانت جمعت الآداب المعاصرة في فترة التحليل وصنفتها وفهرستها. وكان من الواضح، ليحكم من خلال [225] النظريات التجريدية التي هيأتها له، أنه أطرح على نحو منتظم كل التخمينات المتنوعة لنظرية فرويد (لكل من واردا) وكوب، وموبيوس وبنسونجر السالبة- مما جعلها منفصلة عن السياق: حتى أن سبيلمير وصف التحليل النفسي بأنه أشبه شيء بالاستنماء الذهني. [226] وقد ادعى هوش أنه منهاج رديئ ولد من الميول الصوفية [227] وصنفت وفهرست وكان ريجر يرى أن هذا التحليل النفسي هو عبارة عن «طب عقلي للعجائز البشعة». [228] وقد رد كل هذا إلى تبادل النعوت، والخلافات العلمية المتوترة التي حلت محل التحليل النفسي، وجعلته تافها، لدرجة أن غرق في انعدام المعنى الكامل.

ومن الواضح أن جونز سهل عليه أن يتقدم مع معظم الأنصار المدافعين في معارك فرويد؛ حتى وإن لم يعودوا هم أنفسهم قادرين على الدفاع عن أنفسهم. وفضلا عن ذلك كان، من الضروري أن نتحقق بأن جميع هؤلاء الناس يرقدون الآن في مقابرهم. وفي يناير من سنة 1955، لما كان الكتاب الثاني من السيرة الذاتية في طريقه إلى الطبع ، أرسل أحد المحامين إلى صحافة هوجارت مكفرلان؛ تقريبا ستين مقطعا من [229] المقاطع الموصوفة بالقذف، وهو يلح فيها على أنه ينبغي أن تسقط أو تعدل؛ لغاية حماية دار النشر ضد الدعاوى المستقبلية. ولما

كان القانون الإنجليزي الخاص بالطعن لا يحمي الميت، أمكن لجونز أن يحتفظ بالمقاطع كما هي، لو أنه نجح في إثبات أن الأشخاص المعنيين قد ماتوا. أما أدلر ورانك وفرنزي، فلم يبقوا على قيد الحياة. ولكن، ما الأمر مع أوبنهايم وزيهن وكولنز وفوت وغيرهم؟ ومن ثم، سأل جونز ليلي فيزي- فاجنر أن تبحث عن خصوم فرويد المذكورين أخيرا.

ليلى فيزي- فاجبر : وحينما كان جونز يكتب السيرة الذاتية، حرص حرصا شديدا على أن يراجع ويصحح ما إذا كانت تلك المخاوف (وكم عددها) لا تزال حية. ولقد عبرت عن شكوكي عن موت فرد واحد. وفي رسالة إلى مؤرخه في 13 دجنبر 1954، لم يكد جونز يخفي استبداده ،حينما كتب «إنه لا يعنيني متى مات، مادام أنه قد مات على وجه التأكيد؛ لأنني بالغت بالتشهير به وهتك سمعته.[230]

ولسرور جونز، كانت معظم الأطراف المشنعة أتاها أجلها ودفنت؛ والذين كانوا على قيد الحياة سمعوا إلى تعكير الوليمة، وإلقاء البلبلة. وقد اضطر جونز بأسى عظيم، أن يبدي ملاحظة عن جيزا روهيم، الذي كان قادرا على إعطاء تفسير لا يجارى[231]، وأيضا كان من الضروري أن نعدل بعض المقاطع حول هيلين بونر وكانت سيرة أدلر الذاتية، كذلك فيلس بوتوم. ثم هناك أخيرا يونج، الذي أجرى مناقشات طويلة مع بيتر كلفوك ورسي، أحد مديري صحافة هوجارت.

من بيتر كلفوكورسي إلى جونز 17 فبراير سنة 1955 : لقد وصلنا الآن إلى أدق موضوع وأعقده، وهو يتعلق بيونج : وبصريح العبارة، هناك نوعان من الادعاءات الخطيرة ضد يونج مما لا يمكن أن ترد : منها أنه كان متعصبا ضد السامية. وذلك أنه عندما اصطحب فرويد، لم يكن هناك اختلاف في الطرق فقط، وإنما كان هناك عنصر من عدم الإخلاص أيضا، أو سفالة في عمل يونج... ولقد اطلعت على هذا من عدة تساؤلات من جانبكم، وإذا أمكن أن نضع هذه الأخبار في المقدمة، فإني أعتقد أنه يمكن أن نترك الآخرين يفعلون ما شاءوا.[232]

وكثير من المقاطع التي نصح بها كلفوكورسي بأن ترفع، تختص «بالكره الاعتباطي القائم على التعصب» لدى يونج، «وموقفه العدواني نحو فرويد وأخيرا حول الاختلاف العقلي المفترض».

من كلفوكورسي إلى جونز 17 فبراير 1955 : إن العبارة : «يونغ هو رجل مهوس» لا ينبغي أن تجعله أقل تعرضا للتشويه والتشنيع أو لرفع دعوى.[233]

وبالرغم من ذلك، يبدو أن جونز كان غير مستعد للتضحية بهذه المقاطع التي كانت عزيزة عليه، ومن ثم، تشبث بها، مدافعا عنها بكل ما أوتي من قوة ولو وضعت عبارة «يونغ هو مختلط العقل» بدلا من عبارة (يونغ موسوس» فهل يكون هذا التبديل مقبولا؟ وكذلك لو وضع : «الكره الاعتباطي الوصفي»، بدل «التعصب» فهل يغير هذا من الأمر شيئا ! وأخيرا، لقد عرض جونز قبوله لتحمل المسؤولية المالية، في ما يخص نفقات رفع الدعاوى في المستقبل.

من جونز إلى كلفوكورسي 17 فبراير 1955 : إني مقتنع تمام الاقتناع مما أعرفه عن شخصية يونغ، ومهنته التي يمكن أن يكون هو آخر شخص، من يعرض نفسه إلى فضيحة دعوى سخيفة. وإني أشعر بأني ملزم أن أضمن دفع أغلى ما لدي في مثل هذا الاحتمال غير العادي، وغير المرغوب فيه.[234]

وفي نهاية الأمر قبلت صحافة هوجارت هذا العرض، أو الاقتراح الذي سمح لجونز أن يحتفظ ببعض المقاطع المختلف عليها. وكما تنبأ جونز، لم يقدم يونغ على أي متابعة قضائية. وهكذا، فإن المزاعم التي قبلت عنه دخلت إلى المجال العمومي بدون أي احتجاج.

من يونغ إلى جونز 19 دجنبر 1958 : وبطبيعة الأمر يسمح لك أن تقرأ نسخ الرسائل الموجودة في وثائق فرويد...وقد ينصح لك أن تستشير في بعض الوقائع .مثلا قد حصلت على قصة إصابة فرويد بالإغماء الكاذب. وأيضا فقد يكون هذا أول ما حصل له؛ وقد كان أصيب بمثل هذه الحالة قبل سنة 1909 قبل ذهابنا إلى أمريكا في «بريمن»، وتحت الظروف السيكولوجية نفسها تقريبا.[235]

هـ.أ. بنيت 15 سبتمبر 1959 : لقد تحدث يونغ عن أرنست جونز، وعن بعض هناته في سيرة فرويد... وحينما كتب جونز كتابه عن فرويد، لم يسأل قط عن أي شيء حول السنوات المبكرة، عندما كان فرويد ويونغ يشتغلان معا. ولما مات فرنزي وفرويد، كان يونغ هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يعطيه معلومات دقيقة، ويقدمها له، بكل سهولة. إلا أن جونز لم يفعل ذلك، ومن، ثم وقع في أخطاء كثيرة في كتابه.[236]

ولقد كان يونج لا يزال حيا، إلا أن هذا ليس هو حال كل من رانك وفرنزي اللذين يمكن أن يغتالا بعد موتهما. أما رانك وفرنزي اللذان ذكرهما جونز في آخر كتاب سيرته الذاتية، فقد كانا عضوين في اللجنة السرية المشهورة، التي أحدثت للدفاع عن التحليل النفسي ضد الانحرافات المذهبية (وكان فرنزي هو الذي جاء بالفكرة، وإن كان جونز صادق على تأسيسها).

جونز : إن الانخراط في كل ما يكشف التحليل النفسي، يعني ما يحصله الاستبصار ضمن الاشتغال على اللاشعور، والقدرة على أن يقوم الإنسان بذلك، يفترض دربة عالية من الثبات والاستقرار الذهني. وكانت أمنيتي حين تأسست اللجنة، أن الأعضاء الستة ينبغي أن يمنح كل واحد منهم بعض جهده لهذا الغرض، إلا أنه مع الأسف، قد اتضح أن أربعة منهم فقط، هم الذين أخلصوا لها. أما العضوان رانك وفرنزي، فإنهما لم يستطيعا أن يقاوما حتى النهاية؛ وكانت حالة رانك توصف على نحو مأساوي، أما فرنزي، فقد تطور تدريجيا في آخر حياته نحو ظاهر ذهانية ظهرت عليه هو نفسه، من بين أشياء أخرى، أبعدته عن فرويد وعن مذهبه، وفي نهاية الأمر، نبتت بذرة الذهان التي كانت مختفية فيه.[237]

لكن، على أي أساس اعتمد جونز هذا التشخيص؛ وهل غرق كل من رانك وفرنزي في الذهان؟ وهل اقترفا إثما؟ وهل سمعا تقولات؟ إنه لم يكن شيء من ذلك. فلقد توفي فرنزي سنة 1933 من فقر الدم، بينما كان يجرب تقنية جديدة في التحليل النفسي (التطهير الجديد)، أما رانك، فهو بعد أن انفصل عن فرويد فقد أصبح كاتبا كثير الإنتاج، بينما كان يطور أيضا شكلا من الطب العلاجي المختصر (العلاج الإرادي) وفي الحقيقة، فلقد جعل جونز من نفسه مرة أخرى متكلما بلسان فرويد، ذي التشخيصات الجدلية التي قدمها، غيرمبال كما لو كانت حقيقة مبرهنا عليها.

ويبدو أن رانك، الذي كان شديد النشاط، قد تعرض أيضا إلى نوبات القنوط. وكان هذا هو السبب في أن فرويد سنة 1920، وصفه لفرنزي لكونه أصيب (بنوبة دورية).[238] باعتباره شخصا محبطا ومصابا بالجنون الدوري. وقد كان هذا التشخيص مرئيا على نحو كامل؛ حتى أن فرويد، بعد سنوات عديدة، انتهز أثناء خصامه مع رانك، لينقض على الحجج الأخيرة في مسألة (صدمة

الميلاد). وبعد أن تخلى رانك مؤقتا في مدة قصيرة، عن بدعه، واعترف بخطاياه الأوديبية[239] كتب فرويد إلى فرنزي بأن زملاءه قد أظهروا (حالة طبية من أحوال الأمراض العقلية الخطيرة)[240]، وأعطاها تشخيص الذهان الاكتئابي، وبخاصة حينما انفصل رانك عنه نهائيا.

من فرويد إلى إيتنجتون 13 أبريل 1926 : والآن يحمله شيطانه طوال طريق هادئ إلى غاية يحاول أن يصل فيها بادئ الأمر إلى لوثة انفعالية باثولوجية- واعترف أنه قد خاب ظني، وفشلت في تنبؤي بحالته- نهاية محتومة.[241]

جوزيف وورتس يستشهد بفرويد : إنه يمكن أن أقول شيئا واحدا، لأنه معروف بوجه عام؛ فمنذ أن تركني رانك، كانت تنتابه دورات من حالات الاكتئاب، وفي ما بينها يمسه نوع فترات من الجنون وهي مراحل أعطى في بعضها عملا كبيرا وفي بعضها الآخر لم يكن يستطيع أن يعمل شيئا على الإطلاق.[242]

وهذا هو التشخيص الواقعي الذي راجعه جونز، وحوله إلى مفتاح السيرة الذاتية الكاملة لرانك. وإذا كانت شخصية هذا الأخير قد تغيرت بعد الحرب فينبغي أن يكون قد أصبح له رد فعل جنوني على الإصابات الثلاثة :

السوداوية (ميلانخوليا) التي عانى منها حينما كان في كراكوف[243]، وإذا كان كذلك قد أصبح ذا سلطوية، متحكمة في علاقاته مع جونز، فإنما حصل له ما حصل بسبب فترة الجنون الدوري الذي اشتد عليه تدريجيا.[244] وأسلوب الإطناب (في صدمة الميلاد) يتفق مع فترة الجنون الدوري الذي مرَّ منه كذلك[245]، رانك : وبالنسبة إلى فرويد، فلقد أخطأ في اعتقاده بأن إنكار رانك لأخطائه كان نهائيا لأن «مرحلته السوداوية كان قد حل محلها مرة أخرى مس آخر من الجنون بعد ستة أشهر فقط، مع التأرجح العادي في سنواته الأخيرة»[246]، وختم جونز فصله الطويل عن رانك بالتأكيد على «أننا لسنا معنيين هنا بسيرته العسيرة- وهو كان انتهازيا، باعتبار أن الفحص الدقيق لهذه السيرة قد توضح[247] توضيحا كبيرا بأن الاضطراب الذهني الذي حطم رانك، وحرمه من أن يحيا حياة إنتاجية خصبة[248] كان اضطرابا مفتعلا على نحو كامل.

ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن «ذهان» فرنزي، الذي يفترض أنه عانى منه في نهاية حياته. وهنا مرة أخرى، نجد أن فرويد هو الذي كان في أصل هذا التوهم الملفق. ذلك أن فرويد، لما أغضبته «طريقة التطهير الجديدة» عند فرنزي، جعل يوحي، في فصل الخريف من سنة 1932، بأن الحالة الصحية عنده تزداد سوءا. وأن هذا التردي صاحبه : «انهيار جسمي وعقلي»[249]. وفي أبريل من السنة التالية بينما كان فرنزي يصارع الموت، كتب فرويد إلى ماكس إيتنجتون بأن صديقهما يوجد في أوج الهيجان الهذياني الخطير.[250] وبعد موت فرنزي بخمسة أيام، كان فرويد قد دق آخر مسمار في نعشه : ذلك أن فقر الدم الخبيث الذي أودى بأحد أتباعه، كان «التعبير العضوي» عن الضلال أو المرض الهذياني للتعذيب.

من فرويد إلى جونز 29 مارس 1933 : يمكن أن نفهم الآن العملية البطيئة للسقوط الذي شعر بكونه وقع ضحية له؛ إذ في غضون السنتين الأخيرتين، عبر بنفسه عضويا في حال فقر الدم الخبيث، الذي ما لبث أن ساقه إلى اختلالات حركية عنيفة... وفي الوقت نفسه إلى فساد عقلي في صورة ذهانية بارانوايا تطورت إلى نوع من الثبات المنطقي غير المعهود. والتركيز على هذا كان الاقتناع بأني لا أحبه؛ ولا أريد أن أعترف بعمله، وأيضا فإني كنت قمت بتحليله على نحو رديء. ولربما كانت تجديداته الفنية والتقنية مرتبطة بهذا، وأعتقد أن كل ذلك كان في الحقيقة نكوصا إلى عقد الطفولة الأولى.[251]

ومن المعروف أن فرنزي، عند اقتراب أجله كان يشكو من فرويد، ومن بعض تلامذته، مثل إزيت دي فورست، وكلارا تومسون؛ وكان قد لاحظ سلوك فرويد العدواني إزاء صديقه المنفصل عنه. ويؤكد جونز في سيرته للقراء أنه لا يوجد شيء على الإطلاق في هذه التقولات الباطلة، مع أنه يضيف : «من المحتمل جدا أن فرنزي نفسه في حال هذيانه، كان يعتقد فيه، وفي إشاعة عناصره».[252]

جونز : إن الاختلالات الذهنية عند فرنزي، كانت عملياتها قد تسارعت في الشهور القليلة الأخيرة... ثم بعد ذلك، حدث له الاعتقاد الكاذب أو الضلال، في كراهية فرويد له افتراضا، ثم باغته الهذاء البارانوي في نهاية الأمر، ولربما هيجان قتل النفس؛ مما تبعه موت مباغت في مايه 24... ثم إن الشياطين التي

كانت تسكنه، والتي صارع ضدها لسنوات ببالغ الاكتئاب والحزن، وبكثير من النجاح أيضا كانت قد استولت عليه في نهاية الأمر. ونحن نقرأ عن تجربته المريرة، مرات ومرات، كم كانت قواها فيه مرعبة.[253]

على أن مايكل بلينت حينما، أغضبه وصف فرنزي في لحظاته الأخيرة، احتج بقوة على جونز، وكان منفذا لوصيته، ومتصرفا في ملكيته.

من مايكل بلينت إلى جونز 27 نوفمبر 1957 : إني أشكرك على أن ما ذكرته عن فرنزي كان في كثير من وجوهه خارجا عن الصدق ومضللا. ويصدق هذا كذلك على ما قلته عن حالته الصحية أثناء فترته الأخيرة. ولقد رأيت فرنزي طوال الشهور الأخيرة من حياته في كثير من المناسبات، مرة أو مرتين في الأسبوع ولم أجده قط يهذي، ولا كانت به البارانويا أو محاولة قتل النفس. وبالعكس مع أنه كان من الوجهة الجسمية غير قادر على المشي، بسبب عدم القدرة على تنسيق حركات جسمه مع إرادته، فقد كان من الوجهة الذهنية في معظم الوقت نشطا، وغالبا ما يتحدث معني عن التفاصيل المتعددة لاختلافه مع فرويد، وعن خطته لمراجعة أفكاره التي نشرها في مقالاته الأخيرة... وقد رأيته يوم السبت قبل موته؛ ومع أنه كان ضعيفا، فقد كان فكره صافيا وواضحا على نحو كامل.[254]

من بلينت إلى جونز 12 دجنبر 1957 : وكما أشرت إلى ذلك فإني تلقيت كثيرا من الرسائل من طائفة من الناس في العالم تلح علي أن أقوم بشئ ما ووصلتني أخير رسائل من «إلما»، وماجدا وربيبة فرنزي، وهاته السيدات هن اللواتي كما تعلم وارثاته الشرعيات لتراسل فرويد- فرنزي ويسألني أن أصحح أيضا ما قمت به أو أن أسحب رخصة استعمال مراسلته.[255]

وقد رد جونز في دفاعه عن نفسه أنه تلقى معلوماته من «شاهد عيان» لا يود أن يذكر إسمه، وبالرغم من كل هذا فلقد رفض بلينت هذا التفسير.

من بلينت إلى جونز 30 سنة 1957 : إن كثيرا من الناس من بينهم كلارا تومسون وأليس لويل وإزينبفورست وغيرهم كتبوا إلي منتقدين بشدة وإذا كنت تثبت الآن أن وصفك قائم أساسه على بينة من شاهد عيان، فإني أخشى أن يجئ هؤلاء كلهم بشهاداتهم، ولربما يتحدونك، ويطعنون في شاهد الصدق عندك وفي شهادته وبهذه المناسبة، وحتى أرضى تطلعك وفضولك، فإني أريد أن

أعرف من كان ذلك الشاهد العيان. وأعتقد أني عرفت على نحو عملي، جميع الناس الذين كانوا في اتصال مع فرنزي طوال أسابيعه الأخيرة، ولا أستطيع أن أتصور من كان بين هؤلاء متصلا بك، ووصف لك حالة فرنزي.[256]

ولما أفحم جونز، بعث برسالة غامضة ومتهربة، إلا أن رسالته تترك بعض الشك في هوية هذا «الشاهد العيان الغريب».

من جونز إلى بلينت 16 دجنبر 1957 : ولا شك أن فرويد نفسه كان يرى أن تغيير وجهات نظره في فرنزي، كتغييرها غير المفسرة في مجافاته، كان ناتجا عن تغييرات الذهنية الشخصية. وصحيح أنني قبلت هذا الرأي أيضا إلا أنه كان صادرا عني.[257]

وإذا كان اعتقاد فرويد على هذا النحو، فهو إذا، صحيح، وكما رأينا فإن السيرة الذاتية، هي تاريخ كما نراها من خلال عيون فرويد (الشاهد العيان للاشعور) : فمن ناحية أولى، هناك الأصدقاء والأتباع والمرضى، وقد أعمتهم شياطينهم، بالمعنى القوي لهذا اللفظ ومقاومتهم، ومن ناحية ثانية، فإن التحليل الذاتي الصادق، القادر على رؤية مالم يستطيعوا أن يروه هم أنفسهم. وهكذا، فإن جونز، على عدم تناظره وانحيازه الكامل في السيرة، قد وصف على نحو شبه سينمائي لاشعور خصومه، وتقلبات ولاءاتهم، كما لو كان واحدا منهم. وقد يصبح التاريخ بدوره تأويلا وتفسيرا، وتحت ستار مظهر الاعتبار التاريخي قدمت السيرة الذاتية لجونز مناسبة باشر فيها معركته القديمة على حساب قضية فرويد وسجل إصابات قاتلة على خصومه.

من إيرك فروم إلى إيزيت فورست 31 أكتوبر 1957 : إن هذا نمط ستاليني لإعادة كتابة التاريخ، فعلى حين أصحاب ستالين يغتالون خصومهم بأن يسموهم بالجواسيس والخونة، كان أصحاب فرويد ينادونهم بالحمقى والمجانين.[258]

من فرانك كنويفيلماشر : إن الأمر كله في هذا : إن الطهارة المعجزة (لتأسيس الشخصية) والشيطنة المقدرة ليهودا «يونج» والحيرة الفكرية للإنسانية سوف تخلص عن طريق رؤية متكهنة بالغيب والموت... والمركز الثابت (جونز) الذي يقاوم المنحرفين اليساريين (جلوفر)، والمنحرفين اليمينيين (هو رنى وفروم)، كما يقاوم المرتدين الصامتين، الذين قادهم انحرافهم إلى طريق الخداع

والغش، إلى أن انتهى بهم المطاف إلى وصف العدو (أدلر ويونج) إلى أنه لم يقتل أحد تقريبا في كل ذلك، إلا اغتيال الطبع فقط. ويبدو أن لعبة التحليل النفسي كانت نوعا من النزعة البولشفية، غير المتسيسة بدون أنياب.[259]

وإذا، توجد بعض الأمور، لا نعثر لها على أثر في السيرة الذاتية، المكونة من ثلاثة مجلدات ضخمة، وعبثا نبحث عن الحادثة الكارثية «لإيما إيكشتاين» في علاجها الأنفي، ولا توجد إشارة ولو عابرة، عن كونها كانت إحدى النساء التي ارتبط معها فرويد بعلاقة فكرية[260]، كما لا نجد أية إشارة إلى التحليل الشبقي الذي لا يصدق للثلاثي المكون من فرنزي وجيزلا بالوس وابنتها إيلما، مما كان فرويد قد لعب فيها دور طبيب الأسرة[261]، كما لا نعثر عن ذكر ما لتحليل فرويد لابنته (آن فرويد)[262]، ولا أثر لانتحار كل من فكتور توسك وهيربر يسلبرر، مما أسند فيه إشاعة تحليلهما إلى علاقتهما بفرويد.[263]

ولا شيء من اغتيال (هيرمن فون هوج- هيلمت) (واختصارا : هـ، هـ) الذي هو أحد الرواد من الأطفال في التحليل النفسي؛ ممن وقع تحليله على ابنت أخته المريضة، وأيضا فنحن لا نجد ما يسمى (مذكرة الفتاة الشابة التي كانت قد نشرت مذكرتها،والتي قدم لها فرويد بنوع من الحماس. وكانت في الحقيقة مذكرة مفتعلة على نحو كامل).

من ستراشي إلى جونز 3 مارس 1956 : وبالمناسبة، فهل يمكنك أن تعطيني أي شيء كان عن هالوشينج مادشين (والإشارة هنا إلى عنوان مذكرة)؟ إذ يبدو دائما من النظرة الأولى أنها كانت احتيالا. وكما أفترض، فلم يكن ذلك مثالا آخر عن خدعة من خدع فرويد الساقطة؟ (ورسالته إلى هوج هيلموت (هـ. هـ) التي استعملت كمقدمة للكتاب قد صحت وأدرجت في المجلد الرابع عشر من ما وراء علم النفس).[264]

من جونز إلى ستاشي 5 مارس 1956 : لقد كثر الحديث عن هالوشيج بعد الحرب، حينما قام رانك وستورفر بمجهودات يائسة للتحقق من صحتها[265] ولسوء الحظ، فإن (هـ.هـ) كان قد اغتيل، وحمل إلى القبر سره الذي كتبت حوله المذكرة، ولم يعثر له على أثر قط. وإحساسي هو أن المذكرة كانت قد ابتدأت على نحو صحيح؛ إلا أنها قد أدخلت عليها تحسينات، إما من لدن كاتب أو من

لدن (هـ.هـ) وإني أشكر ويليام شترن في ألمانيا، على كونه قد دل على أن (سيرل بيرت) وآخرين معه أشاروا إلى تناقضات متعلقة بالترتيب الزمني.[266]

ولنقارن هذه الإشارة المفردة من جانب يومية هوج هيلموت في السيرة الذاتية.

جونز : إن مضادة الضرار الألماني كانت بطبيعة الأمر جزءا فقط من معارضة التحليل النفسي.وكانت السنتان 1922-1929 صعبة علينا بوجه خاص في لندن. ولم يفلت السيرستانلي أوين إلا بمشقة الأنفس من ملاحقة الشرطة؛ لكونه نشر ترجمة لكتاب صادر (عن المجلة العالمية للتحليل النفسي)، وبخاصة مذكرة الفتاة الشابة التي كان لي الحظ في أني رفضت أن أدرجها في (سلسلة مكتبتنا).[267]

وقد ظهر الكتاب الأول من السيرة الذاتية في أول خريف سنة 1953. وقد اشتغل جونز بحماس، حتى يطمئن أنها ستصدر قبل الترجمة الإنجليزية لرسائل فليس.

من جونز إلى برنفلد فبراير سنة 1952 : سوف تظهر أصول الترجمة هذا الخريف[268] في لندن ونيويورك معا. وإني قلق أن أعاكس في هذا الوقت أي انطباع قد يحدث، وبخاصة وسط النقد، وإذا، فإني أسابق الزمان حتى أحصل على الكتاب الأول.[269]

وكانت النتيجة مباشرة، وقد فاقت كل تقدير وتوقع؛ إذ بيعت في مدينة نيويورك وحدها 15.000 نسخة في الأسبوعين الأولين[270]، وقد قوبل عمل جونز بالترحيب في كل مكان. وما لبث مجد سيموند فرويد أن ذاع وانتشر عبر العالم: من لندن إلى سدني، مارا عبر باريس وفرانكفورت، وهكذا، أخيرا تغلغلت الأسطورة الفرويدية عامة الناس.

جريدة ساندي تايم 20 سبتمبر 1953 : إن التغييرات في المفاهيم، والمقولات الأساس التي تؤول بها العالم ونفسر بها بعضنا لبعض في أطرنا الفكرية واللغوية هي تغييرات قليلة جدًا في التاريخ، وأقل منها أن نعزو هذا التغيير إلى إنسان واحد. وبالتأكيد، ليس إلى نيوتن الذي كانت ميكانيكته قد نضجت مع جاليلي وديكارت ولا إلى داروين أو ماركس، وإنما يتعلق الأمر بسيجموند فرويد،

المبتكر للتحليل النفسي والمبدع له وحده من دون شك. ويمكن أن يستعمل لفك «الابتكار» بدون أي توصيف عام في تاريخ الأفكار.

سكوتمان 8 أكتوبر 1953 : من الصعب أن يفكر الإنسان في أي اكتشاف علمي يمكن أن يحدث ثورة كاملة في الحقل الذي اشتغل فيه فرويد.

صحيفة مانشستر جارديان 8 أكتوبر 1963 : لقد رسم الدكتور أرنست جونز صورة لرجل يستحق التصفيق والترحيب بالإجماع العام، من بين أعظم عصر من العصور، رجل شع فكره المتوقد في الركن المظلم من تجربة الإنسان. وقد كانت النزاهة الشخصية العجيبة قد قادته إلى طريق الاستكشاف، الذي كانت فيه جرأته قد انكمشت. لقد اكتشف قارة جديدة للفكر، وأصبح هو واضعا لخريطتها الأولى.

عالم الكتب نوفمبر 1953 : وبالتأكيد، فقد أثر فرويد في ثقافتنا تأثيرا شديدا، أكثر من أي عقل آخر في زمننا هذا؛ إنه تأثير لا يمكن أن يقاس مداه ولا أن يقدر.

جريفن دجنبر 1953 : وبدون شك، فإن هذا هو ما أعطى لفرويد منزلة عظيمة بين عظماء المفكرين من بني البشر. وهو الذي كرر هذا المجد بعد لوكريس، ورايلي، وسويفت ونتشه. وكان هذا الفكر مشروطا، وقادرا على أن يشير إلى الشروط التي لا نعرف عنها شيئا، ولسبب وجيه أننا نعرفهم جيدا ونعرفهم تحت أقنعتهم. وإنها الحكاية نفسها بعد نشر المجلد الثاني.

جريدة نيويورك بوست 18 سبتمبر 1955 : إن سيجموند فرويد لم يوجد له نيوتن قبله، وإذا قيل عن النظرية النسبية إنها أعظم عمل مبهر أنجزته عقلية الإنسان، فمن الصعب أن نجد ألفاظا لنبلغ بها عن فرويد؛ لأن هذا الرجل لا توجد حوله شخصية مثل ماكس بلانك، ولا لا نرمست أونيل بوهير، ولا يقرب أحد من مستواه في الفهم، إلا ما كان من تلامذته الذين تعلموا على يديه.

بورتموث ديلي إكو 21 أكتوبر 1955 : ينبغي أن يكون سيجموند فرويد دعامة مساندة لكارل ماركس، وشارلز داروين كأحد ثلاثة أقطاب من أكثر المفكرين تأثيرا في عصرنا الحاضر.

ستندارد : يناير – فبراير سنة 1955 : في يومنا هذا، من المواضع المشتركة أن فرويد كان أحد العقول الخصبة في كل عصر من العصور. وكالحال مع

داروين ونظرية التطور : فليس أقل دلالة أنه كان على حق وصواب، أو على خطإ حول هذا التفصيل، وهذا التأكيد أو ذاك، من أنه أشار إلى الطريق. وأن الطريق التي أشار إليها، هي التي لا يكون [لأي طالب باحث في السلوك الإنساني قادرا على أن يجهلها].

السر الأعظم[271]

لقد كان برونو بتلهيم أحد الأفراد الذين اتخذوا موقفا نقديا، مشيرا إلى «جملة الأخطاء وكثرة الحذف» في السيرة الذاتية التي كتبها جونز، وتجدر الإشارة إلى بتلهيم، لأنه مهاجر من فيينا، ولم يكن من محيط فرويد الداخلي؛ ولذلك فهو يعتبر جونز، بأنه هو الآن رجل شيخ، ذو شخصية مشاركة ومتحيزة. قامت بتعتيم الموضوعية.

بيتلهيم : وبالرغم من النقائص والعيوب التي ينبغي أن تكون واضحة للقراء المطلعين والحصيفين، فلقد بالغ المراجعون في تقريظ هذه السيرة... ولا يصح أن تكون هذا السيرة النهائية لفرويد، إلا أنها سيرة رسمية نهائيا؛ باعتبارها تقدم صورة له قد قبلها أعضاء أسرته، كما قبلها التحليل النفسي الرسمي بصفة نهائية. وما أجمله تاريخا لرجل عظيم أن يكتب الآن التحليل النفسي الرسمي إن لم يطبع عليه فرويد بخاتمة؛ أعني طابع وثائق فرويد المقدرة بألفين وخمسمائة رسالة منذ خمسين سنة مضت.[272]

ويبدو أن بيتلهيم كان أول من وضع أصبعه على ما ينبغي أن يظهر مباشرة للنقد المتخصص؛ ذلك أن جونز، في سيرته قد اعتمد على المراسلات والوثائق التي لم تكن مطبوعة فقط، وإنما منع بل حرم منها الجمهور وجلة الباحثين الآخرين.

وفي الحقيقة، فإنه لا يوجد أحد يستطيع أن يتحقق من دقة الوقائع والأحداث التي ينقلها إلينا جونز، لأن الوثائق التي يستعملها مغلقة عليها الأبواب وموضوع عليها الأقفال، في ما يسمى : «أرشيفات سيجموند فرويد» الموجودة في مكتبة الكونكرس بواشنطون (د،س)، لمدة تمتد وراء خمسين سنة كما أشار إلى ذلك بتلهيم، وامتياز جونز على سائر المؤرخين، كان نتيجة لحدث قاهر : إذ كيف

يمكن أن تضع موضوع سؤال راويته للأحداث، متى كان هو وحده قد وصل إلى وثائق النزعة الفرويدية «والشكر كله يرجع إلى حسن تدبير الاحتفاظ الذي مارسته آن فرويد، ومدير وثائق فرويد والقيمون عليها» وعلى هذا، فإن «الكتاب المقدس» بالمعنى الحرفي لهذا التعبير، لا يمكن الشك فيه، ولا جحده لولا نقصه.

من آن فرويد إلى جونز 23 سبتمبر 1952 : إن مظهر كتابك هو الذي أسكت كاتبي السير الذاتية المتطاولين؛ باعتبار أن الاختلاف في المادة المتاحة أصبح جليا ظاهرا، ومن المؤكد أني سأعمل كل ما في وسعي حتى أثني عزم الآخرين، وأنا الآن أقوم بهذا في كل وقت وحين.[273]

من آن فرويد إلى جونز 25 نوفمبر 1952 : إني أتطلع إلى أن يكون كتابك قادرا على إيقاف سائر المحاولات المستحيلة في كتابة السير الذاتية لأبي. وهي سائرة الآن، وشائعة في كل مكان وعلى الأوراق.[274]

ويبدو أن فكرة سجل المحفوظات، الذي يحمل كل وثائق أسرة فرويد، كانت قد تشكلت في صورتها الأولى والنهائية في يونيه 1950، في ارتباطها الوثيق بالطبعة المختصرة لرسائل فليس، وبالاستعدادات لكتابة : «سيرة ذاتية حقيقية»، ولقد كان برنفلد الذي حصل على وثائق مسجلة في المحفوظات عن دراسات فرويد في فيينا، كتب إلى آن فرويد؛ مشيرا عليها بأن تجمع سائر السجلات والوثائق : «في مركز توثيق السير الذاتية».

من برنفلد إلى آن فرويد 24 يونيه 1950 : سأكون حريصا على أن أعرف ما إذا كنت تنوين أن تحدثي مركزا للتوثيق الخاص بالسيرة الذاتية، وبعبارة أخرى، ما إذا كنت تتمنين أن تضيفي إلى المجموعات الضخمة من الرسائل، ما تملكينه الآن إذا لمعلومات متداولة في أيد أخرى.[275]

وسرعان ما استوعبت الفكرة؛ إذ في شهر يناير من السنة نفسها، اتصل كورت إيسلر، ممثلا آسم آن فرويد، بشخصية لوثر إيفانز، صاحب مكتبة الكونجرس ليبحث حول إمكانية إيداع وثائق فرويد في المكتبة الأمريكية بالكونجرس، وبعد شهرين من ذلك، أخبر إيسلر آن فرويد، بأن مواد البنود لإيداع «وثائق وسجلات فرويد» التي وقعها كل من هينس هارتمان، وبيرترام لوين، وأرنيست كريس وهيرمان نونبرغ، وكذلك إيسلر نفسه، سجلت في ولاية نيويورك.

من إيسلر إلى آن فرويد 23 دجنبر 1950 : إني أريد أن أخبرك بتقدم مجهوداتك ومساعيك في إحداث وثائق سيجموند فرويد والمحافظة عليها بتسجيلها. ولقد وضعنا اللوائح المعدة لإيداعها في السجلات المحفوظة في ولاية نيويورك. وسيحظى مسعى اتصالنا بتوقيع مكتبة الكونجرس، التي سوف تسمح للأرشيفات بأن تودع جميع الوثائق المجمعة في أقبية المكتبة. ومجلس إدارة المديرين، سوف يكون له الحق أن يحدد من يمكنه أن يتصل، أو أن يطلع على الوثائق في أي تاريخ. ونتيجة لذلك، فإن أي إمكانية لعدم الإصانة سوف تكون مستبعدة...والشخص الذي ستعينه، يمكن إذا، أن يكون نائبا عنك. وسوف يكون صلة وصل بينك وبين تسجيل المحفوظات. وكلنا سوف نمتثل لرغباتك في ما يخص الوثائق المحفوظة.[276]

وفي الوقت نفسه، كتب إيسلر إلى برنفلد يسأله النصيحة لتأسيس مثل هذا المركز التوثيقي، وفي وقت إجابة برنفلد، وضع قائمة لمختلف المجاميع التي يعتقد أنها ينبغي أن تكون جزءا من التسجيلات المحفوظة.

1 - أعمال فرويد المنشورة في سائر اللغات (من كتب ومقالات، وطرف ونوادر، وآراء يكون عبر عنها للجمهور).

2 - مراسلاته ومخطوطاته، ومذكراته، وملاحظاته التي كتبها بخط يده وتعليقاته على النصوص وأوراقه الشخصية.

3 - الصور واللوحات، والأفلام، وشجرة نسب أسرة فرويد، وأسرة ناثانسان وبيرنيز، ولقاءاته مع الأشخاص الذين كانوا يعرفونه.

4 - أعمال أولئك الذين كانوا له (أساتذة وأصدقاء وأعضاء جمعيات) ممن أثروا فيه.

5 - مراجعات أعماله، وكذلك الكتب والمقالات والصور التي تناولها من الناحية السيكولوجية.

وأيضا، فقد وضع برنفلد تخطيطا لنمطين من العمليات، أطلق عليهما نمط (أ) ونمط (ب)؛ وتبعا للنمط (أ) يمكن أن تقتصر الوثائق المسجلة على أن تجمع،

هي والشهادات، لغاية أن ترسل مباشرة إلى مكتبة الكونجرس، التي يباح الاطلاع عليها لبعض الناس تحت بعض الشروط.[277]

وحسب النمط (ب)، ينبغي أن تكون الوثائق في مركز الأبحاث الحقيقي الذي يديره قيم بالكتب: حيث تكون الوثائق تحت بعض الشروط، يباح الاطلاع عليها لبعض الناس، باستثناء أولئك الذين منح لهم الختم، الذي يجب أن يوضع في مكتبه لكونجرس، وكما لاحظ برنفلد فإن نمط (أ) لا يكلف شيئا لأن النفقات الإدارية والتوثيقية ينبغي أن يفي بها دافعوا الضرائب من الأمريكان، إلى حين أن نمط (ب) يقتضي ميزانية أساسا، على أن برنفلد قد أوضح بأنه يفصل نمط (ب، ط)، مضيفا بأنه يريد أن يستخدم هو نفسه كقيم على الكتب، بالرغم من التضحية المادية التي قد قصد بها غرضا مخصوصا بالنسبة إليه. وإذا، في الملحق الذي كنا ألمعنا إليه كان برنفلد قد أشار إلى نوع البحث الذي يمكن أن يتكلف به مثل هذا القيم.

من برنفلد إلى إيسلر 4 يناير 1951: إن هناك عشرات من الأمور يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار؛ منها: هل ألتقى فرويد شخصيا بالسيد رتشارد أفنريوس؟[278] وما هي الجرائم التي ارتكبها عمه جوزيف، أخو جكوب فرويد؟ ومتى كان ذلك[279]؟ وما هو الحكم الذي حكم به عليه؟ ثم ماذا حدث بعد ذلك؟[280]

وقد أشار إيسلر في إجابته على أن القرار قد اتخذ لاختيار مركز نمط (أ). وأن الوثائق التي جمدها قسم تسجيل الوثائق، ينبغي أن ترسل مباشرة إلى مكتبة الكونجرس، بدون فحص ولا تفتيش، وقد خاب ظن برنفلد، لأن اقتراحه لم يقبل؛ ونبه إلى خطورة عدم معالجة الوثائق قبل إيداعها في مكتبة الكونجرس.

من برنفلد إلى إيسلر 19 يناير 1951: إن المخطط الذي وصفته في رسالتك المؤرخة بتاريخ 13 يناير يحوز تصديقي؛ لأنه يطابق أحد البدائل التي كنت أشرت عليها- وإني لا أحبذ فكرة تجمع الرسائل، وبعثها بدون معالجة إلى مكتبة الكونجرس. وإني أفهم ميزة هذا الإجراء؛ إلا أني أعتقد أنه ينبغي ألا يستعمل إلا كملجإ أخير أو لمحاولة أخيرة. ويكون من الأفضل ألا نجعل الأمور سهلة حتى تغلق عليها بالفعل وتقبرها في واشنطون. وإني أعرف فرويد معرفة جيدة

ككاتب وأديب حتى أنه يجب أن يفهم أن كثيرا من مراسلاته يتعين أن تبقى بعض ملاحظاته البليدة في طي الكتمان وفي حرز، في ما يخصها هي نفسها. ويخص بعض أصدقائه : لأنها بالغة الحساسية؛ وفي الوقت عينه قد نستغل في الحقيقة موضوعا للتخرصات المخزية والمخزية... وإذا قدر لهذه التسجيلات المحفوظة أن تكون مثمرة وممتعة، فمن المحتمل أن تعرض سائر الوثائق فيها إلى التزلف والتملق فيختم عليها، ويحتفظ بها لمدة محدودة. وفي رأيي، فإن هذه الفكرة الأخيرة تستحق التأمل، وبعد النظر من جانب إدارة المحفوظات والأرشيفات. ومن ثم، لا ينبغي الشروع في جمع الوثائق قبل اتخاذ قرار التدبير، الذي يقلل من شأن هذ الخطر.[280]

وإذا كان برنفلد منخرطا في عملية البحث التاريخي، فيبدو أنه لم يكن يفهم أن ما يراه هو خطرا، كانت آن فرويد تتصوره بالضبط على أنه الهدف والغرض من المحفوظات. وفي مثل هذا العمل، كان إيسلر- وهو رجل تحليل، شاب تدرب على يد أوجست إيخون- مجرد منفذ لرغبات الآنسة فرويد. وقد بعث إليها بنسخة من رسالة برنفلد الأولى : وكان ينتظر توجيهاتها.

من إيسلر إلى آن فرويد 13 يناير 1951 : إني أتمنى ألا أكون قد ارتكبت أي حماقة، بإدراجي نسخة من رسالة بعث بها إلي برنفلد، وقد أرسلتها إليك بدون أن أستشيره أو أطلب إذنه؛ ومن الواضح أن الإنسان، عندما يقرأ هذه الرسالة يتبين له أنه يريد أن يكون أمينا وقيما على الرسائل. وأعتقد أن هذا محال؛ لأن قسم المحفوظات يشتغل تبعا لمبدإ لا يتيح أي إمكان للنشر، ويعالج أي شيء شخصي بكامل التحفظ. وبطبيعة الحال، فإني أتصور أنه قد توجد بعض الرسائل لا تحمل طابعا شخصيا، وكان فرويد يتعامل معها بطريقة علمية. ومن دون شك فإن هذه المسألة ينبغي أن نعرف عنها إلى أي مدى يمكن أن يكون المالك للرسائل في المستقبل مستعدّا لأن تدرس هذه الرسائل من جانب كاتب السيرة الذاتية بشرط أن يكون في ما يخصني، أن أعرف ما إذا كنت تفضلين أن تحصلي على كاتب سيرة ذاتية معاصرة يؤرخ لفرويد، أم ما إذا كان التوثيق والأرشيف، يجب منذ البداية أن تتخذ التدابير، حتى لا تجعل الوثائق متاحة لأي أحد، حتى لأولئك الذين لا تشملهم مرجعيات شخصية.[281]

من آن فرويد إلى إيسلر 27 يناير 1951 : وبصراحة، لقد أفزعتني اقتراحات برنفلد؛ إذ هي بعيدة كل البعد كما أردته : «للمحفوظات، والأرشيفات» وأظن أنك تسلم بهذا. ولقد وجدت صعوبة في أن أتخيل ما هو مخالف لحياة والدي ولعاداته وتصوراته واتجاهاته أشد مخالفة من هذا النوع من الدراسة المفضلة لكتابة سيرته... وارتأيت أنه من الضروري أن نميز تمييزا واضحا بين «الأرشيف والمحفوظات» كمكان آمن، وبينه كتصور تجمع فيه المواد،حتى تكتب من خلالها السيرة الذاتية، أما الرسائل كما أفترض أنا، والأميرة بونبارت، إن كان لها أن تودع ، فينبغي أن تنقل إلى هناك لغاية ألا يستعملها في هذا الوقت أحد من كاتبي السيرة الذاتية.[282]

ولا يمكن أن يكون هناك وضوح أكثر من هذا، ولما أرسل إيسلر نسخة أخرى لرسالة ثانية، وردت إليه من برنفلد، فقد يجب أن يتأكد الإنسان من أن الأرشيف سيكون قبرا لفرويد.

من إيسلر إلى آن فرويد 4 فبراير 1951 : وكعادتي في ارتكاب الحماقات فإني مرسل إليك بنسخة أخرى من برنفلد، وإني متأكد أن معظم الرسائل ستعطي إلى أرشيف محفوظات فرويد شرطا فردا؛ وهو ألا يتمكن معاصر واحد أن يقرأها، وتستطعين أن تتأكدي من أنني لم أضمن أي طلب لبرنفلد...حتى يسهل عليه أن يصل إليها إذ ذكرت لك : أنه من ألا تجعل الأمور سهلة على المانح، للكتب بل تغلق عليها الأبواب بالإقفال وتقبر في واشنطون. وبطبيعة الأمر فإن الرسائل، الشخصية هي التي وحدها يمكن أن يقرأها المانح أو ترسل مختومة لممثل الأرشيف؛ الذي لا يكون له الحق في أن يفتح الرسالة بل يبعثها مختومة إلى مكتبة الكونجرس؛ من حيث تبقى مختومة كما أمر المانح أو القيم الإداري، وبعبارة صريحة، ينبغي أن ينص القيم الإداري على أطول مدة من المانح، حتى يمنع كل إمكانية لجعل الموقف معقدا في المستقبل.[283]

وحينئذ يكون قدر برنفلد مع حركة الجماعة الداخلية قد قضى، وفي 20 مارس، ذكر إيسلر، بنوع من الخجل للآنسة فرويد، بأنه آلتقى مع برنفلد في نيويورك، فعبر له عن دهشته من أن آن فرويد لم تعد ترد على رسائله، ولا تطلب معلومات منه، كما كانت قد أعطت كلمتها، ومن الواضح أن برنفلد قد

سقط[284] اعتباره، وأن خصمه جونز كان في طريقه إلى أن يتوصل إلى خزائن بنت فرويد.

وفي 16 فبراير، أعلن إيسلر إلى آن فرويد بتكوين الأرشيف، وطاقم مديريته الذي تقتضي من بين ما يقتضي من الأشخاص: برترام لوي، (رئيسا). وأرنست جونز، وهينزهارتمان، وويلي هوفر، والأميرة ماري بونبارت (ككاتبة للرئيس) وأرنست كريس، وهيرمان نونبيرغ، وسيحفرويد برنفلد (من الأعضاء). وكان الأعضاء الشرفيون هم ألبرت إينشتاين، وتوماس مان، وآن فرويد، ونصب إيسلر نفسه في مرتبة متواضعة (ككاتب محرر) وقد سرت آن فرويد بهذا الترتيب.

من آن فرويد إلى إيسلر 21 فبراير 1951: إن هذه القائمة العجيبة تشتمل على كثير من أصدقائنا القدامى، الذين يضمنون وحدهم بأن كل شيء سوف يكون على ما يرام بالنسبة إلى مخططاتنا في المستقبل.[285]

ولم يكن غرض أرشيف فرويد قط أن تصبح الوثائق الفرويدية في يوم ما متاحة للجمهور، كما ظن لوثر إفانز، والقيم على المكتبة، حينما عالج إيسلر الموضوع. وفي الحقيقة، قد انخدعت مكتبة الكونجرس ومعها الشعب الأمريكي. إذ ما كانت تبحث عنه آن فرويد والأسرة الفرويدية، هو بكل بساطة صندوق إيداع أمين، يمكن أن يقفل فيه على الأرشيفات؛ أعني أرشيفات أسرة فرويد، وتصان وتحفظ من فضول الأجانب الخارجين عنها، وإذا كان اختيارها قد وقع على مكتبة الكونجرس، فذلك لأن الحكومة الأمريكية وبيروقراطيتها الأسطورية، تمثل بهذا الاعتبار الضمانة القوية للصلاحية والأمن. ولا نحتاج إلى أن نشير بأن تكاليف التوثيق، وصيانة المواد كانت بكاملها على كاهل دافعي الضرائب الأمريكيين. وكما قال: برنفلد إن النمط (أ) الخاص بالأرشيف ينبغي ألا يكلف قرشا واحدا. وأكثر من ذلك، فإن الهبات إلى مكتبة الكونجرس كانت ضريبة تخصم وتتخذ كتجارة مفيدة. باعتبار أن «الخبير» المعين لتقدير قيمتها بالنسبة إلى خدمات المردود الداخلي الأمريكي لم يكن كورت إيسلر.[286]

بول روزين: لقد جعل إيسلر يدور ويشير على جميع الناس المعنيين بأن يدفعوا، أو يحصلوا على اقتطاع ضريبة متعلقة بما وهبوه لأرشيف فرويد. وهو مقدار كبير جدا، باعتبار أنه إمداد مقدس كتركيب مشبوه؛ لأن الهبات خصصت

لأرشيف فرويد؛ ومن ثم، فإن إيسلر، كقيم على الأرشيف، يعطيها إلى مكتبة الكونجرس ويبدو أن الأرشيف كانت قناة، ووضعت الوثائق في أيد آمنة بمكتبة الكونجرس، بنفقة من دافعي الضرائب. إلا أن المكتبة كان عليها أن ترجع إلى أرشيف فرويد قبل أن تتخلى عن أي شيء.[287]

(م، ب، ج) : وعليه، فإن هذا وضع يستعمل فيه أرشيف فرويد نقود دافعي الضرائب، حتى يتابع أهدافه الخاصة من غير أن يحاسبه أحد من الناس.

روزين : نعم، نحن نشكر هذا الترتيب؛ إذ يجري فيه كل شيء تحت تصرف إيسلر، وهو الآن تحت مراقبة أرشيف فرويد، مثلا يقوم إيسلر بالزيارات، ويجري اللقاءات مع أي أحد يرغب أن يراه، لكي يغلق فقط هذه الأشرطة في مكتبة الكونجرس. وفي الوقت نفسه، تكون له دائما استثناءات في هذه السياسة التدبيرية الخفية؛ مثلا يمكن أن يرسل بعض المواد إلى جونز- التي هي الطريقة التي أتمكن من قراءتها في ملفات جونز قبل أولئك الذين تقتصر عليهم بدورهم.[288]

وليس دافعوا الضرائب الأمريكين وحدهم هم الذين انتفع بهباتهم، بل انتفع كذلك بالمانحين أنفسهم، ومع أن بعض المانحين كانوا يتبرعون خفية، فإن كثيرين غيرهم كانوا بدون شك، يعتقدون أنهم كانوا يهبون المنح من أجل الأرشيف التوثيقي للجمهور بكامله، ولمكتبة الكونجرس، معتبرين أن مجموعة : «مكتبة فرويد» الذائعة الصيت، كانت تسمى في أول أمرها «محفوظات سيجموند فرويد»، وقد كان البند 2 من العقد الموقع في 5 يونيه 1951، بين أرشيف سيجموند فرويد المحدود، ومكتبة الكونجرس، ينص على أن هذه الأخيرة تتعهد بحماية هوية الهبات والمنح وصيانتها، لتطلق آسم «محفوظات فرويد» على سائر المنشورات والصناديق المحتوية على وثائق أخرى، ولتدبير هذه العطايا وإدارتها، تحت آسم «أرشيفات سيجموند فرويد».[289] وإذا، فإن من الصعب بالنسبة إلى المانحين أن يميزوا : «أرشيفات سيجموند فرويد» الخاصة بمكتبة الكونجرس، وبين «محفوظات أشيفات سيجموند فرويد المحدودة»، مما يعمهما معا؛ لأن الورقة الملصقة على واجهتها تنص على «محفوظات أرشيف : مكتبة الكونجرس»، وهذا الاسم الأخير: «تغير إلى حراسة وملكية مجموعة سيجموند فرويد : مكتبة الكونجرس».

وفي الحقيقة، كانت الهبات الممنوحة تعطى إلى أرشيفات فرويد المتحدة والمحدودة كمنظمة خاصة، فأصبحت حينئذ مالكتها الشرعية، وهكذا، أمكنها أن تفرض القيود على الوصول إليها، مما كان مقصودا من اللحظة الأولى التي أودعت في مكتبة الكونجرس (ويمكن أن يقرأ الإنسان على الفهرس : المانح : أرشيفات سيجموند أو المانح : كورت إيسلر...) وبهذا الاعتبار، يتحدث بيتر سويلز عن (المانح المحتال).[290] من قبل أن إيسلر كان يتعين عليه أن يحافظ قصدا على الغموض الذي كان يعنيه سويلز يكاد يكون حقيقيا. ويمكن أن نجد عدة أدلة عليه. وعالم الطب النفسي الإنجليزي (بينت)، الذي سأل عام 1972، ما إذا كان أرشيف فرويد قد اهتم بالرسالتين اللتين بعث بهما إليه : أجابه إيسلر بنوع من اللامبالاة، بأن الأمر يتعلق بمكتبة الكونجرس.

إيسلر : وبطبيعة الأمر، فنحن قد أخذنا جميع الوثائق - والأصل أو النسخة المصورة مودعة في مكتبة الكونجرس والأرشيفات ليست مستقلة؛ إذ كل شيء وضع في مكتبة الكونجرس الأمريكية.[291]

وإذا، بالنسبة إلى المانحين، فإن الأرشيف إنما تقوم مكتبة الكونجرس، وتمثله بالنسبة للشعب المريكي؛ لغاية أن ينتفع بالوثائق والشهادات كما قال برنفلد، ومن جهة أخرى، فإن هذا الأرشيف يعتبر بذاته تمثيلا للمانحين، والأمانة الطبية مما يلزم عنه فرض قيود على الإطلاع عليه وكذلك عدم الترتيب الاعتباطي للتواريخ، مما لم يطلبه في غالب الأحوال المانحون أنفسهم.

مارفين-كرانز : مراقب مجموعة الأرشيف الفرويدية في مكتبة الكونجرس: وفي بعض الحالات، نحن نعلم فيها المانح الأصل، الذي وضع قيود الوصول إلى الاطلاع . وكقاعدة عامة، فإن الوثائق أعطيت إلى إيسلر وهو الذي فرض القيود، ومن المحتمل أن يقول كشخص ما : نحن على وشك أن نصنف ونرتب هذه المدة، وقد تكون خمسا وعشرين أو خمسين سنة : هل أنت متفق؟ ويقول له ذلك الشخص الآخر : نعم... ونحن لا نعلم كيف يعمل ذلك بالضبط. لكن في رأيي، كان إيسلر هو الذي أشار إلى فرض القيود.[292]

ملاحظات إيسلر حول لقائه مع سيرجيون بانكجيف في فيينا من سنة 1952 : لقد كانت فكرته أن مذكراته يمكن أن تنشر، وكان بالأولى خاب ظنه بأن هذه المواد سوف تقرأ أولا على رأس مائتي سنة قادمة.[293]

من إيسلر إلى باستور أوسكار بفسترا 20 دجنبر 1951 : عندما يفتح تقريرك على رأس 150 سنة قادمة، فإني أعتقد أنه لم يعد هناك من يكون قادرا على أن يحدث أي تحفظ.[294]

مقابلة إيسلر مع كارل جوستاف يونج 29 غشت 1953 : أعتقد بان التطور التاريخي للسيكولوجيا العميقة سيكون له في الوقت نفسه، شأن عظيم وأن علاقتك بفرويد-إذ كنت تعرفه، في لحظة مهمة، وفي عصر مهم- ستهم المؤرخين، إذا كان سيوجد من المؤرخين على رأس 200 سنة قادمة.[295]

من إيسلر إلى بونبارت 1 أبريل 1960 : في مكتبة الكونجرس، إنك لا ترين إلا صفا من الصناديق التي تخص سيجموند فرويد، والصناديق مملوءة بأظرفة مختومة. ولما كان لنا اتفاق مع مكتبة الكونجرس، ينص على أن الأظرفة لا يمكن أن تفتح إلا بعد عدة سنوات فقط، فلا ينبغي أن يسمح بأن يكشف عن محتوياتها. وإذا كنت مصممة أن تزوري مكتبة الكونجرس، مفردة، ولا ترغبين أن تري أرشيف سيجموند فرويد، فإني أنصح لك بكل جدية ألا تقربيها، لأني كما قلت لك قبل هذا، إنه لا يوجد شيء يرغب الإنسان أن يراه إلا صف الصناديق.[296]

وبطبيعة الحال، فإن أرشيف فرويد هو في الحقيقة قبر أو قبو؛ حيث يمكن أن يكون كما قال برنفلد، نفاية النشاط الإشعاعي مقبورة. وإذا، كما رأينا في سلسلة س (ومن الوجهة الصورية ز) لمجموعة سيجموند فرويد، فإن العملية البطيئة لعدم الترتيب والتصنيف (وقد نقول عدم تلويث اليد) تبتدئ فقط في سنة 1995، مع المراسلة بين فرويد وماكس أيتنجتون، وسوف تستمر إلى الجزء الأكبر إلى غاية 2057؛ حينما تكون مقابلات إيسلر مع إيلسا فوجس، وهاري فرويد، وكذلك أوليفر فرويد وجوديث بيرنيز هيلر،[297] وكليرنسي أويرندروف وإدواردوفيس. والمقابلة الغربية(ب) قد أطلق سراحها. وفي سنة 1990، كانت رسالة واحدة مبعوثة من مراسل مجهول إلى فرويد، قد قيدت إلى غاية 2013 (لا سنة 2102، كما كان قد توقع فهرست 1985).[298] والآن، فإن معظم هذه

الموضوعات أو العناوين، تنص على تاريخ غير مقيد ولا محدد، وإنما وقعت فهرسته وقائمته على أنه مغلق فقط.

سولوي : وبالضبط، يمكن أن يفكر الإنسان في هذا السر المرتبط بالوثائق الخاصة بأرشيف فرويد، الموجود في مكتبة الكونجرس، وغرابة تواريخ تسريحها وإطلاقها. فبعض الوثائق مختومة إلى غاية 2013، وبعضها إلى 2032 وأخرى إلى أجل 2102. ويمكن أن يستغرب الإنسان كيف توصل هذا الشخص إلى وضع هذه التواريخ العجيبة. وإذا نظرت إلى ميلاد الأشخاص المعينين ووفياتهم، فقد تحاول أن تطبق هذه الدورات التاريخية لفليس من 23 إلى 28، حتى ترى على ماذا تدل عليه هذه الأعداد؛ لأنها لا تشير إلى 100 أو 180 سنة من موت أي شخص. وكذلك لا تشير إلى 150 أو 200 سنة من ميلاده، بل إنها أعداد من عالم الغيب فكر فيها البعض. وهذا نوع من الاعتباط، إلا أنه يتم كيف تشتغل الرقابة دائما.[299]

وفي بعض الأحيانووفياتهم قد تفرض القيود على الإطلاع. بالرغم من الإرادة التي عبر عنها المانحونووفياتهم وكما لاحظ بيتر سويلز، فإن مقابلة إيسلر مع حفيده فرويد صوفي فرويد، لم تكن متاحة إلا ببلوغ سنة 2017، مع أنها كانت هي نفسها قد صرحت في كثير من المناسبات لصالح فتح الأرشيفات كاملة، وعلى نحو مباشر وكذلك وبالمثل، فإن بول روزين يحكي كيف رفض إيسلر أن يسمح للمحللة النفسية الألمانية هيلن، حتى تلقي نظرة على هبتها الخاصة، حينما تمنت أن تكشفها لروزين.

روزين : لقد كتبت رسالة إلى أرشيفات فرويد، وقد تسلمتها هيلين، وطلبت فيها أن أصل إلى هذه المادة. أما الرسالة التي عادت إلي، فلم يوقعها إيسلر بنفسه بل وقعها إدوارد كرونولد، الذي كان من الناحية التقنية قيما على أرشيف فرويد في ذلك الوقت. وهو لم يرفض طلبي الآن، وقد قال بالضبط: إنهم أخروا أو أجلوا قرارهم للاجتماع القادم لطاقم الإدارة... وقد كان هذا مجرد هراء، وخلف في القول؛ لأننا بطبيعة الأمر قد اعتبرنا أن ما كنا نسأل عنه كان هو الوضوح والاستقامة.[300]

روزين : وأثناء بحثي الخاص عن فرويد وعن محيط أسرته، كنت قد آلتقيت بعدة مانحين، كانوا غير واعين تماما بأن هبتهم لم يكن قد أغلق دونها الباب فحسب وإنما لم يصادق عليها؛ بصراحة تكتم إيسلر الذي كان عازما على الاحتفاظ بفرويد لغاية حمايته من تطفل المؤرخين المستقلين.[301]

من إيسلر إلى بورش جاكوبسن 13 نوفمبر 1996 : كان الدكتور بانكجيف يريد أن يسجل محادثنا لأن تنشر حينما كان حيا ورفضت له ذلك.[302]

ومن الواضح أن أرشيف فرويد لم يلب آمال مانحيه ورغباتهم، والمتبرعين بأموالهم، خلافا لما فعلته مكتبة الكونجرس ولما اعتقده الجمهور في الحقيقة، فإن المانحين إنما مثلوا أنفسهم فقط مما كان في صالح أسرة فرويد وقضيته إذا جاز التعبير. ولم تتفق هذه المصالح قط مع مصلحة الجمهور، ومع مصلحة أميركا (كجمهورية)، إذ لم تكن الأرشيفات قط مفتوحة وعامة، بل كانت منتقية ومراقبة: الرقابة على الوصول إلى الوثائق، وغربلة المعلومات، ورصد التأويل والنقاش وفوق كل هذا وذاك، إيقاف الانتقال المادي غير المقيد إلى المجال العمومي. إنه لاشيء أبعد عن المثال الديمقراطي من (حرية الوصول المفتوح إلى المعرفة والمعلومات)[303]، مما كانت مكتبة الخاصة بالكونجرس تتبعه. وقد قضى كورت إيسلر عمره يجمع الأرشيفات والشهادات لا لغاية أن يشترك معه الآخرين ويكشف لهم عن محتوياتها، ولا أن يحتفظ بها للأجيال القادمة، بل لغاية فريدة وهي أن يتمكن من أن يعين من الذي له الحق في أن يصل إليها : وكل هذا كان لصالح مجتمع خاص مغلق : وهو مجتمع الفرويديين الحقيقيين.

وفي نهاية المطاف، كان هناك منهاج متسم بهذه الحماقة المسعورة : فإذا كان إيسلر يراقب كل شيء، فلم يكن ذلك لأنه يوجد شيء ينبغي أن يخفيه- وهو بعض الرسومات التخطيطية الهيكلية الموجودة في غرف مغلقة- وإنما كان ذلك من أجل أن الأرشيفات بالرغم من أن أجزاء منها كانت مفتوحة للجمهور لم يقصد بها الجمهور... ولربما كانت آن فرويد عبرت عن هذا بصريح العبارة فقالت: إن هذه الوثائق إنما تودع في مكتبة الكونجرس العامة : «حتى لا يستعملها كل من يريد أن يكتب السيرة الذاتية»؛ مما يعني أنها لا تعطي أي رخصة لكاتب

السيرة الذاتية، ممن لا يؤتمن على هذه السيرة، لأنه بالنسبة إلى مؤرخي الأسرة الفرويدية لا يوجد أي تساؤل لإخفاء أي شيء عنها. وفي الوقت الذي أقفلت فيه آن فرويد الباب على الأرشيف ومنعت برنفلد الدخول إليه؛ لأنه ادعى كل شيء متعلق به، سمح لجونز بالولوج إليه بكل حرية، وقد شفع له عمله كتابة السيرة الذاتية، وبالتأكيد، فقد لا يصح أن يصبح جونز هو المخالف الوحيد لرواية الأحداث التي كتبها فرويد؛ سواء في مروياته للحالات المرضية أو في عرض سيرته الذاتية التاريخي لميلاد التحليل النفسي والتعريف به. وبهذا المعنى فإن مراقبة الأرشيف ينبغي أن تفهم على ضوء ارتباط إنجاح منافسة الأسطورة الفرويدية وتزكيتها. وإذا كان من الضروري وضع طوق متين حول «الرجل الذئب» وختم شهادة أطفال «كاشيلي.م» وكذلك «إليزابيت فون ر» وضبط الرقابة على أسماء المرضى، فليس من الضروري إحكام هذه التحريات من أجل أن سائر الناس لهم أسرار يخشى إفشاؤها، بل لأن اعتباراتهم قد تعرض لأخطار منها أولا الاختلاف حول فرويد، ومنها ثانيا أن تجعل الناس حوله أقل ثقة، ومنها أخيرا فتح الجدال الذي لا ينتهي؛ لأن فرويد إذا تعرض للمقارنة والجدال، لم تعد تأويلاته المصطنعة قادرة على أن تعرض نفسها كحكاية واضحة لا يمكن الطعن فيها، ولا في الأحداث والاكتشفات والملاحظات.

ومن هذه الوجهة من النظر، فإن الرقابة على وثائق فرويد ليست بأي وجه من الوجوه، قائمة على الاعتباط، وتفسيرها عن طريق شفقة «آن فرويد» المبالغ فيها، أو محبة إيسلر المفرطة، هو تفسير بسيط؛ ذلك أن إيسلر إنما كان ينفذ أوامر آن فرويد. وقد استمرت هذه الأخيرة في إحكام التدبير على نزع الصفة التاريخية، وتفكيك النص القصصي الذي كان هو حياة أبيها. وهذا ظاهر مثلا حينما أحرق أبوها مراسلاته، وأتلف ملاحظاته التحليلية والأهم هو صيانة حكاية فرويد، والاحتفاظ بها من كل يد أجنبية، وتخليصها من كل طامع متطفل مشوش، من شأنه أن يجعل رسالته ضبابية غائمة. وكل هذا من أجل أن تحصن شهادة فرويد؛ أعني الحفاظ على نظرية التحليل النفسي، ووقايتها من الشكوك والتساؤلات؛ إذ بدون نزع هذه الصفة التاريخية المفرطة، لم يكن للتحليل النفسي أن ينجح في إثبات ذاته كعلم طبي مقدس، كما لم يكن لفرويد

أن يبقى البطل المفرد للاشعور. وإن وضع الرقابة على الأرشيف، مهما ظهر اعتباطيا في بادئ النظر، هو على الإطلاق أمر جوهر لنظام التحليل النفسي، والإبستمولوجية الأسطورية. حتى تستمر في الوجود. وليس مستغربا أن أتباع فرويد يعتبرون أن أعمال المؤرخين لمذهبهم هم من أشد الخصوم : إذ التحليل النفسي سريع الحساسية التاريخية.

عود على بدء
ما هو التحليل لنفسي؟

يقول أندري برتون : إن للزي الجديد أو الموضة في فصل الشتاء هذا هو بدعة التحليل النفسي.

ويقول مورتون برانس : لقد طفى ماء علم النفس الفرويدي كالطوفان وعم مده وجزره المجال كله : وظل سائرنا طافين مغمورين كالمحار والحلزون في الرمال في الماء الضحل.

ويقول السدير مكينتر : إني لا أعرف مثلا لنظام باعتقاد غير مبرر شاع وانتشر بنجاح مثل نظام النظرية الفرويدية والسؤال هو كيف حدث لها هذا؟

إن الرقابة على مراسلات فرويد، وحجز وثائقه ومذكراته في صناديق مقفلة في أرشيف فرويد، وتجميع السير الذاتية الفرويدية، وإعداد (الأعمال الكاملة السيكولوية لسيجموند فرويد في الطبعة الأنموذجية) كل هذا كان مشروعا منظما ومتفقا عليه. وكان يقصد به تمتين الأسطورة الفرويدية ونشرها، والأسطورة هي الآن موجودة في كل مكان، ولا يمكن الهجوم عليها، والنصوص المتاحة للباحثين وللجمهور قد وقعت غربلتها بعناية فائقة، كما أعيدت صياغتها حتى تعرض صورة فرويد، والتحليل النفسي الذي أراد أصحاب فرويد أن يرقوا به وأن يطوروه، على خير وجه ممكن. وعلى هذا فلا عجب أن حدث تمجيد التحليل النفسي في سنة 1950، ومن أمريكا وبريطانيا ظهرت مراكز جديدة لأسرة التحليل النفسي، ومنها انتشرت المجة الفرويدية في أصقاع العالم بأسره.

ولمدة نصف قرن، تشكل هذا البناء الاصطناعي، وكون أساس معرفتنا عن فرويد، وعن أصول التحليل النفسي، وإنه لملفت للنظر أن نرى كيف قبله الناس على نحو واسع، قبله أولئك الذين كانت لهم وجهة نظر نقدية وشكية

عن التحليل النفسي. وحتى عندما أعيدت قراءة فرويد، وروجعت التأويلات على نحو متزمت أورثودوكسي فقد كانت هذه القراءة والمراجعة قائمة دائما على الرواية المنتحلة والمصححة، والمنتقاة من الوجهة التاريخية كما أشاعتها آن فرويد، أرنست كريس، جونز وجيمس ستراشي، وكورت إيسلر. وقولة لاكان المشهورة (العودة إلى فرويد) كانت مجرد رجوع إلى رواية فرويد التي كانت قد وقع تقنينها. ويصدق هذا كذلك على سائر التيارات الحديثة، من النزعة التأويلية الهيرمينوطقية والبنيوية والسردية والتفكيكية والنسوية، وأخيرا إعادة الصياغات لما يعد حداثة التحليل النفسي. وبالرغم من أن هذه التيارات البالغة التعقيد، والرافضة للنزعة الوضعية عند فرويد؛ أعني فرويد الذي دخله التفسير والتأويل والتفكيك، والسرد والأسطورة، أقول بالرغم من كل هذه المذاهب، فلقد ظلت دائما الأسطورة الفرويدية نفسها قائمة على حلة جديدة من آخر طراز ثقافي.

وإنما اعتمد نجاح المهمة الدعائية على تخفيه وتواريه وراء الاختصار والبتر: ذلك أن ضروب التقطيع والبتر للرسائل لم يكن يشار إليها؛ وتحذف الحقائق غير الملائمة، وتخفى الهياكل العظمية في الغرف المغلقة، ويقع السكوت عن انتقادات، وتدلس أسماء المرضى، ويحجر على التذكر، وتعرض التأويلات المغرضة، وكأنها أحداث حقيقية، وتتخذ السخرية والأراجيف كحقائق. وإن جعل التحليل النفسي أسطورة أعطاه ضربا من البساطة، وصيره سهلا في متناول الجمهورنفس الواسع الانتشار. وفي الوقت نفسه، فإن العراقيل العجيبة التي واجهت المؤرخين جعلت تحدي البيع بالجملة خرافة مستحيلة.

وعلى هذا، فإن نتائج أحوال هذه الأمور ذهبت وراء حدود تاريخ التحليل النفسي، وكانت لها تأثيرات عميقة، على النحو الذي وقع به تصور مشروع علم النفس المعاصر ككل. وبالفعل لقد نزعت أسطورة التحليل النفسي أو علم النفس الطبي بوجه خاص، الشرعية بما كان التحليل النفسي يعتبره سوق الصحة الذهنية، وفي الوقت نفسه، قد أدى كل ذلك إلى إعادة كتابة تاريخ الأفكار في القرن العشرين، معطيا للتحليل النفسي سيادة وهيمنة لم تكن له قط. وإلى المدى الذي وضع فيه التحليل النفسي مكانته في المركز، وفي أصل التطور النقدي للسيكولوجيا العميقة، والطب العقلي الديناميكي، والطب النفسي، فقد صارت

له مكانة؛ أعني أن التحليل النفسي أصبح يشتمل على كل شيء- وفي الوقت عينه لا شيء. وهكذا صارت كل الألبسة تلائمه، لأنها كلها ولدت وترعرعت تحت آسم فرويد، وقد لاحظ جونز على نحو مبكر 1920، بأن جمهور الناس لا توجد لهم إلا أفكار غامضة كما هي حقيقة التحليل النفسي، يتميز به عن سائر المقاربات الأخرى.

من جونز إلى اللجنة السرية 26 أكتوبر سنة 1920 : إنه من خلال التقارير المتنوعة التي وصلتني من أمريكا، ومن قراءة آدابها، يحزنني أن أقول : إنه تكوَّن لي انطباع رديء عن الوضع هناك؛ إذ كل شيء محتمل يصح أن يطلق عليه (التحليل النفسي)، لا التحليل النفسي كما يراه أصحاب أدلر ويونج، بل أي نوع من أنواع السيكولوجيا الشعبية والحدسية. وأشك أنه يوجد رجال ستة في أمريكا، يمكنهم أن يقولوا لنا الفارق الجوهر بين فيينا وزوريخ على الأقل بكل وضوح.[1]

وبعد تسع عشرة سنة، لم يكد الوضع يتغير؛ ذلك أن نوعا من السيكولوجيا الشعبية أوالحدسية، كان هو ما يعتبر على وجه الدقة التحليل النفسي، سواء في محاضرات الجامعات والجرائد المتخصصة، والمجلات أو على الإذاعة والتلفزة. غير أن هذا الاختلاط، والطريقة التي استغل بها فرويد هذا الوضع ، أدى به إلى أن يرقى ويطور «التحليل النفسي»، الذي أسهم في ترويجه كبضاعة، ولما كان قد ظهر في كل مكان، فهو من أجل أن صار خاصا بالنزعة الفرويدية على وجه اعتباطي وتحرر كتحليل نفسي في مصطلحاته : من الهفوات والأحلام والأمراض العقلية والعصابية، والطب العلاجي، والذاكرة، والسيرة الذاتية والتاريخ واللغة والتربية والتعليم والعلاقات الزوجية والسياسية.

جون بورنهام : لقد أصبح فرويد في الولايات المتحدة فاعلا، لا في التحليل النفسي فقط؛ كأفكار متداولة في ذلك الوقت، بل فهم التحليل النفسي كنزعة بيئية، وكبحث في الجنس، وكنظرية لعلة نشأة سيكولوجيا العصاب. وكذلك وبالمثل، لما التفت الناس إلى تعليم فرويد، والمنخرطين فيه، فقد اعتقد أتباعه في معظم الأحيان، في عمله باعتباره مساهما في التطور، وفي الطب النفسي في العالم المعاصر.[2]

وإذا كان التعليم النفسي هو كل شيء ولا شيء في الوقت نفسه، فإذا، عمَّ نتحدث؟ والإجابة : نتحدث عن شيء غير معين. وهذا بالضبط لأنه كان دائما غامضا وعائما وغير متسق، ولهذا السبب، قد ذاع وانتشر، وأدمج ذاته (في مجالات بيئية إيكولوجية) متنوعة كما عبر عن ذلك (يان هاكينج) في معظم العروض الباهرة للمجالات البيئية.[3] وإذا كان غير محدد المعالم بوجه خاص، فإن التحليل النفسي أدى وظيفته بتعبير ستروس عن «الدال اللغوي الغائم» إنه أشبه شيء بآلة ميكانيكية في تعابير غامضة مثل اللفظين : (واتسيتwhatsit وكذلك ثينجومجيك thingumajig)، وهي ألفاظ يمكن أن تستخدم لأي شيء كنظرية فارغة يمكن أن نحشوها بما نشاء، وحتى نعطي مثالا واحداً، فإن إلحاح فرويد من جانب واحد على غلبة الناحية الجنسية، كان قد اعترض عليه اعتراضات شديدة من كل النواحي، ومع ذلك، فقد طور نظريته عن النرجسية، وعن تحليل الأنا، وكان أحيانا يستعير بعض المعاني عن منتقديه، ولا يشير إلى ذلك؛ وبخاصة من أدلر ويونج. وقد تبين أن الأعصبة الناتجة عن الصدمات في الحرب العالمية الأولى، قد أظهرت بأن الإنسان قد يعاني من أعراض هسترية بدون أسباب جنسية. وخلص فرويد إلى نظريات القهر التكراري، وغريزة الموت من الاستعداد اللاشعوري. وهذا التغييرات النظرية الجذرية غالبا ما تذكر تجميدا للنزعة الفرويدية الواعية لأن هذا يخلط الدقة السوفسطائية بالتقييدات المضرة، ولم توجد واقعة أمكنها أن تدحض نظريات فرويد كما اتخذها للرد على الاعتراضات الموجهة إليه، تبعا لمقتضيات اللحظة تحت ظل اللكمات المستمر لانتقاده.

لورانس (و،ه) 1923 : لقد فجر التحليل النفسي عدة مفاجآت، برزت على أكثر من وجه أمام أعيننا، وبالرغم منا، لم نكد نعتاد دجل طب الأمراض العقلية الذي برهن بحماس على خبث الجنس الملفوف حول أصل سائر أفعاله، كذلك لم نكد نبتدئ بالشعور عن صدق الصعوبة الموجودة في عقدنا الكامنة فينا، فإذا بنا ننظر نبلاء التحليل النفسي يظهرون مرة أخرى على المسرح بنظرية علم النفس الخالص، ثم إن القدرة الطبية، التي كانت آجرا ساخنا فوق ضروب تحديد الطب النفسي، تنفست الصعداء من الإغاثة كما لو أنها شاهدت أرضية ساخنة تحت أقدام علماء النفس المهنيين.[4]

فرانك شيوفي: كان فرويد في بعض الأوقات من سنة 1912، يشعر بأن أدلر يحاول أن ينزع سلاح النزعة النقدية (لاحتجاجه الذكوري)، بتقديمه كنتيجة لعقدة الإحصاء التي أثبتها فرويد في الظاهر. ولكن، كيف تعامل فرويد مع هذا الإحراج المربك؟ وكان الحل على هذا النحو: «لقد وجدت من المحال أن أبني نشأة الأعصبة على أساس ضيق مثل عقدة الإحصاء، وإني أعرف حالات من الأعصبة لم تلعب فيها عقدة الإخصاء أي دور نشوئي- مرضي، بل لم تظهر على الإطلاق».[5]

ثم إن أدلر لما رأى أن عقدة الإخصاء تأكد إثباتها، أخذها لصالح وضعه المركزي؛ وهكذا أصبح فرويد وكأنه فقد ذاكرته لكونه كان يعامل المرضى على اعتبار أن عقدة الإخصاء لم تقم بأي دور نشوئي- مرضي. وفي مقالة له من سنة 1928، أكد لفرانك بكثير من الاحترام تأثير عقدة الإخصاء؛ إن التحليل النفسي التجريبي قد وضع هذه الأمور بوجه خاص وراء أي تناول يتطرق له أدنى شك وهو يعلمنا أن نعترف بها كمفتاح للأعصبة كلها.[6]

وعبارة جونز التي أوردناها آنفا، توحي بأنه يعتقد أنه يوجد شيء متمايز عن التحليل النفسي، يمكننا أن نفصله عن عمل يونج وأدلر، وسائر أشكال السيكولوجية الشعبية، إلا أن ما يتمسك به التحليل النفسي من الناحية النظرية والمؤسسيَّة معاً- هو الأسطورة؛ فهذه هي التي كونت هويته الحقيقية، وفي الواقع كما رأينا، فإن التحليل النفسي قد مزقته في أول أمره، التفسيرات المتناقضة، حتى في تسميته فهو علم النفس التحليلي / التحليل السيكولوجي، وهو علم النفس التركيبي / التحليل النفسي الحر.

وأيضا هو علم النفس الفرويدي / ... وكان فرويد يحاول أن ينفصل عن هذه التسميات، ويضع حدّا يحصر التحليل النفسي، إلاأن هذا الموقف لم ينفك قائما؛ إذ لم يكن ممكنا بالأساس البرهنة على اللاشعور الفرويدي بوجه خاص، على وجه يقطع بإقناع الناس جميعهم، وحينما تمت القطيعة مع فليس وبروير وفوريل، وبلولر، وأدلر، وشتيكل ويونج، فقد كان هناك آخرون مع رانك وفرنزي. وضمن الحركة نفسها، فإن الاتجاهات المتباينة، وتعدد المدارس، تكاثرت بينما وجهات النظر التي انتصر لها المارقون في البداية، وانتقاد التحليل النفسي

كانت قد استردت نشاطها في هدوء، وعرضت كتطور للتحليل النفسي، وتقدم له[7]. وتحت هذه الشروط، كيف يمكن أن نستمر في الحديث عن التحليل النفسي كما لو كان مادة لمذهب متسق، منتظم حول سلسلة من القضايا المفصلة بوضوح، ومن المبادئ والمناهج؟ إن التحليل النفسي على نحو منفرد، لم يوجد قط.

وإذا، ما هو الشيء المشترك بين نظريات فرويد ونظريات فرانك وفرنزي ورايش، وكلين وهورني وفينكوت، وبيون، وبوولي وكوهرت وكيرنبرغ ولاكان ولابلانش وزيزيك وكرستيفا؟ وحتى علماء التحليل قد اعترفوا بأنه قد أصبح مظلة تغطي معظم وجهات النظر المتناقضة والمتباينة. وفي سنة 1988، كان روبرت فاليرنشتاين، وهو آنذاك يوجد رئيساً للجمعية الدولية للتحليل النفسي قد تساءل بقلق ما إذا كان هناك لا يزال تحليل نفسي واحد، بعدد انشعاب وتعدد تطوراته الفردية والفرويدية ؛ وفشله بالرغم من المبادرات الكثيرة لإحداث إجماع ضمن التحليل النفسي الأمريكي في سنة 1950.

روبرت فاليرشتاين : نحن في عالم نعيش فيه تزايد التحليل النفسي وتباينه وتخلف ضروب التحليل النفسي الكثيرة- بحدودها الفاصلة المستنتجة عن طرق مختلفة من وجهة التصور وبطبيعة الأمر، كل هذا يجعل من الصعب وجود حد مميز شامل واضح للتحليل النفسي، مفصول عن الطب النفسي.[8]

وإذا كان فاليرشتاين يعتبر أن نظريات ما وراء علم نفس التحليل النفسي هي في نهاية الأمر ليست إلا «علامة على الإيمان بالتحليل النفسي وعنوانا له» فهو يزعم بأن التحليل النفسي في المجال الفرويدي مستمر في تقديم نوع من الوحدة على مستوى النظرية الطبية، ومعطيا الاستشارة لمن طلبها في محلها. غير أن تعريفه للتحليل النفسي الطبي، هو من الاتساع والغموض؛ بحيث يمكن أن يصدق على أشكال أخرى من الطب النفسي الديناميكي.

وإبراز هذا التباين لا يعني تقييم وفرة الممارسات المختلفة أو انتقادها، والمفاهيم التي تجمعها إلى عنوان «التحليل النفسي»، ولا أن تحسم الشك في كون أن كثيراً من الناس يجدون شيئا في تلك الممارسات يسهل عليهم حياتهم (وهذا يصدق كذلك على الطب النفسي...)، وإن الاعتراف بعدم تجانس هذا المجال، يدل على أن كل شكل من أشكال التحليل النفسي، أو علم النفس الدينامي العلاجي

يحتاج إلى أن يتمايز على نحو ملائم، وأن يعطي له التقييم منفصلا، وكذلك وبالمثلأو انتقاد فإن انتقاد مزاعم الوضعية العلمية للتحليل النفسيأو انتقاد لا يمكن أن تنتزع عنه المصداقية (واتخاذ هذه الوجهة من النظر هو لمجرد الاشتراك في النزعة الوضعية نفسها من الجانب المعارض)، بل للدلالة على الأشكال المختلفة للتقييم- الفلسفية منها والأخلاقية والسياسية والجمالية- داخلة في اللعبة، إلا أن مثل هذا النمط من الفهم لا يدخل في تلخيصنا الحالي، ويتطلب دراسة تاريخية مقارنة لأوسع مجال لضروب علم النفس الطبي، والسيكولوجيا الدينامية.

وإذا، فإن اليقين الحقيقي، هو أن وحدة التحليل النفسي كان يمدها الولاء المؤسساتي للأسطورة الفرويدية، على معنى الإخلاص للمفهوم الذي كان معناه أن ابتكار فرويد للتحليل النفسي، قد شكل حدثا غير مسبوق أحدث به ثورة في الفهم الإنساني، وعلى ذلك، فإن التحليل النفسي احتفظ بذاته؛ إلى الحد الذي أبقت عليه الأسطورة، إذ بدون هذه الأسطورة، فإن هويته العلمية، واختلافه الجذري عن سائر أشكال الطب النفسي كانت سوف تتهاوى. وهذا بالضبط هو ما نشهد عليه في يومنا هذا ونشاهده : ذلك أن الأسطورة جعلت تفقد قيمتها وتماسكها، وتتنسل خيوطها من جميع جوانبها، وبالرغم من تباطؤ ضروب التكتيك والأساليب الملتوية، فإن المواد الأولية قد دخلت إلى المجال العمومي: فالمراسلات كانت قد أعيد طبعها بدون رقابة، والوثائق المجمعة أعيد النظر في تصنيفها (ولو بقطرات مجزأة)، وتوصل المؤرخون إلى معرفة أسماء كثيرة عن المرضى، والتحقق من التوثيق، وظهرت الذكريات على السطح، وقد جعل اللغز يعاد بناؤه شيئا فشيئا، مشكلا صوراً ولوحات مختلفة، زخرفتها ضروب الرقابة وكاتبوا السير الذاتية، وأصحاب الروايات، إلا أن هذا لا يعني أنه حصل إجماع بين المؤرخين، وإنما يعني فقط أنه تجب ملاحظة أن الآثار المجمعة لعملهم، سوف تفكك وحدة الصخرة الأسطورية، والمدافعون اليوم عن الأسطورة، يحتجون بقوة على ذلك، وفي الوقت نفسه، يفزعون إلى الأساليب القديمة، التي استخدمت كثيراً في الصراعات الفرويدية الأولى (منها اللجوء إلى اتهام الخصوم بالأمراض البارانوية، والباثولوجية في كل هجوم واقعي...) ولكن من غير إحراز نجاح ما. والقراء الذين يتناولون فرويد، ويقرأونه مجرد قراءة،

سوف يجدون ثروتهم التوثيقية، والدراسات النقدية التاريخية، مما لم يكن متاحا في سنوات 1970 و1980، مع تزايد عدد الدراسات التي تبرهن على أن خصوم فرويد المهنيين وأعداء زملائه السابقين، كانوا جميعا من المغفلين الذين طبعوا على التزيين والصباغة.

وإذا، فإنه توجد خطوة قريبة في البحث هي الانقضاض على فرويد وقتله كما يفعل البعض، أو استئناف حرب أخرى على فرويد. قد يكون من المحتمل فيه أن تضيف شيئا إلى الحروب الأخرى.

ولسخرية القدر، فإن كل هذا إنما سخر فقط لاستمرار حياة التحليل النفسي وهويته، في حي،ن كان يمكن للإنسان أن يقول : إن التحليل النفسي، بمعنى ما لم يعد يوجد، أو بالأولى لم يوجد قط،[9] ولقد انمحت الأسطورة الفرويدية أمام أعيننا، ومعها التحليل النفسي، لتفسح الطريق إلى أزياء ثقافية أخرى، وأنماط أخرى من تطبيب متفاعل، مستمر ومتحد، ومجدد لطقس قديم فيه لقاء الطبيب المريض- ويجب أن نسارع إلى دراسة (زعم التحليل النفسي كاسم علم) ما أمكننا ذلك[10]، وإلا، لم نعد قادرين على أن نميز سماته- ولسبب وجيه هو أنه لم يوجد أبداً.

هوامش فصل الرابع

1 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, washington, DC.

2 - It is notably true of Pankejeff, who presented two very different versions of his analysis in his Memoirs and in his interviews with Obholzer. One example shows that his memory wasn't always reliable : to Obholzer, he indicated that he had never corresponded with Jones, contrary to what the latter had written in his Freud biography (Obholzer 1982, 154-5, 167-9; Jones 1955, 273); however, there are two letters sent by Pankejeff to Jones in September 1953 and June 1954 in which he asks Jones to help him publish one of his articles in English (Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society).

3 - Wilkinson (1985), 27. On the editing of Freud's correspondences, see Falzeder (1997). On the editing of the Freud-Jung letters, see Shamdasani (1997).

4 - See above, pp. 33f.

5 - Cited by Jeffrey Masson in Freud (1985), 9.

6 - See his letter of 17 December 1928 to Ida Fliess in ibid., 5.

7 - Marie Bonaparte to Freud, 7 January 1937, ibid., 7.

8 - Anna Freud to Ernst Kris, 10 May 1946, cited in Young-Bruehl (1989), 283.

9 - Ernst Kris to Siegfried Bernfeld, 5 December 1946, Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

10 - Fliess (1897).

11 - Ibid., iii.

12 - Interview with Frank Sulloway, Cambridge, MA, 19 November 1994.

13 - 'I noticed that on certain dates, which clearly recur every 28 days, I have no sexual desire and am impotent- which otherwise is not yet the case, after all' (Freud 1985, 217).

14. 'My father always maintained thar he was born on the same day as Bismark - April 1, 1815. In view of the need to convert the date from the Jewish calendar, I never gave much credence to this assertion. So he died after what

is probably a typical long life, on October 23/24, 1896; B. on July 30, 1898. B. survived him by 645 days = 23 x 28 + 1. The" 1" is no doubt due to my father's errer. Therefore the life difference is 23 x 28. You undoubtedly know what that must mean' (Freud 1985, 322). The example is reproduced in Fliess (1906b), 154. For other confirmations provided by Freud, see Fliess (1906b), 51 and 60.

15 - The references to cocaine in the correspondence run from 30 May 1893 to 26 October 1896.

16 - Freud (1985), 106.

17 - Ibid., 320.

18 - Ibid., 448.

19 - Ibid., 461.

20 - See above, p. 323, note 313.

21 - Weininger (1903).

22 - See above, p. 321, note 188.

23 - Freud (1954), 8, n. 2.

24 - Ibid., 40, n. 1. The thesis of Fliess' paranoia appears to have been accepted by most of the members of the Freudian circle - see for example the letter of Suzanne Bernfeld to Ernest Jones of 18 November 1953: 'Of course I think that a correct description of this relationship [between Freud and Fliess] would have to include something which it might not be feasible to say at this time when the son and the niece of Fliess are still alive and active psychoanalysts. I think there can be no doubt that Fliess wound up in a real paranoid delusion' (Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Sociery).

25 - Freud (1954), 8, n. 1.

26 - Ibid., 40.

27 - Robert Fliess to Siegfried Bernfeld, 28 August 1944, apropos the 'strongly emotional character' of the relations between Freud and Fliess: 'I have heard a good deal about this from both of them - over a long stretch of years, of course, from my father, and in a long conversation with Freud in 1929, in which he spoke with a frankness apparently not too customary to him in personal matters' (Siegfried Bernfeld Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; cited by Masson in Freud 1985, 3).

28 - Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

29 - Ibid.

30 - Ibid.

31 - Ibid.

32 - Anna Freud to Ernst Kris, 29 October 1946, ibid.

33 - Ernst Kris to Anna Freud, 29 April 194 7, ibid.

34- James Strachey to Max Schur, 22 December 1966, Sigmund Freud Copyrights, Wivenhoe. Strachey was the only member of the Freudian circle who disapproved of Anna Freud's and Kris' cuts : 'I've just got hold of the Procter-Gregg translation [of the Fliess letters into English] in typescript. It contains a certain amount that was evidently cut out of the German edition subsequently. I confess that I'm shocked by some of the omissions' (James Strachey to Ernest Jones, 1 October 1951, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society; Strachey's emphasis); 'I was much interested by your account of the suppressed passages in the Fliess letters ... I do hope that if they come out in English the censorship may be lifted a bit. Unless Anna [Freud] proposes to burn the originals, they're bound to come out in the end; and surely it's better that they should while people are alive who can correct their effect' (James Strachey to Ernest Jones, 24 October 1951, ibid.). By contrast Jones was unperturbed by the cuts : 'I am more than half way through the cuts from the Anfänge, most of which, I think, were fully justified' (Ernest Jones to Anna Freud, 16 October 1951, Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC).

35 - Freud (1954), ix.

36 - Jones (1953), 288-9.

37 - On this edifying episode, revealed for the first time by Max Schur, see Schur (1966; 1972); Masson (1992).

38 - Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

39 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

40 - Freud (1954), 179. Kris simply omitted to signal that this passage was preceded in the original by two pages of calculations designed to align the 'psychological epochs' corresponding to the psychoneuroses with the sexual periods of 23 and days postulated by Fliess.

41 - Freud (1910a), 39.

42 - Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

43 - On all this, see Sulloway (1992a), ch. 6.

44 - Freud (1954), 192; (1985), 230.

45 - "Freud (1954), 240. Here, without being mentioned, a censored passage ends with 'enough of my smut' (1985), 289.

46 - On how Freud's conjectures and hypotheses preceded his clinicat observations, see 'Neurotica : Freud and the seduction theory', in Borch-Jacobsen (2009).

47 - See the passages cited above, chapter 2, p. 147.

48 - See the passages cited above, chapter 2, p. 148.

49 - Freud (1985), 213.

50 - Ibid., 218.

51 - Ibid., 220.

52 - Ibid., 223-4.

53 - Ibid., 230. In a letter to Strachey of 27 October 1951, Jones noted thar Freud arrived at Oedipus through accusing his father of incest: 'And it is odd that he believes his own father seduced only his brother and some younger sisters, thus accounting for their hysteria, at a time when he was suffering from it badly himself' (Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society).

54 - Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

55 - Ibid.

56 - See the letter to Fliess of 28 April 1897: 'Add to this, first, that you were unable to take any pleasure at all in the Middle Ages' (Freud 1985, 237).

57 - Freud (1954), 187-8; (1985), 225, for the censured passage. The 'blood' is an allusion to Emma Eckstein's haemorrhages following the disastrous nasal operations performed on her by Fliess.

58 - Freud (1985), 189; ibid., 227, for the censored passage.

59 - Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

60 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; cited in Young-Bruehl (1989), 296.

61 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

62 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

63 - Ibid.

64 - Freud and Ferenczi (1993), 221.

65 - See above, chapter 1, 'The politics of self-analysis'.

66 - Kris (1947), 4.

67 - Freud (1954), 30.

68 - Ibid., 33.

69 - Ibid., 34.

70 - See the letters of 12 December 1897 and 27 April 1898.

71 - This is why Kris and others in the Freudian circle were very irritated by an otherwise orthodox article of Buxbaum (1951), who had suggested that Fliess had played the role of an analyst to Freud. Suzanne Bemfeld immediately published a critique (Cassirer Bernfeld 1952). As for Jones, he confided to Anna Freud that his 'first thought on reading the Buxbaum article was one of

gratitude that the Puner woman [Helen Puner, the author of an unauthorised biography of Freud] had written her book before the Anfänge appeared' (Ernest Jones to Anna Freud, 15 December 1951, Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC).

72 - This is the title of the fourth and last part of Kris' introduction : 'Psychoanalysis as an independent science. (End of the relationship with Fliess).'

73 - On this question, see Borch-Jacobsen and Shamdasani (2008).

74 - Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

75 - Freud (1954), 32.

76 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

77 - Marie Bonaparte, cited by Ernst Kris in his letter to her of 6 November 1947, Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

78 - Anna Freud to Ernst Kris, 12 October 1947, cited by Kris in his response of 22 October 1947; Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

79 - Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC (cf. Freud 1954, 43).

80 - Thornton (1983).

81 - See for example the letter of 30 May 1893 (Freud 1985, 49). The cardiac symptoms appeared for the first time in the autumn of the same year and became alarming in the spring of 1894.

82 - Thornton has compared Freud's symptoms to those described by others who took cocaine nasally at the same time in a convincing manner (Thornton 1983, chs. 10 and 11, 192-5). Freud did not experience the same symptoms between 1884 and 1887, when he first started using cocaine, as he took it orally, which had less powerful pharmacological effects.

83 - One notes that Kris silently passed over Fliess' 'nasal diagnosis' which is referred to in Freud's letter of 12 June 1895: 'I am feeling I to lla [an allusion to Fliessian "periods"]. I need a lot of cocaine. Also, I have started smoking again, moderately, in the last two weeks, since the nasal conviction has become evident to me' (Freud 1985, 132) . In the expurgated edition, this passage simply became : 'I have started smoking again, because I still missed it' (Freud 1954, 121).

84 - Cited in Kris' letter to Marie Bonaparte of 6 November 1947, Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC. There is an undated text in English in the Kris Collection which seems to be a part of the section of his introduction dealing with the self-analysis in which Kris conscientiously cited all the passages in which Freud referred

to his own 'neurosis' and 'hysteria'. 'In 1894, when his relation to Breuer went through a crisis, he described cardiac symptoms, which he himself evaluated as psychogenic. While we do not know how far this diagnosis was justified, the "Interpretation of Dreams" and the letters familiarize us with other symptoms, with a fear of premature death and with a railway phobia, symptoms that disappeared after his self-analysis.'

85 - Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

86 - The reference is the letter of 19 April 1894, in Freud (1985), 67-9.

87 - Ernst Kris to Marie Bonaparte, 6 November 1947, Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC. Max Schur later changed his mind, returning to his diagnosis of coronary thrombosis (Schur 1972, ch. 2), whilst remaining silent on the pharmacological effects of cocaine.

88 - Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

89 - Schur (1966) and (1972). Immediately after the publication of his article, Schur tried to convince the Freud family to publish an unexpurgated edition of the letters and he seems to have had a favourable response from Anna Freud (Max Schur to James Strachey, 10 April 1967, Archives of the British Psycho-Analytical Society; Max Schur to Ernst Freud, 5 June 1968, Sigmund Freud Copyrights, Wivenhoe). However, the idea got nowhere.

90 - Freud (1985) for the English edition; Freud (1986) for the German edition.

91 - Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

92 - Ibid.

93 - See above, pp. 33f.

94 - Despite everything, this appeared in 1971 (Stone 1971).

95 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

96 - Ludwig (1946). Emil Ludwig, who was known for his novelistic biographies and whose works were burned by the Nazis along with those of Freud, had been critiqued by the later in his *New Introductory Lectures on Psychoanalysis*, because he had the misfortune of interpreting the personality of Emperor William II with Adler's theories (Freud 1933, 66). Ludwig conceived of his book on Freud as a response to Freud's critique.

97 - Puner (1947).

98 - Anna Freud to Ernest Jones, 2 June 1954, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

99 - Anna Freud to Ernest Jones, 23 March 1953, ibid. Oliver Freud, Anna Freud's brother, thought that Puner's book wasn't that bad and that the errors which it contained were attributable to the fact that she cited accounts by Jung, Srekel and Wittels (Oliver Freud to Ernest Jones, 4 December 1952, *ibid.*).

100 - Anna Freud to Ernest Jones, 25 November 1952, ibid. See Erikson (1954).

101 - Adams (1954).

102 - Anna Freud to Ernest Jones, 15 January 1954, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

103 - See Eissler's response to Anna Freud's question as to how to respond to Wortis' publication (1954) : 'I think Wortis perpetrated almost a crime, and since at least one letter by Prof. Freud was published in facsimile, The Sigmund Freud Copyrights, Ltd. may have a legal angle ... it is my feeling that the President of the New York Society, or of the American [Psychoanalytic Association], or of the International [Psychoanalytic Association] should do something... I think it is the duty of the psychoanalytic organizations to take a very strong stand ... P.S. Of course, people who understand such matters should decide here, in the United States, whether such a stand against the book may not give it additional publicity, and thus increase the harm' (Kurt Eissler to Anna Freud, 7 February 1955, Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC).

104 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; cited in Young-Bruehl (1989), 296.

105 - Jones (1953). xi.

106 - Ernest Jones to Anna Freud, 10 October 1946, Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

107 - See Young-Bruehl (1989), 169ff. Jones had accused Anna Freud of having been badly analysed, which led to a rebuff from her analyst, Freud. On 23 September 1927, Freud wrote to Eitingon: 'I got personal and told him that Anna certainly was analyzed for a longer time and more profoundly than he' (cited in Young Bruehl 1989, 171).

108 - On the small group in the 1920s formed by Anna Freud, Siegfried Bernfeld, Willi Hoffer and August Aichhorn, see Young-Bruehl (1989), 99-102.

109 - These researches initially appeared in journals in English, and have been collected together in German by Ilse Grubrich-Simitis in Bernfeld and Cassirer Bernfeld (1981).

110 - Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

111 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

112 - The Bernfeld Collection in the Library of Congress contains the sketch of a preface, as well as a plan of fourteen chapters which cover the same period as the first volume of Jones' biography: 'Introduction; 1. Freiberg; 2. Before the Gymnasium; 3. Gymnasium; 4. Three chaotic years; 5. Brücke's Institute; 6. The turn; 7. The General Hospital; 8. Cocaine I; 9. Paris; 10. The first year of practice; 11. Cocaine II; 12. Hypnotism; 13. Free association; 14. (Back to Freiberg)'.

113 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

114 - Ibid.

115 - Anna Freud to Ernst Kris, 16 May 1947, Anna Freud Collection, Manuscript Division , Library of Congress, Washington, DC.

116 - Ernst Kris to Anna Freud, 22 May 1947, Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

117 - Anna Freud to Leon Shimkin, 23 June 1947, Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

118 - Ernest Jones to Anna Freud, 3 September 1947, Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

119 - Ernest Jones to Siegfried Bernfeld, 23 March 1950, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

120 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

121 - Jones (1953), xiv.

122 - Interviews with Peter Swales, London, 20 August 1993, to New York, 27 January 1995. This point is also made by Ilse Grubrich-Simitis, who notes that the first volume of Jones' biography is largely a rewriting of Bernfeld's articles. She noted passages which Jones copied without attribution, and Bernfeld's two letters of 1952 expressing his irritation in this regard (see Bernfeld and Cassirer Bernfeld 1981, 43-6) . See Trosman and Wolf (1973).

123 - Bernfeld had established the autobiographical nature of this article in Bernfeld (1946).

124 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

125 - Ernest Jones to Siegfried Bernfeld, 15 April 1952, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

126 -Anna Freud to Ernst Kris, 3 January 1947, Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

127 - Anna Freud to Ernst Kris, 12 October 1949, ibid.

128 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC. .

129 - Anna Freud to Kurt Eissler, 27 January 1951, Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

130 - Kurt Eissler to Anna Freud, 28 March 1951, ibid.

131 - Freud (1885b), 51.

132 - Erlenmayer (1886), 483.

133 - Freud (1900), 111 and 15: 'The misuse abuse of that drug [cocaine] had hastened the death of a dear friend of mine ... These injections reminded me once more of my unfortunate friend who had poisoned himself with cocaine. I had advised him to use the drug internally [i.e., orally] only, while morphia was being withdrawn; but he had at once given himself cocaine injections.'

134 - Freud (1925a), 62-3. After Jones had qualified this account as 'somewhat disingenuous' in the first volume of his Freud biography (Jones 1953, 79), Albert Hirst, a nephew of Emma Eckstein, wrote to Anna Freud to report that during his analysis with Freud berween 1909 and 1910, the latter had affirmed that he had clearly anticipated Koller's discovery and poinred to a passage at the end of his 1884 article where he 'announced' it (Albert Hirst to Anna Freud, 19 October 1953. Archives of the British Psycho-Analytical Society).

135 - In two letters to Jones of 14 May and 18 October 1952, Bernfeld traced the relation between Fleischl's cocaine addiction and his death in 1891 (Jones Papers, Archives of the B'ritish Psycho-Analytical Society).

136 - Ernest Jones to Siegfried Bernfeld, 28 April 1952, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

137 - Ibid.

138 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

139 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

140 - For further details on the content of these letters, see Israëls (1999) and Borch-Jacobsen (2000).

141 - Sigmund Freud to Martha Bemays, 23 May 1884; cited in Israëls (1999), 97-8.

142 - Sigmund Freud to Martha Bernays, 12 July 1884; cited in Israëls (1999), 100.

143 - Bernfeld (1975 [1953]) ·

144 - Ibid., 342.

145 - Ibid., 348; our emphasis.

146 - Ibid., 352. Bernfeld did not ignore Freud's enthusiasm for Fliess' nasal therapy. See Bernfeld to Jones, 14 May 1952, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

147 - James Strachey to Ernest Jones, 23 September 1952, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

148 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

149 - Ibid.

150 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

151 - Ibid.

152 - Jones (1953), 90.

153 - Ibid., 91.

154 - Ibid., 93.

155 - Ibid., 96.

156 - Ibid., 95 .

157 - Siegfried Bernfeld Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

158 - Ibid.

159 - In a letter to Kurt Eissler of 11 May 1953, Anna Freud was concerned about the control of Bernfeld's papers, which were now in his wife's keeping : 'I don' know how far her judgment can be trusted and how we can prevent her from putting the material to a wrong use, if she should want to do so ... Does Suse Bernfeld really have the right, for example, to publish my father's correspondence with Wagner-Jauregg?' On 18 May Eissler replied: 'I obtained the impression that Mrs. Bernfeld is in a particularly labile condition and any counter-measure against her publication of that paper [on Freud and Wagner-Jauregg] may precipitate a serious reaction ... I have the feeling that Otto Maenchen would be a very good person to discuss the matter with her and possibly could do it without mentioning at all that this was requested from him by London' (Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC). Anna Freud's fears were baseless, as Suzanne Bernfeld continued to respond to Jones' requests for information.

160 - Anna Freud to Ernest Jones, 18 March 1954, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

161 - Anna Freud to Ernest Jones, 5 and 25 November 1952, ibid.; Ernest Jones to Anna Freud, 10 and 18 November 1952, Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

162 - Anna Freud to Ernest Jones, 4 April 1954, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

163 - Anna Freud to Ernest Jones, 16 June 1954, ibid.

164 - Anna Freud to Ernest Jones, 16 June 1954, ibid. Anna Freud continued: 'Personally, I wish that the letters concerning him had been destroyed.'

165 - Ernest Jones to Anna Freud, 28 November 1951, Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

166 - Ernst Kris to Anna Freud, 29 April 1947, Ernst Kris Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

167 - Jones (1953), 304.

168 - Ibid., 287, n. 1.

169 - Ibid., 306.

170 - Ibid., 305. Contrary to what Jones implies, Reisefieber in German signifies nothing other than a banal travel nerves.

171 - Jones (1955), 19.

172 - Jones (1953), 311.

173 - Ibid., 304-5.

174 - Ibid., 309.

175 - Ibid., 291.

176 - Ibid., 316.

177 - Ibid., 300.

178 - Ibid., 303.

179 - Ibid., 324.

180 - Ibid., 307.

181 - In private, however, Jones didn't fail to criticize the 'Kris atrocities' (Ernest Jones to James Strachey, 6 November 1951, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society). On 24 October 1951, Strachey had sent him a detailed critique of Kris' argument, according to which the discovery of infantile sexuality was to have coincided with the self-analysis and the abandonment of the seduction theory: 'My point is that the recognition of infantile sexuality as a normal activity- as distinct from the mere occurrence of abnormal sexual experiences- was only accepted by Freud gradually - over the years between 1897 and 1899' (Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society). Response to Jones, 27 October 1951 : 'I have been too complacent about Kris's pre-vision of the future, although it is a fascinating topic. Many of them [sic] are very nachträglich' (ibid.).

182 - Jones (1953), 3-4.

183 - Ibid., 254.

184 - Ibid., 255. This description was sharply contested by Breuer's daughter-in-law; see Borch-Jacobsen (1996), Appendix 2.

185 - Jones (1953), 225.

186 - See above, p. 170, where we reproduce the letter in question.

187 - Jones (1953), 225.

188 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society. Cf. Freud (1925a), 20 and 25.

189 - See above, pp. 168f.

190 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

191 - Freud (1953-74), vol. 2, 40-1.

192 - Jones (1953), 255.

193 - Ibid., 252.

194 - Ibid., 360.

195 - Jones (1955), 12-13.

196 - Jones (1953), 271. We will compare with the document entitled 'Freud in Paris' which Marie Bonaparte sent to Jones and in which she reported what Freud had said to her on 8 April 1928 about his 1885-6 stay in Paris : 'Then Freud went, with his friend, into a café, and there, the friend invited five or six "respectable" women to their table. One, who had a suspicious efflorescence on her nose, prided herself on undressing in just seconds.'

Freud had added, it is true : 'Everything with these ladies was limited to a few drinks' (Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society).

197 - Jones (1953), 139.

198 - Jones (1955), 421; see also 386: 'His wife was assuredly the only woman in Freud's love life, and she came first before all other mortals.' Here, however, is what Helen Puner, who gained this information from dissidents like Jung and Stekel, had to say : 'Earl y in their marriage he came to regard his wife with the same analytic detachment he regarded a neurotic symptom' (Puner 1947, 136). Max Schur, likewise, expressed his disbelief about jones' description in a letter to him on 30 September 1955 : 'As to Martha- here I have my doubts whether at the time I knew them she still was the "one and only". As far as I could see it, he spent less and less time with her ... there was so little left of the great lovet hat I was quite surprised by Volume I [the account of the engagement]' (Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC).

199 - Jones (1955), 386.

200 - To Ferenczi, who had developed the habit of exchanging kisses with his patients, he wrote: 'Now I am assuredly not one of those who from prudishness or from consideration of bourgeois convention would condemn little erotic gratification of this kind' (Freud and Ferenczi 200, 479). To James Jackson Putnam, Freud wrote: 'I stand for a much freer sexual life. However, I have made little use of such freedom, except in so far as I was convinced of what was permissible for me in this area' (Hale 1971, 189). This issue is taken by Peter Swales in 'Did Freud always carry an umbrella - or- did he ever take a cab?' (Swales 1994).

201 - Jones (1955), 5·

202 - Bettelheim (1957), 419. Rumours had circulated in Vienna about a liaison between Freud and Minna Bemays, which Jung later corroborated. 'Jung: This is a fact : the youngest sister made a giant transference and Freud was not insensible [in English in the text], - Eissler : You mean, there was a liaison with the youngest sister?- Jung : Oh, a liaison!? I don't know to what extent!? But, my God, we know very weil how it is, don't we!?' (typewritten interview of 29 August I953. 11; also see Billinsky 1969 and Swales 1982b). The testimony of Max Graf, father of 'Little Hans', is just as ambiguous : 'Graf : I had the impression that there was something sttange in the relationship with the sisterin- law ... But as things weren't very clear, I didn't want to speak public! y about it ... -Elssler : Did he have sexual relations with her?- Graf : I don't believe so' (Graf 1995-6, 155). These are the rumours that Jones surreptitiously evoked when he wrote : 'Freud no doubt appreciated [Minna Bemays'] conversation, but to say that she in any way replaced her sister in his affection is sheer nonsense' (Jones 1955, 387).

203 - Ibid., 3.

204 - Jones (1953), 255.

205 - Jones (1955), 137; Jones quoting Freud.

206 - Ibid., 7.

207 - Ibid., 33.

2o8 - Ibid., 62.

209 - Ibid., 82.

210 - Ibid., 130.

211 - Ibid., 160.

212 - Ibid., 112 and 118.

213 - Ibid., 114 : Jones quoting Freud.

214 - Ibid., 115.

2I5 - Ibid., 114.

216 - Ibid., 117.

217 - Ibid., 40.

218 - Ibid., 256.

219 - Ibid., 114.

220 - Ibid., 117.

221 - Jones (1953), 361.

222 - Jones (1955), 115.

223 - Ibid., 108-9.

224 - Lilla Veszy-Wagner to Ernest Jones, 29 January 1954. Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

225 - These abstracts can be consulted in the Jones Archive collection of the Institute of Psycho-Analysis in London. Insofar as certain abstracts are reproduced word for word in Jones' biography, we are led to conclude that he hadn't read for himself some of the articles he was ridiculing.

226 - Jones (1955), 111; quoted by Lilla Veszy-Wagner in her abstract of Spielmeyer (1905).

227 - Jones (I955), 116; this supposed quotation from Hoche (1910) was in fact an adaptation of the abstract by Lilla Veszy-Wagner.

228 - Jones (1955), 111 ; quoted by Lilla Veszy-Wagner in her abstract of Rieger (1896); 'simply' was added by Jones.

229 - 'Notes on Defamatory Passages by J. E. C. Macfarlane, 27.1.55', Hogarth Press Archives, University of Reading.

230 - Veszy-Wagner (1966), 119.

231 - 'Notes on Defamatory Passages by J. E. C. Macfarlane, 27.1.55', 5. Hogarth Press Archives, University of Reading.

232 - Hogarth Press Archives, University of Reading.

233 - Ibid.

234 - Ibid.

235 - Jung (1975), 144. Jones referred to Freud's faintingat Bremen in Jones (1955), 61.

236 - Bennet (1985), 114. In the unpublished version of Bennet's notebooks, Jung told Bennet on 16 September 1959 that Jones never had any original ideas and never liked him. On 19 September, he noted that Jones was mistaken to daim that it was Freud and Ferenczi who had persuaded him to break his vow of abstinence from alcohol (required of all physicians at the Burgholzli) to drink wine in August 1909 (Jones 1955, 61), as he had already left the Burgholzli, and celebrated by going drinking (Bennet Papers, Swiss Federal Institute of Technology, Zurich). Alphonse Maeder recalled that on occasion, at a meeting of the Swiss Sociery of Psychiatry, 'Bleuler made a violent storm of abuse... against the assistants who let themselves abandon abstinence (Jung after his trip with Freud in the USA, and mysdf later); and went so far asto say that if he had seen this in advance, he would not have introduced psychoanalysis into the Burgholzli' (Maeder to Ellenberger, 1 March 1967, Centre Henri Ellenberger, Hôpital Sainte-Anne, Paris).

237 - Jones (1957), 45.

238 - Freud and Ferenczi (2000), 45.

239 - On this edifying episode, see Lieberman (1985).

240 - Freud and Ferenczi (2000), 215.

241 - Quoted in Jones (1957), 76.

242 - Wortis (1954), 121. In 1926, the American psychiatrist Martin Peck had abandoned the idea of being analysed by Rank after hearing that Jones considered him to be 'hypomanic' (Lieberman 1985, 268).

243 - Jones (1957), 12-13.

244 - Ibid., 47.

245. Ibid., 58.

246 - Ibid., 74·

2 47 - Ibid., 77.

248 - Ibid.

249 - Sigmund Freud to Marie Bonaparte, 11 September 1932; quoted in ibid., 174.

250 - Sigmund Freud to Max Eitingon, 3 April 1932; quoted in Gay (1988), 585.

251 - Freud and Jones (1993), 721 ; our emphasis.

252 - Jones (1957), 176.

253 - Ibid., 178.

254 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

255 - Ibid.

256 - Ibid. Publicly, Balint expressed his disagreement with Jones much more mutedly and prudently in a letter that was published in the International Journal of Psychoanalysis with a response from Jones (Balint 1958). Commenting on this exchange, Erich Fromm remarked that 'if such a tortuous and submissive letter had been written by a personality of less stature than Balint or else to avoid serious consequences relating to life or liberty in a dictatorial system, that would be understandable. But ... this only shows the intensity of the pressure that forbids any criticism, if not extremely mild, from a member of the organisation' (Fromm 1970, 22).

257 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

258 - Quoted in Falzeder (1998), 133.

259 - The Observer (Sydney), 9 January 1960.

260 - Jones (1955), 421.

261 - See Freud and Ferenczi (2ooo). Also see the letter from Jones to Anna Freud of 29 July 1952: 'Balint makes life as complicated as he can. Now he has discovered a promise to Gisella Fer. [Gizella Ferenczi, ex-Palos] that no one is to use the allusions to her for 50 years (as if I wanted to, or as ifI didn't know all about their problems!)' (Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC).

262 - See Young-Bruehl (1989), ch. 3; Mahony (1992a).

263 - On Tausk, see Roazen (1969); on Silberer, see Roazen (1975).

264 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

265 - Storfer's doubts concerning the Diary's authenticity were mentioned by Anna Freud in a Rundbrief of 17 February 1927 (Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society).

266 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society. In fact, the Diary's inauthenticity was definitively established by Josef Krug in 1926, based on anachronisms and chronological contradictions. The following year, the Internationater Psychoanalytischer Verlag printed an advertisement in the newsletter of German books tores with the aim of retrieving all the copies of the work thar were still for sale (about this, see Israëls 2006, 139-43). It is difficult to believe that Jones hadn't been aware of this.

267 - Jones (1957), 49.

268 - In fact, The Origins of Psychoanalysis only appeared in 1954.

269 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

270 - Ernest Jones to James Stràchey, 3 November 1953, Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

271 - Inscription written by Kurt Eissler on an envelope he deposited in the Library of Congress and which contained newspaper articles relating to the trial ofFreud's uncle for trafficking counterfeit coins : 'Top secret microfilm

of newspaper article. -Not to be opened, except by Dr K. R. Eissler. 'The contents of the present section reproduce elements developed more fully in Borch-Jacobsen and Shamdasani (2002). The first to reconstruct and document the his tory of the Freud archives and its systematic obstruction of research was Peter Swales, in his landmark presentation, 'Freud and the unconscionable : the obstruction of Freud stud ies, 1946-2113' (Swales 1991).

272 - Bettelheim (1957), 418.

273 - Jones Papers, Archives of the British Psycho-Analytical Society.

274 - Ibid.

275 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

276 - Ibid.

277 - Siegfried Bernfeld to Kurt Eissler, 4 January 1951, Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

278 - The philosopher Richard Avenarius was, along with Ernst Mach, one of the originators of empirico-criticism (empirical criticism).

279 - Anna Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

280 - Ibid.

281 - Ibid.

282 - Ibid.

283 - Ibid.

284 - Ibid.

285 - Ibid.

286 - For an example of a particularly lucrative appraisal, see Borch-Jacobsen and Shamdasani (2002), 294.

287 - 1994 Interview; the situation has changed in part since Eissler's death in 1999.

288 - Interview with Paul Roazen, Toronto, 20 November 1994.

289 - 'Agreement between The Library of Congress and The Sigmund Freud Archives, Inc.', 5 July 1951. We thank the Library of Congress for allowing us to consult this internal document pursuant to article 1917-3 of the Library of Congress Regulations.

290 - Swales (1991). Swales was the first, in this debate, to reconstruct the history of the creation of the Freud Archives.

291 - Kurt R. Eissler, transcript of an interview with E. A. Bennet, July 1972, Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; our emphasis. These two letters, for which Bennet had

not demanded any restrictions on access, were only made available to researchers in the year 2000.

292 - Interview with Marvin W. Kranz, Manuscript Historian, Library of Congress, Washington, DC, 15 June 2000.

293 - 'Erstes Treffen mit Dr. P. nach der Vorbesprechung 10 A. M. im Hotel', Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; could not be photocopied until 2010.

294 - Pfisrer Archives, Zentralbibliothek, Zurich.

295 - Typewritten interview, 1, Sigmund Freud Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC; cannat be photocopied until 2013.

296 - Marie Bonaparte Collection, Manuscript Division, Library of Congress, Washington, DC.

297 - Eissler interviewed her three times - twice in 1952 and once in 1953. The respective derestriction dates are 2010, 2017 and 2057.

298 - Pointed out by Swales (1991).

299 - Interview with Frank J. Sulloway, Cambridge, MA, 19 November 1994.

300 - Interview with Paul Roazen, Toronto, 20 November 1994. Roazen is the first researcher to have openly criticised the restrictions imposed by the Freud Archives.

301 - Roazen (1990), 96.

302 - Private correspondence.

303 - Declaration by James H. Billington, Librarian of Congress, during the bicentennial celebration of the Library of Congress, 24 April 2000.

304 - See for example Malcolm's anecdotal description (1984).

CODA : WHAT WAS PSYCHOANALYSIS?

1 - Wittenberger and Teugel (1999), 118. Given the constantly moving goalposts, Jones himself was not always clear on this point- on 8 December 1915, he wrote to Freud : 'In my article on repression and memory... I criticised Jung for a statement which I now find in your recent article on repression. This is very sad, isn't it?' (Freud and Jones 1993, 314).

2 - Burnham (1967), 214.

3 - Hacking (1998).

4 - Lévi-Strauss (1973), xliv-1.

5 - Lawrence (1986) [1923], 201.

6 - Cioffi (2005), 316-17.

7 - See Borch-Jacobsen (2009), ch. 9.

8 - Wallerstein (1995), 510.

9 - Wallerstein (1988), 17.

10 - See Crews (1995; 1998) and Skues (1998).

11 - See Borch-Jacobsen, 'Foreword', in Dufresne (2000).

12 - For an anthropological study of (now rapidly declining) psychoanalytic institutes in the USA, see Kirschner (2000).

Bibliography

- **Abraham, Hilda** (1976), *Karl Abraham. Sein Leben für die Psychoanalyse*, Munich, Kindler.
- **Abraham, Karl** (1954 [1919]), 'A particular form of neurotic resistance against the psycho-analytic method', in *Selected Papers of Karl Abraham*, with an introductory essay by Ernest Jones, trans. Douglas Bryan and Alix Strachey, New York, Basic Books, 303-11.
- **Adam, Émile** (1923), *Le freudisme. Étude historique et critique de méthodologie psychothérapique*, Colmar, Alsatia.
- **Adams, Leslie** (1954), 'Sigmund Freud's correct birthdate : misunderstanding and solution', *Psychoanalytic Review*, 41, 359-62.
- **Adler, Alfred** (1972 [1912]), *Über den nervosen Charakter*, Frankfurt, Fischer.
- **Alexander, Franz and Selesnick, Sheldon T.**(1965), 'Freud-Bleuler correspondence', *Archives of General Psychiatry*, 12, 1-9.
- **Alt, Konrad** (1908) in Gerard van Weyenburg (ed.), *Comptes rendus du Congrès international de psychiatrie et de neurologie*, Amsterdam, G. H. De Bussy, 293.
- **Andersson, Ola** (1962), *Studies in the Prehistory of Psychoanalysis. The Etiology of Psychoneuroses and Sorne Related Themes in Sigmund Freud's Scientific Writings and Lectures,* 1888-1896, Stockholm, Svenska Bokforlaget.

  (1979), 'A supplement to Freud's case history of "Frau Emmy v. N." 'in *Studies on Hysteria* 1895, *Scandinavian Psychoanalytic Review*, 2, no. 5, 5-16.
- **Anzieu, Didier** (1986), *Freud's Self-Analysis*, trans. P. Graham, London, Hogarth Press.
- **Arduin, Dr** (1900), 'Die Frauenfrage und die sexuellen Zwischenstufen', Jahrbuch für sexuelle Zwischenstufen, 2, 211 -23.

- **Aschaffenburg, Gustav** (1906), 'Die Beziehung des sexuellen Lebens zur Entstehung von Nerven- und Geistes Krankheiten', *Münchener medizinische Wochenschrift*, 53, 11 September, 1793-8.

(1907), 'Internationaler Kongress für Psychiatrie, Neurologie, Psychologie und Kranksinnigen Verpflegung', Monatsschrift für *Psychologie und Neurologie*, 22.

(1911), review of Freud (1910a), *Zeitschrift. für die gesammte Strafrechtwis-senschaft*, 30, 754-5.

- **Assoun, Paul-Laurent** (1981), *Introduction à l'épistémologie freudienne*, Paris, Payot.
- **Balint, Michael** (1958), Letter to the Editor, *International Journal of Psycho-Analysis*, 34, 68.
- **Bally, Charles** (1912), 'Le style indirect libre en français moderne', *Germanisch-Romanische Monatsschrift*, 4, 549-56 and 597-606.
- **Beard, George and Rockwell, Alphonso** (1880 [1872]), *A Practical Treatise on the Medical and Surgical Uses of Electricity, Including Localized and General Electricization*, New York, William Wood.
- **Bell, Sanford** (1902), 'A preliminary study of the emotions of love between the sexes', *American Journal of Psychology*, 13, 325-54.
- **Bennet, Edward A.** (1985), *Meetings with Jung. Conversations Recorded by E. A. Bennet during the Years* 1946-1961, Einselden, Daimon.
- **Bemfeld, Siegfried** (1946), 'An unknown autobiographical fragment by Freud', *American Imago*, 4, no. 1, 3-19.

(1975 [1953]), 'Freud's studies on cocaïne', in Sigmund Freud, *Cocaine Papers*, ed. Robert Byck, New York and Scarborough, Ontario, New American Library, 321-52.

- **Bemfeld, Siegfried and Cassirer Bernfeld, Suzanne** (1981), *Bausteine der Freud-Biographik*, ed. Ilse Grubrich-Simitis, Frankfurt am Main, Suhrkamp.
- **Bernheim, Hippolyte** (1892 [1891]), *Neue Studien über Hypnotismus, Suggestion und Psychotherapie*, trans. into German by Sigmund Freud, Leipzig and Vienna, Deuticke.

(l98o [1891]), *New Studies in Hypnotism*, trans. Richard S. Sandor,New York, International Universities Press.

- **Bettelheim, Bruno** (1957), review of Ernest Jones, *The Life and Wark of Sigmund Freud*, vols. 1 and 2, *American Journal of Sociology*, 62, January.
- **Bezzola, Dumeng** (1908), 'Zur Analyse psychotraumatischer Symptome', *Journal für Psychologie und Neurologie*, 8, 204-19.

- **Billig, Michael** (1999), *Freudian Repression. Conversation Creating the Unconscious*, Cambridge, Cambridge University Press.
- **Billinsky, John M.** (1969), 'Jung and Freud (the end of a romance)', *Andover Newton Quarterly*, 10, 39-43·
- **Binet, Alfred and Simon, Théodore** (1910), 'Hystérie', *L'Année Psychologique*, 16, 67-122.
- **Binswanger, Ludwig** (1957), *Sigmund Freud. Reminiscences of a Friendship*, New York and London, Grune & Stratton.
- **Bjerre, Poul** (1920 [1916]), *The History and Practice of Psychoanalysis*, trans. Elizabeth N. Barrow, Boston, R. G. Badger.
- **Bleuler, Eugen** (1892), review of Hippolyte Bemheim, *Neue Studien über Hypnotismus, Suggestion und Psychotherapie, Münchener medizinische Wochen-schrift*, 39, 431.

  (1896), review of Breuer and Freud (1895), *Münchener medizinische Wochen-schrift*, 43, 524-5.

  (1904), *review of Leopold Lëwenfeld, Die psychischen Zwangserscheinungen, Münchener medizinische Wochenschrift*, 51, 718.

  (1910), 'Die Psychanalyse Freuds : Verteidigung und kritische Bemerkungen', *Jahrbuch für psychoanalytische und psychopathologische Forschungen*, 2, 623-730.

  (1913), 'Kritik der Freudschen Theorien', *Zeitschrift für Psychiatrie*, 70, 665-718.

  (1928), review of Sigmund Freud, Gesammelte Schriften, 11, *Münchener medizinische Wochenschrift*, 75, 1728.
- **Bleuler, Manfred** (ed.) (1979), *Beiträge zur Schizophrenielehre der Zürcher Psychiatrischen Universitiitsklinik Burgholzli* (1902-1971)' Darmstadt, Wissenschaftliche Buchgesellschaft.
- **Bloor, David** (1976), Knowledge and Social Imagery, London, Routledge and Kegan Paul.
- **Blum, Harold and Pacella, Bernard L.** (1995), 'Exchange', in Frederick Crews (ed.), *The Memory Wars. Freud's Legacy in Dispute*, New York, A New York Review Book, 104-6.
- **Borch-Jacobsen, Mikkel** (1987), 'L'hypnose dans la psychanalyse', followed by 'Dispute', in Léon Chertok (ed.), *Hypnose et psychanalyse*, Paris, Bordas, 29-54, 194-215.

  (1988 [1982]), *The Freudian Subject*, trans. Catherine Porter, Stanford, CA, Stanford University Press.

  (1992 [1991]), *The Emotional Tie. Psychoanalysis , Mimesis, and Affect*, trans. Douglas Brick and others, Stanford, CA, Stanford University Press.

(1996), *Remembering Anna O. A Century of Mystification*, trans. Kirby Olson in collaboration with Xavier Callahan and the au thor, New York, Routledge.

(1997), *Anna 0. zum Gedachtnis. Eine hundertjahrige Irreführung*, revised and augmented edition, trans. into German by Martin Stingelin, Munich, Wilhelm Fink Verlag.

(2000), 'How a fabrication differs from a lie', *London Review of Books*, April 13, 3-7.

(2002), *Folies à plusieurs . De L'hystérie à La dépression*, Paris, Les Empêcheurs de Penser en Rond/Seuil.

(2009), *Making Minds and Madness. From Hysteria to Depression*, trans. Douglas Brick et al. in collaboration with the author, Cambridge, Cambridge University Press.

- **Borch-Jacobsen, Mikkel and Shamdasani, Sonu** (2002), 'Une visite aux Archives Freud', in Borch-Jacobsen (2002), 253-300.

(2006), *Le dossier Freud. Enquête sur l'histoire de La psychanalyse*, Paris, Les Empêcheurs de Penser en Rond/Seuil.

(2008), 'Interprefactions : Freud's legendary science', *History of the Human Sciences*, 21, 1-25.

- **Boring, Edwin G.** (1929), *A His tory of Experimental Psychology*, New York and London, D. Appleton-Century Company.
- **Brentano, Franz** (1874), *Psychology from an Empirical Standpoint*, trans. A. Rancurello, D. Terrell and L. McAlister, London, Routledge, 1973.
- **Breton, André** (1990 [1924]), *Les pas perdus*, Paris, Gallimard.
- **Breuer, Josef** (1895), Review of the intervention of 4 November 1895 of Josef Breuer at the Vienna Medical College on the subject of the lecture of Sigmund Freud 'On hysteria', *Wiener medizinische Presse*, 36, 1717-18.
- **Breuer, Josef and Freud, Sigmund** (1895), Studies on Hysteria, SE 2.
- **Brill, Abraham Arden** (1944), Freud' s Contribution to Psychiatry, London, Chapman & Hall.

(1948), *Lectures on Psychoanalytic Psychiatry*, London, John Lehmann.

- **Brome, Vincent** (1984), *Freud and his Disciples. The Struggle for Supremacy*, London, Caliban.
- **Bry, Ilse and Rifkin, Alfred H.** (1962), 'Freud and the history of ideas : primary sources, 1888-1910', Jules H. Masserman (ed.), *Science and Psychoanalysis*, 5, 6-36.
- **Burnham John** (1960), 'Sigmund Freud and G. Stanley Hall : exchange of letters', *Psychoanalytic Quarterly*, 29, 307-16.

(1967), *Psychoanalysis and American Medicine*, 1894-1918. *Medicine, Science and Culture*, New York, International Universities Press.
(1983), *Jelliffe. American Psychoanalyst and Physician and His Correspondence with Sigmund Freud and C. G. Jung*, ed. William Mcguire, Chicago, IL, University of Chicago Press.
- **Buxbaum, Edith** (1951), 'Freud's dream interpretation in the light of his letters to Fliess', *Bulletin of the Menninger Clinic*, 15, no. 6, 197-212.
- **Callon, Michel and Latour, Bruno** (eds.) (1990), *La science telle qu'elle se fait. Anthologie de la sociologie des sciences de langue anglaise*, Paris, La Découverte.
- **Campbell, Joseph** (1968 [1949]), *The Hero with a Thousand Faces*, Princeton, NJ, Princeton University Press.
- **Carlyle, Thomas** (1959 [1841]), *On' Heroes, Hero-Worship and theHeroic in His tory, in Sartor Resartus*, London, J. M. Dent & Sons,239-467.
- **Cassirer Bernfeld, Suzanne** (1952), 'Discussion of Buxbaum, Freud's dream interpretation in the light of his letters to Fliess', *Bulletin of the Menninger Clinic*, 16, n°. 2, 70-2.
- **Charteris, Hugo** (1960), 'Dr Jung looks back and on', *Daily Telegraph*, 21 January.
- **Chesterton, Gilbert K.** (1923), 'The ga me of psychoanalysis', *The Century*, 106, 34-5.
- **Chevalier, Julien** (1893), *Une maladie de la personnalité. L'inversion sexuelle; psycho-physiologie, sociologie, tératologie, aliénation mentale' psychologie morbide, anthropologie, médecine judiciaire*, Lyon and Paris, A. Storck.
- **Chodoff, Paul** (1966), 'A critique ofFreud's theory of infantile sexuality', *American Joumal of Psychiatry*, 123, n°. 5, 507-18.
- **Cioffi, Frank** (1973), 'The myth of Freud's hostile reception', in Frank Cioffi (ed.), *Modem Judgements. Freud*, London, Macmillan. Also in Cioffi (1998a), 161-81.
(1974), 'Was Freud a liar?', *The Listener*, 7 February. Also in Cioffi (1998a), 199-204.
(1984), 'The cradle of neurosis', *Times Literary Supplement*, 6 July. Also in Cioffi (1998a), 205-10.
(1988), "'Exegetical myth-making" in Grünbaum's indictment of Popper and exoneration of Freud', in Crispin Wright and Peter Clark (eds.), *Psychoanalysis and Theories of the Mind*, Oxford, Blackwell. Also in Cioffi (1998a), 240-64.
(1998a), *Freud and the Question of Pseudoscience*, Chicago and La Salle, IL, Open Court.

(1998b), 'The Freud controversy : what is at issue', in Michael S. Roth (ed.), *Freud. Conflict and Culture*, New York, Knopf, 171-82.
(2005), 'Épistémologie et mauvaise foi : le cas freudien', in Catherine Meyer (ed.), *Le livre noir de la psychanalyse*, Paris, Les Arènes, 306-27.
- **Clarke, AdeleE. and Fujimura, Joan H.** (eds.) (1992), *The Right Tools for the job. At Work in the Twentieth-Century Life Sciences*, Princeton, NJ, Princeton University Press.
- **Clarke, John Michell** (1896), review of Breuer and Freud (1895), *Brain*, 19, 401-14.
- **Cocteau, Jean** (1953), Journal d'un inconnu, Paris, Grasset.
- **Cohen, l. Bernard** (1976), 'The eighteenth-century origins of the concept of scientific revolution', *Journal of the History of Ideas*, 27, 257-88.
- **Cohn, Dorrit** (1978), *Transparent Minds. Narrative Modes for Presenting Consciousness in Fiction, Princeton*, NJ, Princeton University Press.
- **Collins, Harry M.** (1985), *Changing Order. Replication and Induction in Scientific Practice*, London, Sage;·
- **Comte, Auguste** (1830-42), *Cours de philosophie positive*, 6 vols., Paris, Bachelier.
- **Cranefield, Paul F.** (1958), 'Josef Breuer's evaluation of his contribution to psycho-analysis', *Internatianal Journal of Psychoanalysis*, 39, no. 5, 319-22.
- **Crews, Frederick** (ed.) (1995), *The Memory Wars. Freud's Legacy in Dispute*, New York, A New York Review Book.
- **Danto, Arthur** (1965), *Analytical Philosophy of History*, Cambridge, MA, Cambridge University Press.
- **Danziger, Kurt** (1991), Constructing the Subject. *Historical Origins of Psychological Research*, Cambridge, Cambridge University Press.
- **Decker, Hannah S.** (1971), 'The medical reception of psychoanalysis in Germany, 1894-1907 : three brief studies', *Bulletin of the History of Medicine*, 45, 461-81.
(1975), '*The Interpretation of Dreams* : early reception by the educated German public', *Journal of the History of the Behavioral Sciences*, II, 129-41.
(1977), *Freud in Germany. Revolution and Reaction in Science*, 1893-1907, Psychological Issues, II, no. 1 (Monograph 41).
(1991), *Freud, Dora, and Vienna* 1900, New York, Free Press.
- **Delboeuf, Joseph** (1886), 'De l'influence de l'éducation et de l'imitation dans le somnambulisme provoqué', *Revue philosophique*, 22, 146-71.
(1993a [1890]), *Le magnétisme animal. À propos d'une visite à l'École de Nancy*, in Le sommeil et les rêves, et autres textes, ed. Jacqueline Carroy and François Duyckaerts, Paris, Fayard.

(1993b [1885]), *Le sommeil et les rêves, et autres textes*, ed. Jacqueline Carroy and François Duyckaerts, Paris, Fayard.

- **Derrida, Jacques** (1987), *The Post Card. From Socrates ta Freud and Beyond*, trans. Alan Bass, Chicago, IL, University of Chicago Press.
- **Derrida, Jacques and Roudinesco, Élisabeth** (2004), *For What Tomorrow ... A Dialogue*, Stanford, CA, Stanford University Press.
- **Dessoir, Max** (1889), Das Doppel-Ich, Berlin, W. Karl Sigismund.
- **Devereux, Georges** (1967), *From Anxiety to Method in the Behavioral Sciences*, The Hague, Mouton.
- **Donkin, H. B.** (1892), 'Hysteria', in Daniel Hack Tuke (ed.), A Dictionary of Psychological Medicine, Giving the Definition, Etymology and Synonyms *of the Terms Used in Medical Psychology with the Symptoms, Treatment, and Pathology of lnsanity and the Law of Lunacy in Great Britain and Ire land, Philadelphia, PA, Blakiston.*
- **Du Bois-Reymond, Emil** (1883), 'Darwin und Kopernicus', 25 January 1883, Friedrichs-Sitzung der Akademie der Wissenschaften, in *Reden*, Leipzig, 1886, 2, 496-502.
- **Dufresne, Todd** (2000), *Tales from the Freudian Crypt. The Death Drive in Text and Context*, Stanford,. CA, Stanford University Press.

(2007), *Against Freud : Critics Talk Back*, Stanford, CA, Stanford University Press.

- **Duyckaerts, François** (1993), 'Les références de Freud à Delboeuf', *Revue internationale d'histoire de la la psychanalyse*, 6, 231-50.
- **Eder, David** (1913), 'The present position of psycho-analysis', *British Medical Joumal*, 8 November, 1213-15.
- **Edmunds, Lavinia** (1988), 'His master's choice', The Johns Hopkins Magazine, April, 40-9.
- **Eissler, Kurt Robert** (1965), *Medical Orthodoxy and the Future of Psychoanalysis*, New York, International Universities Press.

(1971), *Talent and Genius. The Fictitious Case of Tausk Contra Freud*, New York, Quadrangle Books.

(2001), *Freud and the Seduction Theory . A Brief Love Affair, Madison,* CT, International Universities Press.

- **Eitingon, Max** (1998), 'Anna O. (Breuer) in psychoanalytischer Betrachtung', *Jahrbuch der Psychoanalyse*, 40, 14-30.
- **Ellenberger, Henri Frédéric** (1961), 'La psychiatrie et son histoire inconnue', *L'Union médicale du Canada*, 90, n°. 3, 281-9.

(1970a), *The Discovery of the Unconscious. The His tory and Evolution of Dynamic Psychiatry*, New York, Basic Books.

(1970b), 'Methodology in writing the history of dynamic psychiatry', in George Mora and Jeanne L. Brand (eds.), *Psychiatry and Its His tory. Methodological Problems in Research, Springfield*, IL, Charles C. Thomas, 26-40.
(1972), 'The story of "Anna 0." : a critical review with new data', *Journal of the History of the Behavioral Sciences*, 8, no. 3, 267-79.
(1973), 'Freud in perspective : a conversation with Henri F. Ellenberger', interview with Jacques Mousseau, *Psychology Today*, March, 5o-6o.
(1977), 'L'histoire d'"Emmy von N." : étude critique avec documents nouveaux', *L'évolution psychiatrique*, 42, n°. 3 519-40.
(1995), *Médecines de l'âme. Essais d'histoire de la folie et des guérisons psychiques*, Paris, Fayard.
- Ellis, Havelock (1898a), 'Auto-erotism : a psychological study', *Alienist and Neurologist*, 19, n°. 2, 260-99.
(1898b), 'Hysteria in relation to the sexual emotions', *Alienist and Neurologist*, 19, no. 4, 599-615.
(1939), My Life. *Autobiography of Havelock Ellis*, Boston, MA, Houghton Mifflin.
- **Elms, Alan** (1994), *Uncovering Lives. The Uneasy Alliance of Biography and Psychology*, New York, Oxford University Press.
- **Eng, Erling** (1984), 'Coleridge's "psycho-analytical understanding" and Freud's *psychoanalysis*', *International Review of Psycho-analysis*, 11, 463-6.
- **Erikson, Erik H.** (1954), 'The dream specimen of psychoanalysis', Joumal of the American Psychoanalytic Association, 2, 5-56.
- **Erlenmeyer, Al brecht** (1886), 'Über Cocainsucht : Vorläufige Mitteilung', *Deutsche Medizinal-Zeitung*, 7, 438-84.
- **Esterson, Allen** (1993), *Seductive Mirage*, Chicago and La Salle, IL, Open Court.
- **Falzeder, Ernst** (1994a), 'My grand-patient, my chief tormentor : a hitherto unnoticed case of Freud's and the consequences', *Psychoanalytic Quarterly*, 63, 297-331.
(1994b), 'The threads of psychoanalytic filiations or psychoanalysis taking effect', in André Haynàl and Ernst Falzeder (eds.), 100 Years *of Psychoanalysis. Contributions to the His tory of Psychoanalysis*, London, Karnac Books, 169-94.
(1997), 'Whose Freud is it? Some reflections on editing Freud's correspondence', in *Behind the Scenes. Freud in Correspondence*, ed. Patrick Mahony, Carlo Bonomi and Jan Stensson, Oslo, Scandinavian University Press, 335-56.

(1998), 'Family tree matters', *Joumal of Analytical Psychology*, 43, n°.1, 127-54·
(2000), 'Profession-psychoanalyst : a historical view', *Psychoanalysis and History*, 2, 37-60.
(2004), 'Sigmund Freud und Eugen Bleuler : die Geschichte einer ambivalenten Beziehung', *Luzifer-Amor, Zeitschrift zur Geschichte der Psychoanalyse*, 17, n°. 34, 85-104.
- **Falzeder, Ernst and Bumham, John** (2007), 'A perfectly staged "concened action" against psychoanalysis : the 1913 congress of German psychiatrists', *International Journal of Psycho-Analysis*, 88, n°. 5, 1223-44.
- **Ferenczi, Sandor** (1911), 'On the organization of the psychoanalytic movement', in *Final Contributions ta the Problems and Methods of Psycho-Analysis*, ed. Michael Balint, trans. E. Mosbacher, London, Hogarth Press, 1955, 299- 307.
(1914), review of Eugen Bleuler, 'Kritik der Freudschen Theorien', *Internationale Zeitschrift für ärztliche Psychoanalyse*, 2, 62-6.
(1988), *The Clinical Diary of Sandor Ferenczi*, ed. Judith Dupont, trans. Michael Balint and Nicola Zarday Jackson, Cambridge, MA, Harvard University Press.
- **Fichtner, Gerhard** (1988), 'Freuds Briefe ais historische Quelle', conference held at the second congress of the International paper presented to the Association for the History of Psychoanalysis, Vienna, 21-23 July.
- **Fliess, Wilhelm** (1897), *Die Beziehung zwischen Nase und weiblichen Geschlechtsorganen. In ihrer biologischen Bedeutungeng dargestellt*, Leipzig and Vienna, Franz Deuticke.
(1906a), *In eigener Sache. Gegen Otto Weininger und Hermann Swoboda*, Berlin, Emil Goldschmidt.
(1906b), *Der Ablauf des Lebens. Grundlegung zur exakten Biologie*, Leipzig and Vienna, Franz Deutike.
- **Flournoy, Théodore** (1896), *Notice sur le laboratoire de psychologie de l'université de Genèva*, Geneva, Eggiman.
(1903a), review of Sigmund Freud, D*ie Traumdeutung, Archives de psychologie*, 2, 72-3.
(1903b), 'F. W. H. Myers et son oeuvre posthume', *Archives de psychologie*, 2, 269-96.
(1911), *Esprits et médiums. Mélanges de métapsychique et de psychologie*, Geneva, Kündig.
- Forel, August (1889), *Der Hypnotismus. Seine Bedeutung und seine Handhabung*, Stuttgart, Ferdinand Enke.

(1891), *Der Hypnotismus, seine psy'cho-physiologische, medicinische, strafrechtliche Bedeutung und seine Handhabung*, Stuttgart, Ferdinand Enke (2nd revised edn of Forel 1889).

(1899), 'Hypnotism and cerebral activity', in *Clark University 1889-1899. Decennial Celebration, Worcester*, MA, printed for the University.

(1905), *Die sexuelle Frage. Eine naturwissenschaftliche, psychologische hygienische und soziologische Studie für Gebildete, Munich*, E. Reinhardt:

(1907 [19o3]), Hygiene of Nerves & Mindin Health and Disease, trans. Austin Aikins, London, John Murray.

(1906a), *L'âme et le système nerveux. Hygiène et pathologie*, Paris, G. Steinheil.

(1906b), *Hypnotism or, Suggestion and psychotherapy*, trans. H. Armit (based on the sth, revised edn ofForel 1889), London, Rebman.

(1908), 'Zum heutigen Stand der Psychotherapie : ein Vorschlag', *Journal für Psychologie und Neurologie*, II, 266-9.

(1909), *Ethische und rechtliche Konflikte im Sexualleben in- und ausserhalb der Ehen*, Munich, Ernst Reinhardt.

(1910a), 'Fondation de la Société Internationale de Psychologie Médicale et de Psychothérapie', *Informateur des aliénistes et des neurologistes* (supplement to L'Encéphale), 5, 25 February, 42-5.

(1910b), 'La psychologie et la psychothérapie à l'université', *Journal für Psychologie und Neurologie*, 17, Erganzungsheft, 307-17·

(1910c), *Gehim und Seele. Elfte, vollständig neu bearbeitete Auflage*, Leipzig, Alfred Kröner.

(1919), *Der Hypnotismus. oder die Suggestion und die Psychologie*, Stuttgart, Ferdinand Enke (8-9th edn of Forel 1889).

(1935), *Rückblick auf mein Leben*, Zurich, Europa-Verlag.

(1968), *August Farel. Briefe/Correspondance* 1864-1927, ed. HansH. Walser, Berne and Stuttgart, Hans Huber.

- **Forel, August and Bezzola, Dumeng** (1989), 'August Fore! und Dumeng Bezzola- ein Briefwechsel', ed. Christian Müller, *Gesnerus*, 46, ss-79·
- **Forrester, John** (1980), *Language and the Origins of Psychoanalysis*, London, Macmillan.

(1997a), Dispatches from the Freud Wars, Cambridge, MA, Harvard University Press.

(1997b), 'Lacan's debt to Freud : how the Ratman paid off his debt', in Todd Dufresne (ed.), *Freud, Lacan, and Beyond, New York*, Routledge, 67-89.

- **Forrester, John and Cameron, Laura** (1999), '"A cure with a defect": a previously unpublished letter by Freud concerning "Anna 0."', *International Journal of Psycho-Analysis*, 80, 929-41.
- **Frank, Jerome** (1961), *Persuasion and Healing. A Comparative Study of Psychotherapy*, Baltimore, MD, Johns Hopkins University Press.
- **Frank, Ludwig** (1908), 'Zur Psychanalyse', Journal für Psychologie und Neurologie, 13, Festschrift Forel, 126-35.

(1910), Die Psychanalyse, Munich, Ernst Reinhardt.
- **Frank, Ludwig and Bezzola, Dumeng** (1907), 'Über die Analyse psychotrau-matischer Symptome', *Zentralblatt für* Nervenheilkunde, 30 (new series, 18), 179-86.
- **Freud Sigmund** (188sa), 'Beitrag zur Kenntnis der Cocawirkung', *Wiener Medizjnische Wochenschrift*, 35, n°. 5, 129-33.

(1885b), 'Ueber die Allgemeinwirkung des Cocains', *Zeitschrift für Therapie*, J, no. 7, 1 April, 49-sr.

(1889), review of August Forel's *Hypnotism*, SE 1, 89-102.

(1892-3), 'A case of successful treatment by hypnotism', SE 1,115-28.

(1893), 'Quelques considérations pour une étude comparative des paralysies motrices organiques et hystériques', *Archives neurologiques*, 93, n°. 77, 29-43.

(1895), 'Project for a scientific psychology', SE 1, 281-397.

(1896a), 'Heredity and the aetiology of the neuroses', SE 3, 141-56.

(1896b), 'The aetiology of hysteria', SE 3, 189-221.

(1896c), 'Further remarks on the neuro-psychoses of defence', SE 3, 157- 85.

(1899), 'Screen memories', SE 3, 301-22.

(1900), *The Interpretation of Dreams*, SE 4-5.

(1901), *The Psychopathology of Everyday Life*, SE 6.

(1904), 'Freud's psycho-analytic procedure', SE 7, 249-S4·

(1905a), *'Three essays on the theory of sexuality'*, SE 7, 121-245.

(1905b), *'On psychotherapy'*, SE 7, 257-68.

(l905c), 'Fragment of an analysis of a case of hysteria', SE 7, 3-122.

(1906), 'My views on the part played by sexuality in the aetiology of the neuroses', SE 7, 269-79.

(1907b), *Delusions and Dreams in Jensen's Gradiva*, SE 9, 3-95.

(1907-8a), *Original Record of the* ['Ratman'] *Case*, SE 10, 253-318.

(1907-8b [1994]), *L'homme aux rats. Journal d'une analyse*, trans. into French by Elza Ribeiro Hawelka in collaboration with Pierre Hawelka, Paris, Presses Universitaires de France (4th edn).

(1907-8c [1987]), *Originalnotizen zu einem Fall von Zwangsneurose ('Rattenmann')*, ed. Angela Richards and Ilse Grubrich-Simitis, in *Gesammelte Werke - Nachtragsband*, Frankfurt am Main, s : Fischer Verlag, 1987, 501-69.
(1908a), 'Creative writers and day-dreaming', SE 9, 141-53.
(1908b), 'Character and anal erotism', SE 9, 167-75.
(1909a), 'Analysis of a phobia in a five-year-old boy', SE 10, 3-149.
(1909b), 'Notes upon a case of obsessional neurosis', SE 10, 153-249.
(1910a), 'Five lectures on Psycho-Analysis', SE II, 1-56.
(1910b), 'The future prospects of psycho-analytic therapy', SE 11,139-51.
(1910c), "'Wild" psycho-analysis', SE II, 219-27.
(1910d), 'Leonardo da Vinci and a memory of his childhood', SE II, 59-137·
(1912), 'Recommendations to physicians practising psycho-analysis', SE 12, 109-20.
(1913a), 'The claims of psycho-analysis to scientific interest', SE 13, 165-90.
(1913b), 'On beginning the treatment. (Further recommendations on the technique of psycho-analysis 1)', SE 12, 121-44.
(1914a), 'On the history of the psycho-analytic movement', SE 14, 7-66.
(1914b), 'Remembering, repeatingand working-through. (Further recommendations on the technique of psycho-analysis n)', SE 12, 145-56.
(1914c), 'On narcissism : an introduction', SE 14, 67-102.
(1915a), 'The unconscious', SE 14, 159-215.
(1915b), 'Instincts and their vicissitudes', SE 14, 109-40.
(1916-17), *Introductory Lectures on Psycho-Analysis*, SE 15-16.
(1917a), '*A difficulty on the path ofpsycho-analysis*', SE 17, 135-44.
(1917b), '*On transformations of instinct as exemplified in anal erotism*', SE 17, 125-33.
(1918), 'From the history of an infantile neurosis', SE 18, 3-122.
(1920a), 'Beyond the pleasure principle', SE 18, 3-64.
(1920b), 'A note on the prehistory of the technique of analysis', SE 18, 263-5·
(1921), 'Psycho-analysis and telepathy', SE 18, 175-93.
(1923), 'Two encyclopedia articles', SE 18, 231-59.
(1925a), 'An autobiographical study', SE 20, 1-74.
(1925b), 'The resistances to psycho-analysis', SE 19, 213- 22.
(1925c), '*JosefBreuer*', SE 19, 277-80.
(1926a), 'The question of lay-analysis : conversations with an impartial person', SE 20, 179-258.
(1926b), '*Psycho-analysis*', SE 20, 259-70.

(1933), 'Introductory lectures to psycho-analysis', SE 22, 1-182.

(1937a), 'Analysis terminable and interminable', SE 23, 209-53.

(1937b), 'Constructions in analysis', SE 23, 255-69.

(1939), 'Moses and monotheism : three essays', SE 23, 3-137.

(1953-74), *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, 24 vols., ed. James Strachey, Anna Freud, Alix Strachey, Alan Tyson and Angela Richards, London, Hogarth Press and the Institute of Psycho-Analysis. (Hereafter, SE.)

(1954), *The Origins of Psycho-Analysis. Letters to Wilhelm Fliess, Orafts and Notes*, 1887-1902, ed. Marie Bonaparte, Anna Freud and Ernst Kris, trans. Eric Mosbacher and James Strachey, intro. Ernst Kris, New York, Basic Books.

(1960), *Letters of Sigmund Freud*, ed. Ernst L. Freud, trans. Tania and James Stem, New York, Basic Books.

(1985), *The Complete Letters of Sigmund Freud to Wilhelm Fliess* 1887-1904, ed. Jeffrey Moussaief Masson, Cambridge, MA, and London, The Belknap Press of Harvard University Press.

(1986), *Briefe an Wilhelm Flieb*, ed. Jeffrey Moussaief Masson, Frankfurt am Main, Fischer Verlag.

- **Freud, Sigmund and Abraham, Karl** (2002), *The Complete Correspondence of Sigmund Freud and Karl Abraham*, 1907-1925, Completed Edition, ed. Ernst Falzeder, London, Kamac.
- **Freud, Sigmund and Andreas-Salomé; Lou** (1966), *Sigmund Freud/ Lou Andreas-Salomé. Briefwechsel*, ed. Ernst Pfeiffer, Frankfurt am Main, S. Fischer.
- **Freud, Sigmund and Binswanger, Ludwig** (2003), *The Sigmund Freud-Ludwig Binswanger Carrespondence* 1908-1938, ed. Gerhard Fichtne 1, London, Open Gate Press.
- **Freud, Sigmund and Eitingon, Max** (2004), *Sigmund Freud Max Eitingon Briefwechsel* 1906-1939, vol. 1, ed. Michael Schroter, Tübingen, Edition Oiskord.
- **Freud, Sigmund and Ferenczi, Sandor** (1993), *The Carrespondence of Sigmund Freud and Sandor Ferenczi*, vol. 1 : 1908-1914, ed. Eva Brabant, Ernst Falzeder and Patrizia Giampieri-Deutsch, introd. André Haynal, trans. Peter Hoffer, Cambridge, MA, Harvard University Press.

(2ooo), *The Correspondence of Sigmund Freud and Sandor Ferenczi*, vol. 3 : 1920-1933, ed. Ernst Falzeder and Eva Brabant, trans. Peter Hoffer, Cambridge, MA, Harvard University Press.

- **Freud, Sigmund and Jones, Ernest** (1993), The Complete Carrespondence of Sigmund Freud and Ernest Jones 1908-I939, ed. R. Andrews Paskauskas, Cambridge, MA, Harvard University Press.
- **Freud, Sigmund and Jung, Carl Gustav** (1974), The Freud/Jung *Letters. The Carrespondence between Sigmund Freud and C. G. Jung,* ed. William McGuire, trans. Ralph Manheim and R.F. C. Hull, Bollingen Series, Princeton, NJ, Princeton University Press.
- **Freud, Sigmund and Pfister, Oskar**. (1963), Psycho-Analysis and Faith. The Letters of Sigmund Freud and Oskar Pfister, ed. Ernst L. Freud and Heinrich Meng, trans. Eric Mosbacher, London, Hogarth Press.
- **Freund, C. S.** (1895), *'Über psychische Lahmungen', Neurologisches Zentralblatt,* 14, 938-46.
- **Friedlander, A. A.** (1907), 'Über Hysterie und die Freudsche psychoanalytische Behandlung derselben', *Monatschrift für Psychiatrie und Neurologie,* 22, 45-54.

  (1911), 'Hysteria and modem psychoanalysis', *Journal of Abnormal Psychology,* 5, 297-319.
- **Fromm, Erich** (1970), *The Crisis of Psychoanalysis. Essays on Freud, Marx and Social Psychology,* Harmondsworth, Penguin.
- **Furtmüller, Carl** (1912), *Psychoanalyse und Ethik. Eine vorliiufige Untersuchung,* Schriften des Vereins fur freie psychoanalytischen Forschung, 1, Munich, Reinhardt Verlag.
- **Gardiner, Muriel** (1983), *'The wolf-man's last years', Journal of the American Psychoanalytic Association,* 31, 867-97.
- **Gardiner, Muriel** (ed.) (1972), *The Wolf-Man and Sigmund Freud,* London, Hogarth Press and, the lnstitute of Psycho-Analysis.
- **Gasché, Rodolphe** (1997), 'The witch metapsychology', in Todd Dufresne (ed.), *Retums of the 'French Freud'. Freud, Lacan, and Beyond,* New York, Routledge, 169-208.
- **Gattel, Felix** (1898), *Ueber die sexuellen Ursachen der Neurasthenie und Angstneurose,* Berlin, August Hirschwald.
- **Gaupp, Robert** (1900), review of Sigmund Freud (1899), *Zeitschrift für Psychologie und Physiologie der Sinnesorgane,* 23, 233-4.
- **Gay, Peter** (1988), *Freud. A Life for Our Time,* New York, Norton.
- **Genette, Gérard** (1972), *Figures III,* Paris, Seuil.
- **Gesell, Arnold and Gesell, Beatrice** (1912), *The Normal Child and Primary Education,* London, Ginn.
- **Gicklhom, Josef and Gicklhom, Renée** (1960), *Sigmund Freud's akademische Laufbahn im Lichte der Dokumente,* Vienna and Innsbruck, Urban & Schwarzenberg.

- **Giddens, Anthony** (1990), *Consequences of Modemity*, Stanford, CA, Stanford University Press.
- **Gley, E.** (1884), 'Les aberrations de l'instinct sexuel d'après des travaux récents', *Revue philosophique*, 17, 66-92.
- **Golinski, Jan** (1998), Making Natural Knowledge. Constructivism and the History of Science, Cambridge, Cambridge University Press.
- **Gould, Stephen Jay** (1989), Wonderful Life. The Burgess Shale and the Nature of History, New York, W. W. Norton & Company.
- **Graf, Max** (1995-6), 'Entretien du père du Petit Hans, Max Graf, avec Kurt Eissler, 16 décembre 1952', *Bloc-notes de la psychanalyse*, 14, 123-59.
- **Green, André** (1995), 'Mythes et mystifications psychanalytiques', Le Monde, 28 December.
- **Grünbaum, Adolf** (1985), *The Foundations of Psychoanalysis. A Philosophical Critique, Berkeley*, Los Angeles and London, University of Califomia Press.
- **Gubrich-Simitis, Ilse** (1997), *Early Freud and Late Freud. Reading anew Studies on Hysteria and Moses and Monotheism*, trans. Philip Slotkin, London, Routledge.
- **Gundlach, Horst** (2002), 'Psychoanalysis and the story of "0"· · an embarrassment', *Semiotic Review of Books*, 13, no. 1, 4-5.
- **Haberrnan, J. Victor** (1914-15), 'A criticism of psychoanalysis', *Journal of Abnormal Psychology*, 9, 265-82.
- **Habermas, Jürgen** (1971), *Knowledge and Human lnterests*, trans. Jeremy J. Shapiro, Boston, Beacon Press.
- **Hacking, lan** (1983), *Representing and lntervening. Introductory Tapies in the Philosophy of Natural Science*, Cambridge, Cambridge University Press.

  (1998), *Mad Travelers. Reflections on the Reality of Transient Mental Illnesses*, Charlottesville and London, University Press of Virginia.
- Haeckel, Ernst (1876 [1868]), *The History of Creation, Or the Development of the Earth and its Inlwbitants by the Action of Natural Causes*, 2 vols., trans. E. Ray Lankester, London, Henry S. King & Co.

  (1902 [1899]), *Les énigmes de l'univers*, trans. into French by Camille Bos, Paris, Schleicher Frères.

  (1920 [1892]), *Monisme, profession de foi d'un naturaliste*, trans. into French by Vacher de Lapouge, Paris, Schleicher Frères.
- **Hale, Nathan G., Jr** (1971), *Freud and America, vol. 1 : Freud and the Americans. The Beginnings of Psychoanalysis in the United States*, 1876-1917, New York, Oxford University Press.

(ed.) (1971), *James Jackson Putnam and Psychoanalysis. Letters between Putnam and Sigmund Freud, Ernest Jones, William James, Sandor Ferenczi*, and Morton Prince, 1877-1917, Cambridge, MA,- Harvard University Press.
(1999), 'Freud's critics : a critical review', Partisan Review, 66, 235-54.
- **Hall, Stanley** (1909), 'Evolution and psychology', in *Fifty Years of Darwinism. Modem Aspects of Evolution. Centennial Addresses in Honor of Charles Darwin before the AAAS*, New York, Henry Holt, 251-67.
(1923), *Life and Confessions of a Psychologist*, New York, D. Appleton & Co.
- **Hamburger, Kate** (1973 [1957]), *The Logic of Literature*, trans. Marilynn J. Rose, Bloomington, Indiana University Press.
- **Hart, Bernard** (1929), *Psychopathology. Its Development and Its Place in Medicine*, Cambridge, Cambridge University Press.
- **Hemecker, Wilhelm** (1987), 'Sigmund Freud und die Herbartianische Psychologie des 19. Jahrhunderts', *Conceptus*, 21, 217-31.
- **Henry, Michel** (1993), *The Genealogy of Psychoanalysis*, trans. Douglas Brick, Stanford, CA, Stanford University Press.
- **Herman, G.** (1903), 'Genesis'. *Das Gesetz der Zeugung*, vol. 5 : Libido und Manie, Leipzig, Arwed Strauch.
- **Hesnard, Angelo** (1925), review of Maurice Blondel, *La psychanalyse, L'évolution psychiatrique*, I, no. 1, 277-8.
- **Hildebrandt, F. W.** (1881), Der Traum und seine Verwertung für's Leben. *Eine psychologische Studie, Leipzig*, Feodor Reinboth (2nd edn).
- Hirschfeld, Magnus (1899), 'Die objektive Diagnose der Homosexualitat', Jahrbuch für sexuelle Zwischenstufen, I, 4-35.
- **Hirschmüller, Albrecht** (1989), *The Life and Work of Josef Breuer. Physiology and Psychoanalysis,* New York, International Universities Press.
(1998), *'Max Eitingon über Anna O.'*, *Jahrbuch der Psychoanalyse*, 40, 9-13.
- **Hitschmann, Eduard** (1911), Freuds Neurosenlehre, Leipzig and Vienna, Deuticke.
- **Hobbes, Thomas** (1968 [1651]), Leviathan, ed. C. M. Macpherson, Harmondsworth, Penguin.
- **Hoche, Alfred** (1908), 'Vereinsbericht, Sammlung südwestdeutscher lrrenärzte in Tübigen am 3 und 4 November 1906', *Zentralblatt für Nervenheilkunde und Psychiatrie*, 31, 184-5.
(1910), *'Eine psychische Epidemie unter Aerzten'*, Medizinische Klinik, 6, no. 26, 1007-10.

(1913), 'Ueber den Wert der "*Psychoanalyse*"', Archiv für Psychiatrie, SI, no. 3, 1054-79.
- **Hollingworth, H. L.** (1930), Abnormal Psychology, *Its Concepts and Theories*, New York, The Ronald Press Company.
- **Hamburger, Paul** (1954), 'Letter to the Editor re : Bertha Pappenheim', *Aufbau*, 20, 7 June, 20.
- **Huxley, Aldous** (1925), 'Our contemporary hocus-pocus', *The Forum*, 313-20.

(1926), *Lectures and Lay Sermons*, New York, E. P. Dutton.
- Israëls, Han (1992), 'Freuds Phantasien über Leonardo da Vinci', *LuziferAmor,Zeitschrift zur Geschichte der Psychoanalyse*, 10, 8-41.

(1999 [1993]), *Der Fall Freud. Die Geburt der Psychoanalyse aus der Lüge*, trans. from Dutch by Gerd Busse, Hamburg, Europaische Verlaganstalt/Rotbuch V erlag.

(2006 [1999]), Der Wiener Quacksalber. Kritische Betrachtungen über Sigmund Freud und die Psychoanalyse, trans. from Dutch by Gerd Busse, Verlag Dr. Bussert & Stadeler, Jena-Quedlinburg.
- **Israëls, Han and Schatzman, Morton** (1993), 'The seduction theory', *History of Psychiatry*, 4, 23-59.
- **Isserlin, Max** (1907), 'Ueber Jung's "Psychologie der Dementia Praecox" und die Anwendung Freud'scher Forschungsmaximen in der Psychopathologie', *Centralblat für Nervenheilkunde und Psychiatrie*, 29, 330-43·
- **Jacobsen, Paul B. and Steele, Robert S.** (1979), 'From present to past : Freudian archeology', *International Review of Psychoanalysis*, 6, no. 3, 349-62.
- **James, William** (1890), *The Principles of Psychology,* 2 vols., New York, Henry Holt and Company.

(1892), *Text-Book of Psychology*, London, Macmillan.

(1920), *The Letters of William James*, 2 vols., ed. Henry James, Boston, Altlantic Monthly Press.

(1929), The Varieties of Religious Experience. *A Study in Human Nature*, London, Longmans, Green and Co. (37th edn).

(1999), *The Correspondence of William James*, vol. 7, 189o-I894, ed. I. K. Skrupskelis andE. M. Berkeley, Charlottesville, University of Virginia Press.
- **Janet, Pierre** (1894), L'état mental des hystériques, vol. 2, Les accidents mentaux, Paris, Rueff.

(1898), *Névroses et idées fixes*, 2 vols., Paris, Alcan.

(1903), *Les obsessions et la psychasthénie*, 2 vols. (vol. 2 in collaboration with Fulgence Raymond), Paris, Alcan.
(1908), Discussion, *Compte-rendu des travaux du ler Congrès international de neurologie, de psychologie et de l'assistance des aliénés, du 2 au 7 Septembre 1907*, ed. G. Van Wayenburg, Amsterdam, J. H. de Bussy, 301-2.
(1913), 'Psycho-analysis', XVIIth *International Congress of Medicine*, London , Section xu, Psychiatry 1, 1-52.
(1919), *Les médications psychologiques*, 3 vols., Paris, Alcan.
(1925), *Psychological Healing*, 2 vols., trans. E. and C. Paul, London, George Allen and Unwin.
- **Jaspers, Karl** (1973 [1913]), *Allgemeine Psychopathologie*, Berlin, Springer.
- **Jastrow, Joseph** (1932), *The House That Freud Built*, New York, Greenberg.
- **Jauss, Hans Robert** (1970), *Literaturgeschichte als Provokation*, Frankfurt am Main, Suhrkamp.
- **Jones, Ernest** (1913), *Papers on Psycho-Analysis*, London, Baillière, T indall and Cox.
(1918), 'Wh y is the "unconscious" unconscious?', *British Journal of Psychology*, 9, 247-56.
(1953), *The Life and Work of Sigmund Freud*, vol. 1, New York, Basic Books.
(1955), *The Life and Work of Sigmund Freud*, vol. 2, New York, Basic Books.
(1956), *'Eulogy', in Sigmund Freud. Four Centenary Addresses*, New York, Basic Books, 1 17-50.
(1957), *The Life and Work of Sigmund Freud*, vol. 3, New York, Basic Books.
- **Jung, Carl Gustav** (1905), *'Psychoanalysis and associations experiment'*, CW z , 288-317.
(1906), 'Freud's theory of hysteria : a reply to Aschaffenburg's criticism', in *The Collected Works of C. G. Jung* (hereafter, CW), vol. 4, ed. Gerhard Adler, Michael Fordham and Herbert Read; William Mcguire, executive editor; trans. R. F. C. Hull; Bollingen Series, New York and Princeton, NJ, and London, 1953-83, 3-9.
(1906-9), *Diagnostische Assoziationsstudien*, 2 vols., Leipzig, J. A. Barth.
(1907), 'On the psychology of dementia praecox', CW 3, 1-152.
(1908a), 'The Freudian theory ofhysteria', CW 4, ro-24.

(1908b), presentation, *Compte-rendu des travaux du Ier Congrès international de neurologie, de psychologie et de l'assistance des aliénés*, du 2 au 7 Septembre 1907, ed. G. Van Wayenburg, Amsterdam, J. H. de Bussy, 272-84.
(1909), review of August Farel, *Ethische und rechtliche Konflikte im Sexualleben in- und ausserhalb der Ehe*, CW r8, 387.
(1912a), '*Zur Psychoanalyse*', *Wissen und Leben*, 5, 711-14.
(1912b), '*The theory of psychoanalysis*', CW 4, 83-226.
(1925), *Analytical Psychology*. Notes of the Seminar Given in 1925, ed. William Mcguire, Bollingen Series, Princeton, NJ, Princeton University Press, 1989.
(1956), *Mysterium Coniunctionis*, CW 14.
(1973), C. G. *Jung Letters* 1 : 1906-I950, ed. Gerhard Adler in collaboration with Aniela Jaffé, trans. R. F. C. Hull, Bollingen Series, Princeton, NJ, Princeton University Press.
(1975), C. G. *Jung Letters* 2 : 1951-1961, ed. Gerhard Adler in collaboration with Aniela Jaffé, trans. R. F. C. Hull, Bollingen Series, Princeton, NJ, Princeton University Press.
- **Jung, Carl Gustav and Jaffé, Aniela** (1962), *Memories, Dreams, Reflections*, New York, Pantheon.
- **Kant, Immanuel** (1996 [1787]), *Critique of Pure Reason*. Unified Ed. trans. Werner Pluhar, introd. Patricia Kitcher, Indianapolis, IN, Hacketr.
(1985 [1786]), *Metaphysical Foundations of Natural Science, in Kant's Philosophy of Material Nature*, ed. James Ellington, trans. Paul Carus, Indianapolis, ID, Hackett.
- **Kanzer, Mark** (1952), 'The transference neurosis of the Rat Man', *Psychoanalytic Quarterly*, 21, 181-9.
- **Kern, Stephen** (1975), 'The prehistory of Freud's dream theory : Freud's masterpiece anticipated', *Medical History*, 6, no. 3-4, 83-92.
- **Kiell, Norman** (1988), *Freud without f!indsight . Reviews of His Work* (1893-1939), Madison, CT, International Universities Press.
- **Kiernan, James G.** (1888), 'Sexual perversion, and the Whitechapel murders', *Medical Standard*, 4, 129-30 and 170-2.
- **King, A.F.A.** (1891), 'Hysteria', *American Journal of Obstetrics and Diseases of Women and Children*, 24, no. 5, 513-32.
- **Kirschner, Douglas** (2000), *Unfree Associations. Imide Psychoanalytic Institutes*, London, Process Press.
- **Kohler, RobertE.** (1994), *Lords of the Fly. Drosophila Genetics and the Experimental Life, Chicago*, IL, University of Chicago Press.

- **Kohnstamm, O.** (1913), In tervention in Bericht über die Jahresversammlung des Deutschen V ereins für Psychiatrie zu Breslau am 13 und 14 Mai 1913, Allgemeine Zeitschriftfür Psychiatrie, 70, 789-93.
- **Kraepelin, Emil** (1913a), Psychiatrie. *Ein Lehrbuch für Studierende und Arzte, III. Band, Klinische Psychiatrie , II. Teil, Leipzig,* J. A. Barth.
(1913b), intervention in Bericht *über die Jahresversammlung des Deutschen Vereins für Psychiap-ie zu Breslau am* 13 *und* 14 *Mai 1913, Allgemeine Zeitschriftfür.Psychiatrie*, 70, 787.
- **Krafft-Eb ing, Richard von** (1894), Psychopathia sexualis, mit besonderer Berücksichtigung der contrdren Sexualempfindung. Eine klinischforensische Studie, Stuttgart, Ferdinand Enke (9th edn).
(1895), 'Zur Erklarung der contraren Sexualempfi.ndung', Jahrbücher für Psychiatrie und Nervenheilkunde, 13, n°. 1, 98-112.
- **Kris, Ernst** (194 7), 'The nature of psychoanalytic propositions and the ir validation', in Sidney Hook and Milton R. Konvitz (eds.), *Freedom and Experience. Esays in Honour of Horace Kallen*, Ithaca, NY, Cornell University Press, 239-59.
- **Kronfeld, Arthur** (1912), '*Ueber die psychologischen Theorien Freuds und verwandte Anschauungen. Systematik und kritische Eréirtung', Archiv für die Gesamte Psychologie*, 22, 13o-248.
- **Kuhn, Philip** (1999), 'A Professor through the looking-glass : contending narratives of Freud's relationship with the sister Berna ys', *International Journal of Psychoanalysis*, 80, 943-959.
- **Kuhn, Thomas** (1970), *The Copernican Revolution*, Cambridge, MA, Harvard University Press.
- **Lacan, Jacques** (1953), 'Le mythe individuel du névrosé ou "*Poésie et Vérité*" dans la névrose', Paris, Centre de Documentation Universitaire.
(1981 [1973]), *The Four Fundamental Concepts of Psycho-Analysis*, ed. Jacques-Alain Miller, trans. Alan Sheridan, New York and London, Norton.
(1988 [1975]), *Freud's Papers on Technique*, 1953-1954, ed. JacquesAlain Miller, trans. John Forrester, New York, Norton.
(2005 [1966]), *Écrits*, trans. Bruce Fink, New York, and London, Norton.
- **Laplanche, Jean and Pontalis, Jean-Bertrand** (1973), T*he Language of Psycho-Analysis*, trans. Donald Nicholson-Smith, New York, Norton.
- **Latour, Bruno** (1987), *Science in Actiort. How to Follow Scientists and Engineers through Society, Cambridge*, MA, Harvard University Press.
(1996), *Petite réflexion sur le culte moderne des dieux faitiches*, Paris Synthélabo.

- **Latour, Bruno and Woolgar, Steve** (1979), *Laboratory Life . The Social Construction of Scientific Facts*, introd. Jonas Salk, Beverley Hills, Sage Publications.
- **Lawrence, O. H.** (1986 [1923]), *Fantasia of the Unconscious & Psychoanalysis and the Unconscious*, Harmondsworth, Penguin.
- **Lerch, Eugen** (1930), *Hauptprobleme der franzosischen Sprache*, Braunschweig, G. Westermann.
- **Lévi-Strauss, Claude** (1973), 'Introduction à l'oeuvre de Marcel Mauss' in Marcel Mauss, *Sociologie et anthropologie*, Paris, Presses Universitaires de France, ix-Iii.
- **Lieberman, James E.** (1985), *Acts of Will. The Life and Work of Otto Rank*, New York, The Free Press.
- **Liebscher, Martin and Nicholls, Angus** (eds.) (2010), *Thinking the Unconscious. Nineteenth-Century German Thought*, Cambridge, Cambridge University Press.
- **Lips, Marguerite** (1926), *Le style indirect libre*, Paris, Payot.
- **Loch, Wolfgang** (1977), '*Sorne comments on the subject ofpsychoanalysis and truth*', in Joseph H. Smith (ed.), Thought, Consciousness and Reality, New Haven, CT, Yale University Press.
- **Lothane, Zvi** (1989), '*Schreber, Freud, Flechsig, and Weber revisited : an inquiry into methods of interpretation*', *Psychoanalytic Review*, 76, no. 2, 203-62.
- **Lowenfeld, Leopold** (1899), *Sexualleben und Nervenleiden . Die Nervose Stürungen sexuellen Ursprungs, Wiesbaden*, J.F. Bergmann (2nd edn).
(1904), *Die psychischen Zwangserscheinungen, Wiesbaden*, J. F. Bergmann.
- **Ludwig, Emil** (1946 [1947]), *Doctor Freud. An Analysis and a Warning*, New York, Hellman, Williams.
- **Luhmann, Niklas** (1979), *Trust and Power, New York*, John Wiley and Sons.
- **Lydston, Frank G.** (1889), '*Sexual perversion, satyriasis and nymphomania*', *Medical and Surgical Reporter*, 61, 253-8 and 281-5.
- **Lynn, David J.** (1993), '*Freud's analysis of A.B., a psychotic man, 1925-1930*', *Journalof the AmericanAcademy of Psychoanalysis*, 21, 1, 63-78.
- **Lynn, O. and Vaillant, G.** (1998), '*Anonymity, neutrality and confidentiality in the actual methods of Freud*', *American Journal of Psychiatry*, 155, 163-71.
- **MacCurdy, John Thompson** (1923), *Problems in Dynamic Psychology. A Critique of Psychoanalysis and Suggested Formulations*, New York, Macmillan.

- **Mach, Ernst** (1976), *Knowledge and Error. Sketches on the Psychology of Enquiry*, ed. Brian McGuinness, trans. Thomas J. Mc Cormack and Paul Foulkes, Dordrecht and Boston, O. Reidel.
- **Maciejewski, Franz** (2006), 'Freud, his wife, and his "wife'", *American Imago*, 63, 497-506.
- **MacIntyre, Alasdair** (1958), *The Unconscious. A Conceptual Analysis*, London, Routledge & Kegan Paul.

(1976), *'Psychoanalysis : the future of an illusion', in Against the Self-Images of the Age*, London, Duckworth, 27-37.

(1997), *Freud Evaluated. The Completed Arc*, Cambridge, MA, MIT Press (2nd, revised edn).
- **Mahony, Patrick** (1986), *Freud and the Rat Man*, New Haven and London, Yale University Press.

(1992a), 'Freud as family therapist : reflections', in Toby Gelfand and - John Kerr (eds.), *Freud and the History of Psychoanalysis*, Hillsdale, NJ, Analytic Press, 307-17·

(1992b), 'A psychoanalytic translation of Freud', in Darius G. Omston (ed.), *Translating Freud*, New Haven and London, Yale University Press, 24-4 7.

(1996), *Freud's Dora. A Psychoanalytic, Historical, and Textual Study*, New Haven and London, Yale University Press.
- **Major, René** (1999), *Au commencement. La vie la mort*, Paris, Galilée.
- **Makari, George J.** (1997), 'Towards defining the Freudian unconscious : seduction, sexology and the negative of perversion (1896-1905)', *History of Psychiatry*, 8, no. 32, 459-86.

(1998a), 'Between seduction and libido : Sigmund Freud's masturbation hypotheses and the realignment of his etiologie thinking, 1897-1905', *Bulletin dt the History of Medicine*, 72, 638-62.

(1998b), 'Dora's hysteria and the maturation of Sigmund Freud's transference theory : a new historical interpretation', *Journal of the American Psychoanalytic Association*, 45, no. 4, 1061-96.

(2008), *Revolution in Mind. The Creation of Psychoanalysis*, New York HarperCollins.
- **Malcolm, Janet** (1984), *In the Freud Archives*, New York, Knopf.
- **Marcinowski, Jaroslav** (1900), 'Selbstbeobachtungen in der Hypnose', *Zeischrift für Hypnotismus*, 9, s-46.
- **Marmor, Judd** (196z), 'Psychoanalytic therapy as an educational process', in Jules Masserman (ed.), *Psychoanalytic Education*, New York, Grune and Stratton, vol 5, 286-99.

- **Massey, Irving** (1990) 'Freud be fore Freud : K. A. Scherner (1825-1889)', *Centenial Review*, 34, no. 4, 567-76.
- **Masson, Jeffrey Moussaïeff** (1992), The As sault on Truth. *Freud's Suppression of the Seduction Theory*, New York, HarperCollins (3rd edn).
- **Maury, Alfred** (1861), *Le sommeil et les rêves. Etudes psychologiques sur ces phénomènes*, Paris, Didier.
- **Mayer, Andreas** (2001), 'L'hypnotisme introspectif et l'auto-analyse de Freud. Les procédés d'auto-observation dans la pratique clinique', *Revue d'histoire des sciences humaines*, 5, 171-96.
- **McDougall, William** (1936), *Psycho-Analysis and Social Psychology*, London, Methuen.
- **McGrath, William** (1967), 'Student radicalism in Vienna', *Journal of Contemporary History*, 2, 183-201.
- **Merton, Robert K.** (1976), 'The ambivalence of scientists', Sociological Ambivalence and Other Essays, New York, Free Press.
- **Meyer, Catherine** (ed.) (2005), with Mikkel Borch-Jacobsen, Jean Cottraux, Didier Pleux and Jacques Van Rillaer, *Le livre noir de la psychanalyse. Vivre, penser et aller mieux sans Freud,* Paris, Les Arènes.
- **Micale, Mark S.** (1990), 'Charcot and the idea of hysteria in the male : gender, mental science, and medical diagnosis in late nineteenthcentury France', *Medical History*, 34, 4, 363-411.

  (2008), *Hysterical Men.* The Hidden History of Male Nervous Illness, Cambridge, MA, Harvard University Press.
- **Mijolla, Alain de** (1993), 'Freud, la biographie, son autobiographie et ses biographes', *Revue internationale d'histoire de la psychanalyse*, 81-108.
- **Mink, Louis O.** (1965), 'The autonomy of historical understanding', *History and Theory*, 5, no. 1,24-47·
- **Moll, Albert** (1913 [1909]), *The Sexual Life of the Child*, trans. Eden Paul, New York, Macmillan.

  (1936), *Ein Leben als Arzt der Seele.* Erinnerungen, Dresden, Carl Reissner.
- **Murchison, Carl** (ed.) (1961- [1930-]), *A History of Psychology in Autobiography*, 5 vols., London, Russell & Russell.
- **Muthmann, Arthur** (1907), *Zur Psychologie und Therapie neurotischer Symptome . Eine Studie auf Grund der Neurosenlehre Freuds*, Halle a/S, Carl Marhold Verlag.
- **Nietzsche, Friedrich** (1895-1904), *Nietzsches Werke*, 11 vols., Leipzig, C. G. Naumann.

- **Nunberg, Herman and Federn, Ernst** (eds.) (1962), *Minutes of the Vienna Psychoanalytic Society*, vol 1 : 1906-1908, trans. M. Nunberg, New York, International Universities Press.
(1967), *Minutes of the Vienna Psychoanalytic Society*, vol 2 : 1908- 1910, trans. M. Nunberg, New York, International Universities Press.
(1974), *Minutes of the Vienna Psychoanalytic Society*, vol 3= 1910-1911, trans. M. Nunberg, New York, International Universities Press.
(1977), *Protokolle der Wiener Psychoanalytischen Vereinigung*, vol 2 : 1908-1910, Frankfurt am Main, S. Fischer Verlag.
- **Obholzer, Karin** (1982), *The WolfMan. Conversations with Freud's Patient - Sixty Years Later*, trans. Michael Shaw, New York, Continuum.
- **Ohayon, Annick** (1999), L'impossible rencontre. Psychologie et psychanalyse en France 1919-1969, Paris, La Découverte.
- **Onfray, Michel** 2010), *Le crépuscule d'une idole. L'affabulation freudienne*, Paris, Grasset.
- **Pascal, Roy** (1977), *The Dual Voiêe . Pree Indirect Speech and Its Functionning in the Nineteenth-Century European Novel*, Manchester, Manchester University Press.
- **Pickering, Andrew** (1995), *The Mangle of Practice. Time, Agency, and Science, Chicago*, IL, and London, University of Chicago Press.
- **Popper, Karl** (1963), *Conjectures and Refutations. The Growth of Scientific Knowledge*, London, Routledge and Kegan Paul.
- **Popper [Lynkeus], Josef** (1899), *Phantasien eines Realisten*, 2 vols., Dresden and Leipzig, Carl Reissner.
- **Porter, Roy** (1986), 'The scientific revolution : a spoke in the wheel?', in Roy Porter and Mikulas Teich (eds.), *Revolution in History*, Cambridge, Cambridge University Press, 290-316.
- **Prince, Morton** (1911), 'The mechanism and interpretation of dreams : a reply to Dr. Jones', *Journal of Abnormal Psychology*, 5, 337-53.
(1929), *Clinical and Experimental Studies in Personality*, Cambridge, Sei-Art.
- **Puner, Helen Walker** (1947), *Freud. His Life and his Mind. A Biography*, New York, Howell, Soskin.
- **Putnam, James Jackson** (1906), 'Recent experiences in the study and treatment ofhysteria at Massachusetts General Hospital', *Journal of Abnormal Psychology*, 1, 26-41.
(1911), '*What is psychoanalysis*?' Putnam papers, Countway Library of Medicine, Boston.
- **Rank, Otto** (1910), review of Freud's presentation on the case of the RatMan at the private psychoanalytic meeting held in Salzburg, 27 April

1908, *Zentralblatt für Psychoanalyse : Medizinische Monatschrift für Seelenkunde*, 1, 125-6.

(1996), *A Psychology of Difference. The American Lectures*, ed. Robert Kramer, Princeton, NJ, Princeton University Press.

- **Ricœur, Jean-Paul** (1970), *Freud and Philosophy. An Essay on Interpretation*, trans. Denis Savage, New Haven, CT, Yale University Press.

(1974), 'A philosophical interpretation of Freud', in *The Conjlict of Interpretations*, Evanston, IL, Northwestem University Press, 16o-76.

- (1981), 'The question of proof in Freud's psychoanalytic writings', in *Hermeneutics and the Human Sciences. Essays on Language, Action, and Interpretation*, Cambridge, Cambridge University Press, 24 7-73.

- **Rieger, Konrad** (1896), 'Über die Behandlung "Nervenkranker"', *Schmidt's Jahrbücher der in- und ausländischen gesammten Medicin*, 251, 193-8, 273-6.

- **Ritva, Lucille B.** (1990), *Darwin's Influence on Freud.* A Tale of Two Sciences, New Haven, CT, Yale University Press.

- **Roazen, Paul** (1969), *Brother Animal. The Story of Freud and Tausk*, New York, New York University.. Press.

(1 975), *Freud and his Followers*, New York, Knopf.

(1985), *Helene Deutsch. A Psychoanalyst's Life*, New York, Anchor Press.

(1990), *Encountering Freud. The Politics and Histories of Psychoanalysis*, New Brunswick, NJ, Transaction.

- **Rose, Steven** (1993), *The Making of Memory*, New York, Anchor Books.

- **Rosenzweig, Saul** (1986), *Freud and Experimental Psychology. The Emergence of Idiodynamics*, St Louis, Rana House.

- **Roustang, François** (1986), *Dire Mastery. Discipleship from Freud ta Lacan*, trans. Ned Lukacher, Washington, OC, American Psychiatrie Press.

- **Sachs, Heinrich** (1893), *Vorträge über Bau und Tätigkeit des Grobhims und die Lehre von der Aphasie und Seelenblindheit*, Breslau.

- **Sand, Rosemarie** (1992), 'Pre-Freudian discovery of dream meaning : the achievements of Charcot, Janet, and *Krafft-Ebing*', in Toby Gelfand and John Kerr (eds.), *Freud and the History of Psychoanalysis*, Hillsdale, NJ, Analytic Press, 215-29.

- **Satzinger, Helga** (1998), Die Geschichte der genetisch orientieren Himforschung von Cécile und Oskar Vogt in der Zeit von 1895 bis ca. 1927, Stuttgart, Deutscher Apotheker Verlag.

- **Saussure, Raymond de** (1926), 'La psychologie du rêve dans la tradition française', in René Laforgue (ed.), *Le rêve et la psychanalyse*, Paris, Maloine, 18-59.
(1957), 'Sigmund Freud', *Schweizerische Zeitschrift für Psychologie und ihre Anwendungen/Revue suisse de psychologie pure et appliquée*, 16, 136-9.
- **Schafer, Roy** (1980), 'Narration in the Psychoanalytic Dialogue', *Critical Inquiry*, 7, n°. 1, 29-53.
- **Schamberg, Max** (1993), *The Non-Authentic Nature of Freud's Observations*, 2 vols., Acta Universitatis Upsaliensis, Uppsala, Studies in Education.
- **Schemer, Karl Albert** (1861), *Das Leben des Traums*, Berlin, Heinrich Schindler.
- **Schimek, Jean G.** (1987), 'Fact and fantasy in the seduction theory : a historical review', *Journal of the American Psychoanalytic Association*, 35, 937-65.
- **Schreber, Daniel Paul** (1955 [1903]), *Memoirs of My Nervous Illness*, ed. and trans. Ida Macalpine and Richard A. Hunt, London, W. Dawson.
- **Schroter, Michael and Hermanns, Ludger M.** (1992), 'Felix Gattel (1870-1904) : Freud's first pupil. Part 1', *International Review of Psychoanalysis*, 19, 91-104.
- **Schur, Max** (1966), 'Sorne additional "day residues" of the specimen dream of psychoanalysis', in Rudolp M. Lëiwenstein, Lottie M. Newman, Max Schur and Albert J. Solnit (eds.), *Psychoanalysis, a General Psychology. Essays in Honor of Heinz Hartmann*, New York, lntenational Universities Press, 45-85.
(1972), *Freud, Living and Dying, London*, Hogarth Press.
- **Schwartz, Joseph** (1999), *Cassandra's Daughter. A His tory of Psychoanalysis in Europe and America*, London, Allen Lane.
- **Shakow, David and Rapaport, David** (1968), *The Influence of Freud on American Psychology*, Cleveland, OH, Meridian Books.
- **Shamdasani, Sonu** (1995), 'Memories, dreams, omissons', Spring : *A Journal of Archetype and Culture*, 57, 115-37·
(1997), '"Should this remain?" Anna Freud's misgivings concemingthe Freud-Jung letters', in Patrick Mahony, Carlo Bonomi and Jan Stensson (eds.), *Behind the Scenes. Freud in Correspondence, Oslo*, Scandinavian University Press, ·357-68.
(1998), *Cult Fictions. C. G. Jung and the Founding of Analytical Psychology*, London, Routledge.
(2002), 'Psychoanalysis, lnc.', *Semiotic Review of Books*, 13, no. 1, 6-11.

(2003a), *Jung and the Making of Modem History. The Dream of a Science*, Cambridge, Cambridge University Press.
(2003b), 'Psychoanalysis in the mirror ofliterature', in *Richard Strauss' Elektra*, London, Royal Opera House, 48-52.
(2004), 'Psychologies as ontology-making practices : William James and the pluralities of psychological experience', in Jeremy Carette (ed.), *William James and the Varieties of Religious Experience*, London, Routledge, 27-46.
(2005a), *Jung Stripped Bare by His Biographers*, Even, London and New York, Kamac Books.
(2005b), 'Psychotherapy : the invention of a word', *History of the Human Sciences*, 18, 1-22. ..
(2006), 'Auguste Forel', in W. F. and Helen Bynum (eds.), *Dictionary of Medical Biography*, vol. 2., *Westport*, CT, *Greenwood Press*, 508-9.
- **Shapin, Steven** (1984), 'Pump and circumstances : *Robert Boyle's literary theory', Social Studies of Science*, 14, 481-520.
(1994), A Social History of Truth. *Civility and Science in Seventeenth Century England*, Chicago, IL, University of Chicago Press.
- **Shapin, Steven and Schaffer, Simon** (1986), *Leviathan and the Air-Pump.Hobbes, Boyle and the Poli tics of Experiment*, Princeton, NJ, Princeton University Press.
- **Sherwood, Michael** (1969), *The Logic of Explanation in Psychoanalysis*, New York, Academie Press.
- **Skues, Richard A.** (1998), 'The first casualty : the war over psychoanalysis and the poverty of historiography', *History of Psychiatry*, 9, n°.2, 151-77·
(2001), 'On the dating of Freud's Aliquis slip', Intemational]oumal of Psychoanalysis, 86, no. 6, II85-204.
(2006), *Sigmund Freud and the History of Anna O. Reopening a Closed Case*, Basingstoke and New York, Palgrave Macmillan.
- **Smith, Dinitia** (1995), '*Freud may be dead, but his critics still kick', The New York Times*, 10 December 1995.
- **Spector, Jack** (1972), *The Aesthetics of Freud. A Study in Psychoanalysis and Art*, New York, Praeger.
- **Spence, Donald P.** (1982), *Narrative Truth and Historical Truth. Meaning and Interpretation in Psychoanalysis*, New York, Norton.
- **Spielmeyer, Walther** (1905), review of Sigmund Freud, 'Fragment d'une analyse d'hystérie', *Centralblat für Nervenheilkunde und Psychiatrie*, 15 April, 322-4.
- **Spitzer, Leo** (1928), 'Zur Entstehung der sog. "erlebten Rede"', *Germanisch-Romanische Monatsschrift*, 16, 327ff.

- **Stadlen, Anthony** (1989), 'Was Dora "Ill"?', in Laurence Spurling (ed.), *Sigmund Freud. Critical Assessments*, London, Routledge, vol. 1, 196-203.
(2003), 'Just how interesting psychoanalysis really is', Arc de Cercle. *An International Journal of the History of the Mind-Sciences*, 1, n°. 1,143-75·
- **Stekel, Wilhelm** (1911), 'Festgruss an den dritten psychoanalytischen Kongress in Weimar', *Zentralblattfür Psychoanalyse*, 1, 36.
(1925), 'Zur Geschichte der analytischen Bewegung', *Fortschritte der Sexualwissenschaft und Psychoanalyse*, 2, supplement, 539-75.
(1950), *The Autobiography of Wihelm Stekel. The Life Story of a Pioneer Psychoanalyst*, ed. Emil Gutheil, New York, Liveright.
- **Stengers, Isabelle** (1992), *La volonté de faire science. À propos de la psychanalyse*, Paris, Les Empêcheurs de Penser en Rond, Synthélabo.
(2002), *L'hypnose entre magie et science*, Paris, Les Empêcheurs de Penser en Rond/Seuil.
- **Stepansky, Paul** (1993), *In Freud's Shadow. Alfred Adler in Context, Hillsdale*, NJ, Analytic Press.
- **Stem, William** (1900), 'Die psychologische Arbeit des neunzehnten Jahrhunderts, insbesondere in Deutschland', *Zeitschrift für padagogische Psychologie und Pathologie*, 2, 413-36.
(1913), in *Bericht über die Jahresversammlung des Deutschen Vereins für Psychiatrie zu Breslau am* 13. *und* 14. Mai 1913, *Allgemeine Zeitschrift für Psychiatrie*, 70, 784-6.
- **Stone, Irving** (1971), *The Passions of the Mind. A Novel of Sigmund Freud*, Garden City, NY, Doubleday.
- **Strachey, James** (1958), 'Editor's introduction', SE 12, 85-8.
(1976), 'Sigmund Freud : a sketch of his life and ideas', in Pelican Freud, vol. 5 : *The Psychopathology of Everyday Life*, Harmondsworth, Penguin, 1 1-24.
- **Stransky, Erwin** (1913), in *Bericht über die jahresversammlung* des *Deutschen Vereins für Psychiatrie zu Breslau am* 13. und 14. Mai 1913, Allgemeine Zeitschrift für Psychiatrie, 70, 786.
- **Sulloway, Frank J**. (1992a), *Freud, Biologist of the Mind. Beyond the Psychoanalytic Legend*, Cambridge, MA, Harvard University Press (2nd revised edn).
(1992b), 'Reassessing Freud's case histories : the social construction of psychoanalysis', in Toby Gelfand and John Kerr (eds.), *Freud and the History of Psychoanalysis*, Hillsdale, NJ, Analytic Press, 153-92.
- **Swales Peter J**. (1982a), *Freud, Johann Weier, and the Status of Seduction. The Role of the Witch in the Conception of Phantasy*, New York, privately published by the author.
(1982b), 'Freud, Minna Bemays, and the conquest of Rome : new lighton the origins of psychoanalysis1, *New American Review*, I, no. 2-3,1-23.

(1982c), *Freud, Fliess, and Fratricide. The Role of Fliess in Freud's* Conception of Paranoia', privately published by the au thor.

(1983), *Freud, Krafft-Ebing, and the Witches. The Role of Krafft-Ebing in Freud's Flight into Fantasy*, New York, privately published by the au thor.

(1986), 'Freud, his teacher and the birth of psychoanalysis', in Paul E. Stepansky (ed.), *Freud. Appraisals and Reappraisals*, vol. 1, Hillsdale, NJ, Analytic Press, 2-82.

(1988), 'Freud, Katharina, and the first "wild analysis" ', in Paul Stepansky (ed.), *Freud. Appraisals and Reappraisals*, vol. 3, Hillsdale, NJ, Analytic Press, 81-164.

(1989), 'Freud, cocaine, and sexual chemistry : the role of cocaine in Freud's conception of the libido', in Laurence Spurling (ed.), - *Sigmund Freud. Critical Assessments*, vol. 1, London, Routledge, 273-301.

(1991), '*Freud and the unconscionable : the obstruction of Freud studies*, 1946-21 13', lecture given at the Institute ofContemporary Arts, London.

(1994). '*Did Freud always carry an umbrella- or- did he ever take a cab?*', lecture presented at the Institute of Contemporary Arts, London.

(1995), 'Freud's Immaculate Conception : passion plays, private theater and private religions in the prehistory of psychoanalysis', lecture given to the conference 'The Psychoanalytic Century : Psyche, Soma, Gender, Word', New York University, 4-6 May.

(1996), 'Freud, his Ur-patient, and their romance of Oedipus and their descent into pre-history : the role of 'Herr E.' in the conception of psychoanalysis', lecture given to the History of Psychiatry Section, Comell Medical Center, New York Hospital, 4 December.

(2003), 'Freud, death and sexual pleasures : on the psychical mechanism of Dr. Sigmund Freud', Arc-de-Cercle. An International Joumal of the History of the Mind-Sciences, I, no. 1, 6-74.

- **Szasz, Thomas** (1989 [1963]), 'Freud as a leader', in Laurence Spurling (ed.), Sigmund Freud. Critical Assessments, vol. 4, London Routledge, 146-155·
- **Talbot, Margaret** (1998), 'The Museum show hasan ego disorder', The New York Times Magazine, II October, s6-6o.
- **Tanner, Terence A.** (2003), 'Sigmund Freud and the Zeitschrift für Hypnotismus', Arc de Cercle. An International Joumal of the History of the Mind-Sciences, 1, n°. 1, 75-142.
- **The Lancet** (1938), 11 June, 1341.
- **Thornton, E. M.** (1983), Freud and Cocaine. The Freudian Fallacy, London, Blond & Briggs.
- **Tichy, Marina, and Zwetter-Otte, Sylvia** (1999), Freud in der Presse. Rezeption Sigmunds Freuds und der Psychoanalyse in Osterreich r 895- 1938, Vienna, Sonderzahl.

- **Trilling, Lionel** (1950), The Liberal Imagination. Essays on Literature and Society, Garden City, NY, Doubleday.
- **Trosman, Harry and Wolf, Ernest S.** (1973), 'The Bernfeld collaboration in the Jones biography of Freud', *International Journal of Psychoanalysis*, 54, 227-33.
- **Veith, Ilza** (1965), Hysteria. The History of a Disease, Chicago, IL, The University of Chicago Press.
- **Veszy-Wagner, Lilla** (1966), '*Ernest Jones* (1879-1958), The Biography of Freud', in Franz Alexander, Samuel Eisenstein and Martin Grotjahn (eds.), Psychoanalytic Pioneers, New York, Basic Books.
- **Veyne, Paul** (1971), *Comment on écrit l'histoire. Essai d'épistémologie*, Paris, Seuil.
- **Vidal, Fernando** (1994a), *Piaget before Piaget*, Cambridge, MA, Harvard University Press.
- **Viderman, Serge** (1970), *La construction de l'espace analytique*, Paris, Denoël.
- **Vogel, L. Z.** (1986), '*The case of Elise Gomperz*', *American Journal of Psychoanalysis*, 46, no. 3, 230-8.
- **Vogt, Oskar** (1898), 'Zur Methodik der atiologischen Erforschung der *Hysterie*', *Zeitschrift für Hypnotismus*, 8, 65-83.

  (1899), review of 'S. Freud, "Die Sexualitat in der Aetiologie [der Neurosen]," Wiener klinische Rundschau, 12 Jahrg. 1898', *Zeitschrift für Hypnotismus*, 8, 366-7.
- **Wallerstein, Robert** (1988), 'One psychoanalysis or many?', International Journal of Psycho-Analysis, 69, 5-21.

  (1995), *The Psychoanalyses and the Psychotherapies*, New Haven, CT,Yale University Press.
- **Warda, W.** (1900), 'Ein Fall von Hysterie : dargestellt nach der kathartischen Methode von Breuer und Freud', Monatschrift für Psychiatrie und Neurologie, 7, 301-18 and 471-89.
- **Webster, Richard** (1995), Why Freud Was Wrong. Sin , Science, and Psychoanalysis, New York, Basic Books.
- **Weininger, Otto** (1903), Geschlecht und Charakter. Eine principielle Untersuchung, Vienna, Braumüller.
- **Wells, Harry K.** (1960), Pavlov and Freud , vol. 2 : Sigmund Freud. A Pavlovian Critique, New York, International Publishers.
- **Weygandt, Wilhelm** (1907), 'Kritische Bemerkungen zur Psychologie der Dementia Praecox', Monatschrift für Psychiatrie und Neurologie, 22, 289-302.

(1913), in Bericht über die Jahresversammlung des Deutschen Vereins für Psychiatrie zu Breslau am 13. und 14. Mai 1913, Allgemeine Zeitschrift für Psychiatrie, 70, 787-8.

- **Wilkinson, Ronald** (1985), Section 'History of science/ Psychoanalytic collections', Library of Congress Acquisitions, Manuscript Division, 27-31.
- **Wittels, Fritz** (1924), Sigmund Freud. His Personality, His Teaching, & His School, ed. C. Paul, London, George Allen & Unwin.
- **Wittenberger, Gerhard and Teugel, Christopher** (1999), Die Rundbriefe des 'Geheime Komitees', vol. 1 : 1913-1920, Tübingen, Edition Diskord.
- **Wittgenstein, Ludwig** (1966), *Lectures and Conversations on Aesthetics, Psychology and Religious Belief*, ed. Cyril Barrett, Oxford, Blackwell.
- **Wohlgemuth, Adolf** (1923), *A Critical Examination of Psycho-Analysis*, New York, Macmillan.

(1924), 'The refutation of psychoanalysis', *Journal of Mental Science*, July.

- **Woodworth, Robert Sessions** (1917), 'Some criticisms of the Freudian psychology', *Journal of Abnormal Psychology*, 12, 174-94.
- **Wortis, Joseph** (1954), *Fragments of an Analysis with Freud*, New York, Simon & Séhuster.
- **Wundt, Wilhelm** (1921), *Erlebtes und Erkanntes*, Stuttgart, Alfred Krëiner Verlag.
- **Wyss, Dieter** (1961), *Die tiefenpsychologischen Schulen von den Anfiingen bis zur Gegenwart, Gëittingen*, Vandenhoeck & Ruprecht.
- **Yerushalmi, Yosef Hayim** (1996), 'SérieZ. Une fantaisie archivistique', *Le Débat*, 92, 141-52.
- **Young-Bruehl, Elisabeth** (1989), *Anna Freud*, London, Macmillan.
- **Zilboorg, Gregory** (1941), *History of Medical Psychology*, New York, Norton.

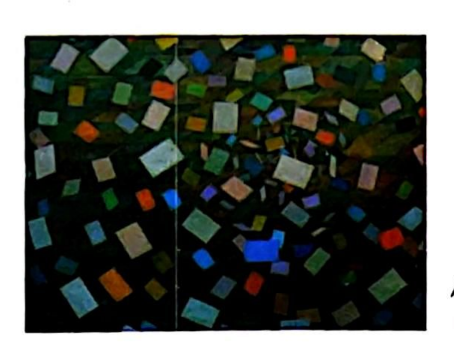
تم الطبع بمطابع أفريقيا الشرق 2017
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور، الدار البيضاء
الهاتف 04 95 25 0522 / 13 98 25 0522
الفاكس20 29 25 0522 / 80 00 44 0522
مكتب التصفيف الفني،39 زنقة علي بن أبي طالب - الدار البيضاء.
الهاتف 54 / 53 67 29 0522 الفاكس72 38 48 0522
البريد الإلكترونيafricorient@yahoo.fr E-Mail
www.afrique-orient.com
www.facebook.com/Afrique Orient

في تاريخ نشأة التحليل النفسي

مَلفات فرويد الموثقة

وإذا، فإن اليقين الحقيقي، هو أن وحدة التحليل النفسي كان يمدها الولاء المؤسساتي للأسطورة الفرويدية، على معنى الإخلاص للمفهوم الذي كان معناه أن ابتكار فرويد للتحليل النفسي، قد شكل حدثا غير مسبوق أحدث به ثورة في الفهم الإنساني، وعلى ذلك، فإن التحليل النفسي احتفظ بذاته؛ إلى الحد الذي أبقت عليه الأسطورة، إذ بدون هذه الأسطورة، فإن هويته العلمية، واختلافه الجذري عن سائر أشكال الطب النفسي كانت سوف تتهاوى. وهذا بالضبط هو ما نشهد عليه في يومنا هذا ونشاهده : ذلك أن الأسطورة جعلت تفقد قيمتها وتماسكها، وتتنسل خيوطها من جميع جوانبها، وبالرغم من تباطؤ ضروب التكتيك والأساليب الملتوية، فإن المواد الأولية قد دخلت إلى المجال العمومي... وقد جعل اللغز يعاد بناؤه شيئا فشيئا، مشكلا صوراً ولوحات مختلفة، زخرفتها ضروب الرقابة وكاتبوا السير الذاتية، وأصحاب الروايات، إلا أن هذا لا يعني أنه حصل إجماع بين المؤرخين، وإنما يعني فقط أنه تجب ملاحظة أن الآثار المجمعة لعملهم، سوف تفكك وحدة الصخرة الأسطورية، والمدافعون اليوم عن الأسطورة، يحتجون بقوة على ذلك، وفي الوقت نفسه، يفزعون إلى الأساليب القديمة، التي استخدمت كثيراً في الصراعات الفرويدية الأولى.

وإذن، فإنه توجد خطوة قريبة في البحث هي الانقضاض على فرويد وقتله كما يفعل البعض، أو استئناف حرب أخرى على فرويد. قد يكون من المحتمل فيه أن تضيف شيئا إلى الحروب الأخرى.



Alfredo de Giorgio Crimi
(1900, American)

ISBN 9954-630-43-3

